

محمد محمد قاروط
ماجستير في الدراسات الإسلامية

دار المكتبي

الطبعة الأولى

1420هـ - 2000م

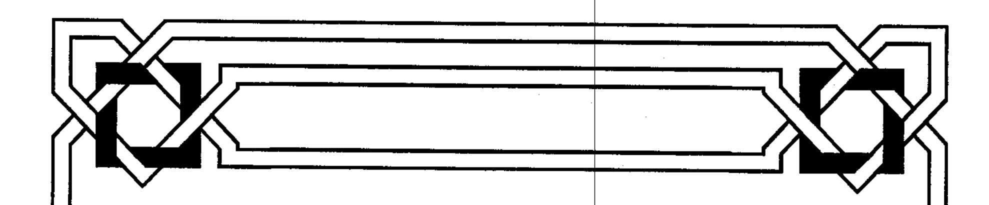


سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا

ض. ب. ٣١٤٢٦ هاتف ٢٢٤٨٤٣٣ فاكس ٢٢٤٨٤٣٢


هموم ومشكلات مسلمي البلقان
كوسوفا - مقدونيا - بلغاريا


بسم الله الرحمن الرحيم



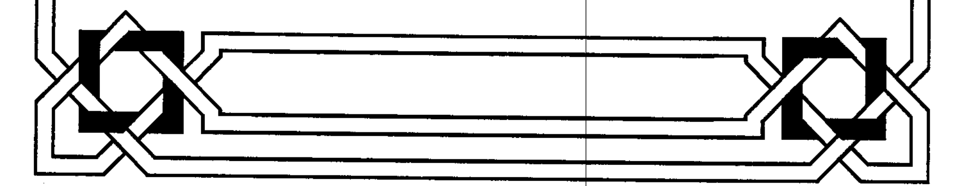
إهداء

العلْم رحب الأرجاء ، أبوابه مشرعة ،

تنادي الطامحين ، وترحب بالراغبين

في زيادة معارفهم ، وتوسيع مداركهم .

فإلى كل هؤلاء ، أهدي هذا العمل .



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي يسّر لنا سبيل المعرفة لندرك مدى الظلم والمعاناة التي قاسى منها مسلمون يعيشون أسرى لنظامٍ لم يحترم إنسانيةً ولم يعرف شفقةً أو رحمةً لمخلوق ، إنه النظام الشيوعي .

في ركنٍ من جنوب شرق أوربا عاش المسلمون في البلقان ـ برميل بارود أوروبا ـ فذاقوا الأمرّين : كرهٌ وتعصّبٌ قوميٌّ وديني ، وكأنّ إسلامهم جريمة ، يجب معاقبتهم عليها .

قال تعالى : ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٢] .

إنّ صفحات كتابي تتابع ما بدأته بالتعرّف على أحوال مسلمي البلقان وهو الكتاب الثالث ، حيث كان الأول بعنوان : « المسلمون في يوغسلافيا » والثاني : « نزاعات البلقان والتطهير العرقي من الدانوب إلى الأدرياتيكي » . وفي هذا الكتاب سأكْمل البحث عن المسلمين في كوسوفا ومقدونيا ثم بلغاريا ، في بحوث ثلاثة :

البحث الأول : عن المنطقة التي اشتعلت فيها حرب شرسة بدءاً من أوائل عام ١٩٩٨م وهي « إقليم كوسوفا » الذي تجري فيه أحداثٌ مؤلمة من تدمير وتهجير وقتل واغتصاب ، وكأنَّ الصرب أبطال مسلسل جرائم

البوسنة أرادوا متابعة جرائمهم في مسلمي كوسوفا ؛ وسيكون البحث ملمّاً بكل ما يتعلّق بهذه المنطقة ، منذ قدوم سكانها الأوائل ، والتطورات التي حصلت منذ موقعة كوسوفا التاريخية قبل ستة قرون وإلى أيامنا هذه في عام ١٩٩٩م ، تاريخيّاً وجغرافياً واجتماعيّاً ـ وهو ما أتّبعه في كل أبحاث الكتاب ـ .

البحث الثاني : نتعرّف فيه على إحدى جمهوريّات يوغسلافيا السابقة : « مقدونيا » الناجي الوحيد من اعتداءات الصرب القذرة ، وإن كانت مرشّحة لاضطرابات عرقية ، وابتلاع مابقي من أرضها الأصلية من قِبَلِ جيرانها اللدودين : صربيا وبلغاريا واليونان ، ثم يُطْلِعنا البحث عن مملكة ذي القرنين وعن جمهورية مقدونيا الحديثة .

البحث الثالث والأخير : يحدّثنا عن دولة بلقانيةٍ أخرى كان لأحداثها في أواخر السبعينيات والثمانينيات دويٌّ كبيرٌ تناقلته وسائل الإعلام المختلفة موضّحاً ماأصاب الأقليات الإسلامية فيها من اضطهاد وتنصير وتغيير للأسماء الإسلامية والعادات ، في مشروعٍ ابتكرته الإدارة الشيوعية في بلغاريا باسم « البلغرة » .

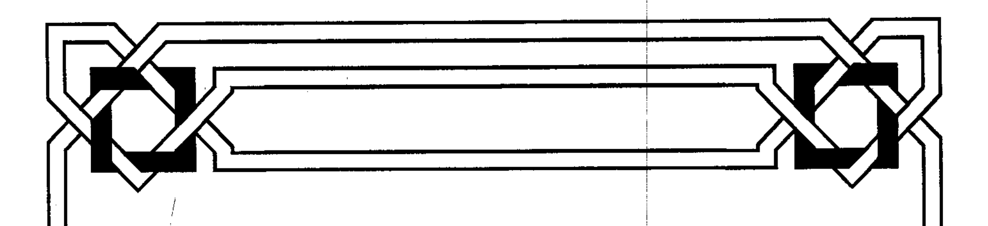
سنعرف في بحث بلغاريا كيف نشأت الدولة في القرون الوسطى ومن أين جاء سكّانها وكيف اختلطوا مع غيرهم وشكّلوا الدولة البلغارية القديمة ثم الحديثة مروراً بالفتح الإسلامي العثماني ، وما طرأ بعد زوال الحكم العثماني عنها ، وانتقالها من مملكةٍ إلى جمهورية ، وكلَّ الأحداث التي أصابت أقلّياتها الإسلامية حتى انهارت الشيوعية وتغيّرت الحكومة وبدّلت زِيَّها! فهل ينعم المسلم في بلغاريا بالطمأنينة والحرية في عقيدته وفكره؟ سنرى. . وإنّ غداً لناظره قريب .

ختاماً أسأل المولى القادر أن أكون قد أضفت معلومات جديدة ونقاطاً

مضيئة ، وكشفتُ ما غاب عنّا من حال إخوتنا في البلقان « بركان أوربا » وعذراً من القارىء العزيز إن كنت قد أقصرت أو أطلت ، وأرجوه تعالى أن يُجنِّبنا العَثَرات في كل ما نعمل ، والله نعم المولى ونعم النصير .

* * *

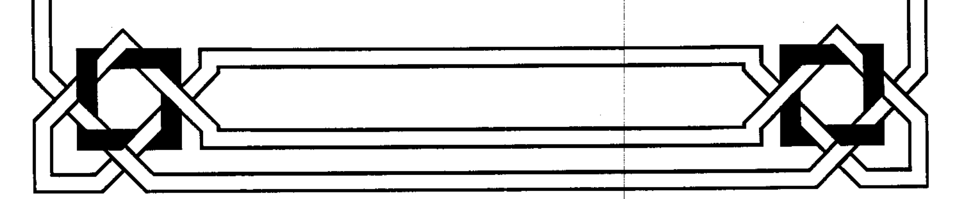




البحث الأول

كوسوفا

بين الألم والأمل




منطقة البلقان
١:١٠٠٠٠٠٠٠
ROMÂNIA
رومانيا
بخارست
المجر
زغرب
SLOVENIJA
لوبليانا
كرواتيا
HRVATSKA
البوسنة والهرسك
BOSNA I
HERCEGOVINA
سراييفو
بلغراد
صربيا
يوغسلافيا
JUGOSLAVIJA
نهر الدانوب
بلغاريا
BĂLGARIJA
صوفيا
البحر الأسود
الجبل الأسود
تيتو غراد
كوسوفا
سكوبيا
مقدونيا
تيرانا
SHQIPËRIA
ألبانيا
إسطنبول
بحر مرمرة
بحر إيجة
TÜRKİYE
تركيا
MER ADRIATIQUE
البحر الأدرياتيكي
ABRUZZO
إيطاليا
PUGLIA
CAMPANIA
BASILICATA
CALABRIA
ELLAS-ΕΛΛΑΣ
اليونان
THESSALIA
IPEIROS
IONIOI
STEREA ELLADA
DYTIKI ELLADA
أثينا
ATTIKI
PELOPONNISOS
NOTIO AIGAIO
MER EGÉE
VOREIO AIGAIO
ANATOLIKI MAKEDONIA KAI THRAKI
KENTRIKI MAKEDONIA
MER IONIENNE
صقلية
البحر الأبيض المتوسط

البلقان
بركان أوربا

تمهيد :

البلقان منطقة من أكثر مناطق العالم اضطراباً واختلافاً ، فمنذ القرون القديمة حـروب متوالية ، وانتفاضات متعاقبة ، وثورات لا تكاد تنقطع . كل ذلك حدث ومازال يحـدث في البلقان ـ برميل البارود في أوروبا ـ .

الموقع :

البلقان شبه جزيرة في الجنوب الشرقي من قارة أوربا ، وتمتد حدودها من نهر الدانوب في الشمال إلى البحر الأدرياتيكي في الجنوب ، كما تطلّ دول البلقان على البحر الأسود وبحر إيجة والبحر الأبيض المتوسط .

دول البلقان :

تضم منطقة البلقان دولاً مختلفة الأعراق ، متباينة الأفكار ، دائمة الصراع ، لا تكاد ثورة تهدأ في بقعة ، حتى تنفجر في بقعة أخرى ، ولا يكاد اختلاف يزول ، حتى يظهر ، ولا توقَّع اتفاقية سلام ، إلا وتصبح بعد فترة في خبر كان ! لذلك سُميّت منطقة البلقان : برميل البارود وبركان أوربا الذي قد يثور ويقذف بحممه في أي لحظة ، وبين أي دولتين من

دولها التي هي : تركيا ، بلغاريا ، اليونان ، ألبانيا ، ودول يوغسلافيا السابقة : البوسنة والهرسك ، كرواتيا ، سلوفينيا ، الجبل الأسود مقدونيا وصربيا التي تضم إقليم كوسوفا ـ بيت القصيد ـ .

شعوب البلقان :

أمم كثيرة وقوميات شتى استوطنت أرض البلقان ، وأبلغ وصف لها ، أنها (كوكتيل) من الناس ، خليط عجيب متنافر ، متباعد ، الاضطرابات في البلقان لا تهدأ ، ومشاكله لا تنتهي ، والنـزاعات فيه لم تُحلّ ، حتى أن كلمة بلقنة[1] أصبحت مشهورة وتشير إلى مشروع مصالحة بين فريقين لا يرضي أحداً منهما .

حل مؤقت وصلح بالإكراه :

ليس غريباً ما يحدث في البلقان ، من نزاعات واضطرابات ، ترافقها استعدادات وتهديدات يكون آخرها حرب لاتبقي ولاتذر ، وهذا ما عرفناه من تاريخ البلقان في الحروب المتتالية في القرنين التاسع عشر والعشرين والتي انتهت بمعاهدات صلح مفروضة لم تراعِ حقوق الشعوب في أرضها التي عاشت عليها وبَنتها وسعَت في ازدهارها ، بل كانت مصالحات

---

(١) البلقنة : تعبير يعود إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى ، ويدل على عملية تجزئة قائمة على استغلال القوميات الصغيرة ، تؤدي في النهاية إلى نشوء دولة جديدة مستقلة على حساب منطقة موحدة جغرافياً ، وكانت تعيش في السابق ضمن إطار إداري وسياسي موحد . كانت تدل أصلاً على تجزئة البلقان فقط ، إلا أن استعمالها امتد حتى شمل كل التجارب المماثلة .

انظر موسوعة السياسة/ المؤسَّسة العربية للدراسات والنشر / ٢ عبد الوهاب الكيالي وغيره .(١/ ٥٦١) .

وتقسيمات لم تُرضِ أيّ شعب ، سواء ربح هذه الحرب وانتصر ، أم خسرها وانهزم ، نتائج لم تأخذ بأسباب النـزاع التي أشعلت الحرب ولم تنظر إلى ما قد تخلّفه هكذا معاهدات عندما يصحو شعب فُرض عليه صلح سلَبَ حقوقه بعد هزيمته ، فيرى أنّ له أرضاً قد احتُلّت وحرية قد ضاعت . هنا لابدّ للمارد أن يخرج من القمقم وينشط ليأخذ بأسباب القوة ليسترجع لوطنه المقهور ما سُلِبَ منه سابقاً في اتفاق مفروض ضمن اتفاقيات وقّعها المتخاصمون برعاية المؤتمرات الدولية للسلام التي لم تكن في يوم من الأيام عادلة ومنصفة ، ولم ينعم المتخاصمون بالسلام الذي تدعو إليه ، لأنها لم تستأصل العداوة من جذورها ، بل كانت الحلول كلها مهدّئة مسكِّنة لذا تبقى النار خامدة تحت الرّماد تنتظر هبّة ريح التعصّب القومي ليعود للنار أوراها فتنتشر متأججة يلفح سعيرها شعوباً كانت بالأمس القريب متجاورة متحاببة متهادنة ، فتدخل في صدامات ومعارك تصفية لحسابات قديمة ، كانت تنتظر فرصة مواتية لتنقضّ على بعضـها ولا تقف إلا وتكون النهاية مفزعة مخلّفة للطرفين المتخاصمين دماءً بريئةً أُهرقت بـين أقدام المتحاربين ودماراً سبّبَ انتكاساً في الحضارة وشظفاً في العيش للتعويض عمّا أفرزته حرب سببها الأساسي : العدل المفقود والحرية الضائعة .

بعد هذا ، تأكدنا أن الحلول لم تأخذ بالحسبان تطلعات كلّ فريق من المتخاصمين وتقريب وجهات النظر ومحاولة إعطاء كل ذي حقّ حقّه لينتهي ذلك بصلح مقبول يُرضي الفرقاء ، فالوسطاء قد أغفلوا ذلك ، إذ كان هدفهم مصالحهم الخاصّة : ومن المعروف أن كلّ معاهدة بالإكراه أو صلح مفروض ، تكون نتائجه معرّضة لنكسة أشدّ ، وهذا ما جرى بالأمس القريب وما حدث بين شعوب وأمم يوغسلافيا السابقة من تصفية حسابات كـانـت نتيجتهـا حـرب قـذرة استبيحـت فيهـا كـل أنـواع الظلـم والقهـر

والاعتداءات اللاّ إنسانية ولم تضع الحرب أوزارها إلاّ بالقوة وباتفاق مفروض بين الصرب والبوسنيين المسلمين وهو اتفاق « دايتون »[1] المشؤوم .

إن الصرب لم يقلّلوا من غلواء حقدهم ضد الفئات المسلمة ، بالرغم من إدانتهم من جميع أمم العالم لما ارتكبوه من فظائع في حرب البوسنة ، حتى كرّروا فعلتهم وعادوا لاضطهاد المسلمين ، ولكن هذه المرّة في إقليم كوسوفا . وهذا ما سوف نطّلع على الأحداث التي تجري الآن على أرضه بين أكثريته المسلمة الألبانية وأقلّيته الصربية المتسلّطة فيه .

الصرب والتعصب القومي :

بعد (٧) سنوات من وفاة « تيتو » كانت يوغسلافيا لا تزال دولة واحدة ، وفي جمهورية صربيا كان « سلوبودان ميلوسيفيتش » الساعد الأيمن للرئيس « إيفان ستامبوليتش » وبدأت مأساة يوغسلافيا عندما تحرّك « ميلوسيفيتش » ضد الرئيس ، وبدأت القصة في (كوسوفا) حينما ذهب لتهدئة الصّراع العرقي هناك بين الأغلبية الألبانية والأقلية الصّربية وقد انتهك المبدأ الذي حَكَمَ يوغسلافيا في عهد « تيتو » حيث نال إقليم كوسوفا حكماً ذاتيّاً ، ولكن « ميلوسيفيتش » قال : « إن كوسوفا ليست جزءاً من صربيا ، بل هي قلب صربيا ، إن تاريخنا بأكمله في كوسوفا ، وكل أديرتنا في كوسوفا » . قال هذا ليذكّر الصرب بهزيمة ملكهم

---

(١) اتفاق دايتون : الاتفاق الذي أوقف حرب البوسنة برعاية أمريكا بعد أن فشلت الأمم المتحدة والمجموعة الأوربية والحلف الأطلسي في إنهائها . التوقيع كان في قصر الأليزيه بباريس / ١٥/ ١٢/ ١٩٩٥ وبحضور دولي .

« لازار » في معركة[١] كوسوفا وبعد ستة قرون خرج « ميلوسيفيتش » على الناس قائلاً : لن ننهزم مرة أخرى وسوف ننتصر .

.. في تلك الليلة ذكرت محطة التلفزيون الصربية ، إن ميلوسيفيتش احتضن قضية الصرب.. وولدت أسطورة ميلوسيفيتش على أساس من الأكاذيب وجرى التباعد بينه وبين الرئيس الصربي « ستامبوليتش » وأصبح ميلوسيفيتش أقوى رجل في صربيا[٢] .

.. لم تعد الدولة اليوغسلافية تمارس سلطاتها كدولة واحدة إلا في السياستين الخارجية والدفاعية ، فكانت القوة الوحيدة الأكثر تمزيقاً وتشرذماً ، قد تمثلت في سياسة القوميات التي برزت إلى الوجود من جديد وسرعان ما ظهرت أولى ملامحها بعد موت « تيتو » عندما تمرد الألبانيون في كوسوفا على نطاق ضيق عام (١٩٨١م) ، وحقيقة إن كوسوفا كانت الحافز الذي أدى فيما بعد إلى التعصب الصربي ، وفي عام (١٩٨٧م) جاء التغيير في قيادة جمهورية الصرب بـ « سلوبودان ميلوسيفيتش » إلى الواجهة[٣] .

مآسي صراعات البلقان :

في كل أنحاء العالم ، الصراعات القومية كثيرة ومتعبة ولكنها لم تكن تماثل الصراعات والخلافات والنزاعات التي جرت وتجري في منطقة البلقان .

---

(١) معركة كوسوفا : سنراها في فقرة قادمة .

(٢) سلسلة إذاعية من لندن بعنوان : يوغسلافيا موت دولة/ الحلقة الأولى/ تشرين ثاني ١٩٩٥م) .

(٣) النزاع اليوغسلافي/ جون زامتكا/ ت : العميد نافع أيوب/ مركز الدراسات العسكرية دمشق/ ١٩٩٣م/ (١٥ـ١٦) .

فالنزاعات البلقانية تنتقل من منطقة إلى أخرى ولن تنتهي ، ولن تزول نهائياً مادامت الحلول لم تصل إلى الجذور ولم تطل الأسباب ، فنزاعات البلقان متعددة وأسبابها : حقد وتعصب ولا إنسانية في المعاملات ، وأكثر النزاعات ما كان الصرب طرفاً فيها ، وهو ما حصل في أقذر حرب عرفها العالم بعد الحرب العالمية الثانية وهي : حرب البوسنة ، فلم تغب عن الأذهان المشاهد الفظيعة في القتل والتعذيب والتدمير والتهجير والاغتصاب وكل أنواع الاضطهاد التي ارتكبها الصرب بحق شعب البوسنة ، والصرب هم الذين يعيدون من جديد تنفيذ جرائمهم في كوسوفا .

.. إن البرنامج الصربي القومي الذي تم إعلانه عام (١٨٤٤م) تجدد أخيراً في برلمان صربيا ، حيث صدر مرسوم يدعو إلى تطهير السنجق[١] ، وكوسوفا والبوسنة والهرسك من المسلمين[٢] .

فحرب الإبادة التي جرت في البوسنة والهرسك وما يجري الآن في كوسوفا ، تريد تجريد الذاكرة الجماعية للشعب المسلم من رموز الهوية ، والإنجاز الحضاري ، الذي نشأ من الفكر والعقيدة الإسلامية ، بل ما هي إلا حملة شرسة بالحديد والنار لطمس الوجود الإسلامي في شبه جزيرة البلقان كلها[٣] .

(بعد المجازر السابقة والمجازر اللاحقة التي ارتكبها ويرتكبها صرب

---

(١) السنجق : هو سنجق نوفي بازار تسكنه أكثرية مسلمة في صربيا وله حدود مع البوسنة وكوسوفا انظر كتابنا : نزاعات البلقان والتطهير العرقي من الدانوب إلى الأدرياتيكي (ص ١٦٧-٢٧٢) .

(٢) انظر : المسلمون والعدد ٣٧٩/ ٨/ ١/ ١٩٩٢ .

(٣) انظر : جريد الأهرام / ٢٩/ ٥/ ١٩٩٢م .

« سلوبودان ميلوسيفيتش » ، هل يُترك مسلمو كوسوفا لينعموا بحرية الاستقلال)؟

حرب البوسنة مقدمة لما يحدث :

تكاد تكون معارك البوسنة والجرائم التي تعرّض لها مسلمو البوسنة تنسي العالم بؤر الانفجار والصراعات الأخرى المماثلة في البلقان .

(هنري كيسنجر) ـ وزير خارجية أمريكا السابق ـ قال عن وضع يوغسلافيا السابقة أيام حرب البوسنة : (إن منطقة كوسوفا هي المنطقة الأخطر في البلقان ، فصربيا تعتبرها في أصل تاريخها القومي ، رغم أن معظم سكانها اليوم من المسلمين الألبان. .) . تمتلك « كوسوفا » حدوداً مشتركة مع ألبانيا التي وقّعت اتفاقاً مشتركاً مع تركيا لمواجهة أيّ تطهير عرقي يطال الألبان في « كوسوفا » على غرار ما حصل في « البوسنة والهرسك »[1] .

* * *

---

(١) انظر : مجلة الشاهد/ شهرية مصورة، قبرص العدد ١٣ك٢ ١٩٩٥م (ص ١٠٣).

الاضطرابات العرقية
والقنبلة الموقوتة

القنبلة الموقوتة الحقيقية في البلقان هي : « ذاكرة شعوبها » التي تختزن تجارب الماضي الدامية دون استخلاص العِبَر اللازمة من تلاعب الدول القوية بمصير شعوبها وإمكانيّة تورُّط الجميع في حروب متوقعة ، وها هي اضطرابات كوسوفا بادية للعيان .

الخلاف الصربي ـ الألباني :

موضوع الخلاف هو منطقة « كوسوفا » وهي مقاطعة ذات حكم ذاتي تابعة لصربيا . سكانها من الصرب (٥٪) فقط و(٩٥٪) ألبان ، قد جرى استفتاء في كوسوفا وانتخب « إبراهيم روغوفا » رئيساً لجمهورية كوسوفا رغم معارضة الصرب الذي يطرحون حججاً قومية لاعقلانية عن مهد دولتهم . . ومنذ مطلع الثمانينات استمرت الاصطدامات والمعارك والاضطهاد العرقي ، وصار الوضع بالغ التعقيد[١] .

---

(١) انظر : النزاعات القومية والمحتملة في البلقان/ ميشيل منير/ مكتب الأمانة العام للقيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي/ ١٩٩٢م . دمشق (ص٢٥ـ٢٩) .
ولزيادة معرفة نزاعات البلقان والتطهير العرقي انظر كتابنا بهذا الاسم مصدر سابق .

ميلوسيفيتش في الواجهة :

بعد انتصار « ميلوسيفيتش » على الرئيس الصربي « ستامبولتش » أُطلقت يده في شن حملة تهدف إلى سيطرة الصرب على يوغسلافيا ، وفي هذا الصدد يقول الرئيس الصربي السابق « إيفان ستامبوليتش » : « جعل ذلك يسدر في غيّهِ ويزيد المنطقة اشتعالاً » .

لم تكن المسألة قاصرة على « كوسوفا » فقد اعتبر الصرب في كل مكان أنّ هذه الحملة دعوة للحرب ، وساروا في عظام الملك « لازار » في كل مكان في يوغسلافيا لحثّ الصرب على استعادة أمجادهم القديمة ، وقال « ميلوسيفيتش » : (سنوقف الثورة المضادة في « كوسوفا » وسنصلح النظام السياسي وتستعيد صربيا أراضيها الشرعية) .
كان « تيتو » قد منح الحكم الذاتي لمنطقتين صربيتين هما : « فويوفودينا في الشمال وكوسوفا في الجنوب ، وذلك لمنع صربيا أن تكون أقوى من اللازم ، ولكن «ميلوسيفيتش» أجبر القادة الشيوعيين على الخروج من السلطة ، ووضع أنصاره محلّهم. . وردّ الألبان في « كوسوفا » على ذلك بإعلان إضراب عمال المناجم مطالبين بعودة زعيمهم إلى السلطة. . وثارت الجماهير في مناطق أخرى من يوغسلافيا السابقة تندّد بأعمال « ميلوسيفيتش ». . ودعا الرئيس إلى وحدة الصف ، ولكن الجماهير الصربية لم تقتنع بذلك وحصل « ميلوسيفيتش » على سلطة تخوّله استخدام الجيش اليوغسلافي في « كوسوفا » .

ولم يكن أي خيار أمام برلمان « كوسوفا » سوى التنازل عن كل السلطات للصرب ، واتهم زعيم الحزب « ميلادي » بمقاومة الثورة وأُدخل السجن وتم القضاء على أيّ معارضة . يقول « ميلوسيفيتش » إن

السلطات التي أخذها على « كوسوفا » نُفّذت بوسائل قانونية تماماً! ! لقد استطعنا استرداد حقوقنا[1] .

مجازر جديدة في البلقان :

.. انتهت الحرب في يوغسلافيا بعد أن فرض الحلفاء اتفاق « دايتون » لوقف المجازر الرهيبة التي نفّذها الصرب والكروات في البوسنة على المسلمين .

(وحرب البوسنة لم تكن أهلية أبداً ، إنما اعتداء دولة على دولة أخرى) . ـ كما قال زعماء البوسنة ـ .

رأس الأفعى :

تقول الصحف : إنّ الرئيس الكرواتي « فرانيوتودجمان » والرئيس الصربي « سلوبودان ميلوسيفيتش » هما المسؤولَيْن عن مجازر البلقان ، فإذا تم إضعاف الاثنين فإن هناك أملاً في تحسّن الأوضاع في المنطقة .

لكن الأوضاع ماتزال كقنبلة موقوتة في مناطق عدة إلا أن المعاناة تتجسّد أكثر ما تتجسّد في منطقة كوسوفا التي كان وضعها بعد حرب البوسنة مثل قِدْر ماء على وشك الغليان (ولكن سلوبودان ميلوسيفيتش أبى إلا أن يزيد من أوار النار حتى انفجر القِدْر وبدأ الصرب في إعادة مسلسل الاعتداءات بالقتل والتدمير والتهجير الذي نفّذوه في البوسنة) .

يعتبر الصرب ـ كما ذكرنا سابقاً ـ أن كوسوفا قلبهم التاريخي التي حاربوا العثمانيين فيها عام ١٣٨٩م ، ومع أنّهم اندحروا فما زالوا يحلمون

---

(١) إذاعة لندن ، مصدر سابق .

بها . والرئيس الصربي « ميلوسيفيتش » يثير كوامن حقدهم على كل ما هو مسلم ويشعل نار التعصّب الصربي البغيض فكان صعوده إلى السلطة هو أقرب إلى مأساة من مآسي العصر الأليزابيثي كما تقول « ميشاغليني » المراسلة السابقة لهيئة الإذاعة البريطانية والتي تعمل حالياً مراقبة للشؤون البلقانية ، وقد صعد إلى السلطة على جبال رُويَتْ بالدم ، وجلس على القمة ينظر إلى ما حوله من دون أن يحرّكه ضمير أو مبادىء .

ما لا نعرفه عن رئيس صربيا :

ميلوسيفيتش نشأ في مدينة محلية ، وأبوه كان رجل دين أرثوذكسي ، تخلّى عن الأسرة ثم أطلق على نفسه النار فيما بعد . وبعد عدة سنوات انتحرت أيضاً والدته . أحب وهو صغير زميلة له في المدرسة تزوجها فيما بعد وهي سيدة الصرب الأولى حالياً « ميرا » التي أعدمت والدتها كخائنة على يد أنصار « تيتو » .

ويرى سفير الولايات المتحدة السابق في « بلغراد » أن الزوجة أكثر صرامة وتشدّداً من زوجها . ويقول إنهما أحاطا نفسيهما بجدران عالية ، فانفصلا عن الناس ، ولم يبق حولهما إلا الذين لا يجرؤون إلاّ على الطاعة بلا مناقشة .



وقد استمتع « سلوبودان ميلوسيفيتش » بلعب دور رجل الدولة العالمي ، فبدا مسترخياً بشوشاً خلال إقامته في باريس عندما ذهب لتوقيع اتفاق (دايتون) لسلام البوسنة في ١٥/ ١٢/ ١٩٩٥م[١] .

كوسوفا والحكم الذاتي :

.. في بداية (١٩٨٧م) عندما كان يخاطب الأقلية الصربية التي تعدّ نفسها للقتال ، قال كلمات ترددت في أنحاء صربيا ، وجاء فيها : « لا أحد يملك حق توجيه ضربة إليكم » . وهكذا بعد بضع سنوات من الصمت إزاء « كوسوفا » رأى الصرب في شخص « ميلوسيفيتش » منقذاً لهم ! بعد ذلك سارت الأمور في اتجاه الضغط الصربي على الألبان من سكان « كوسوفا » دون أن يوقفها أحد . وكذلك فعلت وسائل الإعلام الصربية التي مزجت الحقيقة بالخيال . وبذلك فإن ما كسبه الألبانيون في ظل « تيتو » ، لم يلبثوا أن خسروه بسرعة في ظل « ميلوسيفيتش » .

.. وفي ضوء الأوضاع غير القابلة لإنهاء ما يشوبها من خلافات بين الطرفين ، فلا يمكن أن يكون مستقبل هذا الإقليم سعيداً[٢] .

معركة كوسوفا التاريخية :

في (١٥ حزيران ١٣٨٩م) التقى العثمانيون بالقوات الصربية تساندها جيوش إضافية من : البشناق ، الهنغار والألبان ، وكانت المعركة بقيادة السلطان العثماني « مراد الأول » وقد جمع ابنيْه « بايزيد ويعقوب » وكان

---

(١) انظر : مجلة المشاهد السياسي العدد ١٥ ، السنة الثانية آذار ١٩٩٧ (ص ٢٥) تصدرها (C . B . B لندن) .

(٢) انظر : النزاع اليوغسلافي (ص ٤٤ـ٤٦) .

الصرب بقيادة ملكهم « لازار » ، كانت المعركة في ميدان كوسوفا ـ الطيور السود ـ جرى القتال عنيفاً تنازع فيه الفريقان راية النصر غير مرة ، . . وخسر العثمانيون خسائر فادحة ، وقُتِل « مراد » كما أُسِر « لازار » بعد أن مُني بهزيمة منكرة وهو يحاول إيقاف المد الإسلامي في البلقان ، وقد قتله العثمانيون في النهاية[1] .

الثأر التاريخي :

يؤكد الكثيرون أن العداء الصربي للمسلمين وبخاصة في « كوسوفا » ، ليس حصيلة اليوم ، وإنما يعود في جذوره لعام (١٣٨٩م) عندما هزمتهم قوات الدولة العثمانية في « كوسوفا » ـ كما ذكرنا قبلاً ـ ، فتمركز المسلمون وبخاصة « الألبانيون » في المنطقة ـ والألبان سكنوا في كوسوفا قبل الإسلام ـ ولذلك يبدو أن الصرب الذين يتحكمون في الجيش والشرطة ، تحرّكوا بدافع الانتقام ، والثأر التاريخي . . رافعين رايات العصبية القومية متّهمين الكوسفاريين المسلمين بأن مطالبتهم بحقوقهم الدستورية ، إنما هي مقدمة للانشقاق والانضمام إلى « ألبانيا » لتأليف « ألبانيا الكبرى » وهذه الادعاءات عمّت الحملة الصربية لتجاهل المطالب المشروعة لمسلمي « كوسوفا » ، والمطالبة بدلاً من ذلك بسيطرة « صربيا » على « كوسوفا »[2] .

بعد موت « تيتو » سنة ١٩٨٠م ـ الذي كان قد وعد بأن يصبح إقليم « كوسوفا » جمهورية ـ تزعزع الاتحاد ، وبات حلم سكان « كوسوفا »

---

(١) انظر : المسلمون في يوغسلافيا (ص٢٣ـ٢٥) ، وانظر أيضاً نزاعات البلقان والتطهير العرقي (ص٩٧) .

(٢) انظر : المسلمون في العالم/ جـ١/ (ص ٣٨٧) .

بالاستقلال بعيد التحقيق.. وعلى العكس عمل الصرب على السيطرة الكاملة من جديد ، فنقلوا أعداداً كبيرة من الصربيين إلى « كوسوفا » ، مع بناء مساكن ومصانع تستوعب (٣٠٠,٠٠٠) نسمة منهم.. وفي سنة ١٩٨٩م) اتخذ برلمان صربيا قراراً بضم كامل تراب كوسوفا إلى « صربيا » الأم - كما يدّعون - . عندها شعر المسلمون بأن مصيرهم مهدد أكثر من أي وقت مضى ، فبدؤوا حملة احتجاجات واسعة مطالبين بتنفيذ قرار (١٩٧٤م) ، وقد جوبهوا خلالها بعنف كبير من الحكومة الصربية ، وسقط منهم قتلى كثيرون ، (ونفذ هذه الإجراءات العنيفة والتعسفية « سلوبودان ميلوسيفيتش » الذي نصّب نفسه حامي الأرض الصربية من الغرباء ، معتبراً أن كل مسلم غريب وليس له الحق بالعيش على أرض « كوسوفا ») ، لقد عانى أهل « كوسوفا » المسلمون الألبان الكثير من الضغوط والقهر والممارسات اللاإنسانية من أجل إخضاعهم ، فمرة يُطرد آلاف العمال من وظائفهم ، وآلاف الطلاب من مدارسهم ، ومرة يُعمد إلى تسميم جماعي غامض لآلاف الطلاب وبخاصة الطالبات كما حدث عام (١٩٩٠م) ، ومرة يُتخذ قرار بوقف التعليم باللغة الألبانية في جامعة « كوسوفا » . علماً بأنها اللغة المحلية - واستبدالها باللغة الصربية في محاولة لإغلاق الجامعة ، إلى ذلك من أنواع التضييق المالي والحصار الغذائي والملاحقة والسجن ، بحيث بات أهل الإقليم (الأفقر) في يوغسلافيا السابقة والأكثر بطالة ، في حين أن هذا الإقليم يتمتع بخيرات وفيرة[١] .

---

(١) انظر : مجلة نور الإسلام/ تصدر كل شهرين ، بيروت العددان ١٧ و١٨ السنة ٢ (ص ٧٤-٧٥) (١٩٩١م) .

فذلكة تاريخية :

كوسوفا منذ أن ضُمَّت للاتحاد اليوغسلافي بعد الحرب العالمية الثانية وشعبها يناضل للاستقلال ، وفي هذا السبيل تفجّرت مظاهرات (١٩٦٨م) التي كان من نتيجتها الاعتراف بكوسوفا مقاطعة ذات حكم ذاتي ، على أن تصبح جمهورية مع مرور الزمن ، وهكذا ، في ربيع عام (١٩٨١م) قام الشعب مطالباً بحقه الدستوري في إقامة جمهورية ، حسب الدستور ، لكن الصرب قمعوا تلك الحركة بوحشية فظيعة ، ومنذ ذلك الحين والأمور تسير إلى الأسوأ ، حتى أعلن الصرب في عام (١٩٨٩م) ضم « كوسوفا » وإلغاء جميع حقوق الشعب الألباني . وفي عام (١٩٩٠م) ، وبعد استفتاء شعبي بإشراف الأمم المتحدة ، أعلن الشعب الكوسفاري ، استقلال « كوسوفا » من طرف واحد وقيام الجمهورية .

وفي ٢٤/ أيار/ مايو ١٩٩٢ انتُخب الدكتور : « إبراهيم روغوفا »[١] أول رئيس منتخب لجمهورية « كوسوفا » .

كانت كوسوفا إقليماً مغموراً لا يلحظه أحد ولم يسمع عنه الناس إلا لماماً ، ولكن منذ بداية الثمانينات من هذا القرن تناقلت أخباره الصحف العالمية ووكالات الأنباء ، واستدل الجميع على هويته وعنوانه ، لكثرة ما

---

(١) إبراهيم روغوفا : ولد في قرية « تسرتسا » إحدى قرى ناحية « روغوفا » في كوسوفا عام (١٩٤٥م) أنهى دراسته الابتدائية في القرية والثانوية في « بيا » Peje وأنهى دراسته الجامعية حتى الدكتوراه في جامعة « بريشتينا » العاصمة ، عمل مدرساً وأستاذاً في عدة مدارس وفي جامعة « بريشتينا » ، كاتب روائي وناقد أدبي ، رئيس اتحاد كتاب « كوسوفا » ، ورئيس الحزب الديمقراطي لكوسوفا .

نشر له من خرائط وما نقل عنه من صور وقتئذٍ عرف العالم اسم ذلك الإقليم الراقد في (صرة البلقان) ، واكتشف الناس أن لهذه الإقليم مشكلة ، وأن هذه المشكلة خرجت فجأة تعلن عن نفسها في الشوارع والميادين . . حتى وصلت إلى سجلات الشرطة والمحاكم ، قبل أن تشقّ طريقها إلى الصحف ووكالات الأنباء .



الدكتور: "إبراهيم روغوفا

* * *

كوسوفا

Kosova

إقليم كوسوفا الذي يشكل « جمهورية كوسوفا »يشغل جزءاً صغيراً من كوسوفا الحقيقية التي اقتنصتها أربع دول هي : صربيا ، الجبل الأسود ، اليونان ، ومقدونيا ، تبلغ مساحتها الآن نحو (١٠,٨٧٧ آلاف كم٢) من أصل (٢٠,٠٠٠ ألف كم٢) هي مساحة كوسوفا الأصلية . تحيط بها كل من : صربيا ومقدونيا والجبل الأسود وألبانيا .

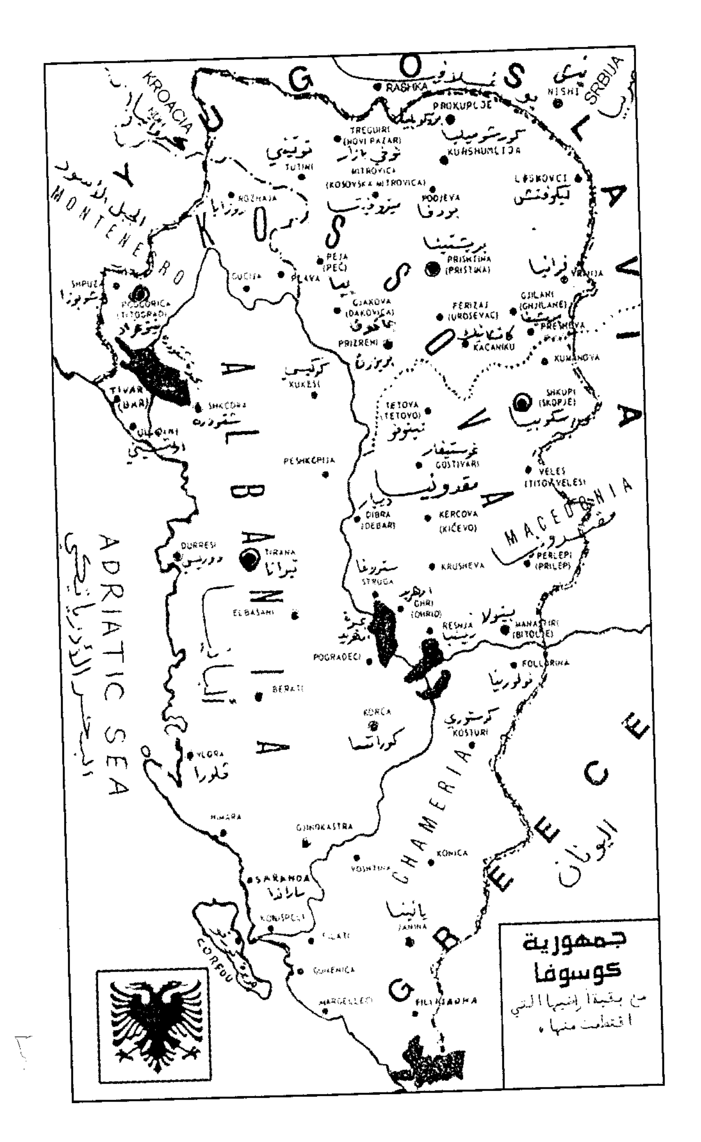
السكان :

يبلغ تعداد سكان كوسوفا حوالي ثلاثة ملايين نسمة ، منهم (٩٥٪) من أصل ألباني منهم (٥٪) يدينون بالكاثوليكية و(٩٠٪) مسلمون ، والباقون بنسبة (٥٪) فهم من السلاف الصرب ، الذين يتحكمون بالإقليم .

لقد سكن الألبان هذه الأرض منذ أقدم العصور فيما قبل التاريخ وحتى اليوم ولغتهم الألبانية ،وهم يثيرون القلق في كل مكان لتكاثرهم الفائق[١] .

---

(١) انظر النشرة الإعلامية/ المكتب الإعلامي لجمهورية كوسوفا/ عمان ، الأردن ، جمهورية كوسوفا بين الألم والأمل (ص٥) .



أهل كوسوفا ينتمون إلى العالم الثالث ـ الذي نتقاسم معهم همومه ـ ، وأنهم شرقيون حتى النخاع ـ وإن عاشوا في قلب أوربا ـ ، والأهم أنهم مسلمون ـ موحّدون بالله يصومون ويصلّون ، ويحجّون ـ كلما تيسّر ـ ولا يزالون ، رغم كل الصعاب ، قابضين على الجمر ، هم مسلمون ديناً ، أحناف مذهباً ، وألبانيون قلباً . . ، أما كيف تمت هذه التركيبة الغريبة ، وكيف تعايشت عناصرها المتناقضة ، فذلك ماسنعرفه فيما يلي . .

مآسي كوسوفا :

.. إن الكثير من هموم ومشاكل « كوسوفا » لا نجد تفسيره إلا في التاريخ الذي يبين أن أقواماً كثيرة بسطت نفوذها على هذه المنطقة وتعاقبت على حكم أهلها منهم : الأليريون ، البيزنطيون ، والمقدونيون ، ثم الصربيون ، لكن في القرن (١٤) عندما جاء الفتح الإسلامي إلى منطقة البلقان ـ في الوقت الذي كانت الأندلس على وشك الضياع ـ ومن المحتمل أن يكون قد خطر للسلطان العثماني أن تكون البلقان هي البديل الذي يعوِّض خسارة الأندلس ـ . قام السلطان « مراد الأول بقيادة جيشه للاستيلاء على « كوسوفا » ـ التي كانت هي المنفذ الحيوي للسيطرة على البلقان ـ وتمت موقعة « كوسوفا » كما ذكرنا قبلاً .

أهمية كوسوفا :

إن سبب إصرار « صربيا » للسيطرة على هذا الإقليم وتمسكها به ، هو أن أرض كوسوفا تُعتبر الرئة الاقتصادية لصربيا لأن أرضها تحتوي على معادن كثيرة وهامّة وتنتج كميات منها :

إن كوسوفا تنتج : (٧٥٪) من خام الرصاص والتوتياء ، و(٦٠٪) من الفضة ، (٥٠٪) نيكل و(٢٠٪) ذهب ، كما تملك (٧٩٪) من احتياطي الفحم... وغيرها ، كما تمتلك كميات كبيرة من المنغنيز والحديد والنحاس والزئبق ، وأيضاً الرخام والكوارتز وغيرها من المعادن[١] .

---

(١) انظر : النشرة الإعلامية ، مصدر سابق (ص٥) .

البلقان العثماني :

خلال القرنين (١٥ و١٦)م ، كان العثمانيون قد تمت سيطرتهم على شبه جزيرة البلقان ، كان تعيين ولاة الأقاليم يتم في الأستانة (إسطنبول) التي يمثلها هؤلاء الولاة وكانت « ألبانيا » ركيزة أساسية للحكم العثماني ، وبات رجالها الأشداء دعامة مهمة في جيوش الإمبراطورية ، وهنا يجب أن نشير أن دخول الإسلام إلى البلقان لم يرتبط بالفتح العثماني ـ كما يردد الكثيرون ليعطوا انطباعاً أن الإسلام دخل هذه المنطقة بحدّ السيف العثماني .

كيف وصل الإسلام إلى البلقان ؟ :

من الثابت أن بلاد العرب كانت الجسر الذي تعبر عليه تجارة الشرق إلى الغرب ، وأنها كانت تُنقل عبْر موانىء الشام إلى روما والبندقية ، على الساحل الأوربي .

وكانت جسور التجارة هذه ، هي القنوات التي نقلت الإسلام إلى هذه المناطق[١] ، . . وأيّاً كانت الروايات ، فإن الإسلام عرف طريقه إلى البلقان قبل أن تظهر سيوف العثمانيين وخيولهم على مشارف « كوسوفا »[٢] .

* * *

---

(١) انظر : المسلمون في يوغسلافيا/ محمد قاروط (٤٧ـ٥٢) .
(٢) انظر : العربي ، ع٢٧٧ (ص٧١ـ٧٤).

أشهر مدن كوسوفا

بريشتينا Pritina :

تُعدّ عاصمة الإقليم وهي الآن بوابة الإقليم ومقر السلطة والإدارة ، وهي عقل « كوسوفا » المفكّر والمدبّر في حقيقة الأمر ، لكن ضمير « كوسوفا » مازال يرقد على بعد (٧٠كم) حيث مدينة « بريزرن » العاصمة القديمة طوال القرون الخمسة الماضية . .

اسمها القديم فيكانوم (أما عدد سكان بريشتينا الآن فهو أكثر من (١٠٠,٠٠٠) نسمة ، في قضاء « بريشتينا » (٢٨٥ قرية) أكثر من ثلثيهم مسلمون . . وفيها مقر المشيخة الإسلامية ، التي تباشر إدارة النشاط الديني المرتبط بالمساجد والأئمة ، في جمهورية صربيا وإقليم « كوسوفا » و« وفويوفودينا » . . ويدخل في نطاق مسؤولية مشيخة « بريشتينا » ، من بين (٢٧٠٠) مسجد في أنحاء يوغوسلافيا ـ السابقة ـ ثمة (٦٧٠) مسجداً ، كما أنه من بين (١٩٥٠) من الأئمة في كل يوغسلافيا كان يتبع مشيخة بريشتينا (٥٠٠) إمام .

كما تتبع إدارة المشيخة مسؤوليتها عن الأوقاف ، تشرف عليها (٣٠) دائرة ، تجمع ريْع ما تبقى من عقارات موقوفة للمساجد ينفق في صيانة وترميم المساجد .

وإن رواتب الأئمة في «كوسوفا» يتحملها أرباب البيوت ، حيث يدفع

كل رب عائلة ما يعادل دولاراً أمريكياً ، بشكل دائم عن كل سنة ، تدفع لإمام المسجد الذي يسكن في نطاقه ، كما أن الإمام يمارس نشاطات أخرى تدرّ عليه دخلاً كافياً مثل : عقد الزواج ، غسل الموتى ودفنهم .

في بريشتينا عدد من المعاهد ، وجامعة بريشتينا ، التي تحوي عدداً من الكليات في مختلف الاختصاصات أحدها « فرع الاستشراق » الذي افتتح عام ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م)[١] .

بريزرن Prizren :

بريزرن مدينة من مدن إقليم « كوسوفا » التي كانت في القرن التاسع عشر من أكبر المدن في البلقان ـ العاصمة القديمة لكوسوفا ـ ففي ذلك الوقت كانت المدينة تلفت النظر لعدة أمور :

ـ نهضةٌ في الحياة الاقتصادية ، مع تطور المهن الجديدة ، وبخاصة صناعة السيوف والبنادق ، التي كانت تقتصر على المسلمين فقط .

ـ ازدهار كبير للتجارة ، التي قامت بدورها على الإنتاج الحرفي ، حتى أن القوافل المحمَّلة بالأسلحة ، كانت تخرج من « بريزرن » لتصل إلى مصر .

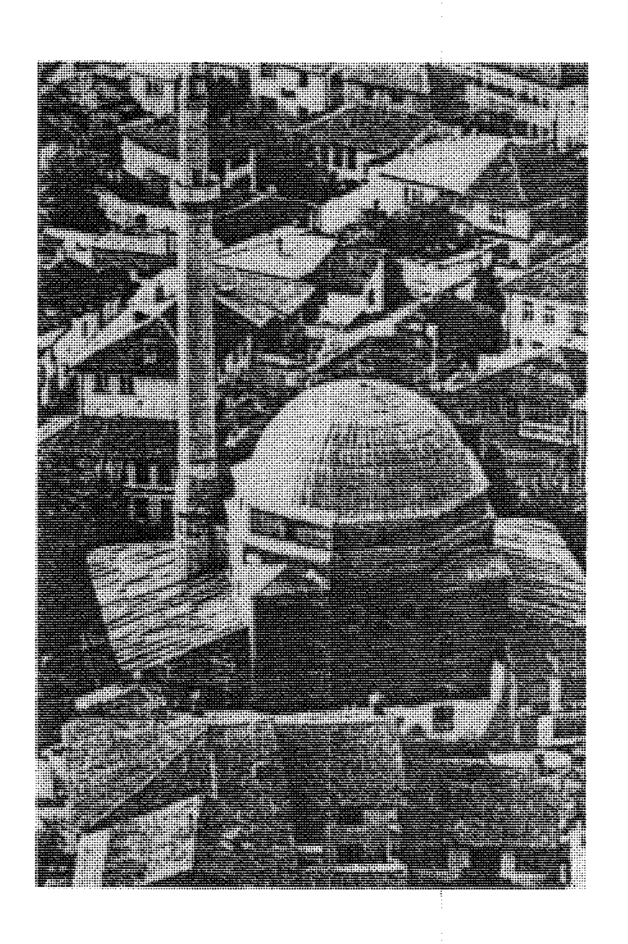
ـ انتشار الجوامع والمدارس العليا ، والمكتبات العامة مما أدى إلى ازدهار ثقافي لا يوصف ، حتى أن « بريزرن » اشتهرت في العصر العثماني باسم (مهد الشعراء) ، حيث برز فيها شعراء كانوا يتمتعون بشهرة كبيرة على مستوى الإمبراطورية العثمانية .

مدينة « بريزرن » المدينة المتحف ، عاصمة الحكم العثماني ،

---

(١) انظر : المسلمون في يوغسلافيا (ص٣٩٩-٤٠٠) .

مازالت تحتفظ ببصمات التاريخ وعبَقه ، ومنذ أوائل الخمسينات نُقِلت عاصمة « كوسوفا » منها إلى « بريشتينا » ، لأن العاصمة القديمة كانت قريبة من الحدود الألبانية ، في الوقت الذي كانت القطيعة قائمة بين « ألبانيا » و« يوغسلافيا ».. لكن ضمير « كوسوفا » مازال يرقد في « بريزرن » العاصمة القديمة طوال خمسة قرون ، منارة العلم والثقافة .



يبلغ عدد سكان « بريزرن » الآن بين (٥٠ و١٠٠) ألف نسمة وفيها (سبعة وعشرون مسجداً) ، كما أن فيها آثاراً إسلامية كثيرة .

وتضم « كوسوفا » (١٣٤٨) مدينة وقرية وبالإضافة إلى العاصمتين ، القديمة والجديدة فهناك مدن أخرى تعتبر قلب « كوسوفا ونبضه ، منها : تربشا ، جاكوفا ، ليبيان ، حيث مناجم الزنك والكروم والمغنيزيوم ، ومختلف الصناعات[1] .

وهناك مدن أخرى في كوسوفا مثل : « جاكوفا » عدد سكانها بين (٢٥ـ٥٠) ألف نسمة ، وهناك مدنٌ أخرى مهمّة في كوسوفا مثل فريزي وجيلان وبيا وفوشتري .

الخليط السكاني :

. . . إن سكان « كوسوفا » ليسوا كلهم من الألبان ، وليسوا كلهم من المسلمين ، ولكن نتيجة لعمليات الاعتداء والتهجير فإن نسبة الألبان في كوسوفا قد تدنّت وفي هذا الصدد ثمة إشارة لها مغزاها ظهرت في نتائج الإحصاء الأخير ، ذلك أن جداول الإحصاء لم تكن تتضمن في الماضي أية بنود تتعلق بديانة السكان ، وإنما كان تصنيفهم يتم في ضوء تقسيمات جغرافية أو قومية ، كما هو السائد في كافة الدول الاشتراكية التي تلغي مسألة الدين من جداول الإحصاء ، ولكنه منذ عام (١٩٧١) ، سُمح للناس ، ولأول مرة بأن يعلنوا عن دينهم في الجداول الرسمية للتعداد . . والذين تشجعوا وأعلنوا إسلامهم في استمارات تعداد السكان بلغ عددهم (٥٩,٠٠٠) فقط . !

---

(١) انظر : الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية/ عالم المعرفة ، العدد ٦٨ (ص٩٣) ، وأيضاً العربي العدد ٢٧٧ كانون الأول ١٩٨١م (ص٧٨) ، وأيضاً : دائرة المعارف/ بطرس البستاني (٣٢٨/٥) ، المنجد في الأعلام ط١٦ (ص١٢٦) : والمسلمون في يوغسلافيا (ص٣٩٨ـ٣٩٩) .

والمؤكد أن (هجمة) الألبان على الإنجاب هي من قبيل تثبيت الهوية ، وتأكيد الوجود والدفاع عن الذّات .

لقد كانت تلك الهجمة على الإنجاب مقدمة لهجمة مماثلة على التعليم ، والذي تدرَّس فيه المواد باللغتين الألبانية والصربية . .

التعليم الإسلامي في كوسوفا :

بدأ نشاط التعليم الإسلامي في كوسوفا قبل ستّة قرون أو بالأحرى مع بداية الفتوحات العثمانية وانتشار الدين الإسلامي في هذا الجزء من شبه جزيرة البلقان .

ومع بداية اعتناق الدين الجديد من قبل سكان المنطقة ، تظهر إلى الوجود المظاهر الأولى للحضارة الإسلامية ، وفي تلك الحقبة التاريخية بالذات يتم وضع اللّبنات الأولى لمؤسسات التربية الإسلامية كركيزةٍ مهمّة من ركائز الحضارة الجديدة . ونتيجةً لذلك بدأ العمل على إنشاء المؤسسات الأولى بطابع تربويٍّ إسلاميٍّ مثل : المساجد والجوامع والكتاتيب والمدارس والمكتبات ، وفي نفس الوقت بدأ بناء المرافق العامّة التي قامت بدور اجتماعي وصحي ، مثل : بيوت الضيافة والمطاعم والمستشفيات والحمّامات العامّة ، وكلّها كانت تعتمد على الأوقاف المخصّصة لها من قبل أهل الخير من المسلمين ، علماً بأنّها لعبت دوراً مهمّاً عبر التاريخ في توفير رفاهية الشعب ورفع مستوى معيشته وتقويم سلوكه الديني .

مدارس إسلامية في المدن والقرى :

لقد تمّ إنشاء مدرسة « محمد باشا » بمدينة « بريزرن » في منتصف القرن (١٦) وكانت بمثابة أول معهدٍ عالٍ للتعليم الإسلامي ، وقد لعب

دوراً كبيراً في الحياة التربوية والتعليمية للألبان في تلك المنطقة . ومع بداية القرن (١٧) كانت هناك مدرسة في كل مدينة من مدن كوسوفا ، بل كان يزيد عددها يوماً بعد يوم ، حتى أن عدد المدارس في سنة (١٨٧٤م) بمدينة بريزرن وحدها وصـــل إلى (٤) مدارس ، وكانت في كلٍّ من : بريشتينا ، وجاكوفا ، وبيا مدرستان ، ومدرسة واحدة في كلٍّ من مدينتي جيلان ، وفوشتري . وكانت تعمل بمدينة جاكوفا في منتصف القرن (١٨) « المدرسة الكبرى » التي لعبت دوراً مهمّاً في رفع المستوى التعليمي لدى المسلمين الألبان في تلك المنطقة بوجه خاص . وإلى جانب وجود مدارس إسلامية أخرى بالمدن الكبرى في كوسوفا ، لقد تمّ إنشاء عدّة مدارس في بعض القرى نظراً لحاجة المسلمين الألبان لتعليم أولادهم وتربيتهم تربية إسلامية سليمة . ولكن بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وبعد سيطرة الشيوعيين على الحكم تمّ إغلاق جميع المدارس الإسلامية في كوسوفا .


فرع المدرسة بمدينة "بريزرن

كان العلماء المسلمون الألبان في كوسوفا مقتنعين تماماً بأن التوعية الإسلامية السليمة لا تتحقق إلا عن طريق وجود مؤسسات تعليمية إسلامية وبالرغم من وجود عراقيل عدة من قِبَل السلطات الشيوعية ، إلا أنهم بذلوا كل ما كان في وسعهم من أجل إنشاء مدرسةٍ إسلاميةٍ واحدة على الأقل . وبعد بذل مجهودٍ كبير من قبل المشيخة الإسلامية ، تمّ فتح المدرسة الإسلامية المتوسطة في أول نوفمبر / تشرين الأول / ١٩٥١م ، بمدينة بريشتينا . .

مدرسة علاء الدين الثانوية :

في سبتمبر / إيلول من سنة / ١٩٦٢م/ بدأت مدرسة علاء الدين عملها كمؤسسة تربوية ـ تعليمية ـ ، وتمّ تسجيل الدفعة الأولى من الطلاب ، وكانت مدّة الدراسة بها (٥) سنوات على أن يتمّ التدريس باللغة الألبانية ، وبقيت حتى عهدٍ قريب هي المدرسة الإسلامية الوحيدة باللغة الألبانية في العالم بأسره . ومنذ ذلك التاريخ تتخرّج منها الدفعة تلو الدفعة ، ويُعتبر القرآن الكريم والسّنة النبوية الشريفة هما العمود الفقري للمنهج الدراسي بها . ويواصل عدد كبير من خريجي المدرسة دراساتهم الجامعية في البلاد العربية والإسلامية ، وبعد إتمامها يعودون إلى كوسوفا لأداء واجباتهم تجاه دينهم وشعبهم ووطنهم ، ويعمل عددٌ كبيرٌ منهم بالمشيخة الإسلامية والمرافق التابعة لها . ومع بداية الثمانينيات تمّ اختصار مدة الدراسة بها من (٥)سنوات إلى (٤) سنوات وذلك بتاريخ / ٢٨/ ٤/ ١٩٨٣/ .


مدرسة علاء الدين في بريشتينا

مواد الدراسة :

يتمّ في الوقت الحاضر تدريس (٢٥)مادة خلال سنوات الدراسة الأربع ومنها : القرآن الكريم ، الحديث الشريف ، التفسير ، العقيدة ، الأخلاق ، أصول الفقه ، التاريخ الإسلامي ، اللغة العربية ، اللغة الألبانية ، اللغة التركية ، اللغة الإنكليزية ، التاريخ ، الجغرافية ، علم الأحياء ، طرق التدريس ، علم النفس ، الدفاع المدني ، الحاسوب « الكمبيوتر » ، الرياضة البدنية ، علم الحساب ، الكيمياء والفيزياء .



ومنذ بداية عمل مدرسة علاء الدين الثانوية تخرّج منها (١١٠٠) طالباً وقد تمّ تأهيلهم للقيام بعملهم كأئمة ووعّاظ ومعلّمين حسب احتياجات المشيخة الإسلامية والمرافق التابعة لها ، ويتم قبول الطلاب من جميع المناطق المختلفة بصورةٍ متساوية ، ويمكن التأكد من ذلك بأن الذين حصلوا على الشهادة الثانوية من مدرسة علاء الدين في بريشتينا هم من : كوسوفا ، ومقدونيا ، والسنجق ، والجبل الأسود ، والبوسنة والهرسك .

لقد واصل عدد كبيرٌ من خرّيجي هذه المدرسة دراساتهم الجامعية في مجالات علميةٍ عدّة في مختلف الجامعات مثل : جامعة بريشتنا ، سراييفو ، بلغراد ، القاهرة ، بغداد ، طرابلس ، المدينة المنورة ، الرياض ، أم درمان ، عمّان ، وغيرها . .

ويعمل الآن (٤٠٪) من الخرّيجين بالمشيخة الإسلامية وفروعها بالأراضي الألبانية الأثينية والتاريخية ، من مدينة « تيفار » بالجبل الأسود إلى مدينة « مناستير » في مقدونيا كما يعمل عدد منهم بالمراكز الإسلامية الألبانية الموجودة في أوربا الغربية والولايات المتّحدة وأستراليا ، حيث تعيش هناك جاليات ألبانية كبيرة . وكلّهم يدركون تماماً بأن الأمانة الملقاة على أعناقهم مقدّسة ولذلك يؤدّونها على أكمل وجه ويساهمون في التوعية الإسلامية ، وبصفة خاصّة تربية أطفال المسلمين الألبان تربية إسلامية سليمة . .

. . إن مدرسة علاء الدين بعملها الدؤوب أصبحت رمزاً لصمود الشعب الألباني وكفاحه المستمر من أجل استقلال كوسوفا من هيْمَنة صربيا واحتلالها ، وقد أصبحت هي المقرّ الوحيد الذي يتمّ فيه عقد الاجتماعات على مستويات مختلفة سواءٌ كانت سياسية ، اجتماعية ، أو ثقافية .

وبما أنّ الاهتمام في السنوات الأخيرة قد ازداد كثيراً بين شبّان المسلمين للالتحاق بالمدرسة ، فقد قرّر المجلس التشريعي الإسلامي في كوسوفا بناءً على اقتراح المشيخة الإسلامية بفتح فرعين لها في كلٍّ من مدينتي « بريزرن وجيلان » وبذلك أصبحت الفرصة مواتية لتأسيس أول كلية للدراسات الإسلامية ببريشتنا سنة (١٩٩٢) .

تعدُّ مدرسة علاء الدين مدرسة إسلامية وشهاداتها تعادل شهادات بقية المدارس الإسلامية في جمهورية كوسوفا وخارجها ، كما تعادل شهادات المدارس الثانوية في العالم العربي والإسلامي . وكانت حتى قبل فترة قصيرة هي المدرسة الإسلامية الوحيدة التي يتمّ التدريس فيها باللغة الألبانية ويرجع إليها الفضل في إعداد الكوادر المؤهلة من الأئمة والوعّاظ

والمعلّمين للعمل في كوسوفا ومقدونيا ، والسنجق والجبل الأسود وحتى في ألبانيا ، بعد سقوط النظام الشيوعي بها[1] . . .



التعليم الجامعي :

إن التعليم الجامعي الذي بدأ في عام (١٩٦٥م) بعدد لايتجاوز (٩٥ طالباً) ؛ . . أصبح بعد عشرين عاماً في كوسوفا (٤٥,٠٠٠) طالب وطالبة بينهم (١,٠٠٠) طالب ألباني . . ولكن كليات الجامعة لم تقبل غير (٩,٠٠٠) في العام الدراسي (١٩٨١ـ١٩٨٢م) .

. .إن هموم كوسوفا كثيرة ، لكن الشاغل الأول للمسؤولين في

---

(١) نشرة وزّعتها مدرسة علاء الدين في كوسوفا وكانت الترجمة إلى العربية لـ « كمال مورينا » .

الإقليم هو قضية التنمية الاقتصادية ، التي يرون فيها المفتاح الأول ، إن لم يكن (الأوحد) لحلّ كلّ مشكلات بلدهم[١] .

التصوّف في كوسوفا :

تعتبر المناطق التي كانت واقعة داخل الإطار اليوغسلافي ، والتي كانت سابقاً داخل الإطار العثماني ، من أغنى المناطق في أوربا بالطرق الصوفية .

وبشكل عام ، يمكن القول : إن كافة الطرق الصوفية المعروفة في الإسلام ، قد وجدت امتدادها في هذه المناطق بالإضافة إلى المناطق الأخرى في البلقان .

. . إن غنى هذه المناطق بالطرق الصوفية ، يكاد يرتبط فيما يرتبط ، بالظروف التي صاحبت دخول الإسلام ، ومن ثم انتشاره في هذه المناطق ، قبل دخول العثمانيين إليها[٢] . في عام (٦٥٩ هـ ـ ١٢٦١م) ظهرت شخصية (سلافية) مهمّة ، كان لها دور كبير في نشر الإسلام بين البلقانيين ، وهي « ساري ساتلوك » Satluk Sari وقد كان يعمل في خدمة أحد ملوك التتار « نوغاي » Nogay الذي سيطر على مناطق كثيرة في شمال البحر الأسود . ومع ما يقال أنه وصل إلى رومانيا ، إلا أن نفوذه الروحي انتشر أساساً في المناطق الألبانية ، ويدلنا على هذا كثرة الأضرحة المقامة له من ناحية ، وكثرة الروايات التي لاتزال حية حول كراماته ومعجزاته . . والشيء المثير أن الإيمان بكراماته مازال سائداً حتى الآن .

والطرق الصوفية ازدهرت بشكل خاص ، مع ما كانت تواجهه من

---

(١) انظر : العربي العدد ٢٧٧ (ص ٨٦ـ٨٧) .

(٢) انظر : العربي العدد ٢٨٥ (ص ٨٢ـ٨٦) .

مقاومة خلال العهد العثماني ، وقد تراجعت كثيراً ، خلال تواجد هذه المناطق في الإطار اليوغسلافي القديم (١٩١٨ـ١٩٤١م) مع تراجع حجم المسلمين ودورهم ، بسبب محاولات التهجير ، إذ كان يكفي أن يهاجر شيخ الطريقة إلى تركيا ، حتى يلحق به الكثيرون من أتباعه ، وقد استمرّ هذا التراجع في وجود هذه الطرق الصوفية الدينية خلال الفترة الأولى من يوغسلافيا الحديثة ، أي (الخمسينيات والستينيات) ، مما خلق انطباعاً بأن هذه الطرق في طريقها إلى الاندثار ، ولكن في (السبعينيات) نجد أن الروح قد عادت إلى بعض هذه الطرق ، ولا شك في أن يعود في جملة ما يعود إلى تشكيل هيئة إسلامية في يوغسلافيا (١٩٧٤م) تُعنى فقط بهذه الطرق الدينية .

إن دراسة الطرق الصوفية في « كوسوفا » تشكل أهمية خاصة ، إذ لدينا حول هذه الطرق تراث واسع من الكرامات والمعجزات ، والأدب الديني الذي يرتبط بشيوخ وأولياء هذه الطرق ، ولهذا التراث أهميته الكبيرة في إطار دراسة وتركيب العلاقات التي كانت تربط بين العرب وسكان هذه المنطقة ، وبشكل خاص العلاقات العربية الألبانية بسبب أن هذه الطرق انتشرت خاصة لدى الألبانيين .

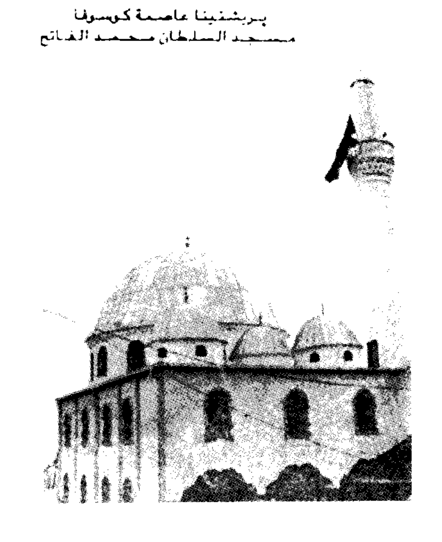
إن عقائد الناس وعوائدهم في « كوسوفا » مختلفة ، وإن بعض الطرق الصوفية قد انتشرت في هذا الإقليم ، فبالإضافة للطريقة (القادرية) وهي أشهر هذه الطرق والتي يرتبط اسمها بالصوفي البغدادي الأصل « عبد القادر الجيلاني » ، هناك طرق أخرى صوفية مثل « الرفاعيّة » و« الخلواتية » و« السعدية » و« النقشبندية » التي تتفرع منها طريقة باسم « الملامية » ، وذلك غير « البكتاشية » ، وهي من الطرق التي ذاع صيتها في ظل الحكم العثماني .

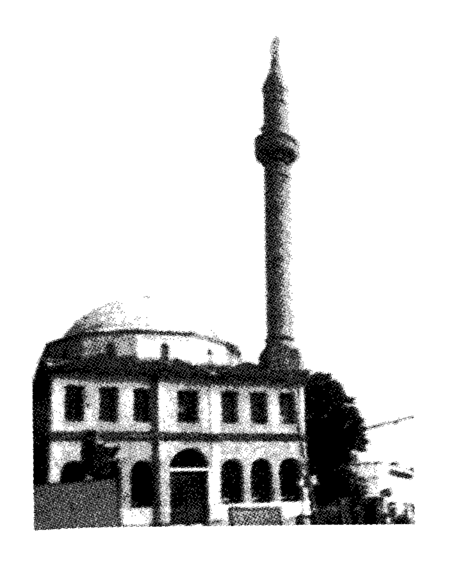
من المعروف أن الطرق الصوفية المتعارف عليها في آسيا وإفريقية ، تجد تربتها الخصبة بين أتباع مختلف مذاهب أهل السنة بالدرجة الأولى .

ولكن المفاجأة الحقيقية من أهل السنّة في « كوسوفا » : « إن أهل السنّة لا علاقة لهم بتلك الطرق الصوفية ، ويستنكرون نشاطاتها وما يتخلّلها من ممارسة كثير من البِدع ، وأن بعضهمِ ذهبوا بعيداً إلى الحدّ الذي يُعتبر خروجاً عن الإسلام ، ومنهم من لا يؤدّي فريضة الصلاة ، اكتفاء بحلقات الذِّكْر ، ومنهم من يفسّر بعض النصوص القرآنية للتحلّل من واجباتهم كمسلمين .

إن الذين ينتمون إلى تلك الطرق أكثرهم من كبار السِّن ، وبسطاء الناس الذين لا يعرفون شيئاً عن دينهم . إن المذهب الحنفي هو السائد لدى المسلمين من أهل السُّنة في « كوسوفا » ، وأن هناك نسبة ضئيلة من الشيعة تتركز في بلدة « جاكوفا »[1] .

بريشتينا عاصمة كوسوفا
مسجد السلطان محمد الفاتح





(١) انظر : العربي العدد ٢٧٧ (ص ٨٥) وأيضاً العربي العدد ٢٨٥ (ص ٦٢) ، وأيضاً : المسلمون في يوغسلافيا (ص ٥٣) .

الثقافة في كوسوفا

الأدب :

إن يوغسلافيا السابقة ومن بعدها جمهورية « صربيا » التي تضمّ « كوسوفا » ليس فيها أدب محدّد الهوية ، ولا نستغرب إذا علمنا أن تلك المنطقة تضمّ في أراضيها شعوباً وقوميات متباينة ومتعددة هي التي تؤلف بمجموعها المتناقض الشعب الذي تضمّه هذه الأرض ، ونستطيع أن نقول : (آداب يوغسلافية) ، لأن الإبداع يتمّ بلغات كثيرة لها ارتباطاتها ، وتأثرها بما يجاورها وخصوصاً : الأدب الألباني ، والهنغاري وغيرهما . . فسكان إقليم « كوسوفا » يتكلمون اللغة الألبانية لأنّهم الأغلبية الساحقة من سكان هذا الإقليم ، ومع هذا يتوزع الأدب الألباني على ثلاث مراكز حيث يعيش الألبانيون وهي :

١ ـ إقليم كوسوفا الذي يتبع « صربيا » .

٢ ـ جمهورية مقدونيا ، حيث يتمتع الألبانيون بوسائل إعلامهم الخاص بلغتهم ونسبتهم (٢٥٪) .

٣ ـ جمهورية الجبل الأسود ، حيث يتمتعون ـ الآن ـ بمنابر ثقافية باللّغة الألبانية (١٢٪) .

ومع أن هذا الأدب الألباني يُعتبر بإجماع النقّاد ، ـ مع أنّه نشأ وترعرع في إطار سياسي واجتماعي ، يختلف كثيراً عن ذلك الإطار المجاور في « ألبانيا » ، الشيء الذي أكسبه مميّزات نوعية جعلته ـ يتميّز في ذاته في

ميدان الأدب والثقافة.. فكانت نهضة عملاقة تمثّلت في نشر مئات الكتب، سواء من الأدب الألباني في كوسوفا، أو من الأدب الألباني المجاور.. ويكفي أن نشير أنه خلال أربع سنوات فقط (١٩٦٦ ـ ١٩٧٠) طُبع من الأدب الألباني في يوغسلافيا أكثر مما طبع خلال خمسين سنة (١٩٢٠ ـ ١٩٧٠م).

الاتجاهات الشعرية :

.. في السبعينيات برز جيل شاب من الشعراء الذي يُعتبر علامة مضيئة في الشعر الألباني في كوسوفا، وفي الحقيقة، فقد تمكن هذا الشعر في هذه الفترة أن يدخل في تنافس مع الشعر الألباني في ألبانيا، بحيث أصبح أن يعبِّر عن اتجاهات شعرية متميزة في إطار الأدب الألباني.. وأصبحت القصائد موضوعاً لعدة ملاحم شعرية، كما أنها أصبحت تشمل أدب الأطفال أيضاً[١].

* * *

(١) انظر : مختارات من الشعر الألباني المعاصر/ د. محمد موفاكو، دمشق، اتحاد الكتاب العرب ١٩٨١.

قصائد من كوسوفا

انهضي كوسوفا

هيا يا كوسوفا
انهضي
يا أمي الحبيبة
فقد سحقوا مني الألم
والجبين

* * *

هيا انهضي وتذرّعي بالصبر
هيا اسمعي نحيبي وبكائي
من أعماق القلب والروح
طوّقتك بيدي
معانقاً عظامكِ

هيا انهضي يا كوسوفا
فمن يمكنه بعد اليوم
أن يستند إلى أغصاني ؟
لمن تتركين هذه الأماكن
الرائعة
التي استحالت حروفاً دموية
متفجّرة
على وجهك المثخن بالجراح
المتعددة حولنا ؟ . .

* * *

لن أغلق باب الدار
فانهضي يا كوسوفا
المحمومة
يا مدفن الشهداء
وليحترق العالم
لأجلك[1]

---

(١) شعر « علي بودريميا » ولد في مدينة « جاكوفا » ، « كوسوفا » تخرّج من قسم اللغة والأدب الألباني في جامعة « بريشتينا » ، له عدد من الدواوين ، انظر : مجلة =

برشتينا

برشتينا يا قطعة من كبدي
أيتها القابعة في أسفل التلال
في قلب حفرة عميقة
يا من دفنت فيك قطعة من روحي

* * *

سأتحدّث عن الشاحنات القادمة
لتحمل قوافل المبعَدين ،
مسحوقين ، مُنهكين ، يقتلهم النّعاس ،
يتنفّسون في الظلام ، في الأكواخ .
الرجال حليقو الرؤوس ، تخلّت قلوبهم
وتختلط فيها الرهبة مع الكراهية .
ينظر الأعداء إلينا . .
حين تلتقي نظرتنا بأحداقهم ،
تتألّق بنار الثأر .

* * *

= المعرفة ، اتحاد الكتاب العرب/ العدد ٢١٧ ، آذار ١٩٨٠م ص١.

أيّها الأصدقاء
تسقطون شهداء ويتبدّل ليل العبودية
يريدون أن يصبغوا شمسنا بالسواد
لكنّ أشعّتها الذهبية
تتجدّد في سماء كوسوفا .

* * *

برشتينا . . كوسوفا
أيّها الوطن الغالي
لن نفقد الأمل
سيأتي يوم نخبر العالم فيه
عن الدم المـُراق في « درينيتّسا »
ونطالب بالثأر الذي لن تنطفىء ناره
المتفجّر من دم الشهداء(١)

* * *

شعر : للزار سيليجي ـ ألبانيا

ترجمة : عبد القادر أرناؤوط

---

(١) انظر : مجلة المصور ، عدد ٣٨٦٣/٣ رجب ١٤١٩ هـ و ٢٣ أكتوبر/ت١/١٩٩٨م القاهرة (٥٣) .
وأيضاً مجلة : نوافذ/ دورية تعنى بترجمة الأدب العالمي/ النادي الأدبي الثقافي بجدة/ المملكة العربية السعودية العدد الرابع صفر ١٤١٩هـ ـ يونيه/ حزيران ١٩٩٨م (ص ١٠١ ـ ١٠٩) .

جدّي وأبي وأنا

جَدّي الكبير كان يُقسم

بالشمس والقمر

أبي كان يقسم

بالتربة والقرآن

أما أنا ، فأقسم :

بقلب الإنسان

من حيث تشرق الشمس

بعيون جبهته

حيث الشمس والقمر يشعّان[1]

* * *

تقسيم ألبانيا :

ومثلما كانت مذابح (١٩١٢م) في ألبانيا حيث قطّعت الدول الكبرى أوصالها ووزّعتها على اليونان والجبل الأسود وصربيا التي كان من نصيبها إقليم « كوسوفا » ، فكان ذلك بداية رحلة الشتات الألباني الحديث ، وكانت أيضاً بداية رحلة الأحزان بالنسبة للذين بقوْا في « كوسوفا » وقُدِّر لهم أن يعيشوا غرباء تحت حكم الملكية اليوغسلافية .

---

(١) أنورجرتشكو (١٩٢٨)م : ولد في مدينة جاكوفا Gjakouva في كوسوفا . درس اللغة والأدب الألباني في جامعة بلغراد ـ له عدة دواوين . انظر : مختارات من الشعر الألباني المعاصر (ص ٢٣ و ١٨٤) .

لقد عومل مسلمو « كوسوفا » باعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية والذين عاصروا تلك المرحلة ، لايزالون يذكرون كيف حُرموا من كل شيء ، من التعليم ، ومن الوظائف الحكومية ، ومن أي خدمات كانت تقدمها الدولة ، حتى لغتهم الألبانية مُنعوا من استخدامها .

ويذكر بعض الذين لايزالون على قيد الحياة ، أن النظام الملكي . . كان يريد أرضهم الغنية . . ولا يريدون البشر . . ـ مثل (إسرائيل) ـ .

. . كانت الإدارة اليوغسلافية تعلن على الجميع : (أن المسلمين ليس لهم مكان في « كوسوفا » وأن مكانهم الطبيعي هو : تركيا) وتُرجم هذا الموقف في اتفاقية رسمية وقِّعت بين البلدين في عام (١٩٣٧) ، تقضي بتهجير الألبانيين من كوسوفا إلى تركيا ، نظير مبلغ من المال ، ولكن نشوب الحرب العالمية الثانية عام (١٩٣٩م) ، حال دون تنفيذ تلك الاتفاقية ، وإن لم يمنع الاستمرار في سياسة التهجير التي كانت تنشط وتهدأ تبعاً للظروف .

ورغم انتقال يوغسلافيا من الملكية إلى الجمهورية بعد الحرب العالمية الثانية كان يمثل انقلاباً في مختلف نواحي الحياة ، وانتقالاً من الملكي الإقطاعي والرأسمالي إلى الاشتراكي والشيوعي ، إلاّ أن هذا الانقلاب لم يغيّر من أوضاع مسلمي « كوسوفا » شيئاً .

فقد ظلّ مسلمو كوسوفا . . عنصراً غير مرغوب فيه ، وشهدت الخمسينيات حملة تهجير واسعة النطاق لم تمانع الحكومة التركية في قبولها ، وإن اشترطت على كل مهاجر أن يوقِّع إقراراً بأنه تركيّ الأصل حتّى لا يطالب بأيّ حقوق باعتباره ألبانيّاً .

بقيت « كوسوفا » حتى الخمسينيات بؤرة للتخلف والجهل ، فضلاً عن كونها مستودعاً لأحزان المسلمين الألبان . . وبلغت نسبة الأمية في عام

(١٩٥٠م) ، (٩٠٪) ولأن استخدام اللغة الألبانية كان ممنوعاً حتى عام (١٩٤٥م) ـ فقد طُبع أول كتاب باللغة الألبانية في « كوسوفا » (ديوان شعر) في عام (١٩٥٢م) بينما صدرت أول رواية ألبانية في « بريشتينا » عام (١٩٥٧م)[١] .

كوسوفا والقبضة الحديدية :

في الفترة (١٩٤٨ ـ ١٩٦٨م) عانى المسلمون الكثير من عَنَت السلطة التي عاشتها يوغسلافيا كلها في ظل ما سمّي بسياسة (القبضة القوية) .

كان قد استلم زمام الحزب والحكم ، الجناح المتشدّد بقيادة « الكسندر رانكوفيتش » المسؤول عن كل عمليات القمع والظلم الذي أصاب اليوغسلاف ، وبخاصّة المسلمين منهم على مدى السنوات العشرين ، وكانت جريرة أهل « كوسوفا » التي لم تُغْتَفَر ، أنهم مسلمون ، وغرباء ـ برأي الصرب ـ . وأصاب الإهمال كل شيء في الإقليم ، في الزراعة والصناعة ، بالإضافة إلى الجهل المسيطر ، ونقلت ثروات الإقليم من معادن وغيرها إلى خارجه ، وازداد خوف المسلمين وبؤسهم وفقرهم أيضاً ، حتى أن دَخَلَ الفرد الكوسوفي كان يُعدّ أدنى معدل في يوغسلافيا كلها .

بعد سقوط « رانكوفيتش » وسياسة القبضة القوية معه ، اعتبر أهالي « كوسوفا » أن صفحة جديدة بدأت منذ عام (١٩٦٨م) ، حيث أخذوا مزيداً من حقوقهم وحرياتهم ، كفلتها تعديلات عامي (١٩٧١ و١٩٧٤م) الدستورية . فصار المسلمون يستطيعون أن يعلنوا إسلامهم

---

(١) انظر : العربي العدد ٢٧٧ (ص ٧٤ ـ ٧٥) .

في الأوراق الرسمية ، ـ وهو ما كان محظوراً من قبل ـ وسُمح لهم بقدر أكبر من الحريات الدينية التي شملت إقامة المنظمات وجمع الزكوات وترميم المساجد . كما أصبح الإقليم يتمتع باهتمام أكبر في خطط التنمية[١] .

سعير يوغسلافيا :

قال الرئيس تيتو عن كوسوفا : . . هذا القسم الألباني الذي بقي في يوغسلافيا ، بعد أن شملته حدود (١٩١٨م) تعرض إلى أبشع أنواع الاضطهاد القومي والاجتماعي . . على مدى ثلاثين عاماً تقريباً (١٩١٨ ـ ١٩٤٥م) . . فيوغسلافيا القديمة . . التي قُصِد فيها أن تكون جامعة ديمقراطية لكل القوميات المتناثرة ، كانت « بلداً نموذجياً في أوربا من حيث الاضطهاد القومي . ! » ، حيث استُعبد فيه الألبانيون وغيرهم ، وفي إطار هذا السجن وجد الألبانيون أنفسهم إلى جانب غيرهم من المسلمين ، إزاء وضع مأساوي ككتل غير مرغوب فيها داخل يوغسلافيا ، وعلى هذا فقد كان المخطط الرسمي يرمي دون مواربة إلى محو الشخصية الألبانية القومية بأسرع ما يمكن ، ومع الزمن امتدّ هذا التهديد إلى الوجود الإنساني نفسه . . فبدأت الهجرة الألبانية التي اضطرت عشرات الألوف للبحث عن مأوى خارج سعير « يوغسلافيا »[٢] .

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) انظر : الآداب الأجنبية/ شهرية ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق العدد (٢٢ ، ٢٣) السنة السادسة تشرين الأول ١٩٧٩م (ص ١١٣ ـ ١١٤) .

الألبان المسلمون في بريشيفا ، وبويانوفس ومدوجا :

هي ثلاث بلديات ألبانية تقع حالياً في الصرب الجنوبي شرق كوسوفا . كانت هذه الأقاليم أثناء الحكم العثماني جزءاً متمماً لولاية كوسوفا ، بينما كانت تعرف بريشيفا على أنها المركز منذ مطلع القرن الرابع عشر (مركز زوبا) . بعد مؤتمر برلين عام (١٨٧٨م) مرّت الحدود بين ولاية كوسوفا وصربيا عبر (بريستوفانس وبين بويانوفس وورانيا) . لقد أدى الاعتراف في ذلك الوقت بحدود الصرب على المناطق الألبانية (لتوبليسا) في القسم الشمالي لكوسوفا الحالية ، وفي الشرق لغاية جوار مدينة (نيش) ، إلى قيام الدولة الصربية وإلى إبادة جماعية للألبان المقيمين في هذه المناطق ، وتلا ذلك هجرة جماعية لسكان ٧٠٠ قرية من الألبان ، لقد صادرت السلطة الصربية أراضيهم وممتلكاتهم ، وسُفكت دماؤهم واضْطُهدت عائلاتهم وتم ترحيلهم . وكانت (بريشيفا) قبل وبعد عام ١٨٧٨ مركزاً (لكازا) . . في الإدارة العثمانية بما فيها أراضي (بويانوفس) . وقد أُخضِع ألبان هذا الإقليم ، ـ كما هو الحال مع بقية السكان الألبان في (كوسوفا) أثناء الحروب البلقانية ـ إلى إبادة جماعية ارتكبتها السلطات الصربية أدت إلى ترحيل إجباري لكافة السكان إلى (شكوب)[1] على أن يعودوا إلى مقاطعتهم خلال شهور بعد عام ١٩١٨ ، بعد الحرب العالمية الثانية ، عُزِلَ ألبان بريشيفا وبويانوفس ومدوجا للمرة الثانية عن بقية المجتمع الألباني في مركز كوسوفا ومقدونيا محتفظين بوضعهم إمّا كمراكز مقاطعة ، أو بلدية داخل صربيا . لم يكن لدى الألبان في أي واحدة من الدول السابقة في

---

(١) شكوب : سكوبيا عاصمة مقدونيا .

بريشيفا وبويانوفس ومدوجا أيّ إمكانية لاختيار الدولة أو الوحدة الإدارية التي يرغبون الإقامة فيها .

يقطن إقليم برشيفا ، وبويانوفس ومدوجا ألبان بصررة رئيسية كانوا يشكّلون في الماضي جزءاً مكوّناً من إقليم داردانيا .

نظرة تاريخية :

خلال الحكم العثماني ، اعتنق سكان هذه البلديات الألبان ، بالإضافة إلى قسم كبير من الألبان ، الديانة الإسلامية ، وكانوا دائماً جزءاً من العرق الألباني ككل ، رغم الانقسامات الإدارية التي نجمت عن الغزوات المتنوعة في مسار التاريخ . يشكل هؤلاء ضمن الأمة الألبانية فيما يخص بالاثنوغرافيا ، جزءاً من السكان الألبان لكوسوفا ومقدونيا الشمالية ، وأنهم يشاركون في نفس اللهجة الشعبية مع هؤلاء السكان بالإضافة إلى ذات اللغة القياسية مع كافة الألبان بغضّ النظر عن مكان إقامتهم . علاوة على ذلك ، فإنهم يشكلون جزءاً لا يتجزأ من الكل الأثنوغرافي ، الجغرافي ، والاقتصادي لمنطقة « كاراداك » التي تمتد إلى « كوسوفا » ، ومقدونيا وصربيا من ناحية ومنطقة جولاك التابعة لكوسوفا من ناحية أخرى .

يغطي إقليم بريشيفا ، وبيوفانس ومدوجاً أرضاً مساحتها (١٢٤٩كم٢) يقطنها أكثر من (١٠٠،٠٠٠) نسمة .

يشكل الألبان الأكثرية المطلقة من السكان (٩٥٪ تقريباً في بريشيفا ، و٦٥٪ تقريباً في بيوفانس وما يزيد عن ٣٥٪ في مدوجا) . والبقية الباقية من السكان هم من الصرب والغجر .

لقد انتقل قسم ملحوظ من السكان الصرب ، الذين يعيشون الآن في

هذه المنطقة ، إلى هذه المناطق عن طريق الاستيطان بعد التهجير القسري الجماعي للألبان المحليين إلى تركيا (١٩١٢-١٩١٣م) ، منذ الإصلاح الزراعي لعام ١٩٢٤ وما بعده ، وفترة رانكوفيتش ١٩٥٣-٦٦) .

لقد اشترك الألبان في بريشيفا وبويانوفس ومدوجا بشكل فعّال في جميع العمليات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية للألبان ككيان قومي .

كما شاركوا في الحركة القومية الألبانية للتحرر من تركيا ، وفي جامعة بريزرن ، وفي حركات التحرر الحاسمة في السنوات ١٩٠٨-١٩١٢ وخاصة في تمرّد كاسانيك ، وفي جميع الحركات اللاحقة لألبانيي يوغسلافيا من أجل الحصول على الحقوق القومية ، إضافة إلى ذلك ، فقد ساهم الكثير منهم في الثقافة الألبانية .

اضطهاد وتهجير :

بالرغم من أن السكك الحديدية والطرق العامة الدولية تمرّ عبر أراضيهم ، ونتيجة لسياسة عدم التنمية المتعمّدة التي تتبعها السلطات الصربية واليوغسلافية في سياسة القمع القومي المستمرّ ، فقد أُجبر ألبان هذه المناطق على الهجرة - بسبب المضايقات السياسية والحكومية أو بحثاً عن المعيشة - إمّا إلى تركيا ، أو أوربا الغربية أو « كوسوفا » .

قبل الحرب العالمية الثانية ، حُرِم ألبان بريشيفا ، وبويانوفس ، ومدوجا ، - كمثيلهم من الألبان الذين يعيشون في يوغسلافيا - من حقوقهم السياسية والإنسانية والقومية .

لقد أجبروا نتيجة لإجراءات الترهيب التي تمارسها الشرطة الصربية أو اليوغسلافية أو الهيئات الأخرى على التخلي عن ديارهم ، كما تعرّضوا للضرب وسوء المعاملة ومصادرة أراضيهم وممتلكاتهم إما بحجّة

الإصلاح الزراعي الشهير ليتمّ توزيعها على المستوطنين أو دون حجّة إطلاقاً .

كانت هذه المناطق أثناء الحرب العالمية الثانية تحت الاحتلال البلغاري الذي كان مُعادياً لهم في الوقت ذاته .

رغم ذلك ، فقد انهمكوا في القيام بنشاطات مستمرة في تلك الفترة من أجل التحرر ، خاصة بعد استسلام المحتلّ البلغاري عندما اندلعت المقاومة الشعبية ضد عنف البلغار والصرب والمقدونيين الشيوعيين .

انتزعت هذه المناطق بصورة عشوائية بعد الحرب العالمية الثانية من ألبان « كوسوفا » ومقدونيا بهدف امتصاص السكان وتضييق مساحة أراضيهم العرقية ليتمّ السيطرة عليها وبدون ربط وظيفي مناسب قطعي مع أي من منطقة فرانجي أو مع منطقة ليسكوفاك .

تضاعف العنف الشيوعي الاستبدادي ضد هؤلاء السكان بوجود التطرف والشوفينية الصربية مما أدى إلى هجرة عدد كبير من ألبان هذه المناطق إلى تركيا حتى عام ١٩٦٦ (يقدر عدد الألبان المقيمين حالياً في تركيا المنحدرين من هذه المناطق يعادل عدد أولئك المقيمين هنا) .

لم تتوقف هذه الهجرات مطلقاً نظراً لعدم استئصال العناصر المحرّضة لها في المراقبة والاضطهاد المستمرّ للأنشطة الثقافية والسياسية ، الفقر المدقع الناشيء عن الظلم ، انعدام الآمال لتنمية لاحقة كتجمّع عرقي .

فضلاً عن الاستثمارات الأجنبية والمحلية الكثيفة ، وفضلاً عن الأوضاع الجغرافية وأوضاع النقل المواتية وحماسة السكان ، فإن هذه المناطق قد تُركت عن عمد بين المناطق الأقلّ تنمية وسلبية في يوغسلافيا ، وفيما يخصّ بالتنمية ، فقد وُضِع خط حدود حاسم : إلى جنوب « فرانج » حيث يقيم الصرب فقد أنشأت ، بالمقارنة ، درجة عالية

من التنمية حيث أقيمت الصناعات التي اعتمدت بشكل أساسي على المواد الأولية من « بريشيفا وبويانوفس » ، جاعلين من هذه البلديات الألبانية أفقر البلديات .

وفي الوقت الحالي ، يقلّ الدخل القومي للشخص الواحد في بريشيفا خمس مرات عن معدّله في صربيا ، وكان مستوى الاستثمار في عام ١٩٨٧ في بلدية بريشيفا (٤ , ١٢٪) فقط من المعدل في صربيا ، بينما كاد أن يصل إلى (٢ ـ ٦٪) في عام ١٩٨٨ .

ومع ذلك ، ففي هذه الأوضاع وعدم تطورها حيث ينخفض معدّل الاستخدام في (بريشيفا) إلى ثلاثة أضعاف عما هو في صربيا فإن السياسة الشوفينية والتمييز العنصري للسلطات الصربية تتّسم بالتخلّص من الألبان على أساس عرقي : حيث إن لجميع الصربيين في هذه الولاية الوظائف والشواغر الحديثة ، يشغلها صربيون من بلديات أخرى بينما يحصل واحد من أصل ثمانية عشر ألبانياً على وظيفة ، وفي (بويانوفس) قد يحصل كل ألباني من أصل اثنين وعشرين على وظيفة واحدة دون أن نذكر (مدوجا) .

تمييز عنصري شامل :

يمكن أن يُرى التمييز العنصري بسهولة فالصرب الذين يشكلون أقل من (٧٪) من السكان يستغلّون ما يزيد عن (٦٠٪) من أموال الشقق السكنية الممتلكة اجتماعياً ، وأن جميع الإدارات المحلية يديرها الصربيون ـ من محافظين وحكام وقضاة ـ إلخ .

ففي (بويانوفس) وفي المجلس البلدي نفسه ، فإن الألبان يشكّلون مجموعة نواب الأقلية فقط (٣١٪) .

ولألبان هذا الإقليم نائب واحد في برلمان صربيا ، وهو يخضع أيضاً للقمع الدائم من الأكثرية الصربية في البرلمان .

إن الإجحاف والتمييز العنصري وإساءة الاستعمال والتصرف يظهر بوضوح ، خصوصاً في حقل التعليم والذي يتمتع مطلقاً بقانونية المدرسة القومية الألبانية مع ذلك ، إن المنهاج التعليمي ومدى مستوى النظام التعليمي الألباني كان مقرراً دائماً ومشروطاً من الصرب .

إن أول صف درّس باللغة الألبانية في تاريخ هذه المناطق بدأ في أواخر ١٩٦١ .

وقد تمّ مؤخراً إغلاق المدرستين الألبانيتين في (مدوجا وبويانوفس) بعد عِقْديْن من وجودهما .

ففي (بويانوفس) وحدها ، فإن المدرسة الابتدائية التي تضم حوالي (٧٠٠ تلميذاً) قد تم إغلاقها أيضاً .

وفي معاهد المدرسة قبل الابتدائية في (بويانوفس ومدوجا) ، فإن العملية التعليمية لا تتم مطلقاً باللغة الألبانية .

لقد طُهِّر منهاج المدارس الألبانية في هذه البلديات من جميع المواضيع المتعلقة بتاريخ الألبان ، كما تمّ تخفيض دراسات الآداب ، والموسيقا والفنون بشكل كبير مع إزالة القومية منها كليّاً ، وقد رُفعت مجموعة من الكتب تقدر بحوالي ٢٠٠٠ كتاب - أَلَّف أغلبيتها كتّابٌ مشهورون - من المدارس والمكتبات العامة بعد عمل بربري قامت به السلطة الصربية - سَرّحَت ما يزيد عن ١٠٠ مدرّس من الخدمة على أساس عرقي ، أو على أساس تطهيرات فكرية سياسية من خلال ما تسمّيه السلطات الصربية « الإجراءات المفروضة » .

يحصل مدرّسو المدارس الثانوية الصربيون على مرتبات أعلى مما

يتلقاها نظرائهم من الألبان رغم أنهم يدرِّسون في نفس المدارس .

إن النشاطات الثقافية والإعلامية باللغة الألبانية تكاد تكون مستحيلة في هذه البلديات .

ولما كانت الصحف اليومية والمجلات الألبانية قد عُطِّلت في « كوسوفا » فقد بقيت هذه المناطق في ظلام دامس فيما يتعلق بالإعلام ولم يُسمح لأي نوع من الصحف اليومية الألبانية أو الدوريات بأن تصدر في هذه المناطق .

حياة بائسة :

لقد أدت التنمية المنخفضة ومستوى المعيشة المنخفض ، والرعاية الصحية الفقيرة وانعدام الوقاية الطبية إلى الانتشار العنيف للأمراض المعدية في هذه البلديات كما أن معدل الوفاة في هذه المناطق هو الأعلى في أوربا (٨٠ ـ ١٠٠ بالألف) .

وكما هو الحال بين الألبان في كل مكان في يوغسلافيا ، فإن التعبير الحر يُحرم مطالبوه ويعاقَبون بشدة ويلي ذلك حرمان الألبان من حق التعليم والتوظيف واضطهاد من الشرطة والسجن لمدة طويلة .

حُرم ألبان هذه المناطق من حق الاتصال مع أقاربهم ومواطنيهم في ألبانيا .

كما أدَّت الاتجاهات الجديدة للتطوير ، إلى الفقر المتزايد ، والتهديدات الأخرى أدت إلى زيادة في الهجرة وخاصة بين الألبان الشباب .

إن إغلاق الحدود ووضع الحواجز للتنقل من وإلى مقدونيا ، بالإضافة إلى الإعاقة المستمرة للتنقل مع ألبانيا قد جعلت هذا الوضع أمراً لا يطاق .

مجابهة الاضطهاد :

فضلاً عما تقدم ، فإن الألبانيين من (بريشيفا وبويانوفس ومدوجا) يبذلون جهودهم لتنظيم أنفسهم لمجابهة الاضطهاد والتمييز العنصري والتفرقة التي تتبعها السلطات الصربية .

لقد تشكل مؤخراً حزبان سياسيان ببرامج ديموقراطية تطالب بتنظيم اقتصادي حر وبحرية التعبير وإقامة المنظمات ، وبصورة عامة إن الجميع يطالبون بالحقوق الأساسية .

لقد وضع كلا الحزبين ، إضافة إلى متابعة هذه القيَم ، بالاشتراك مع روابط المفكرين والمنظمات الخيرية التي بدأت أنشطتها مؤخراً ، والهدف الأساسي هو التحرر السياسي والاقتصادي والثقافي مع إلغاء التمييز العنصري ، أي التطوير الحر لجميع القِيَم الثقافية والقومية الألبانية على أساس إثني مشترك .

إننا نعتبر أن أحد العوائق الرئيسية ، عدا عن شوفينية الدولة الصربية ، للوصول إلى درجة تنمية مقبولة نسبياً في المجال الاجتماعي والاقتصادي والقومي ، كان في انفصال هذا الإقليم عن جسمه الطبيعي والتكامل الاجتماعي والاقتصادي والجغرافي والقومي واتصاله البيئي والمديني .

لهذا ، ومنذ مطلع ١٩٦٨ ، فقد طالب الجمهور بالوحدة مع « كوسوفا » لتشكيل كيان يقدم الإمكانيات المثلى لتنمية شاملة بالإضافة إلى استئصال المصدر الدائم للصراعات العرقية في هذه المناطق .

يُعبِّر ألبان هذا الإقليم ، وهم مدركون للمشاكل الجديّة التي تواجهها كل من المجموعة الأوربية و(I C S C) وهيئة الأمم المتحدة في محاولة إيجاد حل للعلاقات بين الدول في أراضي يوغسلافيا السابقة ويؤيدون في

نفس الوقت وثائق مؤتمر السلام حول يوغوسلافيا واستعدادهم القبول في الوقت الحاضر وضع الحكم الذاتي الإقليمي والسياسي معتبرين هذا على أنه الشكل الملائم الأكثر ديموقراطية والذي يضمن لهم التداول الثقافي والاقتصادي الحر داخل الكيان الاثني للألبان إضافة للمساواة الكلية لجميع المواطنين والقوميات .

بعد أن تغيرت الحدود بين الوحدات المكونة لاتحاد يوغوسلافيا السابقة ، فإن الألبان في هذه البلديات الثلاث في جنوب صربيا سيحققون بالطرق الديمقراطية حقهم الطبيعي في الوحدة مع « كوسوفا » والذين هم جزءاً منها وفقاً لجميع المعايير الإثنية ، والثقافية ، والاقتصادية المناسبة(١) .

وحشية الصرب في كوسوفا :

ما يجري في إقليم كوسوفا اليوم من فظائع يرتكبها الصرب في حق أبناء الإقليم من أصول ألبانية هو إعادة لتنفيذ الوقائع نفسها التي قام بها الصرب في جمهورية البوسنة والهرسك قبيل عدّة سنوات .

والصرب وهم يسوّون مساكن ألبان كوسوفا بالأرض ، ويقومون بالتّصعيد العسكري الذي يؤدي إلى فرار عشرات الآلاف من المدنيين الأبرياء من مدنهم وقراهم إلى حيث لا مأوى بعد عبور الجبال والغابات والبحيرات ومساقط المياه ، الصرب وهم يمارسون كل هذه الأساليب الوحشية يبرّرون أفعالهم بمبرّرات خيالية لا تقنع أحداً ولكنهم لا يملّون من تكرارها لأنها وسيلتهم في التعامل مع حقائق الأمور ومع البديهيات

---

(١) نشرة إعلامية أصدرها سكان المناطق المذكورة من الألبان .

والمسلّمات وحيث لا يقتنعون بغير المنطق الصربي وبغير موروثات العنصر الصربي[1] .

معتقدات أسطورية :

إن الموروثات الصربية ملأى بالخيال والصور الأسطورية . إن الهزيمة الصربية قبل ٦٠٠ سنة في كوسوفا مازالت ماثلة في الذاكرة الصربية التي تعمل على إنتاج أبطالها ونماذجها القديمة عن المجد والبطولة مثل « دروشان » الذي حاولت المقولة الصربية تخليده وخلع صورة من البطولة عليه ، مع أن الأبحاث التاريخية تشير إلى أن الكثير ممن شاركوا في معركة كوسوفا ينتمون إلى بلغاريا وليس إلى الإمبراطورية الصربية التي لم تعمّر طويلاً ، فقد صارت المعركة وذكرى الهزيمة وأبطالها منذ ذلك التاريخ ، الرافعة التي يتركز عليها التفكير الصربي ، الذي ضُمّت مملكته إلى بلغاريا تحت الإدارة العثمانية ، وشكلّت الأسطورة عن الحضارة الصربية تأكيدها في وجه الحرب التي دارت في البوسنة منذ سنوات ، وحملت الأسطورة كل النماذج التي أعطت للتواجد الصربي طابعاً حضارياً ، حيث قالت الإدارة الأكاديمية : أن أرض كوسوفا ظلّت تمثّل الأرض الزكيّة في الوعي الصربي ، وإنها كانت مليئة بالكنائس والرهبانيات التي قامت « البربرية » التركية بتدميرها ، وباحتلال الغالبية الألبانية التي تعيش محل الصرب ، ولازالت الأشعار الصربية تحتفل بذكرى كوسوفا حيث يتغنّى الصرب بالمجد الماضي ويقسمون على إعادة حيثيّاته الماضية[2] . (مع تأجيج سعير نار الحقد ضد الإسلام والمسلمين) .

---

(١) انظر : مجلة المصور المصرية العدد ٣٨٤٤/ ١٢ يوليو / تموز ١٩٨٨م (ص ٢٢) .
(٢) انظر : مجلة فلسطين آب ١٩٩٨ (ص ٥٢) .

حقد صليبي :

.. إن خوف الصليبيين في أوروبا من ظهور دولة إسلامية أصولية دفعهم إلى إرضاع أطفالهم البغض للإسلام والمسلمين ، وبثّ فيهم عقيدة ذبح المسلمين .

إذ تُدرّس في المدارس الصربية الابتدائية ملحمة شعرية باسم « إكليل الجبل » كتبها صربي متعصّب ، ملأها سبّاً وشتماً للمسلمين ودينهم ونبيّهم[1] ..

حقيقة تاريخية :

.. إن الغالبية الألبانية تعيش في الإقليم منذ آلاف السنين ذلك أنها تنتمي في معظمها إلى مجموعة « إيلريا » التي كانت من الشعوب الأولى التي استوطنت في منطقة البلقان مع اليونانيين قبل الميلاد ، لكن الصرب يدّعون من خلال التّهم التاريخية أن الإقليم هو إقليم صربي ، حيث شهد الإقليم ولادة ما يطلق عليه الصرب أول أمة صربية في العصور الوسطى . وحكم الملك « نيمجلك » الذي آمن أن الدولة القومية لا بدّ لها من كنيسة قومية ، وفي عام ١٢١٩م تمّ تعيين أول أسقف عام لصربيا هو القديس « سافا » ويعتقد الألبان أن الوجود السلافي/ الصربي في إقليم كوسوفا لا علاقة له بالمملكة الصربية ، ولكن له علاقة بالغزو الروماني الذي فشل في اجتياح الإقليم ، وعليه فإن السلاف استغلّوا الفرصة واحتلّوا الإقليم .

---

(١) انظر : الملحمة في صحيفة (المسلمون) السعودية عدد ٨/ ٥/ ١٩٩٢م.

نبش القبور وأوهام الصرب :

إن قيام يوغسلافيا الاتحادية بزعامة « تيتو » قد أدّى إلى غياب الأسطورة وحيويتها ، إلا أن انهيار المعسكر الشيوعي ، أعطى الأسطورة مدىً جديداً ، فلم تعد الأسطورة مفهوماً يحمله الصربيون في خيالاتهم وكتاباتهم ، ولكنها تحولت إلى نوع من الوعد الذي قدمه الزعيم الصربي « سلوبودان ميلوسيفيتش » في عام ١٩٨٩ ، حينما قام مع الصرب بإحياء ذكرى هزيمة كوسوفا التي قدمت إطاراً للأسطورة[١] .

.. إن انتصار العثمانيين في موقعة كوسوفا عام ١٣٧١م على الصرب ، هو التاريخ الذي تجمّد عنده الفهم الأسطوري لحق الصرب من وجهة نظرهم وهي الموقعة التي قُتل فيها السلطان « مراد الأول » العثماني والأمير الصربي « لازار » الذي أخرج رفاته من قبره القديم سلوبودان ميلوسيفيتش ـ مع أول وصوله إلى قمة السلطة في صربيا في عام ١٩٨٩م ـ وأعاد دفنه من جديد وهو ينبش قبور الماضي وينكأ الجراح التي اندملت ويحرّك الأحقاد التي كادت تذوب في بحيرات التسامح ومدّ الجسور ، فتجدد مع هذا السلوك الاضطراب في كل البلقان مصحوباً بتدخّلات الجيش اليوغسلافي الاتحادي الذي كان تحت سيطرة بلغراد واعتداءاته على كرواتيا وسلوفينيا وقبل اشتعال المعارك والتصفية العرقية والاغتصاب والقتل والمذابح الجماعية للأبرياء العزّل في البوسنة والهرسك[٢] .

---

(١) انظر : مجلة فلسطين المسلمة ، آب/ اغسطس ١٩٩٨ (ص ٥٢) .

(٢) انظر : مجلة المصور العدد ٣٨٤٤ ، ١٢ يوليو/ تموز ١٩٩٨م (ص ٧٦) .

تكرار أخطاء الماضي :

.. يبدو الأمر برمّته وكأن الصرب يكرّرون أخطاء الماضي البعيد والقريب ومثلما كان عندما انهارت مملكة يوغسلافيا وقبل أن يتعاظم دور الزعيم « جوزيف بروز تيتو » وقيام يوغسلافيا الاتحادية من خلال اتحاد جمهوريات جعل سائر شعوب يوغسلافيا لها جميع الحقوق الدستورية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وحقوق الإدارة العليا والتعليم والثقافة والمعتقد وحرية التعبير ، وهي غير الإمكانات الواسعة التي يعبّر عنها بواسطة اللغات القومية . هذه الخاصّية أقامت الفدرالية اليوغسلافية التي رعاها « تيتو » وانهارت هذه الفدرالية بنزع الأعمدة الرئيسة عن هذه الخاصّية عندما صار الرئيس الحالي سلوبودان ميلو سيفيتش رئيساً لجمهورية صربيا ، فعمل على إلغاء هذه الخاصّية بالنسبة للقوميات الأخرى التي تتمتع بالحكم الذاتي في كوسوفا وفيوفودينا ، مما عجّل بالمخاوف في الجمهوريات الأخرى في الاتحاد اليوغسلافي والاستقلال عن الفيدرالية التي انهارت وبقيت يوغسلافيا بوضعها المنكمش الحالي .

التاريخ يعيد نفسه :

.. لنتذكر قبيل سنوات أن البرفسور « ميروسلاف ماركوفيتش » الذي كان مسؤول التنسيق بين القوميات المختلفة في الاتحاد اليوغسلافي قال : إن يوغسلافيا بها أتباع (٢٦) قومية اختاروا تكوين دولة فيدرالية بها (٦) جمهوريات وإقليمان يتمتعان بالحكم الذاتي من خلال صيغة أوجدت حلاً سياسياً للمسألة القومية التي فشلت مملكة يوغسلافيا ـ النظام الأسبق ـ في علاجها وحيث لم تعترف بجمهوريات أصيلة في نطاق الشعوب السلافية الجنوبية مما جعل الفشل مصيراً لها ، وهو الحال نفسه الذي يصرّ عليه

اليوم « سلوبودان ميلوسيفيتش » في مواجهة ألبان كوسوفا ، وهم من سلالات شعوب أخرى غير السلافية[1] .



(واليوم ننتظر من المجتمع الدولي الممثل بمؤسساته أن يضع حلاً لمأساة كوسوفا وإنّا لمنتظرون) .

الانفجار في كوسوفا :

(لقد قاسى شعب كوسوفا كثيراً من اضطهاد الصرب منذ إلغاء الحكم الذاتي للإقليم عام ١٩٨٩م وبدأت المقاومة السلبية للسلطة غير أن الحقد الصربي انفجر في شهر آذار ١٩٩٨م لإسكات كل معارضة ، فقام الجيش اليوغسلافي بتسليط مدافعه على القرى الآمنة ليدمرها ويهجِّر ويقتل أهلها ليعيد ما ارتكبه الصرب من فظائع في حرب البوسنة على مسلمي كوسوفا) . . وكانت بداية المعارك في قرية « ليكوشان » من منطقة « درينتسا » حيث ارتكب فيها الصرب مجزرتهم الأولى .

---

(١) انظر : مجلة المصور العدد ٣٨٣٤/ إبرايل/ نيسان ١٩٩٨م (ص٢٩) .


آدم و حمزة أوائل الشهداء في درينتسا

أحداث كوسوفا :

(لقد ذكرت صحف العالم من عربيّة وأجنبية ما يجري في إقليم كوسوفا ضد السكان المسلمين على يد جيش الصرب حيث قاموا بالتهجير والقتل والتدمير ، كما أظهرت الأجهزة المرئية الصور الحيّة عن الوقائع التي تحدث في هذا الإقليم ورأينا توجيه الصرب مدافعهم ودبّاباتهم وصواريخهم نحو القرى الآمنة ، فدمّرتها وأحرقتها وقتلت وهجّرت كثيراً من سكانها ، دون رحمةٍ كما ارتكبت أبشع المجازر الجماعية ضد الأهالي) .

قبور جماعية في كوسوفا :

ذكر الاتحاد الأوربي أنه أرسل مراقبين مرة أخرى إلى مدينة « أوراهوفاتش » في كوسوفا ، وهي مسرح معركة ضارية دارت بين القوات الصربية والألبان في شهر تموز ، وذلك للتأكد من صحة التقارير الواردة عن اكتشاف اثنين من القبور الجماعية .

ووفقاً لتقارير بعض الصحف النمساوية والألمانية والسويد ، يُعتقد أن حفّاري القبور ، أحصوا جثث (٥٦٧) إنسان مدفونين في بقعة تبعد (٧٠٠متراً) ، شرق المدينة[١] أمّا المذبحة الكبيرة حدثت في أوائل العام (١٩٩٩)م فكانت في منطقة « راتشكا » التي ذهب ضحيّتها من السكان العزّل أكثر من (٤٥) نسمة بين رجالٍ ونساءٍ وأطفال .

التيارات السياسية في كوسوفا :

(بالإضافة لحزب الاتحاد بزعامة « إبراهيم روغوفا » هناك أيضاً حزب الرابطة الديمقراطية بزعامة « آدم ديميتشي » الذي يرفض العرض الصربي لإنهاء الأزمة ويضع النقاط على الحروف في تحدّيه للمراوغة الصربية وأسلوب الخداع المتغير .

أما جيش تحرير كوسوفا برئاسة « آدم يشاري »[٢] فهو أيضاً لا يقتنع بهذا اللون من الحوارات في ظل منطق الصرب الذي يرفض الاعتراف بالحقوق التاريخية والمبادىء المشروعة لتمتع ألبان كوسوفا بحقهم في تقرير مصيرهم .

---

(١) انظر : المجلة عدد (٩٦٦) / آب ١٩٩٨م .

(٢) آدم يشاري وأخوه حمزة استشهدا في « درينيتسا » .

مصير كوسوفا :

.. إن مصير كوسوفا سيكون مثل مصير البوسنة المسلمة التي أُجبرت تحت الضغوط الأوربية على قبول الوضع الذي تعيشه اليوم.. هذا يعني أن السلام الذي يخيّم على منطقة البلقان سيبقى هشّاً طالما لم يُرجِع لشعوب المنطقة حقوقها ويحفظ لها وجودها وهويتها ، ومالم تلتزم أطراف النزاع به ، وطالما بقي دور القوى الدولية المتنفّذة هامشيّاً ، وبطيئاً في إلزام الطرف المعادي للسلام[1] .

عجز الغرب عن مواجهة الفاشية الصربية :

.. إن الغرب بعجزه عن مواجهة فاشية الصرب غني بالدلالات . لكنه ليس غير متوقّع ،.. إن الفاشية السياسية ما تزال حيّة رغم إلحاق الهزيمة بالفاشية العسكرية في الحرب العالمية الثانية ، لأن الغرب لم يفككها ولم يدمّرها قط على المستوى الرمزي (السياسي) وهذا السبب في أنّ الفاشية ما زالت حيّة .

.. لقد جرى بذل جهد كبير في الغرب حتى لا يتم وصف النظام الصربي بأنه فاشي ، بل للبحث عن الفاشية في مكان آخر حيث تراها « بلغراد » ، فإنه لم تجرِ مواجهة صربيا على الإطلاق.. ومن المفارقات أنه طالما كان الكروات ضحايا العنف الفاشي الصربي ، كانت أوربا تسميّهم بالفاشيين ، أما وقد قاموا هم بمحاربة المسلمين في البوسنة بالأسلوب الصربي ، فإنهم ما عادوا يوصفون بأنهم فاشيون.. فالكروات

---

(١) انظر : معلومات الأسبوع العدد ٢٢٠ ، الثلاثاء ٢٤/ ٣/ ٩٨ دمشق (ص٦) .

والصرب قاموا بتطهير الأرض التي منحها إياهم صانعو السلام الأوربيون من (الحثالة) المسلمة[1].



ريتشارد هولبروك

* * *

---

(١) انظر : أوربا وتدمير الآخرين / توماس ماستناك/ (باحث سلوفيني) ت : بشير السباعي/ مصر العربية للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩٥ (ص ٤٢-٤٦) .

شبهات حول الموقف الأمريكي ـ الأوربي من كوسوفا

.. إن السياسة الأمريكية في منطقة البلقان قائمة على شرذمة الدول ذات القوميات المختلفة وتشجيعها على التحوّل إلى دول مستقلة ، إلا المسلمين الذين كتبت عليهم السياسات الإمبريالية الغربية بأن يظلّ استقلالهم حلماً غير قابل للتحقيق . وقد برزت هذه السياسة العجيبة في إرغام مسلمي البوسنة على توقيع اتفاق « دايتون »[١] ـ سيىء الصيت ـ الذي حوّل البوسنة والهرسك إلى كيان يحكمه المسلمون والصرب والكروات على قدم المساواة من خلال هيئة رئاسية ثلاثية في الوقت الذي يوجد فيه للصرب والكروات دولتين منفصلتين ومجاورتين للبوسنة مما يحرم المسلمين من كيان مستقل مع أنهم الأكثر عدداً !

إن شعب كوسوفا المسلم يرفض العيش تحت حكم الصرب الذي أثبتت التجربة أنّهم من أكثر القوميات الأوربية حقداً على المسلمين وكراهية لهم .

* * *

(١) أعطى اتفاق دايتون لـ « صربسكا » جمهورية صرب البوسنة ٤٩٪ من أرض البوسنة ، وللمسلمين والصرب والكروات ٥١٪ فقط .

شهادة غربية

كوسوفا ـ التسوية الهشة

وضعوا جانباً ، الأكبر سنّاً . كنا أربعة عشر فرداً ، جعلونا ننبطح أرضاً على بطوننا ، وأيدينا فوق رؤوسنا ، سمعنا خطوات رجل يتقدم ، ومن ثمّ بدأ إطلاق النار ، جُرحتُ ، كنتُ أتألم ، وبجانبي كان هناك رجل يصرخ ، لقد أصيب بعيارين ناريين جديدين .

هذه الشهادة نشرتها جريدة « اللوموند Le mond » الفرنسية في ٢٨ تشرين الأول ١٩٩٨م والتي قدمها النّاجي الوحيد من مجزرة مدنيي كوسوفا التي ارتكبتها القوات الخاصة الصربية ، والتي لم تفاجىء إلا أولئك الذين كانت لديهم أوهام حول الوسائل التي تستعملها « بلغراد » لفرض نظامها ، كما وتؤكد الروايات المرعبة التي يجمعها « أطباء بدون حدود » أنّ السلطة الصربية تمارس اليوم في « كوسوفا » نفس سياسة الرعب التي مارستها بالأمس في البوسنة .

في الوقت نفسه أعلن « ريتشارد هولبروك » مبعوث الرئيس الأميركي « بيل كلنتون » عن انسحاب ضروري للقوات الصربية ، وعند ذلك وفي اللحظة الأخيرة تمّ تأجيل ضربات حلف شمال الأطلسي ، وهذا التأجيل بعث في النفوس شعوراً بالقلق والريبة .

إنها ليست المرّة الأولى التي تلعب فيها « بلغراد » لعبة القط والفأر مع

المراقبين الغربيين المكلفين بمتابعة حقيقة الانسحاب الصربي ، هذا دون الحديث عن الخطر الآخر المتمثّل في أن مقاتلي جيش تحرير كوسوفا يمثّلون حجّة لسلوبودان ميلوسيفيتش في المضيّ بسياسته الإجرامية[1] .



* * *

---

(١) انظر : مجلة « لوبوان Lepoint » الفرنسية العدد ١٣٦١/ ٣١ اكتوبر ـ ت١ ١٩٩٨م (ص ٣٠) .

الارتباك الأمريكي وكوسوفا

.. حالة الارتباك الأمريكي تبدّت في مأساة البوسنة ـ قبل أعوام ـ وأيضاً (الآن) في كوسوفا ، ففي حالة البوسنة استمرت الإدارة الأمريكية سنوات على ترددها وإحجامها عن التدخل إلى أن تعرّضت لضغوط دولية وداخلية كبيرة لكي تفعل شيئاً في مواجهة المذابح واسعة النطاق التي أقدم عليها الصرب في البوسنة . .

والمسألة ذاتها تتكرر حالياً في كوسوفا ، وتعمد الولايات المتحدة إلى تصديق وعود الرئيس الصربي « ميلوسيفيتش » على الرغم من أنها متأكدة أنه سينكث بتلك الوعود ولن يتورّع عن تحقيق مطامعه في كوسوفا ، والآن ، أو في المستقبل القريب . . لقد كان كل ما فعله المبعوث الأمريكي « ريتشارد هولبروك » في كوسوفا هو أنه حقّق نوعاً من السيطرة على حالة من حالات الطوارىء ، لكن الأزمة مازالت قائمة ومستمرّة ولا يبدو لها حلّ جذري في الأفق . .

فواشنطن فعلت في كوسوفا ، مثلما فعلت قبل ذلك في البوسنة ، لم تواجه الهوة العميقة الكامنة بين نوايا الأطراف المتنازعة وبين النتائج التي تمّ التوصل إليها . . أو حتى بين نوايا المجتمع الدولي في التدخل ، وبين النتائج التي تحققت[١] . .

---

(١) انظر : مجلة آخر ساعة المصرية عدد ٣٣٤٥/ ديسمبر/ كانون أول ١٩٩٨م (ص ١٧) .

الغرب لا يؤيد استقلال كوسوفا :

إن الغرب بشكل عام لا يؤيد استقلال كوسوفا ، بل هو يحبّذ تطوير شكل الحكم الذاتي ، ومنح ألبان كوسوفا مزيداً من السلطات المدنية تحت حكم الصرب ، لذلك اقتضت مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية وغالبية دول أوربا الغربية التحرك بسرعة لدفن أي طموح لدى شعب كوسوفا بالاستقلال التام ومن هنا جاء التحرك الأمريكي السريع في البلقان . وكما حدث في البوسنة ، لم تتحرك الولايات المتحدة فعليّاً ، إلا بعد أن أوغل مجرمو الصرب في دماء أهل البوسنة المسلمين وبعد أن وصلوا إلى مرحلة لا يمكن معها إلا التسليم بأي حلّ يُعرَض عليهم فكان اتفاق « دايتون المشؤوم » .

خمسون عاماً من العنف والاضطهاد :

لم تكن العلاقات بين الغالبية الألبانية والأقلية الصربية في كوسوفا طبيعية طوال السنوات الخمسين الماضية ، . . كانت علاقات لا تقوم على التسامح أو الاحترام المتبادل ، إنما على نطاق عنصري حاقد من جانب الصرب وخوف متزايد من جانب المسلمين الذين انتهجوا حتى عام ١٩٩٣ سياسة قائمة على المقاومة السلبية ضد الإدارة الصربية وعلى مطالبة المجتمع الدولي التدخل من أجل إيجاد حلّ لقضيتهم ومطالبهم وبسبب تجاهل المجتمع الدولي لمطالبهم ، ومع زيادة الاضطهاد الصربي عليهم لجؤوا إلى المقاومة المسلّحة منذ خمس سنوات تقريباً . ويزعم الصرب بأن كوسوفا كانت مهداً لدولتهم وإنه المكان الذي خرجت منه كنيسة الصرب الأرثوذكسية ، كما يتذرّع الصرب بأن تزايد عدد السكان الألبان سينهي سيطرة الصرب ، ويحرم الأقلية الصربية من « حقوقهم » في

كوسوفا وهي مزاعم باطلة لأن هذه الأقلية زُرعت في كوسوفا واستوطنت المنطقة الشمالية من الإقليم الغنية بالمعادن ، وقد استأثر الصرب البالغ عددهم (١٥٠ ألفاً) في الإقليم بالوظائف العامة وتركوا أكثر من (٧٠٪) من الغالبية الألبانية عاطلة عن العمل مما دفع أكثر من نصف مليون منهم إلى ترك بلدهم بحثاً عن فرص عمل في أوربا الغربية .

صبر دون طائل :

.. شعب كوسوفا المسلم يشعر أن صبره على مدى السنوات الخمسين الماضية لم يوصله إلى أيّ نتيجة ، وهو يعلم أن العصيان المدني لن يؤدّي إلا إلى تغليظ العصا الصربية المبالغة في شوفينيّتها وحقد الصرب على كل القوميات الأثنية الأخرى وخصوصاً المسلمين الذين اعتبرهم الكيان اليوغسلافي السابق قومية على الرغم من أنهم ينتمون إلى أجناس مختلفة .

إن أحد الحلول التي قد يقبل بها الصرب في نهاية الأمر ، هو اقتطاع الأجزاء الشمالية من كوسوفا ، الغنية بالثروات الطبيعية والتي يستوطنون بها وضمّها إلى صربيا ، وضمّ باقي الأجزاء إلى ألبانيا المجاورة ، وهو حلّ لن يرضي شعب كوسوفا بالتأكيد ، وسيدفعه إلى مقاومة هذا الحلّ بالقوة[١] . .

من هذا المنطلق راجت معلومات عن وجود خطّة دولية لتقسيم الإقليم بين صربيا وألبانيا على نمط البوسنة وقبرص ومن الذين كشفوا عنها مدير معهد السياسة الخارجية اليوناني « تاماس فيريميس » الذي ذكر أن الرئيس

---

(١) انظر : مجلة فلسطين المسلمة ، العدد الربع ، السنة السادسة عشرة / ذو الحجة ١٤١٨هـ/ نيسان ١٩٩٨م (ص٤٧) .

اليوغسلافي « ميلوسيفيتش » ، « يبدو غير معارض لهذا الحل وأن عمليات قواته تسلك طريقاً باتجاه فرض ذلك على الأرض من خلال السيطرة على مناطق محددة وتنظيم سكاني فيها مع تأمين بقاء الأماكن الحضارية الصربية والمناجم في الشمال من حصّة الصرب » . ويشير محللون في البلقان إلى أن ضرباتٍ جوّية أطلسية ضد أهداف صربية ستساعد في تنفيذ عملية التقسيم ، لأنها ستقابل بانتقامٍ صربيٍ شديد من الألبان ، مما يرغمهم على الفرار باتجاه المناطق الغربية والجنوبية القريبة من الحدود مع ألبانيا ، وسيؤدي ذلك إلى الحاجة لإقامة ملاذٍ آمن لمنطقةٍ جغرافيّة تجمع النازحين الألبان وتكون خطوة عمليّة لترسيخ الحلّ التقسيمي . ويشير هؤلاء المحللون إلى أنّ تصرفات القادة الصرب تبدو وكأنهم يلهثون وراء الضربات الجوية التي يعتبرونها فألاً مناسباً لتصفية أمورهم مع الألبان على رغم الأضرار الكبيرة التي يمكن أن تلحقها بإمكانات البلاد العسكرية والاقتصادية .

وفي كل الأحوال ، فإن الطرفين الصربي والألباني يستعدّان على حدٍّ سواء لخوض الحرب الشاملة التي تعتبر آتية لا محالة ، ويأمل كلٌّ منهما أن يكون المنتصر فيها[1] .

* * *

---

(١) انظر : مجلة الوسط العدد / ٣٦٥/ في ٢٥/ ١/ ١٩٩٩/ (ص٣٢) .

المسلمون والحلم الأوربي

.. إن سياسة الغرب هي معاداة القومية تحت شكل معاداة المسلمين ، فالأمة ذات السيادة ، يجب القضاء عليها ، ليس فقط لأن بناء الدولة يُنظرُ إليه على أنه مصدر إزعاج ، بل أيضاً يجب تفادي خطر حضور سياسي مسلم في أوربا ، (والطريق الأقصر) هو اختزال عدد المسلمين بما يكفي بحيث يتخلّوْن عن الأمل في أن يكونوا شيئاً آخر غير جماعة عرقية .

ولا أودّ أن أسمي ذلك مؤامرة . إنه أشبه بذلك وقد تحوّل إلى واقع .

فطرد المسلمين من أوروبا هو الحلم الأوربي . وتطهير أوربا من (المسلمين) كانت الفكرة الملحّة لأعظم شخصية من شخصيات التنوير . « فولتير »[1] حيث قال : « لا يكفي إذلالهم ، بل يجب تدميرهم » . وأفضى للإمبراطورة الروسية : « انتصري على الأتراك[2] (المسلمين) وسوف أموت مرتاحاً » . هذا الحلم مايزال يحيا حياة قوية ، حيّاً حياة الأحلام !

---

(١) فولتير : Voltaire (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨م) : ولد في باريس ، مؤلف فرنسي ، من نوابغ زمانه . . قاوم السلطة الدينية والمدنية . . كتب في الشعر والتاريخ وغيرهما . . من مؤلفاته المحاورات الفلسفية ، (كنديد ، زئير ، محمّد ، شارل ١٢) .
انظر : المنجد في الأعلام ط١٩/ ١٩٩٢ (ص ٤٢١) .

(٢) من المعروف أن الأوربيين يعتبرون أن كل مسلم هو « تركي » .

.. والفاشيون الصرب يحققون الحلم الأوربي.. وهذا يمنح الأوربيين فرحة مزدوجة : فرحة تحقيق الحلم ، وفرحة عدم اضطرارهم إلى تلويث أيديهم بالدماء.. على أن هذا الحلم وهو كابوس للمسلمين في أوربا ، لا بدّ له من أن يصبح كابوساً للأوربيين أنفسهم .

المساعدة الإنسانية سلاح أوربي فتّاك :

أما المساعدة الإنسانية فهي ليست علاجاً ـ مع كل الاحترام الواجب لأولئك الذين هم في سترة الأمم المتحدة يقدّمونها . إنها أكذوبة : فاليد التي تطعم المقهورين ، هي التي تقيّدهم تمهيداً لقتلهم.. إن المساعدة الإنسانية قد خدمت كمبرّر لتجنّب عمل عسكري غربي ، ولأن ذلك يسمى حفظاً للسلام . فإن المرء لا يمكنه إلا قول : إنه من بين جميع الأسلحة التي اخترعتها أوربا ، « فالسلام » يبدو أنه السلاح الأكثر فتكاً[١] .

مشكلة كوسوفا :

ثبت أنّ مشكلة كوسوفا من المشاكل القومية الألبانية بعد الحرب العالمية الأولى إذ أنّ المحاولات الصربية الدؤوبة بفتح الطريق إلى الجنوب باتجاه الساحل الأدرياتيكي عبْر الأراضي الألبانية ، أثمر بعد حروب البلقان ، وإن مقاومة السكان المحليين والتدابير التي اتخذتها السلطات الصربية ، دفعت أحد الكتّاب الصرب إلى القول : « إن السلطات الصربية فتحت سجلّ مذابحها وجرائمها الاستعمارية منذ عام (١٩١٣م).. فالصرب باتخاذ إجراءات عنيفة لوقف الصدامات والقيام

---

(١) انظر : كتاب أوربا وتدمير الآخرين/ مصدر سابق/ (ص ٤٨ـ٥٢) .

بحملات منظّمة لتجريد السكّان من السلاح فالحقيقة المرّة التي واجهتهم هي الحالة السائدة في الإقليم والتي تطالب بضمّه إلى الدولة الألبانية ، وهذا ما دفع الصرب إلى استعمال العنف لاستئصال مثل هذه الأفكار والآمال القومية والقضاء عليها بالقوة »[1] .

* * *



شكراً لعدم تدخلكم عن «الهيرالد تريبيون» الامريكية

---

(١) انظر : تاريخ العالم العدد / ١٧٧/ كانون الثاني وشباط / ١٩٩٩/ (ص٦٥) .

جيش تحرير كوسوفا

خلال شهر رمضان المبارك ١٤١٩هـ وأوائل شهر كانون ثاني ١٩٩٩م التقيت بأحد رجال جيش تحرير كوسوفا في دمشق فأحببت أن أستفسر منه عن بعض المعلومات التي ترتبط بالأحداث الجارية في إقليم كوسوفا وكان هذا الرجل في زيارة لقريب له يدرس في جامعة دمشق الذي ساعد في ترجمة وتوضيح المعلومات التي أفادنا بها عضو جيش تحرير كوسوفا واسمه الحركي « كوشتريم خوجا Hoxha Kustrim » .





قال : لقد تشكل هذا الجيش من ألبان كوسوفا بعد أن رأى أن الأمور ازدادت سوءاً بين شعب كوسوفا والإدارة الصربية التي تمعن في اضطهاد الناس بشكل مريع لذا كان لا بد من التحرك الشعبي ومواجهة المظالم

الصربية فكان هذا الجيش بعد أن نفذ صبر الناس غير أن بدايته كانت بعدد قليل ثم تكاثر عدده بانضمام متطوعين من ألبان مقدونيا والجبل الأسود ومن مناطق أخرى في يوغسلافيا السابقة وفي أواخر نيسان ١٩٩٨م أصبح بشكل نظامي وأصبح تعداد أفراده بين تموز وآب حوالي أربعين ألف مقاتل ، وقام هذا الجيش بمواجهة الآلة الصربية في مناطق عدة من الإقليم وسيطر على بعضها رغم عدم التوازن بين الألبان والصرب حيث كانت عدة هذا الجيش من الأسلحة الخفيفة وبعض الأسلحة المضادة للدبابات بمدى (٥٠٠ متراً) وبعض مدافع الهاون . وهذا ضد الجيش اليوغسلافي المجهز بأحدث الأسلحة وأثقلها مع دباباته وطائراته وليس هناك وجه للمقاومة بين الخصمين غير أن حرب العصابات والكرّ والفرّ هي التي تفيد في مثل هذه الحال .

تطورات في قوة الجيش :

في شهر ت١ (١٩٩٨ م) ظهرت إشاعات كاذبة من قبل الحكومة الصربية وبعض المتعاونين في حكومة كوسوفا مع الصرب وتسببت هذه الإشاعات في تراجع عدد هذا الجيش وأصبحت نظرة السكان له نظرة تحمل الريبة والشك وهذا ما تريده الدول الأوربية وتناقصت أعداد أفراد الجيش حتى تدنت إلى خمسة عشر ألفاً ، غير أنه بعد فترة قصيرة استطاع أن يعيد ثقة الشعب به بعد أن تطوّع عدد كبير من المقاتلين الجدد وعودة الذين تركوه وأصبح تعداد أفراده في أوائل هذا العام ١٩٩٩م بين (٤٥ إلى ٥٩ ألفاً) من المقاتلين ، وجيمع أفراده من الألبانيين وبينهم عدد يسير من العالم الإسلامي ، كما أني شاهدت أحد الشباب الألمان وهو مسيحيّ يقاتل في صفوف جيش تحرير كوسوفا كما أن هناك بعض المقاتلين من آسيا .

مراكز التدريب :

لم يكن هناك مكان واحد أو بلد واحد مخصص للتدريب بل كان التدريب يتم في عدد من الدول الغربية وبخاصة النمسا .

قادة الجيش :

إن جيش تحرير كوسوفا لم يكن يصرّح إلا باسم ممثله السياسي « آدم ديماتشي »[1] الذي قضى ثمانياً وعشرين عاماً سجيناً لدى الصرب لأسباب وطنية وقومية ، والقائد الأول لجيش تحرير كوسوفا « آدم يشاري » الذي استشهد في بداية الحرب في « درينتسا DRENICA » ، كما استشهد أيضاً أخوه « حمزة » وكانا من أمهر القادة ، والحقد الصربي لم يترك عائلتهما بسلام فقضت على جميع أفراد العائلة ولم يبق على قيد الحياة إلا فتاة صغيرة بعمر ٧ سنوات .

من الجدير بالذكر أن في صفوف جيش التحرير قادة مهرة من الألبان الذين حاربوا ضد صربيا في حرب كرواتيا والبوسنة والهرسك منهم قائد مدينة درينتسا « فهمي لادروفتسي » .

بدأ اسم جيش تحرير كوسوفا يظهر منذ عامين لكن نشاطه العسكري بدأ بالبروز في مطلع عام (١٩٩٨م) ، عندما تولّى تنظيمه وتدريبه ضبّاطٌ سابقون في القوات المسلحة اليوغسلافية ، خصوصاً الذين حاربوا ضد الصرب في كرواتيا والبوسنة ، وأفادت مصادر إعلامية أن جيش تحرير

---

(١) آدم ديماتشي : استقال من قيادة جيش تحرير كوسوفا في أوّل آذار احتجاجاً على المفاوضات مع الصرب لانه يعرف أنهم لايحفظون وعودهم أبداً .

كوسوفا استغّل وجود ثكنات عسكرية مهجورة في شمال ألبانيا لأغراض التدريب ، فأقام فيها دورات في الوسائل القتالية ، شارك فيها حوالي (٦٠٠٠) جندي ، وهو ما أيّده مدير بعثة منظّمة الأمن والتعاون الأوربية في « تيرانا » ، « دان إيفيرتس » إذ وصف شمال ألبانيا بأنّه « خارج نطاق السيطرة » ولا تستطيع الحكومة الألبانية التحكّم بحدودها مع كوسوفا » .

ويحظى مقاتلو كوسوفا بالدعم الكامل من الرئيس الألباني السابق « صالح بريشا » الذي يرأس الحزب الديمقراطي وله نفوذٌ كبيرٌ في شمال ألبانيا بينما يحاول رئيس الحكومة الاشتراكي « بانديلي مايكو » أن يكون تأييده مرتبطاً بالموقف الأميريكي ـ الأوربي من القضية .

ويعتبر جيش تحرير كوسوفا أن من واجب كل ألبان كوسوفا الانضمام إلى صفوفه وأصدر بياناً في تشرين الثاني / نوفمبر الماضي /١٩٩٨/ ، وصَمَ بالخيانة كل من يتهرّب عن حمل السلاح إذا كان قادراً عليه كما دعا ضبّاط الجيش اليوغسلافي السابقين المقيمين في الخارج إلى « العودة إلى أرض الوطن » والانضمام إليه وتحمّل مسؤولياتهم ، « وإلا فقدوا حق المواطنة في جمهورية كوسوفا » .

يسعى جيش التحرير للتزوّد بأنواع الأسلحة الميدانية عن طريق الشراء من أي مصدرٍ كان في مقدمها من سكان ألبانيا الذين استولوا على نحو مليون قطعة سلاحٍ متنوعة من المستودعات العسكرية في ربيع / ١٩٩٧ ، أثناء الفوضى التي عمّت البلاد ، كما تُعتَبر البوسنة سوقاً رئيسيّة لتجّار السلاح في منطقة البلقان ، وتمكّن الألبان الحصول منها على كمّيات كبيرةٍ من السلاح . . وتشكّل المبالغ التي يدفعها ألبان كوسوفا العاملون في الخارج بحسابات مصرفية خاصّة باسم « صندوق نداء الديار » مركزه في

سويسرا وله فروع في الولايات المتحدة وكندا واستراليا وغالبيّة الدول الأوروبية ، مصدراً رئيسياً لتمويل شراء الأسلحة واحتياجات جيش التحرير الأخرى ، وذكر « غني خوجا » أحد المشرفين على الصندوق ، بأن هذه التبرعات تتكوّن من (٣٪) من الدخل الشهري لكل ألباني .

ونشرت الصحف الصربية معلومات عن مساعدات بالأسلحة والأموال قدّمتها دولٌ عربية وإسلامية للانفصاليين الألبان (عن طريق عدد من منظّمات الإغاثة العاملة في ألبانيا) .

وليس جيش تحرير كوسوفا تنظيماً موحداً ، إذ تسوده الخلافات العقائدية والعشائرية وينقسم على الأقل إلى أربع مجموعات مستقلّة عن بعضها لكن الفصيل الأقوى والأوسع نفوذاً يمثّله سياسياً « آدم ديماتشي » في وسط الإقليم وغربه ولايقتصر هدف هذا الفصيل الذي يعتبر الأكثر تشدّداً على تحرير كوسوفا وإنما أيضاً جميع الأراضي الألبانية المجاورة المحتلّة . .

مقاتلون أجانب :

تشير المصادر الصربية ومعلومات صحافية دولية إلى وجود متطوعين أجانب في صفوف المجموعات القتالية لألبان كوسوفا وغالبيّة هؤلاء من ألبانيا والبوسنة وكرواتيا وأفغانستان وبلدان عربية إضافة إلى خبراء بريطانيين وألمان ، تتركز مهمّتهم على التدريب وإعداد الخطط والتوجيه . وذكرت الشرطة الصربية أنها اعتقلت (٦) أشخاصٍ أجانب وألبان في منطقة « درينتسا » في وسط التنظيم ينتمون إلى وحدة مجاهدي « أبو بكر الصدّيق » ويعملون ضمن تشكيلات جيش التحرير . لكن جيش تحرير كوسوفا خصوصاً الفريق الأقوى الذي ينطق باسمه « ياكوب

كراسنيجي » يؤكد باستمرار رفض انضمام مقاتلين إليه من ذوي الاتجاهات الدينية « لأن الكفاح الألباني قومي يضمُّ المسلمين والكاثوليك والأرثوذوكس ولا يقبل بأي خرقٍ لهذا السبيل مهما كانت المغريات »[١] .



(١) انظر الوسط المصدر السابق نفسه (ص٣١ ـ ٣٢) .

جيش تحرير كوسوفا قوة أساسية في كوسوفا

يمكن النظر إلى جيش تحرير كوسوفا من زاويتين :

الأولى ـ أنه نجح في إدخال قضيّة شعب إلى قلب دائرة الضوء العالمية ، وأنه استطاع رفع ما يراه عِبْئاً يمارسه الصرب عن كاهل مواطنيه .

الثانية ـ يراه البعض أنه « بيرقاً » نجح حلف الأطلسي في تحريكه لتدمير صربيا وانتزاع جزءٍ من أراضيها . وفي كل حال تحوّلت هذه المجموعة الصغيرة من المقاتلين إلى حركةٍ تطمح الآن إلى أن تصير « جيشاً لكوسوفا مستقلة » .

ربما قد لا ترى كوسوفا المستقلة النّور لكن استمرار جيش تحرير كوسوفا سيكون حاجةً ضروريةً لحلف شمال الأطلسي ، فالجنود الصربيّون سينسحبون من الإقليم عاجلاً أو آجلاً ، وإذا لم يتم تغيير النظام في « بلغراد » ، وحتى التوصّل إلى تفاهماتٍ أكيدةٍ مع « ميلوسيفيتش » بعدم محاولة الدخول مجدداً إلى كوسوفا ، فإنّ الحلف لا يستطيع أن يغامر بترك الإقليم مجرّداً من السلاح في وجه الآلة العسكرية الصربية ، لأن كل جهوده ستضيع سدىً إذ ذاك . وهكذا فإنّ شيئاً لا ينبىء بأنّ جيش تحرير كوسوفا لن يكون قوّة أساسيّة في الإقليم ، وربّما القوّة الألبانية الوحيدة فيه لاحقاً[١] .

---

(١) الكفاح العربي ١٩٩٩/٦/٢١ العدد ٢٣٠٨ ص ١٤ .

مفاوضات رامبوييه لحلّ الأزمة

(دعا حلف شمال الأطلسي « الناتو » الصرب وألبان إقليم كوسوفا إلى مائدة المفاوضات في قصر « رامبوييه » قرب باريس بعد أن تفاقم الوضع في الإقليم باعتداءات الصرب على الأكثرية الألبانية من السكان ، ولدفع الاضطهاد قام جيش تحرير كوسوفا بمواجهة القوّات الصربية . بـدأت الاجتمـاعـات فـي شهـر شبـاط ١٩٩٩م ، وضغـط النـاتـو علـى المتفاوضين للوصول إلى اتفاق ينهي مشاكل الإقليم المشتعل ، وظهرت بوادر انفراج للوصول إلى صيغة اتّفاق) .

يمثّل الاتفاق التي انتهت إلى المفاوضات بشأن مشكلة كوسوفا نوعاً من الحل الوسط في ظل التعقيدات الكبيرة التي أحاطت بالمفاوضات منذ بدايتها . فقد وافق الجانبان الصربي وألبان كوسوفا على مبدأ التسوية السلمية لأزمة الإقليم عبر منح حكم ذاتي موسّع للأغلبية الألبانية ، وقد عكست مفاوضات رامبوييه دلالات هامّة أبرزها : أنّها كشفت حدود وأبعاد الصراع للتفاوض بشأن إقليم كوسوفا بالنسبة للأطراف المختلفة ، كما كشفت عن القوى القادرة على استخدام القوة العسكرية في معالجة هذا الصراع[1] .

المبادىء التي جرت على أساسها مفاوضات « رامبوييه » ، منها :

---

(١) ملف الأهرام الإستراتيجي العدد / ٥١/ مارس/ آذار/ ١٩٩٩م ـ (ص١).

ـ التأكيد على ضرورة وقف العنف والالتزام بوقف إطلاق النار .

ـ التسوية السلمية للنزاع من خلال المفاوضات .

ـ الحل الانتقالي يشكل آليّةً للتوصل إلى تسوية نهائية بعد ثلاث سنوات .

ـ صيانة حقوق كل الأقليّات العرقية (الحفاظ على السّمات القومية واللغة والتعليم والمؤسّسات الدينية).

ـ المشاركة الدولية في تطبيق اتفاق السلام والتعاون الكامل مع الأطراف الدولية في هذا الشأن[1] .

الاستقلال ممنوع :

. . يدرك ألبان كوسوفا تماماً أن مطلب الانفصال والاستقلال مرفوضٌ تماماً ، ليس مراعاة لصربيا ، وإنّما خوفاً على باقي دول البلقان ومن ثمّ الأمن والاستقرار الأوربي ومن ناحيةٍ أخرى فإنّ جيش تحرير كوسوفا لايمكنه الصمود كثيراً أمامَ القوّات الصربية اليوغسلافية ، وبالتالي ، راهن ألبان كوسوفا على تصاعد الخلاف بين الولايات المتّحدة وصربيا وصولاً إلى غارات جويّة وإلى توجّه أميركي نحو تعمّد صياغة اتفاق للحكم الذاتي يتّسمُ بالعمومية والالتباس على النحو الذي يجعل المستقبل مفتوحاً أمام خيار الانفصال لإقليم كوسوفا .

التصعيد الأميركي وعرقلة التسوية قبل الانفجار :

اتّسم الموقف الأميركي تجاه المفاوضات بالتصعيد المتواصل ضدّ صربيا والتلويح باستخدام القوّة ضدّ مواقع القوات الصربية في الإقليم وداخل صربيا وكرّرت أميركا التهديد لصربيا بأن عدم التوصّل إلى اتفاق

---

(١) نفس المصدر (ص٢٣) .

سوف يؤدي إلى شنِّ غارات ضدّها.. وتدفّقت قوات الحلف البريّة وطائراته المقاتلة على قواعده في إيطاليا ومقدونيا.. هذا ممّا زاد في التشدّد الصربي، لقد بدا واضحاً في تأكيد الرئيس اليوغوسلافي « ميلوسيفيتش » بأنّه يفضّل تعريض بلاده لغارات الحلف على أن يستجيب للموقف الأميركي الداعي إلى توقيع اتفاق يحتوي على شقٍّ عسكري تقوم بواجبه قواتٌ من حلف الناتو بمهمّة تنفيذ ومراقبة الشق السياسي من الاتفاق،.. لقد حدّد الحلف أسبوعين للوصولِ إلى اتفاق، وبعد مرور هذه الفترة التي كانت محدّدة كموعدٍ نهائي للاتفاق، واصل الوفد الصربي تشدّده دون أن يعطي أيّ قدرٍ من الاهتمام الجدّي لتهديدات الحلف بالتحرّك بعد انتهاء المهلة ظهر يوم السبت في ٢٠ شباط ١٩٩٩م كما اتّجهت مجموعة الاتصال إلى تمديد المهلة إلى ظهر الثلاثاء في ٢٣ منه، في ظلّ اتفاقٍ على عدم جدوى اللجوء إلى الخيار العسكري وتبلور الانقسام في صفوف المجموعة.

.. وللخروج من المأزق جاء قرار مجموعة الاتصال منتصف يوم الثلاثاء ٢٣ شباط بالاكتفاء بنصف اتفاق مبدئي حول الإطار السياسي للتسوية وافساح المجال أمام صيغة جديدة للشق العسكري يخوّل الأمم المتّحدة. ومن هنا يمكن القول أن تلويح الولايات المتّحدة بتوجيه ضربات جويّة لصربيا قد ساعد من ناحيةٍ دفع الصرب إلى مائدة المفاوضات، ولكنَّ استمرار هذا التلويح أدّى إلى تعقيد المفاوضات، ولا يفي ذلك أن الجولة القادمة من المفاوضات التي ستبدأ في ١٥ آذار ٩٩ ستكون سهلة وقصيرة المدى.

(في الوقت المحدّد عاد الوفدان إلى المفاوضات وانتهت بالفشل لأن الصرب رفضوا التوقيع على اتفاق « رامبوييه » بعد أن وقّعه ألبان كوسوفا وفي اليوم التالي الأربعاء ٣/٢٤ /٩٩ بدأ حلف الأطلسي بضرب

يوغوسلافيا ، أراد ميلوسيفيتش الانتقام فوجّه عساكره في إقليم كوسوفا لتهجير سكانه ، وتتميّز موجة التهجير هذه باتّباع الصرب سياسة الأرض المحروقة ، وأحرقوا منزل الزعيم « إبراهيم رغوفا » الذي اضطرّ للجوء إلى أحد المخابىء في بريشتينا ولم تمضِ أيامٌ إلاّ وظهر مع الرئيس اليوغوسلافي على أساس أنه طلب إيقاف ضربات الأطلسي ، فلم يصدّق أحدٌ هذا الكلام أنه قيل بحريّة وأنّ الزعيم الألباني قد أسرته القوات الصربيّة(١) .

بلقنة العالم وضرب يوغوسلافيا :

بعد أسابيع من الأخذ والردّ في المفاوضات حول مصير كوسوفا تكشّفت عن حربٍ مبيّتة حضّرت لها الولايات المتحدة منذ حزيران ١٩٩٨م واستطاعت إجبار دول أوروبا على مغالبة تردّدها الطويل وتجاوز مخاوفها ثم المضيِّ إلى ساحة المعارك . .

حتى كتابة هذه السطور في منتصف نيسان ، كان قذف الأطلسي يتواصل على منشآت يوغوسلافيا في وقت بلغت أزمة كوسوفا أعلى درجةٍ من التدويل . . فعلى ماذا يراهن الغرب ؟ .

. . قد ينفجر البلقان كلّه والصواريخ الأطلسية تتوالى ، وميلوسيفيتش المتشدّد قد ركب رأسه رغم هذا الدّمار الذي لحق بصربيا من تدميرٍ لمصانعها ومنشآتها وجسورها ولم يتنازل ميلوسيفيتش عن تعصّبه وتشدّده قيد أنملة والعودة إلى مائدة المفاوضات ، هو يناور في الوقت ، والأوربيون عاجزون . . ولا من يطفىء الحريق أو يبادر بتعقّل قبل

---

(١) الملف الاستراتيجي (ص ٢٤ـ٢٥) .

امتداده[1] ولم يقبل أيّ واسطة تقدّمت بوضعِ صيغةٍ للحل رغم تدخّل عددٍ من الدول ومن الشخصيات العالمية. .







ألبان من كوسوفو يتظاهرون في ألمانيا تأييداً للقصف الأطلسي.

---

(١) البناء ـ لبنانية ـ بيروت / العدد ٩٦٥ في ٢٧/ ٣/ ٩٩ (ص٨).

قوّات حلف الأطلسي في البلقان

القوات الجويّة :

١ ـ ٢٣٠ طائرة قتال رئيسية من الأنواع : F١٥ و١٦ و١٨ وتورنيدو GR .

٢ ـ ١٥٠ طائرة إسناد ميداني من الأنواع تورنيدو GRD وهاريير وقاذفات ٥٢ B .

٣ ـ تشكيلة من أسراب هليوكبتر للقتال الليلي والنهاري .

ملاحظة : (وصل عدد الطائرات يوم الجمعة في ١٦/٤/٩٩ إلى (١١٠٠) طائرة بعد وصول آخر دفعة مؤلّفة من (٣٠٠) طائرة لحلف الناتو (وكالات الأنباء) .

القوات البحرية :

ـ ٤ فرقاطات أميركية حاملة صواريخ توماهوك الجوالة (كروز) .

ـ ٤ غواصات أميركية حاملة صواريخ توماهوك الجوالة (كروز) .

ـ غواصتان بريطانيتان تحملان صواريخ توماهوك الجوالة (كروز) .

* * *

القوات اليوغوسلافية

القوّات الجوية :

٢٨٣ طائرة اعتراضية وهجومية من ضمنها (١٥) طائرة ميغ ٢٩ ـ العالية الكفاءة ، و٦٤ ميغ ٢١S المعدّلة ، ٥٢ طائرة هليو كابتر مصفّحة طراز MI ٢٤ وMI ٨ .

الدفاع الجوّي :

ـ ٦٠ منصّة إطلاق صواريخ سام ٦ .
ـ كمّية غير محدودة من صواريخ الكتف سام ٧ .
ـ ١٦ منصّة إطلاق صواريخ سام ٣ .
ـ ٢٠٠٠ مدفع مضاد للطائرات (عيارات وفوهات متعدّدة) .

معدّات حرب إلكترونية :

ـ شبكة من (٤) أقمار اصطناعية (تجسّس وملاحة جوّية) .
ـ (٧) طائرات تشويش إلكتروني ورادراي .
ـ (٦) طائرات مراقبة وسيطرة جويّة ، (٢) أواكس ، و(٤) هوك آي .
ـ سفينة تشويش وتنصّت في الأدرياتيكي .

القوّات البرّية :

-(١١٤٠٠٠) جندي نظامي .

-(١٠٣١) دبابة قتال رئيسيّة من الأنواع : T ٧٢ و٦٢ و٥٦ و٥٥[١] .

* * *

(١) الحياة اللبنانية/ العدد ١٣١٦٨ السبت / ١٠ ذو الحجة / ١٤١٩ هـ و٢٧ آذار / ١٩٩٩م (ص ٧).

كوسوفا ضحيّة عاصفة البلقان

وكارثةُ آخر القرن العشرين

(بدأت حرب يوغوسلافيا وقام الحلف الأطلسي بضرب أهدافٍ مهمّة في كوسوفا وصربيا والجبل الأسود وفويوفودينا وأصابت الصواريخ منشآت مدنية وعسكرية ولكنّ ميلوسيفيتش لم ينصع لأميركا وبدأت صربيا بتهجير سكان كوسوفا الذين وقعوا بين نارين ، بين مطرقة الناتو وسندان ميلوسيفيتش واستمرت رحلات الشتات لهؤلاء المساكين ، وبلغ عدد النازحين حتّى كتابة هذه السطور في منتصف شهر نيسان أكثر من مليون ومئتي ألف انتشروا في الدول المجاورة : ألبانيا ومقدونيا والجبل الأسود وبعض دول الحلف الأطلسي التي أخذت على عاتقها استقبال جزء من النازحين ، فوصلت الآلاف إلى تركيا وألمانيا ، كما أبدت استعدادها كلاً من أستراليا وكندا وغيرهما من الدول لاستقبال عددٍ من النازحين غير أنّ أكثر هؤلاء لايريدون الابتعاد عن كوسوفا كثيراً آملين بعودةٍ قريبة والعالمُ ينتظر الحلف الأطلسي أن لايوقف ضرباته إلا بتأمين عودة النازحين كلّهم إلى كوسوفا وضمان سلامتهم والخوف من وقف الغارات الأطلسيّة فتبقى الأمور إلى ما وصلت إليه ويصبح الألبان الذين تركوا كوسوفا مشتّتين كأبناء فلسطين).

مصداقية ميلوسيفيتش :

رفض هاشم تقي قائد جيش تحرير كوسوفا تلميحات السلام التي جاءت على لسان الرئيس اليوغسلافي وطالب حلف شمال الأطلسي بمواصلة غاراته الجوية على يوغوسلافيا . وقال تقي : « كوسوفا ودول حلف الأطلسي لا تطلب خفضاً للوجود العسكري بل سلاماً عادلاً يُحترم أمّا اجتماع « بريماكوف » مع الرئيس اليوغوسلافي ما هو إلا محاولة لإنقاذ ميلوسيفيتش الذي فقد مصداقيّته على المستوى الدولي » . وقال تقي : « يجب على ميلوسيفيتش أن يدرك بشكل قاطع أن كوسوفا لا يمكن أن تبقى في قلب يوغسلافيا » . . واتهم تقي ميلوسيفيتش بتنظيم مذابح في كرواتيا وسلوفينيا والبوسنة خلال العشر سنوات الماضية وهو يواصلها الآن في كوسوفا .


العمليات الوحشية الصربية في قرى كوسوفا

مضايقات مقدونية :

.. إن تولّي الشرطة المقدونية مسؤوليّة الأمن والحماية للمعسكرات يعني زيادة الابتزاز والضغط النفسي مع زيادة سوء المعاملة وتعليقاً على القرار قالت إحدى طالبات الكلية الإسلامية في بريشتنا « مغفرة » : « إنّ قوات حلف شمال الأطلسي والتي تلقّت الأوامر من دولها هي التي أخذت على عاتقها توفير الدفاع عن حقوق الإنسان الألباني في إقليم كوسوفا .. فيجب ان لاتتركنا نتعرّض لبطشٍ جديد وفي ثوبٍ جديد.. ولابد أن تتحمّل مسؤولياتها إلى النهاية حتى نعود إلى بيوتنا في الإقليم » ..

بينما تحدّث أحد الشباب « متين أكا » من مدينة بريزرن مشيراً إلى أن « المقدونيين يتعاملون معنا كأعداء جئنا لاحتلال بلادهم . هم لا يعرفون أننا لانرغب في البقاء هنا . كما أننا لانرغب في ترك منازلنا في كوسوفا ، ولكن يبدو أنه اختبار إنساني لنا جميعاً » ..



قوافل النازحين من سكان كوسوفا صورة مكررة لوعود الغرب للأكراد من قبل

وتأتي حالة القلق بين اللاجئين من هذا القرار مستندة للواقع الحالي الذي يحيط بهم في المعسكرات التي تحولت إلى معتقلات كبيرة أحاطتها بالعربات المدرّعة والكلاب البوليسية المصاحبة لرجال الأمن المقدوني بالإضافة للأسوار العالية من الأسلاك الشائكة ناهيك عن المعاملة غير الإنسانية والأتاوات المالية التي يأخذونها من اللاجئين لمجرّد السماح لهم بالحديث فقط عن بُعد مع ذويهم وأقاربهم المقيمين في مقدونيا عبْر الأسلاك الشائكة بينما وصلت قيمة الرشوة لخروج أحد اللاجئين مع أحد أقاربه وبضمان بطاقته الشخصية مبلغ مئة مارك ألماني لمدة ساعتين فقط ، وخمسين ماركاً ألمانياً للاستحمام في حمامات الشرطة المقدونية .

اختفاء اللاجئين :

فيما يخصّ الأمن المقدوني مازالت الحادثة التي وقعت في معسكر اللاجئين ماثلةً في الأذهان حينما استيقظ الجميع ليكتشفوا اختفاء أكثر من عشرة آلاف لاجيءِ كانوا يقيمون في معسكر « بلاتس » داخل الأراضي المقدونية وعلى الرّغم من التصريحات التي أدلى بها وزير الإعلام المقدوني « رجب زلاتكو » والتي نفى فيها اختفاء اللاجئين .

فقد كشفت منظمات الإغاثة العالمية عن وجود الآلاف منهم يعودون سيراً على الأقدام إلى الإقليم ممّا أكّد الدور المقدوني في المعاملة غير الإنسانية مع هؤلاء الذين أراد لهم القدر أن يعيشوا الويل على كلِّ جانب .

وبشأن هذه القضية كشف أحد الضباط الفرنسيين العاملين ضمن قوات الناتو في مقدونيا النقاب عن أن « إصرار الحكومة المقدونية على إخفاء اللاجئين قد سبب ارتباكاً في خطط الناتو العسكرية . .

فتح أبواب مقدونيا للمعونات الإسرائيلية ومصادرة المعونات العربية :

اتهم سكرتير المنظّمة الخيرية الألبانية في مقدونيا « سنابل الخير » كريم خايتش السلطات المقدونية بأنها تحجب أكثر من ثلثي المعونات الإنسانية القادمة للآجئين من كوسوفا والمقدّمة من الدول العربية والإسلامية وأنها رفضت أن يكون للجمعية أيّ اتصال أو علاقة بالمعونات الإنسانية بينما فتحت مقدونيا أبوابها لاستقبال المساعدات الإسرائيلية والوفود الطبيّة[1] . .



طابور من اللاجئين بسبب عنصرية الصرب

* * *

(١) انظر : المجلة : العدد ١٠٠١/ ٢٨/ ٤/ ١٩٩٩م (ص٢٢-٢٣).

وضعت الحرب أوزارها وأتمَّ الأطلسي « سلخ » كوسوفا :

.. أعلن حلف الأطلسي يوم ٩٩/٦/٢٠ انتهاء الحرب رسمياً في كوسوفا بعد أن علّق قصف صربيا عدة أيام حتى تتمّ وحدات الجيش والشرطة اليوغسلافية انسحابها من الإقليم ، وقد تمّ الانسحاب قبل نحو ١٢ ساعةٍ من الموعد المحدد ، وكان لحرب كوسوفا وتداعياتها نصيبٌ واسعٌ من البحث في قمّة مجموعة دول الثماني التي ختمت أعمالها في مدينة كولونيا[١] الألمانية بإصدار بيان يرهن إشراك يوغسلافيا في ميثاق البلقان وتمويل عملية إعادة إعمارها برحيل رئيسها « سلوبودان ميلوسيفيتش » والدعوة إلى ضمان أمن جميع سكان كوسوفا بمن فيهم صرب الإقليم[٢] ..

انتهت الحرب وبدأت آلام الحلّ السِّلمي في كوسوفا :

بانسحاب القوات اليوغسلافية من إقليم كوسوفا انتهت آخر حروب القرن العشرين التي شهدتها أوربا والتي تستحق لقب أغرب حروب القرن حيث إنّ أيّاً من أطرافها رفض الاعتراف بالهزيمة! ففي الوقت الذي كان الرئيس الأميركي « بيل كلينتون » يعلن أمام شاشات التلفزيون الرسمية انتصار قوات التحالف كان سفّاح الصرب « سلوبودان ميلوسيفيتش » يزفّ إلى شعبه نبأ انتهاء الضربات الجوية .. بعبارة : « لقد أثبتنا أننا نملك أقوى جيوش العالم »!

---

(١) كولونيا : أو كُولن Cologne مدينة في ألمانيا على الرين ١,٨٠٠,٠٠ ن مناجم فحم ، مرفأ نهري ، مركز صناعي ، عطور مشهورة ، معارض ومهرجانات ، متاحف غنية ، أبنية وكنائس أثرية . / المنجد للأعلام ط١٩ (ص٤٧٨) .

(٢) الكفاح العربي ـ لبنانية ـ ١٩٩٩/٦/٢١ العدد ٢٣٠٩ ـ ص١ .

ولا شك أن المرحلة القادمة في عملية إحلال السلام في المنطقة لا تقلّ صعوبة عن مرحلة الضربات الجوية ، بل قد تزيد عليها ، حيث تتعدد المشاكل التي يجب حلّها لضمان استقرار الإقليم .

المصور العدد / ٢٥ / ٦ ١٩٩٩ ص٢٠ .

قوات الصرب ترفع شارات النصر وهي تخرج مهزومة من كوسوفو



الفرقة الروسية التي احتلّت مطار بريشتينا كانت تقاتل مع الجيش الصربي :

ذكرت تقارير صحافية مختلفة أنَّ وحدات من فرقة « القوات الخاصة » الروسية كانت تقاتل إلى جانب الجيش الصربي في كوسوفا .

كما يقول جيش تحرير كوسوفا أنَّه قتل أحد ضبّاط هذه الفرقة في اشتباك قرب الحدود الألبانية .

والقوات الخاصة هذه مجموعة من المحاربين الأشدّاء الذين يشكّلون العمود الفقري للكتيبة الروسية المرابطة حول مطار بريشتينا والتي منعت قوات « الناتو » من السيطرة عليه .

المجلة العدد ١٠١١ـ ٢٧ / ٦ـ٣ / ٧ / ١٩٩٩ ص١٤ .

احتلال مطار بريشتينا :

احتلال القوات الروسية ، محدودة العدد لمطار بريشتينا لم يكن مفاجأة للعسكريين الروس من الكرملين ، ولكنهم رحّبوا به . . بل وأصرّوا على عدم انسحاب هذه القوات قبل حل مشكلة قيادة حفظ السلام في كوسوفا .

وقد يفسّر ذلك أنَّ المؤسَّسة العسكرية الروسية التي يشعر أفرادها وقادتها بالمهانة لما آل إليه حالهم ، وجدوها فرصة لاستعادة بعض من كرامتهم .

يلتسين وراء صدور قرار احتلال المطار :

ولعله لم يعد سرّاً أنَّ الرئيس « بوريس يلتسين » بوصفه القائد الأعلى للقوات المسلّحة ، كان وراء إصدار مثل هذا الأمر إلى الجنرال « فيكتور زافارين » الذي قاد شخصيّاً الوحدة العسكرية التي لم يتجاوز عددها (٢٠٠) فرد مزوّدة بـ (٣٠) مدرّعة عسكرية إلى برسيشتينا لتكون أول وحدة عسكرية تدخل كوسوفا متقدمة بذلك على كل قوات « الناتو » ولم تكتف هذه الوحدة بدخول كوسوفا ، بل وقامت باحتلال مطار العاصمة « بريشتينا » فيما فرضت سيطرتها على المنطقة . ولذا لم يكن غريباً أن تكشف مصادر وزارة الدفاع عن مرسوم الرئيس يلتسين بترقية الجنرال « زافارين » من رتبة لواء إلى رتبة فريق . .

المصور العدد / ١٨/ ٦/ ١٩٩٩ ص٢١ .

الكفاح العربي في ٧/ ٧/ ٩٩ العدد ٢٣٢٢ ص٩

مشاركة روسية لحفظ السلام في كوسوفا :

أعلن الرئيس الروسي « بوريس يلتسين » انتهاء الأزمة في كوسوفا لانتشار القوات العسكرية الروسية ، وقد بدأت طلائع القوات الروسية في الوصول إلى الإقليم استعداداً لأخذ دورها إلى جانب وحدات حلف شمال الأطلسي .

وقال يلتسين : « يجب أن نكون مستعدّين الآن لوضع جديد في البلقان » .

وجاء تصريحه بعد اتفاق موسكو والحلف الأطلسي على تفاصيل المشاركة الروسية في قوات حفظ السلام في كوسوفا (KFOR) .

وأوضح « إيغانوف » ـ وزير خارجية روسيا ـ : « إنَّه منذ بداية الأزمة لم نَعُده نتحدّث عن كوسوفا فقط ، بل عن البلقان وجنوب شرق أوربا بأكمله حتى لا يؤدّي الوضع الجديد إلى زعزعة استقرار المنطقة بأسرها » .

وتزامَنَ حديث يلتسين مع وصول أول طائرة تقلّ المظلّيين الروس التابعين للكتيبة الروسية العاملة في KFOR إلى مطار « بريشتينا » .

وتقلّ الطائرة الأولى وهي من طراز « اليوشن ٧٦ » عشرين مظلّياً . . حسبما ذكرت موسكو ، وكان يُفْتَرض أن يُنقَل ٣٠٠ من أصل ٣٦٠٠ رجل إلى بريشتينا في أربع رحلات جويّة . وبعد هبوط الطائرة الأولى مُنعَ الصحفيون من دخول المطار الذي يسيطر عليه الروس منذ وصولهم المفاجيء في ١١ حزيران / يونيو/ ١٩٩٩ ، إلا أن ناطقاً رسمياً أوضح أن الصحفيين يمكنهم دخول المطار مع وصول الطائرة الثانية والتّحدث إلى ركابها .

ويسيطر مئتا مظلّي روسي على مطار بريشتينا منذ ما قبل دخول قوة حفظ السلام وانضمّ إليهم مئة آخرون. . لتحضير المطار. . وأعلن قائد القوات الألمانية الجنرال « فريتزفون كورف » : إنَّ الجنود الروس العاملين في هذه القوة سينتشرون في « أوراهوفاتش » حيث ما زال يعيش عدد كبير من الصِّرب ، والتوتّر بينهم وبين الألبان كبير .

وكان يُفْترض أن يكتفي الروس مبدئياً فيما يتعلّق بانتشارهم في القطاع الألماني شمال « أوراهوفاتش » حول مدينة « ماليسيفو » ـ المنطقة التي يقطنها ألبان فقط ـ . ولكن الجنرال « فريتز » قال : إن الروس حصلوا في نهاية الأمر خلال المفاوضات حول الطرق الممكنة لنشرهم ، على أن ينتشروا في قطاع كامل فيما بعد .



ترحيب من العسكريين لاحتلال مطار برويشتينا

معارضة ألبانية وتوتّر بين السكان :

يعيش ألفا صربي في « أوراهوفاتش » حيث التوتر حاد بين المجموعتين ، ويتولى حرّاسٌ هولنديون حالياً الحراسة بين الحيّ الذي يقطنه الألبان وحيّ آخر يقيم فيه الصرب . (هدّد أهالي « أوراهوفاتش » بترك البلدة لأنهم لا يريدون قوة روسية في منطقتهم لأن الروس موالين للصرب) .

كما يعيش أكثر من ألف صربي في قرية « فيليكا هوتشا » التي تبعد (٥كم) عن أوراهوفاتش ، أمّا منطقة « ماليسيفو » فكل سكانها تقريباً من الألبان . ولا يزال التوتر مهيمناً على علاقات الألبان والصرب في الإقليم ، وكانت آخر الحوادث اغتيال المدير الصربي لمحطة كهرباء قرب بريشتينا ، وقد أعادت « كفور » فتحها بموظفيها الألبان والصرب .

سلوبو ارحل :

لقد خرج نحو عشرين ألف شخص من المعارضة الصربية في « ليسكوفاتش » مطالبين باستقالة الرئيس اليوغسلافي « ميلوسيفيتش » . . . وذلك في تجمّع للمتظاهرين في مرحلة أولى تطالب برحيل حاكم منطقة « ليكسوفاتش » « زيغوبين ستيفانوفيتش » ولكنهم طالبوا أيضاً برحيل ميلوسيفيتش مردّدين : « سلوبو ارحل ، نريد تغييرات » .

. . وفي بلغراد قام المعارضون بحملة تهدف إلى استقالة ميلوسيفيتش تحت شعار : « حان الوقت لنفترق » وتشارك في هذه الحملة النقابات المستقلّة وأربعون منظّمة غير حكومية منخرطة في جمعية « التحرك

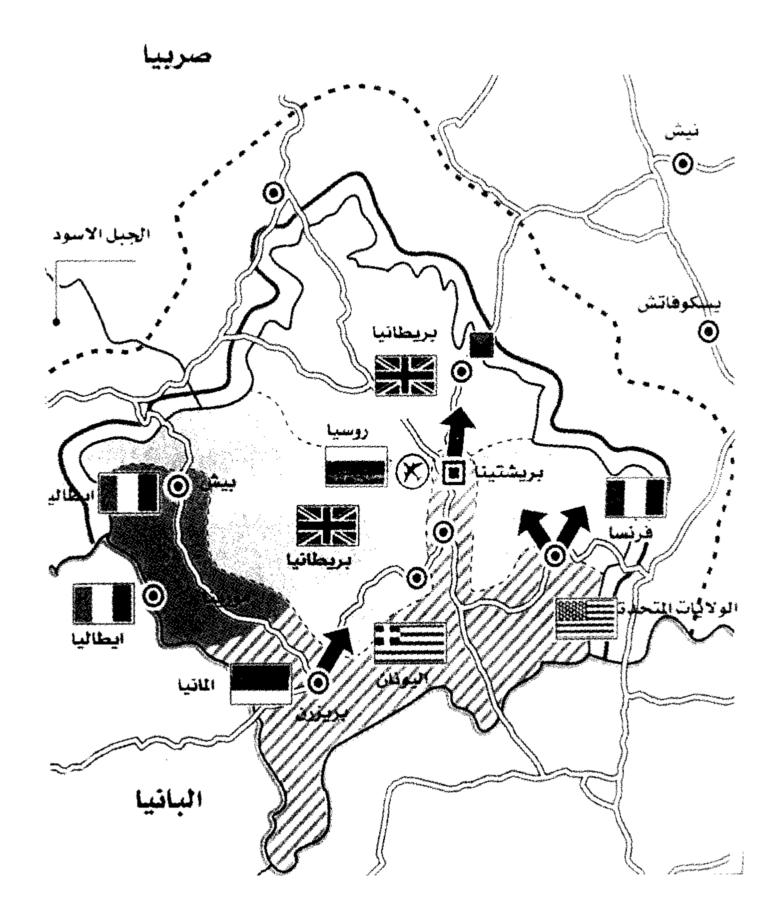
اليوغسلافي » ، ووضع المنظمون في ساحة عامة في بلغراد صندوق انتخاب ، دعوا السكان أن يضعوا بداخله « بطاقة انتخابية » هي في الحقيقة نشرة دعائية تطالب برحيل ميلوسيفيتش فوراً .

انتشار قوات الحلف الأطلسي في كوسوفو

القوات	
في مقر القيادة	100
بريطانيا	6267
المانيا	1747
ايطاليا	1811
هولندا	159
فرنسا	1402
الولايات المتحدة	حوالي الفين
كندا	277

الارقام مرشحة للزيادة

بلغراد
يوغوسلافيا
كوسوفو



إلى ذلك صرّح أحد قادة المعارضة اليوغسلافية : « إنَّ ميلوسيفيتش لن يكون في السلطة في نهاية العام » وفي مقابلة نشرتها الصحيفتان البريطانيتان : « تايمز » و« اندبندت » قال زعيم الحزب الديمقراطي ورئيس بلدية بلغراد السابق : « إن وضع ميلوسيفيتش وحكومته غير قابل للاستمرار ، ولأنني متحفّظ أقول إنَّه قد يستمرّ ستة أشهر » . أضاف إنَّ بقاء ميلوسيفيتش في السلطة لن يؤدي إلاّ إلى تدمير البلاد .

الكفاح العربي ٧/ ٧/ ٩٩ عدد ٢٣٢٢ ص٩ .

اتفق أخيراً على أن تكون القوة الروسية المشاركة في حفظ السلام (KFOR) في كوسوفا موزعة في منطقة مشتركة مع القوات الأطلسية .

(وكالات الأنباء)

جنرال الحلّ في كوسوفا :

الجنرال البريطاني « مايكل جاكسون » كان أول الواصلين من قادة قوات الحلف الأطلسي إلى بريشتينا عاصمة كوسوفا بعد هزيمة القوات الصربية وانتهاء الحرب ، وقبل ساعات من ذلك كان جاكسون يجلس على رأس طاولة في خيمة في « كومانوفو » قرب حدود كوسوفا مع جنرالات الجيش اليوغسلافي وعلى رأسهم الجنرال « مارجانوفيتش » الذين وقّعوا وثيقة استسلام جيشهم وموافقته على الخروج من كوسوفا .

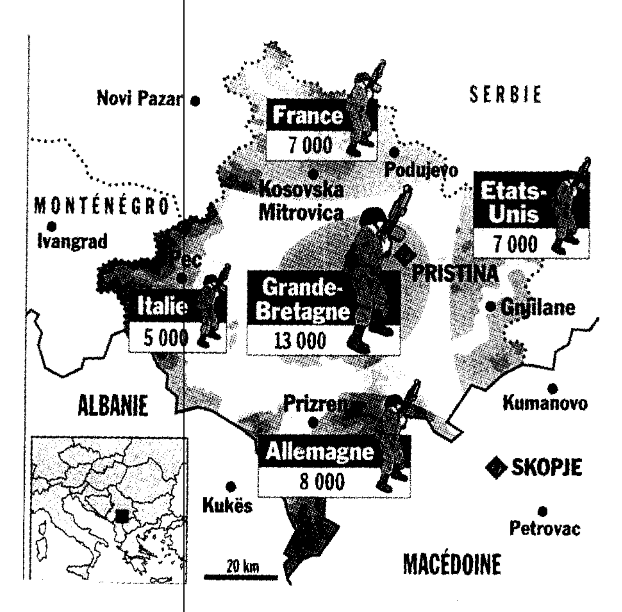
وسيتولى الجنرال « جاكسون » الإشراف عسكرياً على تنفيذ اتفاق خيمة كومانوفو . وهذه المهمة ستجعله بمثابة الحاكم العام في كوسوفا وستكون أمامه مسؤولية صعبة تشمل إعادة اللاجئين من أبناء هذا الإقليم الذين هربوا من الاعتداءات الصربية إلى الدول المجاورة أو إلى بعض الدول القريبة ، والتعاون مع منظّمات الأمم المتحدة لإعادة إعمار كوسوفا

التي تهدّمت معظم قراها وأحرق الصرب بيوتها . ويقول جاكسون إنّه من المؤسف أن الحلف الأطلسي لم يكن أمامه خيار سوى اللجوء إلى الغارات الجوية في وجه التعنّت الصربي لغرض الوصول إلى الاتفاق . وسيتعيّن على جاكسون الآن أن يقنع الصرب من أبناء كوسوفا بالبقاء فيها أو بعدم الهرب في ظلِّ حملة الانتقامات المتوقعة ردّاً على جرائم الصرب بالرغم من تأكيدات الجنرال البريطاني ، إنَّه سيحكم كوسوفا بطريقة تجعل الجميع من صرب وألبان يطمئنون إلى أن قوات الحلف الأطلسي لن تكون منحازة إلى جانب الفريق الألباني في تطبيقها للقانون .

.. وينتظر أن يصل عدد أفراد القوة التي ستكون بإمرة مايكل جاكسون إلى (٥٠) ألف رجل وستعرف باسم (K-FOR) أو قوة كوسوفا بينهم (١٠) آلاف بريطاني و(٧) آلاف أميركي ، ومع أنَّ هذه القوة تدخل تطبيقاً لقرار مجلس الأمن الدولي الذي ضمن الحلّ في كوسوفا فإنَّ عملها العسكري لن يكون خاضعاً للمنظمة الدولية ، بل سيبقى محكوماً بإشراف قيادة الحلف الأطلسي ، وهذا يُعتبر أبرز تنازل قدّمه « سلوبودان ميلوسيفيتش » بعد هزيمته ، بعد أن كان يصرّ خلال الحرب على عدم السّماح للقوات التي شاركت في العمليات العسكرية بالمشاركة في قوّة السلام..

المجلة العدد ١٠١١ , ٢٧/ ٦ـ ٣/ ٧/ ١٩٩٩ ص١٥ .


مايكل جاكسون



توزيع مناطق حفظ السلام (KFOR)
وأعدادها في كوسوفا قبل وصول القوات الروسية

دروس من حرب البلقان :

بعد ٧٧ يوماً من القصف والحرب الجوية وضعت الحرب أوزارها في يوغسلافيا واستسلمت حكومة « ميلوسيفيتش » لإرادة حلف الأطلسي بالإنسحاب من إقليم كوسوفا ودخول قوات دولية تحت علم الأمم المتحدة ، وهي قوات أطلسية أساساً . . فتكون الأهداف الأساسية للحلف وللولايات المتحدة بالدرجة الأولى قد تحقّقت . . إنَّ ميلوسيفيتش كان يرىٰ أنَّ موافقته على اتفاق « رامبوييه » الذي عقد في فرنسا قبل بدء قصف يوغسلافيا هو احتلال سيمهّد لسلخ إقليم كوسوفا من صربيا ، وبالتالي تحقيق إضعاف وتفتيت جمهورية يوغسلافيا التي باتت محصورة بصربيا والجبل الأسود ، ومن ثم الإطاحة بحكم ميلوسيفيتش نفسه ، والمجيء بحكومة موالية للغرب من أجل إحكام الطَّوْق الأطلسي حول روسيا .

دروس أربعة مهمّة :

الدرس الأول : لعلَّ من أهم الدروس الاستراتيجية التي يمكن أن يستخلصها العسكريون والسياسيّون اليوم ، وهي أنَّه لأو ل مرة في التاريخ العسكري يتمّ تحقيق أهدافٍ سياسيةٍ واستراتيجية عن طريق التدمير الجويّ وحده ، والذي استمرّ قُرابة شهرين ونصف الشهر بصورة متواصلة من دون مشاركة أي قوّة بريّة ومن غير وقوع أيّ خسائر بشرية لقوّات الناتو ، وهذا ما كانت تتوخّاه قيادة الحلف على وجه التحديد . .

الدرسي الثاني : إنَّ حلف الناتو استطاع أن يفرض شروطه كاملة في اتفاق الثماني في كولونيا يوم ٧/ ٦/ ٩٩ . فالقوّة التي شرعت تدخل فعلاً إلى إقليم كوسوفا هي قوات أطلسية بالدرجة الأولى تحت غطاء مجلس الأمن وتحت قيادة موحّدة . كما نصّ إعلان كولونيا .

ومن بين مهمّات هذه القوة التي تشارك فيها روسيا خارج إطار هذه القيادة الموحّدة : منع القوات الصربية من العودة إلى الإقليم وإعطاء سكانه حكماً ذاتياً جوهريّاً بعد عودة المهجّرين . .

الدرس الثالث : والمهمّ أن « الناتو » وقد تحوّل إلى قوة عالمية بقيادة الولايات المتحدة ، بات قادراً على فرض إرادته السياسية في كثير من بؤَر التوتر في العالم . .

الدرس الرابع : إنَّ مَهَمَّة المندوب الروسي « تشيرنوميردين » قد أُنجحت على أرضية شروط حلف الناتو ، وهي قد أُنجحت لأن المذكور يمثّل تيّار ـ الرئيس الروسي « يلتسين » (المتساهل) مع الغرب ، ولحفظ ماء الوجه لروسيا .

يبقى سؤال أخير ، ربّما أمكن اعتباره من الدروس المستخلصة وهو :

هل تساوي الأهداف التي حققها « الناتو » في إملاء إرادته على يوغسلافيا كلّ تلك التكاليف الماديّة الباهظة في الحرب الجويّة ونقل القوات البريّة؟ هذا فضلاً عن التعويضات الضخمة التي سيدفعها الحلف لمقدونيا وألبانيا اللتان تضرّرتا من الحرب وغيرها ، واستقبال اللاجئين من ألبان كوسوفا وإيوائهم ، والتكاليف التي سيتكبدها الحلف لإعادة إعمار كوسوفا وإعادة سكّانه . .

السفير اللبنانية ٢١/٦/٩٩ العدد ٨٣٢٦ (ص٢١) .

إعمار البلقان :

تعتبر مسألة إعادة إعمار البلقان إحدى أهمّ المسائل التي تطغىٰ على التحرّكات الأطلسية والأوربية بعد أن تأكد حسم الخلاف حول دور القوة الروسية ـ التي فاجأت الناتو بدخول كوسوفا والتمركز في مطار بريشتينا قبل انسحاب الصرب وقبل دخول قوات الناتو بـ(٢٤ ساعة) ـ ومن ثم تمّ توقيع اتفاق بين الأطلسي وجيش تحرير كوسوفا على نزع سلاح هذا الأخير على مدة ثلاثة أشهر . . لإتاحة المجال أمام قوة حفظ السلام الدولية (KFOR) القيام بمهامّها الأمنية تمهيداً لإقامة إدارة مدنية في كوسوفا حسب الاتفاق الذي تمّ توقيعه لحلّ أزمة كوسوفا على أساس اقتراحات مجموعة الثماني التي تمّ تبنّيها في مجال الأمن أخيراً .

وكانت مجموعة الثماني يوم الأحد / ٢٠ حزيران/ في كولونيا قد اختتمت أعمالها بالتأكيد على المساعدة في إعمار كوسوفا والبلقان ، كما أنَّ القَمة الأوربية ـ الأميركية التي افتُتِحت في بون في ٢١/٦ ركَّزت على مسألة إعمار منطقة البلقان في جدول أعمالها . كما أُعْلِنَ عن انعقاد قمّة في تموز المقبل في « سراييفو » تشارك فيها الدول المشتركة في ميثاق

الاستقرار في البلقان . . والمعروف أنَّ هذا الميثاق وُقِّع في العاشر من أيار الماضي في « كولونيا » بين دول البلقان ومجموعة الثماني ونحو عشرين بلداً ومنظّمة دولية ، منها : الاتحاد الأوربي ، والبنك الدولي . .

وحسب إحصائيات البنك الأوربي للاستثمار ، فإنَّ إعادة إعمار كوسوفا وصربيا ستكلّف الدول الأوربية (٥٢ مليار دولاراً) .

جريدة تشرين الدمشقية / الثلاثاء ٢٢/ ٦/ ٩٩ العدد ٧٤٣٧ (ص٩) .



فرحة اللاجئين الألبان بالعودة إلى وطنهم

جرائم الصرب ومقابر جماعية جديدة :

(بعد إيقاف القتال اكتُشفت عدة مقابر جماعية لجثث ألبان كوسوفا بفعل جرائم الجيش الصربي ، قام بها قبل وأثناء الغارات الجوية الأطلسية) .

وهذه مقبرة جديدة . . . أعلنت قوة حفظ السلام الدولية في كوسوفا يوم ٩/ ٧/ ٩٩ اكتشاف مقبرة جماعية تضمُّ على ما يبدو (٣٥٠ جثة) وأوضح ناطق باسم القوة للصحفيين ، إنَّ الكتيبة الإيطالية في القوة اكتشفت المقبرة ، وهي الأكبر التي يتمّ العثور عليها حتى الآن قرب « ليوبينتيش » جنوب « بيتش » في غرب كوسوفا . . وأوضح أنَّ خبراء محكمة الجزاء الدولية للنظر بجرائم الحرب في يوغسلافيا السابقة . سيبدؤون بالتحقيق في الموقع الذي مُنِعَ الوصول إليه .

جريدة الكفاح العربي اللبنانية ١٠/ ٧/ ٩٩ العدد ٢٣٢٥ ص٩

كوسوفا لا يمكنها العيش مع صربيا :

أكّد المسؤول السياسي لجيش تحرير كوسوفا « هاشم تقي » في مقابلة مع صحيفة « ليبراسيون » الفرنسية : أن « الحياة المشتركة مع صربيا لم تعد ممكنة بالنسبة للكوسوف ، بعد أن فقدت الفظاعات الصربية أيّ شرعية لهيْمَنة بلغراد على كوسوفا » . .

جريدة السفير اللبنانية ١٠/ ٧/ ٩٩ العدد ٨٣٤٣ ص١٤

خراب الديار وعودة اللاجئين :

. . أعلنت المفوضيّة العليا للاجئين في جنيف بسويسرا يوم ٩/ ٧/ ٩٩ ، أنَّ دراسة أوليّة كشفت أن (٦٤٪) من منازل كوسوفا قد

دُمِّرت ، أو أصيبت بأضرار بالغة ، وأفادت الدراسة أنَّ نحو (٦٤٠ألف) شخص من ألبان كوسوفا عادوا منذ التوقيع قبل شهر على اتفاق أنهى ضربات حلف الناتو ضد يوغوسلافيا ، إلاّ أنَّ آلافاً آخرين ، لم يتمكّنوا بعدُ من العودة إلى منازلهم .

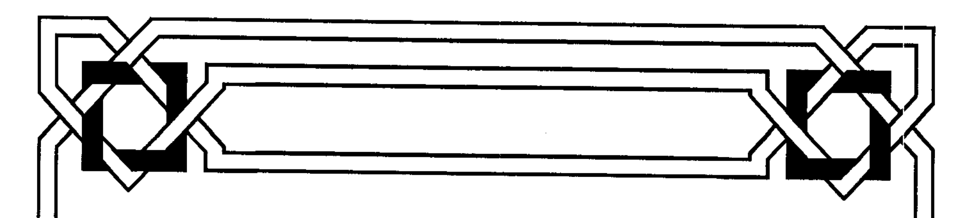
وأشارت الدراسة إلى أنَّ (٧٦٪) من أسباب عدم العودة ، ناجمة عن الأضرار في المنازل و(٣١٪) عن النقص في الأغذية ، أو الخدمات الأساسية ، ولم يُشِر سوى (٧٪) من النازحين الذين لم يعودوا بعدُ ، إلى أسباب أمنيّة ، وإلى الخوف على المصير لتبرير تردّدهم في العودة . وذكرت الدّراسة أنَّ (٤٠٪) من مصادر المياه ، قد تلوّثت بجثث بَشرٍ أو حيوانات ، وإنَّ (٥٩٠) من القرى شملتها الدراسة تفتقر إلى المنشآت الصحيّة .

جريدة الثورة الدمشقية العدد ١٠٩٢٢ / ١٠/ ٧/ ٩٩ ص١٥ .



المهجّرون من ألبان كوسوفا في مخيم « ريفوجييه Refugies » بألبانيا

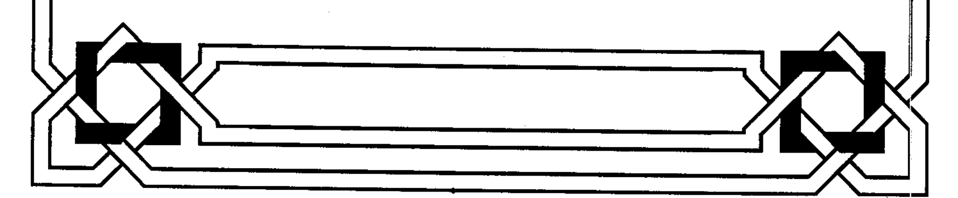
الصورة من مجلة « لوبوان Le Point الفرنسية العدد ١٣٨٩/ ٣٠ نيسان ١٩٩٩ .



البحث الثاني

مقدونيا

بلاد الإسكندر الكبير







(متحف نابلي)
الاسكندر الأكبر على جواده

مقدونيا

توطئة :

(الأرض المقدونية تشغل الجزء الجنوبي الشرقي من قارّة أوربا وسط شبه جزيرة البلقان ، وهي أرضٌ واسعةٌ تشرذمت فاقتطع جيرانها منها ما استطاعوا وبقي من الأرض الأصليّة ما يحمل اسم « مقدونيا » .

مقدونيا الأصلية :

لها تاريخٌ عريق يمتدّ من القرن الثامن قبل الميلاد ، وسنحاول التعرّف على هذه الدولة التي عاشت من ذلك التاريخ حتى اليوم ، أي خلال (٢٨) قرناً من الزمن وشغلتها أجناسٌ وأعراقٌ وقوميّاتٌ كثيرةٌ متباينة ، وماحصل فيها من تطوّرات سلباً وإيجاباً) .

مقدونيا القديمة :

ترجع أقدم المستوطنات البشرية في مقدونيا لسنة (٦٢٠٠ق .م) وقد توالى على حكم البلاد عدد من الملوك من أسرة « أرجياد » الحاكمة حوالي (٦٥٠ق .م) فوسّعوا رقعة مملكتهم في أواسط اليونان بل إن الإمبراطورية امتدّت على يد إسكندر الأكبر فشملت بلاداً واسعةً ما بين البحر الأبيض المتوسط والهند[١] .

---

(١) انظر : الموسوعة العربية العالمية (ص٥٥٤) .

في القرن الثامن قبل الميلاد رحل « كارانس الأرغوسي » ـ سليل أركليس ـ من بلاده لأسباب سياسية واحتلّ مع جماعة من مواطنيه مدينة « أدسّا » في مقدونيا وسكن بها بعد أن دوّخ أهالي تلك البلاد ، وقد حكى الرواة المؤرّخون أموراً كثيرة بعيدة عن التصديق منها : . . زعموا أن آلهة السماء أرادت مساعدة « كارانس » ورفاقه ، فأرسلت إليهم (عنزة) تقودهم إلى « أدسّا » ليستوطنوها ويجعلوها قاعدة مملكتهم الجديدة فدعوها لذلك « أجي » ـ أي مدينة « الماعز » وكان اعتقاد المقدونيين بهذا الأمر قوياً ، حتى أنهم اتخذوا صورة الماعز رايات نقشوها على نقودهم ، وعلم « كارانس » وصحبه ضعفهم وعدم استطاعتهم مُلْكَ هذه الأرجاء زمناً طويلاً إذ لم يتزلّفوا للأهلين . فأخذوا في موادّتهم وتعليمهم أموراً كثيرة مفيدة وأدخلوهم في دينهم ، وهذّبوا لغتهم بأن أضافوا إليها بعض اصطلاحات وألفاظ يونانية فتوطّدت الإلفة بينهم وأحب (المقدونيون) حكّامهم وكان ذلك سبباً لعظَمة « مقدونيا » المستقبل .

بعد « كارانس » تبوّأ عرش « مقدونيا » عدة ملوك أركيليين كانوا يجهدون في توسيع نطاق مملكتهم وشنّ الغارات على الأمم المجاورة . .

ومن ملوك « مقدونيا » المشهورين « أرخلاّوس الأول » الذي ارتقى سرير المُلْك سنة (٤١٦) ق . م . وكان بطلاً . . حارب الشعوب المجاورة واستولى على عدة مدن ، ومن أفعاله العظيمة التي خلّدها التاريخ ، اجتهاده في تهذيب شعبه وإصلاح بلاده ، وسهّل وسائل العلوم والمعارف ، وبنى أسواراً منيعة وحصوناً حصينة . . وأنشأ طرقاً واسعة ومستقيمة ليمهّد سُبُلَ التجارة . . مات بعد ست سنوات من مُلْكِه .

. . وكثرت بعد موت « أرخلاّوس » الفتن الأهلية لانقسام وأطماع العائلة المالكة فأصبحت لذلك مقدونيا واهنة القِوى محلولة العُرى ،

وفقدت ما اكتسبته قبلاً من النجاح.. فدخلها - رئيس الإيليريين سنة(٣٨٥) ق .م وخلع « أمينتاس » - والدفيلبس - ووضع عوضاً عنه « أرجيوس » الذي أقرّ بسيادة « بردليس » ورضي بدفع الجزية له..

.. خلّف « أمينتاس » ثلاثة بنين « إسكندر وبرديكاس وفيليبس » فملك « إسكندر » سنتين ومات تاركاً المملكة لـ « برديكاس » الذي كان وقتئذ قاصراً.. فطمع « بطماوس » بالمُلْك وأراد خلع « برديكاس » فلم يتسنىّ له ذلك لأن (الثيبيين « أعانوه وطردوا المغتصب ولكي يجعلوا « مقدونيا » طاهرة وأكيداً لهم ، أخذوا رهائن ثلاثين شاباً من جملتهم « فيليبس » أخو الملك وأصغر أولاد « أمينتاس ».. ورفض المقدونيون أن يدفعوا الجزية للإيليريين التي فرضها عليهم « بردليس » حينما خلع « أمينتاس » وملّك « أرجيوس » ، فثارت الحرب بين الفريقين ومات بها « برديكاس » مخلّفاً طفلاً اسمه « أمينتاس » ، فأصبحت حال « مقدونيا » تعيسة جداً.. واكتنفتها الأخطار من كل جانب ، وأصبحت ساحة لنزاع وقتال الأمراء الراغبين في المُلك ، وأرسل إليها (الأثينيون) أسطولاً لمحاربتها وإذلالها ، وبلغ « فيليبس » وهو في دار الغربة موت أخيه والأخطار المحيطة ببلاده فنشط إلى إعانتها وجاء لإنقاذها من ذلك البلاء والضيق .

مُلْك فيليبس :

كان عمر « فيليبس » حينما أقدم على إعانة بلاده والانتصار لابن أخيه ، ثلاثاً وعشرين سنة ولكنه أدرك من الحكمة مالا يدركه الرجال المحنّكون في ساحة القتال من الشجاعة والهمّة.. فأعلن بادىء ذي بدء أنّه أتى ليعين ابن أخيه ويكون له وصيّاً . وهذا عذر ليقبض على عنان الحكم.. وحيث إن حقّ المُلْك في « مقدونيا » لم يكن دائماً بالوراثة

الشرعية ، وكان الشعب قد بات في ضيق من حرب الإيليريين ورأى في « فيليبس » شجاعاً وحكيماً فأجاب طلبه ورضي به ملكاً على جميع البلاد ، وألقى إليه مقاليد الأمور . . نظّم « فيليبس » فرقة أعوان من الفتيان الأشدّاء البواسل لإتقان النظام العسكري وكانوا يتبارون في إنفاذ أوامره وجَهِدَ فيليبس في إرضاء واستمالة الجميع من الأهالي . ولقد نبغ من هذه الفرقة قوّاد عظامٌ أعانوا فيليبس وإسكندر على افتتاح المدائن والبلدان واقتسموا بينهم بعد موت الإسكندر ممالك العالم القديم .

. . لقد جهد فيليبس في تعزيز قوّته فأحضر أسلحة وافرة وخيولاً كثيرة وآلات حربية عديدة ، وعوّد جنوده القتال بالتمرينات الدائمة ليجعلهم يتحمّلون العناء والتّقشّف بصبرٍ عظيم .

في عام (٣٥٨) ق .م مات رئيس البيونيين فأغار عليهم « فيليبس » بجيوشه وكسرهم وأخذ رهائن وفرض عليهم جزية سنوية .

. . وعندما رجع من « بيونيا » عوّل على محاربة « الإيليريين » ورئيسهم « بردلّيس » . . لتوسيع مملكته إلى البحر الأدرياتيكي وإنشاء أسطول بحري وإخضاع الممالك المجاورة . . فتقدّم بعشرة آلاف راجل وستمئة فارس ، وكان « بردليس » قد نهض بعساكره فالتقى الجيشان ونشب القتال ولكن الإيليريين ولوا الأدبار بعد أن قُتل رئيسهم « بردليس » في آخر النهار كما قُتل سبعة آلاف رجل فدخل « فيليبس » بلادهم وأخضعها وأضاف منها إلى مملكته ، وفرض على الباقين الجزية وأخذ رهائن وعاد إلى بلاده .

ولم يرتد « فيليبس » إلى عاصمة بلاده بعد هذا الانتصار ليتمتع بالراحة والسلام بل ليفكّر في حروبٍ جديدةٍ . . ليمدّ سلطانه على البلاد اليونانية . .

. . كانت بلاد « تساليا » مرتبكة جداً بسبب انقسام رؤسائها فحاربها « فيليبس » وأخذ الجزية السنوية من أهلها ، ثمّ حالف ملك « أبيروس » وتزوج « أولمبياس » أختـه ، وكانـت « أولمبياس » بـديعـة الحسـن والجمال ، ذات فكر ثاقب وذكاء عظيم فأحبّها « فيليبس » وطلب الاقتران بها .

كان « فيليبس » مهذّباً ، أديباً ، يعرف فائدة العلم ويحب العلماء فكتب إلى « أرسطو طاليس » حين ولادة ابنه « إسكندر » مايأتي : (اعلم أنه قد وِلِد لنا ابن فشكراً للآلهة على هذه الهبة التي منحتنا إياها في أيام « أرسطو طاليس » ، فلا ريب أنّك ستعتني به ليحاكي أباه ويكون أهلاً لأن يملك « مقدونيا »).

وكان « فيليبس » طامحاً للاستيلاء على « بيزنطة » (القسطنطينية) ، فأقلق ذلك الأثينيين لأن المدينة المذكورة كانت محطّ تجارتهم ومهمّة جدّاً لموقعها الحسن ، وكان الملك آخذاً في الاستعداد لهذه الحملة ولم يعقه عنها سوى أسقام وبيلة اعترته على أثر الجراح التي أصابته في حروبه مع « الفوكيين » حيث خسر إحدى عينيه ففرح الأثينيون واستبشروا ، ولاسيّما ، حين بلغهم خبر موته . . فاستأنفوا القتال في الحرب المقدّسة انتصاراً للفوكيين ونظر « ذمستينيوس »[1] عظمة « مقدونيا » وتقدمها وعرف أطماع ملكها وحِيَلَهُ فقام بين قومه نذيراً يحذّرهم من التواني ويحرّضهم على إحباط أعماله ، فألقى خُطَباً عديدة . . ويمكن القول أن

---

(١) ذمستنيوس : هو خطيب الأثينيين الشهير ولد سنة (٣٨٥)ق . م وتيتّم صغيراً فاختلس أولياؤه أمواله وأهملوا تعليمه وتهذيبه ليشبّ جاهلاً غير أنه لزم الخطيبيْن « أزيوس » و« أزكراطيس » والفيلسوف « أفلاطون » ولما بلغ الثامنة عشرة نشط في الخطابة وطلب محاسبة أوصيائه .

هذا الرجل قد أضرّ فيليبس ببلاغته أكثر ممّا لو كان أميراً وقائداً ، وجهّز لمحاربته جيشاً عرمرماً جدّاً لأن صوته كان ينطلق فوق رؤوس الجموع كالرعد القاصف ، فيهيّج في القلوب إحساسات الوطنية والشجاعة . . وألقى خطبته الأولى سنة (٣٥٢)ق .م وقال فيها : (أيها الأثينيون قد سئتم حالاً والأخطار محدقة بكم من كل جانب فلا تقنطوا من الفَلاح واعلموا أن تلك الحالة السيئة ناجمة عن التواني والإهمال ، فأصلحوا أعمالكم تفوزوا بما ترغبون . .) .

. . وظلّ يحمّس الجماهير ويبين لهم الطرق الصحيحة للفوز . . فانتصح « الأثينيون بكلام خطيبهم وأرسلوا كل جنودهم البرّية بمائتي سفينة حربية ، وبعثوا سفراء إلى جميع المدائن اليونانية يدعون أهلها للاتحاد ، والتقى الفريقان ونشب القتال فكان « فيليبس » في ميمنة الجيش وابنه « إسكندر » في ميسرته ، ولما أشرقت الشمس اشتبك الفريقان وما زالت رحى الحرب دائرة حتى ولّى « الثيبيون » الأدبار فلحق بهم « إسكندر » وشتّت شملهم ، وصدم « فيليبس » الأثينيين صدمة أورثتهم الخَبال ، فقتل منهم (ألفاً) وأسر (ألفين) وبدّد شمل الباقين .

وعامل « فيليبس » الأثينيين بعد هذه الموقعة بالرِّفق واللين والإحسان وسمح لهم أن يحرقوا موتاهم بكل إكرام ، وأرسل أسراهم إلى بلادهم بلا فداء وترك لهم أملاكهم الخارجية ، فَرَضَوْا بإبرام الصلح وسُرّوا بمحالفته ، أما الثيبيون فعوملوا بقساوة وأُكرهوا على الخضوع التام للدولة المقدونية . . لأنهم نكروا الجميل وقابلوا الإحسان بالإساءة . .

. . في سنة (٣٣٧) ق .م ، أي بعد الحرب بعامٍ واحد عقد « فيليبس » مؤتمراً في « كورنثوس » وأخبر معتمدي اليونان بظلم وقساوة الولاة الفُرس وجَوْرِهِم على رعاياهم الغرباء وأعلن لهم رغبته في

محاربتهم انتصاراً للضعفاء ـ والصحيح لتوسيع مملكته ـ وكان اليونانيون يكرهون الفُرْس لأنهم احتلّوا بلادهم واحتقروا دينهم ونجّسوا هياكلهم وأحرقوها ، فَرَضَوْا بالانضمام إلى المقدونيين لقتال الفُرْس وجهّزوا (٢١٠آلاف) راجل و(١٥ عشر ألف) فارس . . واحتفل « فيليبس » قبل رحيله لقتال الفُرْس بزفاف ابنته « كليوباترة » إلى ملك « أبيروس » ـ خال إسكندر ـ فأقام الأفراح والولائم أياماً عديدة ، وبينما كان ذاهباً مرة إلى الملعب لقيَه رجل مقدوني اسمه « بوزونياس » ضربه بمدية ألقاه على الأرض قتيلاً ، . . قيل إن زوجته « أولمبياس » قد أرسلت ذلك الشقي ليقتله لأنه هجرها ومال قلبه إلى حب الغواني واتّخذ لها ضرائر ، أما « إسكندر » فاتهم الفُرْس بقتل أبيه وجعل هذا الأمر أحد الأسباب التي دعته إلى محاربتهم وفتح بلادهم .

وهكذا مات « فيليبس » عام (٣٣٦)ق .م في السنة السابعة والأربعين من عمره ، والرابعة والعشرين من ملكه ، وهو أول ملك تحرّى المؤرّخون الحقائق في كتابة قصّته وإشهار أعماله العظيمة التي تبقى على مرّ الزمن مثالاً للشجاعة والحكمة وحسن التدبير[١] .

* * *

(١) انظر : تاريخ الدولة المقدونية والممالك التي انفصلت عنها/ نجيب إبراهيم طراد ، بيروت ، المطبعة اللبنانية ١٨٨٦م (ص٥ـ٥٨) .

الإسكندر الكبير

نسبه :

ولد في « بلاّ » بمقدونيا أبوه فيليب أو فيليبس المقدوني وأمه « أوليمباس » أميرة « إيبرَسْ » .

صفاته :

كان ذكياً ، حَفِظَ الإلياذة لـ « هوميروس » عن ظهر قلب . حصانه الجموح « بيوكفالفوس » حمله في فتوحاته العظيمة . . ولمّا مات الحصان بالهند بنى الإسكندر مدينة سمّاها « بيوكيفالا » تخليداً لذكرى هذا الحصان[1] .

كان إسكندر جميل الخُلُق ، كريماً ، شجاعاً ، رُبّي في حِجْر التمدّن ، والتهذيب فنشأ أديباً فطِناً ، قرأ الفلسفة والعلوم على « أرسطو طاليس » أعظم فلاسفة القدماء وأخذ عنه السياسة والآداب ، وحاكاه بالبلاغة وفصل الخطاب ، ولا ريب أن هذا العالِم العلاّمة الذي كان دأبه معرفة وترتيب كل شيء ، لأهلٌ أن يكون أستاذ ملك حَكَمَ العالم ليغيّر نظامه القديم بنظام جديد .

---

(١) انظر الموسوعة العربية العالمية (٢/ ١٢) .

إسكندر الملك :

أصبح « إسكندر » بعد موت أبيه محفوفاً بالأخطار لأنه كان فتى مناهزاً العشرين من عمره ، وكان له خصوم ينازعونه المُلْك ويسعوْنَ في إهلاكه ولا سيّما « أمينتاس » ابن عمّه الذي خلعه « فيليبس » وخلفه ، غير أنه لمّا كانت الجنود تحبه لبسالته وعلوّ مداركه ، استطاع مع أصدقائه ونصرائه أن يحبط أعمال أعدائه ، . . فاستتب له الأمر . .

ثم أسرع إلى بلاد اليونان ليثبِّت أركان سلطته هناك ويخمد نار الفتنة التي كادت تشتعل عند موت أبيه . . ونظر الإيليريون والترباليون سنة (٣٣٥)ق . م حداثة المَلِك فظنّوا أن الأوان قد آن لقتال المقدونيين ونيْل الاستقلال ، فجاهروا بالعدوان فعلم « إسكندر » بذلك فبادرهم بالخيل والرجال ووصل بعد سيره عشرة أيام إلى مضيق جبل هموس (البلقان) فوجد فرقة من التراكيين فهجم عليهم وقتل منهم (١٥٠٠) رجل وأسر عدداً كبيراً منهم ، وفرّ الباقون ، وأسرع إلى أراضي التريباليين ولقيَ جنودهم معسكرين عند نهر صغير على بعد ثلاثة أيام من « الدانوب » فقاتلهم وكسرهم وأخضع قبائل كثيرة . . وأخمد ثورة الإيليريين فدان له جميع أولئك البرابرة صاغرين .

. . أحال « إسكندر » سنة (٣٣٤)ق . م إدارة مملكته والبلاد اليونانية إلى « أنتيباتر » أحد قواده ورحل في الربيع بخمسة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل ، وبعد مسيرة عشرين يوماً وصل إلى مضيق لمبونتس (الدردنيل) واجتازه إلى آسيا بـ (١٦٠) سفينة فاحتل السواحل دون مقاومة لإهمال الفُرْس وتواني مَلِكِهِم « كودمانس » الملقّب (داريوس) الذي تبوّأ عرش المملكة بالخبث وسفك الدماء ، وكانت دولته تتسلّط على أحسن الأقاليم في آسيا وإفريقية . . وكانت لها أموال وافرة مدّخرة في

« دمشق » و« همَدان » وغيرهما من المدائن الكبيرة . . وكان دخْلُ الإسكندر من البلاد التي فتحها الملايين من الليرات الذهبية .

انتصارات الإسكندر :

. . وبينما كان الاسكندر يجتاز السواحل كان ولاة الأقاليم البحرية من الفُرْس مجتمعين في « طروادة » لدراسة ما يجب عمله لمحاربة وطرد أعدائهم وضرورة الاتحاد ، غير أن الحسد وحبّ الرئاسة جعلا ذلك الاتحاد بلا فائدة ولأن أحدهم « ممنون » الروديسي وهو قائد محنّك شهير قال لهم : « من الواجب أن تجتنبوا المعامع العظيمة وأن تُتْلفوا الغِلال وتخرّبوا المدائن والقرى ليضجر المقدونيون ويرحلوا أو يموتون جوعاً . ولكنّ رأيه باء بالفشل ، وعزم الولاة على حشد الجنود على ضفة نهر « غراثيكوس » (كوجه شاي) بين مدينة « زلة » والدردنيل .

وعلم إسكندر بتجمّع الأعداء بالقرب من ذلك النهر فنهض حالاً بجنوده وعبَرهُ . . ودحَرَهم . . وقتل « متريدات » ـ صهر داريوس ـ . . ودامت الحرب حتى خارت قِوىٰ الفرس التي تعد (١١٠ آلاف) رجل ، وفي قول آخر (٦٠٠ألف) جندي ، ولم يمت من العساكر المقدونية سوى (٨٥)فارساً و(٣٠) راجلاً ، فأمر إسكندر بعمل تماثيل نحاسية لهم ووضعها في مدينة « ديوم » تذكاراً لبسالتهم وتنشيطاً لجنوده . . واستسلمت له بعد هذا الانتصار « أيونيا » و« قرجيا » وكل الولايات الواقعة إلى الغرب من نهر « إلس » (قزل أرمق : النهر الأحمر) ـ الآن ـ .

. . ظل « إسكندر » يتقدم منتصراً حتى وصل إلى « مضيق الأبواب[١] . وداهم عسكر الفرس المحتلة للمضيق فولّوا هاربين ، وكان

---

(١) مضيق الأبواب : مضيق بيلان ـ حالياً ـ .

الوالي قد عوّل على نهب مدينة « طرَسوس » حاضرة ولايته قبل أن يغادرها فلم يمكِّنه المقدونيون من ذلك . .

الإسكندر على أبواب سورية :

اعترى « الإسكندر » في « طرَسوس » مرض شديد وبعد مداواته شُفي وتابع سيره فدخل مدينة « أنخيالوس » ونظر فيها ضريح « سردانابالس » ـ أخر ملوك دولة « نينوى » الآشورية ـ وتمثاله العظيم المكتوب عليه بيت شعر معناه : « هذا سردانا بالس الذي بنى مدينتي أنخيا لوس وطرَسوس في يوم واحد . . » .

ظنّ « داريوس » أن تأخر « إسكندر » عن قطع جبال سورية الشمالية ناتج عن جبن وخوف منه فرحل بجنوده . . وزحف إلى جهة خليج « أسوس » واستولى على المدينة وقتل الجرحى المقدونيين والرجال الباقين لحمايتها ، وكان « إسكندر قد عبر المضيق المسمى » أبواب سوريا « (بيلان) وعسكر قرب مدينة « ماريا ندروس » . . ونشب القتال . . . واستولى « إسكندر » على معسكر الفُرْس[1] وسُرادق الملك ووجد فيهما جواهر وأمتعة ثمينة لا تُحصى ولما كانت أمّ داريوس وامرأته وجواريه غير قادرات أن يتبَعْنَه وهو منهزم ، بَقيْنَ في سرادقهن يندبْنَ سوء

---

(١) لقد كان على الإسكندر أن يوحد مدن اليونان المتنافسة والتي تتلقى الرشاوى من الزعامة الفارسية . . ويضم جهوده إلى جهود المدن السورية المتمردة في الشمال السوري . . فجيش الإسكندر وأسطوله الذي هزم الفُرْس . . هو الأسطول السوري الفينيقي الشهير . . ويؤكد المؤرخون بل أشدهم تعصّباً للغرب ضد الشرق . أن فيليب كان صنيعة السوريين تربّى في جيش « طيبة » الفينيقي وتسلّم مَهمَّة صدِّ غزوات البرابرة في الشمال في ماوراء الدانوب وكذا ابنه « الإسكندر » الذي قاتل بالسوريين وبالأسطول الفينيقي بعد ما وحّدوا جهودهم . . وعادت « بابل » عاصمة للدولة السورية . . (تاريخ سورية الحضاري ص ٧٠٦ـ٧٠٩) .

حظهنّ. . ولكنَّ إسكندر لشهامته أرسل إليهنَّ حالاً أحد أعوانه ليطيِّب خاطرهن ثمّ زارهن في الغد مع صديقه « أفستيون ». . كان « إسكندر » راغباً في افتتاح المدائن البحرية. . فزحف بجنوده والنصر يتقدمه. . وبعد قهره « داريوس » وجنوده في موقعة « أربلا » زحف إلى « بابل ». . وفي ربيع (٣٢٧) ق .م زحف بجنوده إلى بلاد الهند. . وظن حكّام عواصم البلاد الفارسية أن « إسكندر » سيهلك لا محالة في غزواته وحروبه. . ولا ريْبَ أن هذا الملك الشهير والبطل العظيم قد قرَن الشجاعة والشهامة بالفطنة والحكمة لأنه رأى أن القوة والبطش لا يكفيان لتوطيد سلطته على سائر الأقطار الخاضعة له ، بل يجب مزج تلك الأمم المختلفة وجعلها شعباً واحداً مرتبطاً بصلات الحب. . غير أن الموت كان واقفاً له بالمرصاد وهو في ريْعان الشباب فقُبِض في (٢٨أيار سنة ٣٢٣)ق .م وعمره ثلاث وثلاثون سنة[١]. .





(١) انظر : تاريخ الدولة المقدونية (ص٥٨ـ٩٣) .

المملكة المقدونية بعد الإسكندر :

خلال هذه الفترة وقعت معارك عديدة وتقلبات كثيرة في الدولة المقدونية حتى كان آخر ملوكها « برسيوس » عندما تقاتل مع الرومانيين وهزموه في معركة « بيدنا » في (٢٢ حزيران ١٦٧)ق . م وهرب إلى جزيرة « ساموتراس » فقُبض عليه هناك وجيء به إلى « إيطاليا » ليمشي أمام الظافرين ، وقيل إنّه مات جوعاً حين امتنع عن الأكل في « روما » ، وقيل إن الحرّاس منعوه النوم فقضى .

وبعد قهر « برسيوس » قبض الرومانيون على زمام الحكم في مقدونيا ، وفي سنة (١٤٨ق . م) جعلوها ولاية رومانية[١] . . في عام (٣٩٥م) أصبحت مقدونيا تابعةٌ للإمبراطورية البيزنطية ، ثم خضعت لحكم العثمانيين من عام (١٣٨٩م) وحتى حرب البلقان (١٩١٢م) .

ملوك مقدونيا :

كان عدد ملوك « مقدونيا »(٣٩) ملكاً ، أولهم « كارانس » - لم تُذكر سنة تولّيه الحكم ، وأول ذكر للسنة هي للملك « أمتياس » من (٥٤٠ - ٥٠٠ ق . م) - وآخر ملك مقدونيا « برسيوس » من (١٧٨ - ١٦٧ق . م) ومنهم أربعة ملوك باسم « إسكندر » وسمي « إسكندر الثالث » بـ (ذي القرنين) وحكم من (٣٣٦ - ٣٢٣ق . م) ودام حكمه مدة (١٣ سنة)[٢] .

---

(١) انظر المصدر السابق (ص١٢١) .

(٢) انظر : دائرة المعارف الإسلامية / خورشيد وآخرون (٢/ ١٢٨) .

الممالك التي انفصلت عن الدولة المقدونية :

مملكة « سوريا » أكبر الممالك التي انفصلت عن الدولة المقدونية ومؤسّسها ، « سَلوقُس الأول » الملقب (نيكاتور) أي : الظّافر ، وهو أحد قواد الإسكندر الذين اقتسموا بينهم أملاك سيِّدهم البطل . . وكان « سلوقس » راغباً في الاستيلاء على « مقدونيا » كي يوسّع بها نطاق مملكته . .

. . مات « سَلوقُس » غِيلة بيد أحد أصدقائه « بطليمُس » الذي خانه ، وبموته ثارت رعاياه بطلب الاستقلال . . وأصبحت حرّة يحكمها ملوك وطنيون .

بنى « سَلوقُس » سنة (٣٠٠ق . م) مدينة كبيرة دعاها : « أنطاكية » تذكاراً لأبيه « أنطيوخس » وجعلها بعد ذلك عاصمة مملكته وهي واقعة على ضفة نهر « أورنتس » - (العاصي) في واد جميل يقع في جنوبه وشرقه جبل « كاسيوس » ، (الأقرع) ، وآثار هذه المدينة باقية إلى الآن بالقرب من « أنطاكية » الحالية ، قيل : إنه حين شرع ببنائها ذبح - حسب عادات البرابرة - فتاة عذراء لتكون لها آلهة واقية[١] .

الإسكندر في سطور :

الإسكندر الكبير : (٣٥٦- ٣٢٣)ق .م من أشهر القواد الفاتحين لقب بذي القرنين (لأنه بلغ قطري الأرض مشرقها ومغربها) ابن فيليبس ملك مقدونيا ، خلف والده ٣٢٦ق .م[٢] .

---

(١) انظر : تاريخ الدولة المقدونية (ص١٢١-١٣٨) .
(٢) م أ - ص ٦٢٥ ط٢٢ ، ١٩٩٢م .

اجتاح إمبراطورية الفرس فهزم داريوس في إيسوس ٣٣٣ق .م ، وتعقّب داريوس فقضى عليه في معركة (كوكميلة) قرب أربيل العراق ٣٣١ق .م مات بالحمى في (بابل) تقاسم إرثه قوّاده : أنتيقوس ، وبطليمُس وسَلوقُس فنشأت الممالك الهلنستية .

ماهي حقيقة إسكندر ذو القرنين[١]؟

* * *

(١) طالع في آخر بحث مقدونيا قراءة تاريخية عن : إسكندر ذو القرنين .

مقدونيا وحروب البلقان

في القرن العشرين

(في عام ١٩١٢ و١٩١٣م كانت أحداث حرب البلقان الأولى والثانية بين العثمانيين ودول البلقان التي شكّلت حلفاً وهي : صربيا ، اليونان ، بلغاريا ، الجبل الأسود ، وكانت كلٌّ دولةٍ تدّعي أنها صاحبةُ الحق في الأرض المقدونية ممّا أدّى ذلك إلى انقسامٍ وقتالٍ بين دول الحلف)[1] .

تقسيم مقدونيا :

شاركت مقدونيا بنصيبها في الحرب ـ باعتبارها عثمانية ـ بجمع فرقة مؤلّفة من (١٥,٠٠٠) رجل من أهلها وما أن هُزمت الحكومة العثمانية في هذه الحرب ، إلاّ وأثار تقسيم مقدونيا بالحال معارضةً من بلغاريا من جهة ومن صربيا واليونان من جهةٍ أخرى ، وعلى أثر ذلك قامت الحرب البلقانية الثانية في سنة (١٩١٣م) وفيها انهزمت بلغاريا من طرف حلفائها القدامى ، في نهاية الحرب عُقدت معاهدة « بخارست » في ١٠ آب ١٩١٣م « ولم تَعطِ لبلغاريا إلا فوائد ضعيفة في الأرض وخصّت القسم الأكبر من « مقدونيا » باليونان وصربيا .

---

(١) لمعرفة أحداث حروب البلقان ، انظر : بحث بلغاريا في هذا الكتاب .

.. وقد ساعدت حرب (١٩١٢م) صربيا على احتلال « مقدونيا » ، وحاول جيش الاحتلال بكل الوسائل التي يتصرّف بها جيش ، كسيّد للأرض والناس .

هكذا كان مصير مقدونيا قبل الحرب العالمية الأولى عام (١٩١٤م) ، بَيْدَ أنَّها كانت متقاذفة بين إمبرياليتين : صربية وبلغارية بطباعها القومية ، وبقيت في أيدي العثمانيين حتى عام (١٩١٢) ، وأن نضالها للتحرير في ظروف صعبة وشرسة مدموغ بمذابح مستمرّة واجتياح البلاد ، فقضى بالسيْطرة العملية المباشرة للمقدونيين ، وهي هزيمة العثمانيين ، وذهابهم ، كما جعل الوعي بدولة مقدونيا محتملة الوقوع أمراً غير واضح . ولكن الأصالة القومية لمقدونيا ، كانت كافية ومؤكدة بالمقاومة المقدونيّة لسياسة المركزية[١] .

مقدونيا العثمانية :

.. من الوجهة الإدارية ، تبلغ مساحة مقدونيا العثمانية في حدودها الطبيعية التي هي ليست حدود قوميات ـ ، نحو : (٦٥,٠٠٠) كم٢ ، وتضم ثلاث ولايات هي : سالونيك ، موناستير (بيتولا) ، وسكوبيا . وهذه الولايات مقسّمة إلى سناجق ، ولكن الولايات كانت تطغى على صربيا القديمة في الشمال (إيبك ، نوفي بازار ، ميتروفيتسا) وعلى ألبانيا وتساليا . وفي عام (١٩١٣م) قُسّمت المنطقة بين صربيا وبلغاريا واليونان ـ كما عرفنا سابقاً ـ وفي عام (١٩١٩)م ، في صلح « نوبي » ، مُنحت صربيا ـ عدا ما كانت قد حصلت عليه ـ منطقة (ستروميتسا) التي كانت في السابق لبلغاريا ، وإذا أخذنا بالإحصاءات البلغارية ، كان سكان

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٣٤٧ـ٣٥٢) .

« مقدونيا » في عام (١٩١٢)م نحو (٢,٣٥٠,٠٠٠) نسمة موزعين كما يلي :

(١,١٠٠,٠٠٠) بلغاري ، (٥٥٠,٠٠٠) تركي ، (٢٦٨,٠٠٠) يوناني ، (١٩٤,٠٠٠) ألباني ، دون حساب الأقليّات الأخرى (٩٥,٠٠٠) الجيتان (٤٣,٠٠٠) نسمة . . إلخ .

وفي هذا الإحصاء لم يكن الصرب موضع بحث . أما بالنسبة للبلغاريين فإنهم يرون أن المقدونيين بلغاريون ، وبالنسبة للصرب ، مقدونيون ، إذ يمكن وصفهم بسهولة « بلغاريون ـ مقدونيون » .

ولإيضاح هذه الحالة التي تلفت النظر والمعقّدة في « مقدونيا » ، يجب أن نتذكّر أن البلد أصبح (سلافياً) في القرن السادس ، وتشكّلت فيه دول صغيرة كافحت الإمبراطورية البيزنطية وبصورة خاصّة مملكة بلغاريا التي ضمّت مقدونيا نحو منتصف القرن (٩) م حتى سقوطها في بداية القرن (١١)م . وفي منتصف القرن (١٣)م وُجد أن العنصر اليوناني أخذ يتعزّز نحو الجنوب إثر جهود الأباطرة البيزنطيين ، ثم جاء الفتح العثماني ، وفي القرن (١٥)م سقطت سالونيك عام (١٤٣٠)م[1] .

تغييرات وتطورات في المنطقة :

لقد غيّر الفتح ـ خصوصاً ـ المدن التي شادها العثمانيون نقاطاً استراتيجيّة أو مراكز حامياتٍ ، لذا فإن التركيب العنصري لمنطقة الجنوب حيث كانت المدن اليونانية العديدة قد تغيّرت كثيراً ، و(تترّكت

(١) انظر : الحركات القومية في أوربا / د . نور الدين حاطوم دار الفكر . دمشق ١٩٨٢م (ص٤/ ٣٤٠) .

المنطقة ، وانصهر العنصر اليوناني أو اعتنق الإسلام) ، ومع ذلك استعادت الكنيسة نفوذها على أسس أخرى ، لأنّ الإمبراطورية العثمانية (لاتعرف الأمم بل الأديان) ومثَّلت بطريريكية إسطنبول كل الشعوب المسيحية حيال الحكومة العثمانية ، وتبع القسم الجنوبي الشرقي من « مقدونيا » ، « إسطنبول » مباشرة . وفي الشمال أُنشئت أبرشية « أوكسريدا » التابعة للبطريركية ، وفي الحقيقة ، إن الوزير الأعظم « صوكولوفيتش »[1] ـ ليرضي الصرب ـ قد أقام في عام (١٥٥٧)م بطريركية صربية ، بطريركية « إيبك » التي دامت قرنين وحُذفت في عام (١٧٦٦ ـ ١٧٦٧)م تحت ضغط اليونان . ونجم عن ذلك أن السكان اليونانيين ـ الألبانيين في جنوب منطقة « سالونيك » ـ خاصة ـ ، وتساليا أيضاً قد تهيلنوا ـ أي أصبحوا هيلانيين (يونانيين) بسرعة وبالتالي كان القسم الجنوبي من مقدونيا ، يونانيّاً ، مع جزء من بلغاريا في آخر القرن (١٩) م والباقي كان سلافيّاً ، وبلغة تقرب من البلغاريّة ومن المحتمل أن يصبحوا موضع نزاعٍ بين صربيا وبلغاريا .

القضية القومية في البلقان :

إذا رجعنا بذاكرتنا إلى القرن التاسع عشر نرى أنّ قضية القوميات لم توضع بتعابير حادّة في هذه المناطق ، مادامت البلاد الواقعة بين « ألبانيا » والبحر الأسود ، على المجرى الأعلى لنهر « مورافا » الصربي ، والمجرى الأعلى لنهر « فاردار » في أيدي العثمانيين ، ولكن الحال

---

(١) صوكولوفيتش : هو « محمد باشا » نسبةً لمسقطِ رأسه مدينة « صوكولوفيتشي » قرب مدينة « فيشي غراد » المشهورة بجسرها العظيم على نهر « درينا » في البوسنة والهرسك .

تغيّرت انطلاقاً من الزمن الذي أصبحت فيه « صربيا » عام (١٨٣٠)م أمارة مستقلة ذاتياً ، وقُطْبَ جَذْبٍ لجميع السلافيين البلقانيين الذين كانوا يخضعون للعثمانيين ، وبخاصة عندما حصلت « روسيا » ـ في إطار سياستها البلقانية ـ ، ومن الإمبراطورية العثمانية في (١٨٧٠)م على إنشاء أكسرخوسية بلغارية ، انتزعت من البطريركية اليونانية في إسطنبول الإدارة المباشرة للكنيسة الأرثوذكسية في منطقة كاملة تطابق (بلغاريا الحالية) و(مقدونيا)[١] .

.. لقد اعُتبر إنشاء هذه المجموعة الدينية البلغارية حجّة لصالح القومية البلغارية وهذا ما أنكره الصرب عليهم ، وأن تطبيق (فرمان) ١٨٧٠م الذي أحدث الدائرة الدينية البلغارية منطقة كاملة ، وبصورة دقيقة ، القسم الأعظم من « مقدونيا » ، « سكوبيا » ، و« أوهريد » قد اعتمد على استفتاء ساحق.. لصالح الدائرة الدينية ، كما لاحظ الصرب.. ومن هنا نشأ سوء تفاهم متفاقم بعد عام (١٨٧٨)م بالعمل القومي الخاص الذي قامت به الإمارة البلغارية ، بوساطة الدائرة الدينية البلغارية! .

.. ومع ذلك لا تتجه كل مناطق « مقدونيا » على اختلافها ، جهة « صربيا » ، ولاشطر « اليونان ».. فالقضية ذات وعي قومي مقدوني . وهي أصالة خاصّة متميّزة ، في آن واحد عن صربيا وبلغاريا ، وقد ألحّ الصرب على هذا الوعي القومي مصرّحين بأنّه ملائم للاتحاد مع صربيا ، بينما اعتبر البلغاريون « مقدونيا » منطقة يسكنها بلغاريون ! .

ومن الممكن متابعة هذا النزاع في المؤلَّفات التي كتبها الصرب والبلغار غداة الحرب العالمية الأولى ، في مؤتمر السلام عندما نوقشت

---

(١) انظر : الحركات القومية في أوربا (٤/ ٣٤١ـ٣٤٧) .

حدود الدول البلقانية ، ومن المهم خاصة أن نقارن الآراء التي تغذّيها الحجج المتعاكسة ، كحجج الأستاذ « بيليتش » من جامعة « بلغراد » ، ومن جهة أخرى حجج الأستاذ « إيفانوف » من جامعة « صوفيا » . والحلّ الذي جيء به للقضية المقدونية كان حلاً صربياً ! إذ أنّ القسم الأعظم من مقدونيا خارج عن « مقدونيا اليونانية » في الجنوب ، المهيلنة بوضوح ، ألّف جزءاً من مملكة الصربيين والكرواتيين والسلوفينيين التي لم تأخذ سياستها المركزية والتمثيلية مطلقاً بعين الاعتبار تطلّعات المقدونيين إلى الاستقلال الذاتي .

وقُصارى القول ، ألّفت مقدونيا دولة بلغتها ، ونُظمها ، ومؤسّساتها ضمن جمهورية « يوغسلافيا الاتحادية » ـ سابقاً ـ بعد الحرب العالمية الثانية ، وهذا لايمكن أن يُرضي البلغاريين ، وأيضاً ، لايرضي اليونانيين ، (وإن لم يكن يحقق كل آمال المقدونيين) ، ولكنه يُعيد ـ على الأقل ـ لمقدونيا أصالتها ويهدّىء عواطفها القومية ، ومن المؤكد من جهة أخرى ، أن وجود « مقدونيا » في إطار دولي ، يُعزّز هذه الأصالة ، ويُضعف الحجج التي يمكن ، أن تتقدّم بها « بلغاريا » في مطالبها المقدونية .

تطورات إدارية والتضخّم السلافي :

لقد كانت « مقدونيا » تحت السيطرة العثمانية مضطربة باستمرار ، وثورات معادية للدولة العثمانية ترتبط بثورات البلقان عامّة ، والمهمّ من وجهة نظر نموّ العاطفة القوميّة في الأصل ، وصل شعب سلافي من المزارعين ، إلى مراكز إدارية عثمانية . وهكذا تضخّم العنصر السلافي في مدن « مقدونيا » في « سكوبيا ، برليب ، كوستانديل ، وبيتولا (موناستير) . واستقرّ الحرفيون والتجار ـ الفلاّحون في الأصل ـ في

المدن ، وتجمّعوا في أصناف ، انطلاقاً من القرن (١٨) ، وأخذوا يناقشون القضايا المهنية والدينية في مجالس ، تحت سلطة الإكليروس الأرثوذكسي . وحتى (١٨٧٠) م كان الأعلى يونانيّاً ، والأدنى بلغاريّاً أو مقدونيّاً . وبعد (١٨٧٠)م أصبح بلغاريّاً .

وفي القرن (١٩)م كان لمقدونيا تجارة نشيطة مع الخارج ، تُصدّر القطن والتبغ والجلود ، ولم تكن جميع الأعمال في أيدي العثمانيين ، وإنما في أيدي اليونان والبلغار المقدونيين .

. . لقد كانت حرية القومية المقدونية موجّهة ضد الإغريق ، ولكن النهضة البلغارية ـ المقدونية المدفوعة باستعمال اللغة البلغارية تلقّت سَنَداً قويّاً من « دير جبل آتوس » . ففي القسم الإغريقي من « مقدونيا » حيث توجد أهم المدن والموانىء المتعددة السكان مثل : « سالونيك » . كان عند هؤلاء الذين يمكن أن يُسمّوا « القوميين البلغاريين » أنفذ الوسائل . ففي « سالونيك » طُبعت المؤلَّفات الأولى باللغة الشعبية البلغارية في سنوات (١٨٣٠)م[١] .

بيْد أن البلغاريين ـ المقدونيين في منتصف القرن (١٩) م وقفوا ضد الإغريق .

. . وفي تاريخ العاطفة القومية المقدونية يوجد تاريخان هامّان :

الأول : عام (١٨٥٦)م بعد حرب القِرْم ، ومعاهدة باريس ، وفيه اضطرّت الإمبراطورية العثمانية أن تقبل ـ على الأقل نظريّاً ـ المساواة بين العبادات والعروق ، واللغات في الأراضي البلقانية كلّها التي تحكمها وأدّى ذلك إلى نموّ مباشر للمدارس الابتدائية التي يتمُّ فيها التعليم

---

(١) انظر المصدر السابق (ص٣٤١ـ٣٤٧) .

المختلط بلغات البلاد وكانت « مقدونيا » في القرن (١٩)م ، من وجهة النظر هذه ، أكثر تقدماً من بعض البلاد ، مثل البوسنة .

الثاني : عام (١٨٧٠)م ، إنشاء الأكسرخوسية البلغارية ، وانطلاقاً منها ، كَثُرت المدارس وتعددت تحت إدارة الطوائف الدينية ، وكان في مقدونيا عام (١٩١٢)م عشيّة تحريرها من العثمانيين أكثر من (١١٠٠) مدرسة تضم (٦٥٠٠٠) تلميذاً ، وهذا الرقم متواضع ، ولكنّه أعلى نسبياً مما في البلاد البلقانية الأخرى . وذلك دون حساب المدارس الكاثوليكية والبروتستانتية ، . . لكن التوتّر العام بين الإمبراطورية العثمانية والشعوب السلافية في البلقان ، ازداد في الثلث الأخير من القرن (١٩)م . ففي عام (١٨٧٦ و١٨٧٨)م قامت عدة ثورات في « مقدونيا » . ومع ذلك ، ترك مؤتمر برلين المنطقة بيد العثمانيين الذين بدأت تضعف سلطتهم ، وأثناء ذلك اشتدت الانقسامات بين الإغريق والبلغار والصرب ، لاسيّما وأن إنشاء إمارة بلغارية ، جهّز القومية المعادية للعثمانيين بسَنَدٍ سياسي جديد .

في الوقت نفسه احتلّت النمسا ـ هنغاريا ، البوسنة والهرسك وفرضت في عام (١٨٨٢)م على صربيا معاهدة سريّة تعهدت بموجبها هذه الأخيرة الامتناع عن كل دعاية قومية في الأراضي التي تحتلها النمسا ، ولكنها دفعت صربيا إلى التدخل في الجنوب الشرقي الأوربي ضد الإمارة البلغارية تعويضاً لها .

وفي عام (١٨٨٥م) انفجرت الحرب بين صربيا وبلغاريا التي اتحدت مع الرّومللي الشرقية لتشكيل بلغاريا ، وفي هذا العصر لم يسيطر الخلاف كثيراً بين البلغار والإغريق ، هذا الخلاف الذي عاد في القرن العشرين ، وإنما الذي سيطر هو الخلاف بين البلغار والصرب بسبب « مقدونيا » . .

وللحفاظ على نوع من التوازن في البلقان ، بعد تشكيل بلغاريا في عام (١٨٨٥)م ، دعمت « روسيا » المطالب الصربية في (مقدونيا) .

وفي عام (١٨٩٣)م ، تشكلت منظّمة ثورية مقدونية ، واستطاعت عام (١٨٩٦)م عقد مجلس لزعمائها . وكانت تُدْعَم من بلغاريا من لجنة مقدونية عليا ، أشعلت في (١٨٩٥)م ثورة في مقدونيا الشمالية واصطدمت بالعثمانيين وسُفكت دماء كثيرة . ومنذ ذلك الحين تعددت الحوادث الدامية . ولم تكن الحركة القومية البلغارية ـ المقدونية من النخبة فقط آنذاك ، بل كانت تعتمد أيضاً على عناصر شعبية . وفي (١٨٩١)م ـ ولأول مرّة ـ صدرت جريدة يومية سياسية ، وظهر بين الثوريين الذين يعملون على تحرير « مقدونيا » أناس تثقّفوا في مدرسة الاشتراكيين الروس[(١)] .

الثورة تعمّ أرجاء مقدونيا عام ١٩٠٣م :

بقيت « مقدونيا » في ثورة دائمة ، حتى ثورة عام (١٩٠٣)م التي أشعلت البلاد كلها حتى المنطقة الساحلية ، لأنّ الثائرين المقدونيين دمّروا البنك العثماني في « سالونيك » وأحرقوا في الميناء سفينة فرنسية ، « الوادي الكبير » ، كانت تنقل مؤناً للجيش العثماني ، وقطعوا مجاري الغاز في المدينة ، فعاقبت الحكومة العثمانية مرتكبي هذه الأعمال . .

كانت تحرّكات « سالونيك » نقطة انطلاق للثورة في كلّ « مقدونيا » في صيف (١٩٠٣)م ، واستطاع الثوار المقدونيون أن يقوموا بحرب الأنصار ، وبخاصة باستعمالهم الجبال مراكز لمعسكرات وملاجىء للسكان المدنيين ـ أن يهزموا خلال عدة أشهر جيشاً عثمانياً مؤلفاً من

---

(١) انظر المصدر السابق (ص٣٤١ـ٣٤٧) .

(٨٠,٠٠٠) رجل ، وجرت معظم المعارك في الشمال ، في منطقة « موناستير » ، وأدّى ذلك إلى اجتياح عام للبلاد . وفي تقرير للسفير الفرنسي في « إسطنبول » مسيو « كونستان » في(١١ آب ١٩٠٣م) ، وفيه يقول :. « لايمكن للمرء أن يخفي عن نفسه من أن الحالة خطيرة ، وبخاصة في ولاية « موناستير » التي يبدو أن الثوّار قد اتخذوها مركزاً لعملياتهم ، وفي كل يوم تحدث أعمال قاسية جديدة! الملاحظ أن الثوار قاموا بإحراق القرى العثمانية الخاصة بالمسلمين ، وقطع الخطوط البرقية ، وتدمير محطّات السكك الحديدية ، وخطف عمّال الطرق وقتلهم. . وفي الواقع هو أن الجيوش العثمانية كثيرة العدد ، عاجزة عن تحقيق النظام. . ».

لقد أثارت ثورة « مقدونيا » في (١٩٠٣)م تدخل الدول الأوربية ، ونصّ اتفاق « مورتزتغ » في « النمسا » - بين الإمبراطور « نيقولا الثاني » و« فرانسوا جوزيف » على الإصلاح الإداري في « مقدونيا » ، ولكنهما كانا عاجزيْن لفرضه على الحكومة العثمانية .



نقولا الثاني إمبراطور روسيا



فرانس يوسف إمبراطور النمسا

* * *

مقدونيا

منذ الفتح حتى الحرب العالمية الثانية

مراجعة تاريخية :

اشتهرت مقدونيا في زمن الإسكندر الأكبر ·· ثم صارت (إيالة رومانية) سنة (١٦٨م) وقد فتحها العثمانيون في القرن الخامس عشر ، ولما حدثت الحرب البلقانية سنة (١٩١٣م) التي اتّحدت فيها بلغاريا وصربيا واليونان والجبل الأسود على الدولة العثمانية ، خرج هذا القطر من حكم العثمانيين وانقسم بين بلغاريا واليونان وصربيا .

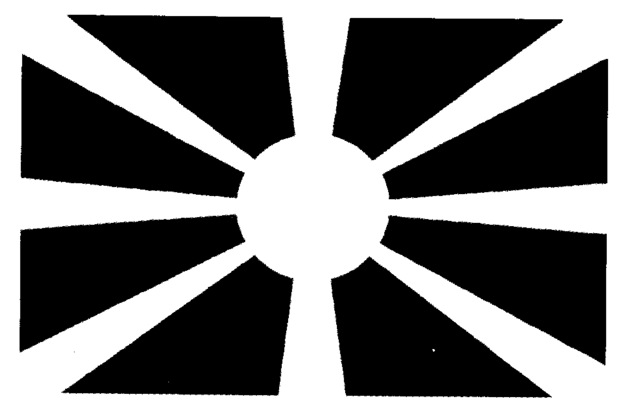
ولما حدثت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م) أضربت مقدونيا فاحتلّ الحلفاء (سالونيك) وبعدها استقرت الأحوال. . . ولكن مجال التنازع ما زال واسعاً[١] . .

---

(١) انظر : د· معارف القرن العشرين (٩/ ٣٠٨_٣٠٩)·

مقدونيا :

اسم يُطلق على إحدى الجمهوريات في يوغوسلافيا الاتحادية ـ سابقاً ـ كما يطلق على إقليم جغرافي (غير معيّن الحدود) يقع في قلب البلقان ويمتد عبر حدود : يوغسلافيا ، وألبانيا ، واليونان ، وهو منطقة جبلية وعرة باستثناء وادي نهر « فاردار » ونهر « ستروما » وتسكنه طوائف متعددة الأجناس من : الصرب والبلغار واليونان والغجر واليهود والألبان ونسبة واضحة من المسلمين منذ الحكم التركي العثماني ، وبعد تحريره عام (١٩١٣م) اقتسمه كل من الصرب واليونان ـ أعطيت شقّة صغيرة



علم مقدونيا شمسٌ صفراء وأرضٌ حمراء

ليوغسلافيا بعد الحرب العظمى (الأولى) ـ فكان ذلك سبباً في انتشار الجمعيات البلغارية الإرهابية للسطوِ على يوغسلافيا واليونان ، وبعد وقوعهما تحت الاحتلال الألماني في (نيسان ١٩٤١م) ضُم أكثر أنحاء الإقليم إلى بلغاريا حتّى أعيد تقسيمه بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، والجزء الباقي تشكّلت منه مقدونيا اليوغسلافية[١] .

* * *



(١) انظر : القاموس السياسي (ص ١٢٠٨ـ١٢٠٩) .

مقدونيا ويوغسلافيا الاتحادية

.. إنّ نظام « تيتو » الشيوعي ، سمح للمقدونيين بتكوين دولتهم القومية المستقلة في إطار الاتحاد الفدرالي اليوغسلافي والأهم من ذلك أن هذا الحدَث السياسي الذي يُعدّ الأول من نوعه منذ (٢٢٠٠) سنة ، وفّر للشعب المقدوني إمكانية تطوير الثقافة الوطنية والشخصية المستقلة . . لقد استطاعت هذه التجربة المتواضعة والتي سمح « تيتو » بها لأغراض سياسية إقليمية في المقام الأول ، وليس حبّاً بالشعب المقدوني ،أو إيماناً بحقّه في الاستقلال ـ وهذا ـ أصبح واقعاً مكرّساً لا يمكن العودة عنه أو تخطّيه اليوم برغم اندثار النظام الشيوعي التيتوي ، ومع أن « صربيا » ، لم تتراجع صراحة عن دعاواها في كون « مقدونيا » جزءاً من كيانها التاريخي القومي (صربيا الكبرى العظمى) ، إلا أنّها كما هو حاصل في الواقع لا تستطيع تجاوز الاعتراف الدولي والإقليمي الواسع الذي حظيَت به الدولة المقدونية بمجرد أن أعلنت استقلالها التام عن يوغسلافيا عام (١٩٩١)م وتشير مصادر كثيرة إلى أن « صربيا » اتفقت مع حليفتها الوثيقة « اليونان » على اقتسام « مقدونيا » في النهاية وعدم السماح لها بالاستقلال والاستمرار . ونظراً لخطورة وحساسية المشكلة المقدونية وتأثيرها على عموم دول منطقة البلقان ، فإن الدول الغربية والكبرى أوْلَتْها اهتماماً خاصاً فأرسلت قوات عسكرية كما أرسلت الولايات المتحدة الأمريكية قواتها إلى أراضي « مقدونيا » إعراباً عن

تصميم النظام العالمي الجديد على حماية هذه الدولة الجديدة وتكريس استقلالها وسيادتها ، ومع ذلك فلا يزال الاحتمال وارداً لأن تكون ثورة انفجار واسع النطاق بين الدول الثلاث المحيطة بمقدونيا ، ولاسيما أنّ اليونانيين والصربيين قد أضافوا ذريعة جديدة لذرائعهم السابقة ، وهي : أن مقدونيا بحكم وجود أقلية إسلامية كبرى فيها ـ لا محالة ـ قاعدة من قواعد النفوذ الإسلامي (التركي) المتنامي ، والمتعاظم في المنطقة . . والمركز الرئيسي له « ألبانيا »[1] .

التفاف صربي يوناني على « مقدونيا » :

تدل مؤشرات عدة إلى أن « مقدونيا » قد تصبح إحدى القنابل الموقوتة الكثيرة المرشّحة للانفجار لتغطي شظاياها دول البلقان التي تتقاسمها « يوغسلافيا » ـ الممزّقة وبلغاريا واليونان وتصل إلى « تركيا » المجاورة بحكم العوامل العثمانية القديمة والاعتبارات الإقليمية الجديدة .

وليس في ذلك ما يدعو إلى العجب . فهذه المملكة القديمة العريقة في التاريخ قُسّمت ووزّعت على بلغاريا واليونان والصرب . . نتيجة لحرب البلقان (١٩١٢ـ١٩١٣م)ـ كما سبق ـ لتُحرَم من صفة دولة وتتحوّل إلى مجرد (محافظات) .

وكانت « مقدونيا الفاردارية » ـ نسبة لنهر فاردار ـ تحديداً هي المنطقة التي بدأت فيها حركة المقاومة المسلّحة في (تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤١م) وتحرّرت من الاحتلال النازي في (تشرين الثاني/ نوفمبر

---

(١) انظر : الإسلام والمسلمون في بلاد البلقان (ص٣٢٨ـ٣٢٩) .

١٩٤٥م) وجعلها الرئيس « تيتو » إحدى جمهوريات يوغسلافيا الاتحادية الست .

ولعله يبدو طبيعياً أن ظهور « مقدونيا المستقلة » نتيجة لانهيار الاتحاد اليوغسلافي أنعش آمال المقدونيين في بقية أنحاء بلادهم المجزّأة بإعادة توحيدها وإحياء « مقدونيا الكبرى » وهذا يُفسِّر العصبية الواضحة في (أثينا وصوفيا) ، بينما يثير على عكس ذلك ارتياحاً في (أنقرة) التي اعترفت بالاستقلال المقدوني وزاد في الغضب اليوناني ـ خصوصاً ـ اعتراف « روسيا » أيضاً بمقدونيا التي يشارك سكانها الروس والصرب انتماءهم إلى العرق السلافي ، الأمر الذي يجعل اليونان في موقع أصعب نظراً إلى الوزن الروسي الثقيل الذي يمكنه ، إذا شاءت « موسكو » أن تحمي المقدونيين المستقلين من أي (مكروه) يوناني . ولعل إحدى النتائج المباشرة للاعتراف الروسي أنَّ « بلغراد » اضطرّت إلى الإعلان على لسان رئيس وزرائها « ميلان بانيش » أثناء زيارته لمقدونيا أخيراً (استعدادها) للاعتراف باستقلالها .

وتدفع المخاوف اليونانيين ـ طموح المقدونيين نحو توحيد بلادهم المجزّأة بين ثلاث دول ـ خصوصاً للدخول في مناورات وصفقات مع الصرب الذين يسعون بكل الوسائل إلى جعل استقلال « مقدونيا » صوريّاً وإبقائها جزءاً من المجد الصربي الزائل!

وعلى أساس هذه المصلحة المشتركة تشهد البلقان تفاهماً (يونانيّاً ـ صربيّاً يبدو أن أحد أسبابه الأخرى بالنسبة إلى « أثينا » هو خوفها من الشيطان التركي)! .

. . ويعتقد مراقبون بأن الحكام الصربيين يبنون آمالهم على أنَّ المآسي والكوارث التي خلقوها بأنفسهم في يوغسلافيا ستحمل الأوروبيين

والأمريكيين على القبول بحلول وسط بسبب الرغبة الشديدة في إيجاد مخرج ما ، يجنّب المجتمع الدولي التورّط في حرب أهلية . ولعلها آمال مبنيّة على أوهام ، إذ لا يعقل أن (المؤمن) المقدوني يريد أن يُلدَغ من (الجحر) الصربي مرّتيْن[1] .

* * *

---

(١) انظر : جريدة الحياة اللبنانية العدد (١٠٧٧٩) الجمعة ١٦ صفر ١٤١٣ ه و ١٤ آب/ أغسطس ١٩٩٢ (ص ١٣).

الصراع الدائم في جمهورية مقدونيا

بؤَر هذا الصّراع تتركّز في المناطق الإسلامية وخارجها . في « جمهورية مقدونيا » وما أثارته من خلاف دائم بين يوغسلافيا السابقة ، واليونان ، إذ تدّعي كل واحدة أنّ الأرض التي تقوم عليها هذه الجمهورية إنما هي جزء منها ، وبقيت الحال بعد انفصال مقدونيا عن الاتحاد اليوغسلافي وأصبحت جمهورية مستقلة .

يرى الكثيرون أن هنالك أمرين يضغطان على المسؤولين ، ويبدو أنهما أصبحا همّاً يوميّاً منذ سنوات الصحوة الإسلامية التي ظهرت في مناطق أخرى من العالم الإسلامي .

الصحوة الإسلامية وتزايد المسلمين :

يظهر أن هذين الأمرين يقلقان المسؤولين ويقضّان مضاجعهم . فالصحوة الإسلامية التي ظهرت في مختلف أنحاء (يوغسلافيا السابقة)- كما يراها بعضهم تُحصِّن المسلمين من التلاشي ، وتزيد نموّهم في آن واحد . وأخطر ما في هذه الصحوة أنها تُعيد الناس إلى القرآن الكريم . ومن هنا تبدأ الإشكالية في نظرهم . فبعضهم يدّعي أن لديه إحصائيات تثبت أن نسبة النموّ للمسلمين تشير إلى أنهم سيكونون نصف السكان في مطلع القرن المقبل ، بينما ستتحول « يوغسلافيا » في منتصف القرن

المقبل إلى دولة إسلامية ـ أي دولة تسكنها غالبية مسلمة ـ ووجدت هذه النظرية من يروّج لها وينذر بمخاطرها . ولاشك في أن نشر مثل هذه الأقوال يثير المشاعر المعادية للمسلمين ، إذ أن بعضهم لا يستطيع أن يتصوّر إمكانية تحوّل « يوغسلافيا » إلى دولة بغالبية مسلمة[1] .

وهكذا يعتبر بعض المراقبين أن الأمر قد أصبح يُنذر بالخطر مما استدعى بعض المراكز للتدخّل وإصدار اجتهادات جديدة عن الإسلام ، ويبدو مما شجّع ويشجّع إصدار هذه الاجتهادات والقوانين هو انعدام الصوت الآخر الذي يمكن أن يوضّح الصورة بجلاء .

المشكلة الأولى : في نهاية عام (١٩٨٧)م عندما هزّ انفجار في ضواحي « سكوبيا » عاصمة « مقدونيا » مشاعر المسلمين جميعاً في « يوغسلافيا السابقة » . فقد شيّد المسلمون في تلك الضاحية جامعاً منذ أكثر من عشر سنوات ، ثم أرادوا أن يضيفوا المئذنة عندما توفّرت لهم الأموال ، ولكنّ المشكلة بدأت هنا . إذ أن السلطات اعتبرت بناء المئذنة غير شرعي لأنه تمّ دون إذن رسمي ـ باعتبار أن الجامع يحتاج إلى إذن رسمي ، وبناء المئذنة يحتاج إلى إذن آخر ـ وهكذا قرّرت السلطات هدم المئذنة وأرسلت لهذا الغرض قوة عسكرية من رجال الشرطة ، ولكن حجم كمّية المتفجرات التي وضعت في قاعدة المئذنة كانت كبيرة مما أدّى إلى تصدّع الجامع ونحو عشرين بيتاً من بيوت المسلمين المحيطة به . وكان ما كان من تذمّر المسلمين .

المشكلة الثانية : فقد حدثت عندما تعرضت مندوبة جمهورية « مقدونيا » لمجلس العلاقات القومية « تاتياناكوباتشيفا » في اجتماع عُقد

---

(١) انظر المسلمون في العالم ، قضايا وتحديات (ص٣٨٣ـ٣٨٤) .

في « بلغراد عام (١٩٨٨م) لمسألتي الصحوة الإسلامية ، ونموّ عدد المسلمين .

ففي المسألة الأولى أرادت المندوبة أن تثير الجميع بتركيزها على اهتمام الأطفال المسلمين بمتابعة الدروس الدينية في المساجد . وذكرت مثالاً على ذلك أن عدد هؤلاء يصل في إحدى المحافظات إلى (عشرة آلاف) طفل ، ولكن أكثر ما أزعج هذه المندوبة هو ذهاب النساء المسلمات إلى المساجد ، إذ أنها ترى أن ذهاب المرأة إلى المساجد يتناقض مع القرآن !! .

أما المسالة الثانية التي تتعلّق بنموّ عدد المسلمين ، فقد أوضحت أن الأمر يتعلّق بما أسمته (مؤامرة) إذ أن نسبة تزايد المسلمين وصلت إلى(١٦٪) بينما عند الأرثوذكس(٤٪) . ويبدو أن هذه الآراء التي طرحتها المندوبة ـ المفترية على الإسلام ـ كانت صدىً لما يُقال في القاعدة ـ في جمهورية مقدونيا ـ فقد صدرت جملة قرارات في الأيام الأخيرة من شهر اكتوبر/ تشرين الأول عام (١٩٨٧)م : (٤٢)قراراً معادياً للمسلمين ، تنصّ على أشياء مثل : منع قرع الطبل في شهر رمضان ، المقصود به (جولة المسحّراتي) عبر الشوارع لتنبيه الناس إلى وقت السحور . والحدّ من التوسّع في بناء المساجد ، ومنع الأطفال دون السادسة عشرة من ارتياد مدرسة المسجد هذا بالإضافة إلى إجراءات للحدّ من زيادة المواليد عند المسلمين في تلك الجمهورية .

فقرار منع الأطفال من الذهاب إلى المسجد لمتابعة الدروس الدينية ، والقرار حول بناء المساجد ـ كما يؤكد المسلمون ـ يتناقضان مع روح الدستوراليوغسلافي الذي ضَمِنَ حرية العقيدة ، وحرية التعليم للجميع ،

ويؤكد المسلمون أيضاً : إن هذه القرارات تصدر بعد أربعين سنة من تطبيق الدستور اليوغسلافي[1] .

حملة إعلامية للتشهير بالإسلام :

.. كثرت الحملات المغرضة ضد الإسلام والمسلمين في « يوغسلافيا السابقة » وبخاصة في « مقدونيا » ، في إعلامها الرسمي ،.. إن المسلمين الذين يعيشون في جمهورية « مقدونيا » يتعرضون لحملة إعلامية شرسة متواصلة للتشهير بالإسلام والاستهزاء به وبالمسلمين حيث يكثر وجودهم ، وبخاصة في (مقدونيا الغربية) ، وتركّز الصحيفتان اللّتان تصدران في العاصمة المقدونية على وصف المسلمين المقدونيين بأنهم متعصّبون ودُعاة تطرّف قومي . وفي الإذاعة المقدونية ، يُذاع برنامج هزلي مخصّص لإذاعة النكات والأغاني ضد المسلمين[2] .

* * *

(١) انظر : المصدر السابق نفسه .

(٢) انظر مجلة التضامن الإسلامي ـ الحج سابقاً ـ/ مكة المكرّمة ـ الجزء الرابع شوال ١٤١١ هـ ـ نيسان ١٩٩١ م (ص٦٤ـ٦٥) .

شبح الحرب الأهلية في مقدونيا

تجاذب بين العودة إلى الوطن الأم أو إلى دولة الإغريق :

مقدمة : مقدونيا ، برميل بارود جاهز لتفجير البلقان وتحويله إلى غابة مشتعلة تحصد الأحياء دون رحمة .

مقدونيا ، خليط من المقدونيين الأصليين والألبان والصرب والمجر وأقليات أخرى ، تقاوم الأفكار الانفصالية التي من المؤكد إن وجَدت طريقها إلى الواقع ستكون كفيلة بإزالة تلك الدولة من الخريطة السياسية وهي التي حكمت أجزاء واسعة من الشرق القديم قبل عدة قرون .

مقدونيا خائفة من المستقبل ، وتخيف العالم نظراً للامتدادات العرقية بينها وبين الدول المجاورة ، وقد اتخذت المجموعة الدولية قراراً بحماية الحدود المقدونية من الاختراق ، ولكن الصحيح هو منع تسرّب الحرب إلى الدول المجاورة في حال اندلاعها والعمل على منع الدول المجاورة تسعير نارها من خلال مدّها بالأفكار الانفصالية والحديد والبارود .

.. في مدينة (سكوبيا) عاصمة مقدونيا الحديثة تستطيع الوقوف على ما يبعث القلق لدى مسلمي بلاد الإسكندر المقدوني إذا حاورْتَ المسؤولين المقدونيين عن أحوال المسلمين ، وسألت المسلمين عن علاقاتهم بالسلطة وتطلّعاتهم للخروج من الأزمة التي تلفُّهم ، وما هي

الإجراءات التي يتعرّضون لها من السلطة المقدونية ، فتسمع اتِّهامات مضادة وخوفاً على المستقبل من انفجار الحرب الأهلية ، والثابت أن السلطة المقدونية ترتكب أخطاء ميدانية بحقّ المسلمين ، والمسلمون خائفون على المستقبل ، وسنعرف معاناة المسلمين فيما سيأتي . .

* * *

جمهورية مقدونيا المستقلة

الموقع والمساحة والسكان :

تقع مقدونيا ـ الجمهورية اليوغسلافية السابقة ـ على حدود اليونان وبلغاريا وصربيا وألبانيا ، وتبلغ مساحتها حوالي (٢٥٧١٣كم٢) وعدد سكانها حوالي ٢,٤٠٠,٠٠٠) نسمة وعاصمتها « سكوبيا » اعترف بها العالم عام (١٩٩٤م) كدولةٍ مستقلّة .

اللغة :

.. مقدونية « لاتينية سيريلية » وألبانية .

الدّين :

٦٦٪ أرثوذكس ، ٣٠٪ مسلمون والكثافة السكانية (٨٣شخصاً) في كم٢ ، التوزيع السكاني ٥٤٪ في المدن ، ٤٦٪ في الريف .

الجيش :

يبلغ تعداده : (١٠,٤٠٠) جنديّاً[١] .

---

(١) انظر : الموسوعة العربية العالمية (ص٥٥٤) وأيضاً مجلة « لوبوانLepoin » الفرنسية / العدد ١٣٦٣/ اكتوبر تشرين الأول/ ١٩٩٨م (ص٨١) .

قوميات السكان :

يشكّل المقدونيون أكثرية السكان (حوالي ١,٣ مليون) نسمة ، ويعيشون في وسط وشرقي البلاد ، ويشكل (الألبان) القومية الثانية ويبلغ عددهم حسب الإحصاء الرسمي بين (٤٠٠ و٥٠٠ ألف نسمة) ، إلا أن إحصاءات الألبان تشير إلى وجود حوالي (٩٠٠) ألف ألباني .

يعيش الألبان في شمال وغرب البلاد ابتداء من العاصمة (سكوبيا وتيتوفو) ؛ التي تبعد حوالي (٤٠كم) عن العاصمة . ويعيش حوالي (٤٠٠٠تركي) في وسط البلاد . أما الأقليات الأخرى فهي : (الغجر والفلاش والصرب والطوربيش والبلغار..) فتتوزع على الأراضي المقدونية .

كانت (مقدونيا) قلب إمبراطورية « الإسكندر المقدوني » ، احتلّها الصرب والبلغار قبل أن تُضم إلى الإمبراطورية العثمانية التي بقيت تحت سيطرتها (٥٠٠ سنة) .

قُسّمت أراضي (مقدونيا) بعد حرب البلقان الثانية عام (١٩١٣م) بين البلغار والصرب واليونان ، وأعطيت منطقة (بحر إيجة) حوالي (٣٤ ألف كم٢) إلى اليونان ، أما منطقة (نهر فاردار) حوالي (٢٥٧٧٥كم٢) فكانت من نصيب بلغاريا ،ولم تظهر (مقدونيا) إلى الوجود كاسم فقط ،إلا بعد الحرب العالمية الثانية .

مقدونيا الطبيعية :

سهولٌ في غاية الخصوبة تنبت فيها الحبوب والقطن بكمّيات كبيرة وكانت فيها غاباتٌ عظيمة قطع أكثرها العثمانيون ، وفيها مراعٍ واسعة ،

يستخرج منها الصوف والجلود وفي أرضها تكثر الكروم والفواكه كما يكثر نبات التبغ الذي يعود على البلاد بربح عظيم ، وتشتهر فيها صناعة السّجاد والحليّ الكاذبة .

من يحكم مقدونيا ؟

تحكم مقدونيا مجموعة من الشيوعيين السابقين وعلى رأسهم الرئيس « كيروغليغورف » الشيوعي السابق الذي أمضى حياته في السياسة وكان عضواً في مجلس يوغسلافيا الاتحادي .

يبلغ من العمر (٧٣عاماً) ، لقد تحوّل اسم الحزب الشيوعي إلى اسم « الحزب الديمقراطي الانتقالي » والحكومة يشكّلها البرلمان وهي غير سياسيّة ، أما البرلمان فمؤلف من(١٢٠)مقعداً . للحزب المقدوني الثوري الداخلي الذي يُعتبَر الحزب المتطرّف (٣٨مقعداً) ، والحزب الديمقراطي الانتقالي الذي يتزعّمه رئيس الجمهورية (٣١مقعداً) ، أما الحزب الديمقراطي الألباني (٢٤مقعداً) .

الخوف من هجوم صربي :

تخوّف المراقبون السياسيون في (سكوبيا) من هجوم صربي على (مقدونيا) .

وهذا الخوف دفع (واشنطن)إلى إرسال حوالي (٣٠٠جندي) من المارينز لمراقبة الحدود مع صربيا لكن (صربيا) كانت منهمكة بحربها ضد المسلمين في البوسنة والهرسك وكرواتيا ، إلا أنه ليس من المستبعد أن يشنّ الصرب هجمات ضد مقدونيا ، فالصرب الموجودون في مقدونيا لا يعترفون بدولة مقدونيا ، كما أنهم يعتبرون مقدونيا هي جنوب صربيا .

يعيش اليوم في مقدونيا حوالي (٤٥ألف)صربي ،إلا أنهم يدّعون بأنهم (٤٠٠ ألف)يعيش أكثرهم في مدينة (كوما نوفو) على الحدود الصربية وتبعد عن العاصمة (سكوبيا) (٤٥كم) .

وكما الصرب فإن الألبان الذين يشكلون (٤٠٪) من سكان مقدونيا ، يطالبون بالانضمام إلى (ألبانيا) الأم ويرفضون الإحصاءات المقدونية التي تقول إن نسبة الألبان لا تتعدى (٢٠٪) من مجموع السكان ويأخذ المقدون على الألبان رفضهم المشاركة في مسح عام للسكان بإشراف مراقبين دوليين ، بينما ينفي الألبان هذا الموضوع ويقولون بأن المقدون هم الذين يتهرّبون من إجراء مسح عام للسكان .

وعلى الرغم من المحاولات المقدونية للمحافظة على الوضع الداخلي والحيلولة دون امتداد الحرب إليها فإن الجوّ يبدو متقلّباً ، فإذا بدا الصباح مستقرّاً فإن المساء يشهد توتّراً أمنيّاً بين الشرطة وبين مجموعات من الصرب أو مجموعات من الألبان ، وقد حصلت مشادات بين الشرطة وعدد من المسلّحين الصرب مما أدّى إلى إطلاق نار فجُرح شرطي مقدوني وقُتل اثنان من الصرب .

الخطر الحقيقي :

إذا كان الصرب والألبان يلتقون في مقدونيا حول انضمام كل منهما إلى الوطن الأم ، فإنّ مقدونيا تشعر أن الخطر الحقيقي هو : الألبان الذين يريدون الانضمام إلى (ألبانيا) والاتصال بمسلمي (كوسوفا والسنجق)

في صربيا ، خصوصاً وأن رابطة القُربى تجمع بينهم منذ وقت بعيد عندما هربت عائلات ألبانيا المسلمة من القمع الشيوعي في صربيا وكوسوفا وألبانيا وتتهم الشرطة المقدونية الألبان بأنهم يتسلّحون بأنواع مختلفة من الأسلحة ، وأنهم يتلقّوْن السلاح من ألبانيا عبر الأراضي البلغارية في محاولة لتبرير إجراءاتها القمعية بحقّ المسلمين في مقدونيا الذين يعيشون تحت مراقبة شديدة تصل في بعض الأحيان إلى حدّ الحصار .

وتحاول (سكوبيا) أن تظهر في وسائل الإعلام والمؤسسات الدولية بأن الألبان يتمتعون بكامل حقوقهم الإنسانية وأنها تعطيهم كل الحرية في الشؤون الدينية . ولكن الألبان يؤكّدون العكس ويدعون وسائل الإعلام إلى دخول مناطقهم للاطّلاع على حقيقة الأوضاع .

اتهام السلطات بدعم التطرف الألباني :

وتتهم السلطات في سكوبيا اللّوبي الألباني في أوروبا ، وتحديداً في ألمانيا والذي يتزعّمه رجال أعمال ، بدعم التطرّف الألباني في مقدونيا وتشجيعهم على عدم العيش مع أي قومية أخرى .

وتقول وسائل الإعلام المقدونية في إطار حملتها على المسلمين أن الألبان في سعيهم للانضمام إلى إقليم (كوسوفا) أو (ألبانيا) يبرّرون أعمال الصرب العدوانية في البوسنة والهرسك ويفتحون المجال أمام الهنغار ـ في إقليم فويفودينا ـ بالمطالبة بالانضمام إلى المجر ، ويشجّعون الروسي المتطرف « جيرينوفسكي » على توحيد الدول الأرثوذكسية من روسيا إلى اليونان .

كل هذه المقولات لا تبرّر الإجراءات الاحترازية التي لجأت إليها مقدونيا في المناطق المسلمة من اعتقال وتضييق على الحريات ومصادرة

الحريات الشخصية وانتهاك أعراض المسلمين هذا فضلاً عن الحملة السياسية الشرسة التي يتعرّض لها الشعب الألباني من جانب المقدونيين المتطرّفين أمثال الحزب الثوري المقدوني الذي قال أحد أعضائه : « نحن نريد أن نعيش في مقدونيا الدولة التي حُرمنا منها ألوف السنين ، لذلك سنواجه أية فكرة انفصالية » .

أما السيدة « ميرايانوفسكي » ـ مديرة مركز الإحصاءات الرسمي ـ قالت « إننا لا نستطيع أن نعتبر كل ألباني موجود في مقدونيا هو مقدوني الجنسية إلا إذا عاش فيها (١٥) سنة بدون انقطاع ، ويقول الألبان : إنهم يشكلون (٤٠٪) والصرب يقولون أنهم يشكلون (٢٠٪) وهل أصبحنا نحن نشكل الأقلية ؟ ، هذا مضحك » .

ووسط الخلافات الكلامية بين المقدونيين والألبان ، وفي ظل الإجراءات التعسّفية بحقّ المسلمين ، فإن الانطباع الوحيد الذي يخرج به زائر (سكوبيا) هو أنّ مقدونيا تعيش ظروفاً مشابهة لتلك التي سبقت الانفجار في يوغسلافيا السابقة أو البوسنة والهرسك ، وإن شرارة واحدة قد تؤدّي إلى حرب أهلية لن تقف عند حدود مقدونيا الحالية ، ولن تقف الدول المجاورة موقف المتفرج[١] .

* * *

(١) انظر مجلة البلاد اللبنانية العدد ١٧٨/ ١٣ ذو القعدة ١٤١٤هـ/ ٢٢نيسان ١٩٩٤م (ص٢٨ـ٢٩) .

اتهامات مقدونية ضد المسلمين

في مقابلة مع الدكتور : « بهلول بروستفيتسي[1] تحدّث عن أهداف الألبان في (مقدونيا) وفي (يوغسلافيا السابقة) ويردّ على الاتهامات المقدونية والشائعات التي تُروَّج بحقّ المسلمين .

س١ ـ هل تعتقدون بأن الحرب ستنتقل إلى (مقدونيا وكوسوفا) بين الألبان والمقدون ، وبين الألبان والصرب ؟

ـ الشعب الألباني هو شعب مسالم لا يريد الحرب لأننا نعلم بأن الحرب لا تؤدي إلى نتيجة بل تنتهي عبر المفاوضات السلمية .

نحن (شاهدنا ما حدث) . . في البوسنة والهرسك ، وكرواتيا من حرب أدت إلى مقتل حوالي (٤٠٠) ألف وجرح مليون ، وطرد مليونين ، وفي النهاية فإن جميع الأطراف لجأت إلى المفاوضات . فالحرب إذا فُرضت علينا لن تكون محليّة لأنها ستشمل كل البلقان وسيشترك فيها دول أعضاء في حلف (الناتو) مثل : (اليونان وألبانيا وتركيا) . .

وإذا اشتعلت الحرب في (مقدونيا وكوسوفا) فإن أوروبا لن تتمكن من إيقافها ، لذلك نطلب من السياسيين في أوروبا أن يعملوا المستحيل لمنع انتقال الحرب إلى (مقدونيا وكوسوفا) .

---

(١) بهلول بروستفيتسي : أستاذ في جامعة (سكوبيا) وأحد أعضاء « الحزب الألباني الديمقراطي » .

س٢ ـ ماذا يريد الشعب الألباني بالتحديد ، هل تريدون الانضمام إلى ألبانيا ، أو تريدون حقوقكم الشرعية ؟

نحن أول من أعلن الثورة ضد الظلم الشيوعي عام (١٩٨١م) في كوسوفا ، مدّة عشر سنوات متواصلة ونحن نحذّر باقي الجمهوريات في يوغسلافيا (السابقة) والعالم بأسره من الخطة الصربية الفاشية ونحن أول من قام بتأسيس أحزاب ديمقراطية في كل أنحاء يوغسلافيا (السابقة) عام (١٩٨٩م) وطالبنا بحلّ مشكلة الشعب الألباني في منطقة يوغسلافيا والبلقان ، ونحن أمام عدة خيارات لتحقيق أهدافنا وكلها تتعلق بالمنطقة بشكل عام :

ـ **أولاً** : إذا بقيت الجمهوريات اليوغسلافية بحدودها بعد الاستقلال عن يوغسلافيا ، فنحن سنعلن استقلال (كوسوفا) ونعتبرها دولة مستقلة ـ وهذا ما حصل ـ .

ـ **ثانياً** : إذا تغيّرت حدود الجمهوريات في يوغسلافيا بعد استقلالها فنحن نطالب بأن يعيش جميع الألبان الموجودين في يوغسلافيا في دولة واحدة .

ـ **ثالثاً** : إذا تغيّرت حدود يوغسلافيا الخارجية ، فنحن نطالب بالانضمام إلى الوطن الأم (ألبانيا) .

س٣ ـ هل تعتقدون بأنكم تستطيعون تحقيق هذه الأهداف بدون حرب مع الصرب والمقدون ؟

ـ إذا تغير النظام الصربي واستطاعت الدول العالمية عزل « ميلوسفيتش » ، أعتقد بأن أهدافنا ستتحقق بدون حرب ، ولكن إذا بقي « ميلوسيفيتش » زعيماً للصرب فلا مفرّ من الحرب ، خصوصاً وأنه يسعى لتوحيد ما يسمّى : (صربيا الكبرى) .

س٤ ـ إذا اندلعت الحرب في مقدونيا وكوسوفا ، هل ستتدخل ألبانيا عسكريّاً ؟

ـ نحن كما قلنا نعمل المستحيل لحلّ الأزمة عبر الحوار والمفاوضات .

قبل عشر سنوات لم يكن أحد يعرف أين تقع (كوسوفا) ، ولم يكن أحد يعلم ماذا يحدث للشعب الألباني من الظلم الشيوعي ، اليوم كل العالم يعلم مأساة الشعب الألباني ، ولكن إذا وقعت الحرب في مقدونيا وكوسوفا فإن الدول الغربية ستتدخل قبل ألبانيا من أجل مصالحها[1] ـ وهو ما نسمعه ونراه الآن ـ .

* * *

(١) انظر : البلاد (ص٣٠) .

مظالم ضد الثقافة الإسلامية

إن جمهورية مقدونيا هي إحدى الجمهوريات اليوغسلافية السابقة . وعلى بُعد ١٥٠ كم من حدودها الشمالية الغربية دارت الحرب الشرسة على جبهات البوسنة والهرسك ، وكنّا نسمع دويّ المدافع وقذائف الدبابات التي تعني بأن خطة الصرب لتدمير المسلمين قائمة .

إنَّ الحرب التي قامت في البوسنة هدفت إلى محو الوجود الإسلامي برمّته وقد نجحت في تدمير مظاهر الثقافة الإسلامية في البوسنة والهرسك وهذا ما يريدون تحقيقه ، لا ، في مقدونيا وحسب ، بل في كل المناطق التي تعيش فيها أغلبية مسلمة مثل السنجق[١] وكوسوفا . إنهم يجهّزون أنفسهم لإقامة معركة شاملة في أنحاء البلقان ، إن الدماء التي نزفت في البوسنة سوف تنزف من جديد في مقدونيا وسنجق وكوسوفا ، وسوف نبدأ بالحديث عن القرارات التي اتُّخذت من قبل الصرب لتدمير المسلمين في مقدونيا . ونحن لا نعني هنا نقد الحكومة المقدونية ، بل نريد أن نظهر ما يحدث هناك ، ولا نسمح لأنفسنا بالسكوت على ما يحدث ونظنّكم سوف تسمعون ما لم تسمعوه من قبل رغم أننا لن نستطيع أن نلمّ بكل ما يحدث . ونحن نرغب في أن نُسمِع العالم الإسلامي ما يحدث في أنحاء البلقان وهذا هو أحد الأهداف التي نكتب من أجلها .

---

(١) السنجق : إقليم أكثريته من المسلمين تحكمه « صربيا » ، يقع في شرق البوسنة وشمال كوسوفا ، يسمى : « سنجق نوفي بازار » .

إننا راغبون في أن نتحرر من هذه الخطط الدنيئة آخذين الدروس والعِبَر والعِظات بما حدث في البوسنة والهرسك ، ونحن على طريق إنشاء المجتمع الإسلامي المنشود طبقاً لحديث الرسول الكريم ، « المؤمنون كالجسد الواحد. . » وهذا الحديث من أروع الأمثلة في ثقافتنا الإسلامية ولكن مع الأسف فإن واقع حال الأمة الإسلامية هو عكس مضمون هذا الحديث . وعندنا الأمل في أن تَعيَ الأمة الإسلامية ما يحدث في البلقان ويجب علينا أن نستلهم من هذا الواقع ما يدفعنا إلى السعي لحملات جديدة . وأن نحاول ونبذل كلّ جهد ممكن من أجل بقاء الوحدة الإسلامية .

بعد تفكك الاتحاد اليوغسلافي أعلنت جمهورية مقدونيا استقلالها ولم يعترف فيها سوى عدة دول . لقد تشكّل مجلس شعبي في أول انتخابات ديمقراطية حرّة ودخلت مقدونيا في إطار الحياة الجديدة بعد أن عاشت تحت ظل الشيوعية ، وبرغم تزوير الانتخابات حصل المسلمون على ٢٤ مقعداً من أصل ١٢٠ مقعداً ، إن حكومة مقدونيا تُظهر نفسها بأنها حكومة ديموقراطية ولكن إذا نظرنا في الأصل فإننا نجد أن الحكومة الحالية هي حكومة مستمرّة في الحكم الشيوعي وضغوط الحكومة على المسلمين مستمرّة بكل شدّة . لأن مفهوم الديموقراطية لم يأت بكامل رغبات المسلمين ، والأيام التي نعيشها والأحداث التي نشاهدها تؤكد قناعتنا بأن الحكومة مازالت على ما كانت عليه في السابق ومع الأسف فإن ما يُفعل ضد المسلمين هو خطّة منظّمة مختبئة تحت غطاء الديموقراطية ، إن المسؤولين الآن لم يغيّروا ما كانت عليه البلاد في السابق . إن الحق الذي ندّعيه سوف نثبته ببعض الأمثلة في شرق هذه الجمهورية حيث يعيش الأتراك المسلمون فقد صوّت هؤلاء لصالح استقلال مقدونيا ولصالح الأحزاب الحكومية وبرغم وعود هذه الأحزاب فإنها لم تحقق شيئاً من هذه

الوعود حيث يعيش المسلمون فإن هذه الأحزاب لم تقدم لهؤلاء الماء ولا الكهرباء ولم يُنشئوا المدارس ولا المستشفيات بل العكس فإنهم يُرغمون الأتراك المسلمين بهجرة مناطقهم لتفريغها . وهذا ما كانت عليه السياسات السابقة .

في منطقة ستروميتسا التي تقع في شرق مقدونيا حيث يعيش فيها خمسة آلاف مسلم هناك مسجد قد بُني منذ القرن السابع عشر وهو من الآثار العثمانية واسمه (مسجد الوسط) لقد أُغلق المسجد بحجّة أنه مكان أثري وحُرِمَ المسلمون من أداء صلواتهم فيه ، ومن بين المظالم التي تُرتكب هناك عدم إعادة الأراضي الوقفية إلى أصحابها وعدم السماح بتعمير المساجد وعدم إعطاء أمكنة لتشييد المساجد في المشاريع الجديدة ووضع إشارة الصليب على الآثار العثمانية وهذا ما حدث في الآونة الأخيرة التي سببت القلق في نفوس المسلمين وخاصة الاستهزاء الذي يلحق بالمسلمين عبر وسائل الإعلام المقدونية المختلفة .

ويملَؤون البرامج بالأكاذيب والخرافات تجاه التاريخ الإسلامي النقيّ . حتى وصل المسلمون إلى درجةٍ لا يستطيعون فيها التحمُّل .

نحن نعلم أن لكل ملّة قدسيّتها غير أنهم يحقّرون قدسيّة ملّة الإسلام رغم كثرة شكوانا ولكن هذه الشكاوى لم تجد آذاناً صاغية وخاصة حينما يصفون المسلمين بأنهم طبقة ثانية . وفي نفس الوقت يدفع المسلمون ٥٠٪ من تكاليف الإعلام ، وفضلاً عن هذا لا يُسمح للمسلمين الألبان ولا الأتراك بثّ برامجهم عبر هذه الوسائل سوى ساعة واحدة لكل منهما .

في الدستور المقدوني أو في النظام الحكومي كانوا قد أعلنوا رسميّاً بأنهم ماضون بالتّنصير . لقد بدؤوا بمشروع مايسمى : (ضد الإسلام) . إن عدم اهتمامهم بالثقافة الإسلامية وهتك جوهر الحقوق الإنسانية

للمسلمين هي الوجه الأسود لما يدّعونه من الحقوق ويُفهم من هذا أن مسيحيي مقدونيا قد تجاوزوا الحدّ ضد المسلمين .

لقد ذكرتُ لكم سابقاً ما ارتكب من مظالم تجاه المسلمين .

١ـ القرار الذي اتُخذ من أجل منع رفع الأذان عبر مكبر الصوت :

حسب التعليمات الواردة من وزارة الداخلية في جمهورية مقدونيا ، وجِّهت رسالة إلى المشيخة الإسلامية في مقدونيا بمنع رفع الأذان عبر المكبرات يدّعون فيها أن المكبرات سبب لإزعاج المواطنين ، حتى أنه في بعض المساجد الموجودة في مراكز المدن يدّعون أن أصوات المؤذنين غير مرتّبة وغير لائقة . . إن الأذان الذي ينادي المسلمين للصلاة لم يكن في يوم من الأيام سبباً لإزعاج المواطنين طيلة سنين طويلة تحت الحكم الشيوعي ، والجواب الذي ردّت به المشيخة الإسلامية إلى وزارة الداخلية جاء فيه : لقد أصاب الحزن نفوس المسلمين لتلقّيهم خطاباً من الدولة تعتبر فيه الأذان ذنباً ذلك أن صوت الأذان يمكن اعتباره مثل صوت الناقوس بالنسبة للمسيحيين . وفي الأراضي التي يعيش عليها الناس الذين ينتسبون لعدّة أديان يقبلون هذا الأمر بشكل اعتيادي طبيعي في حياتهم .

٢ ـ وضع إشارة الصليب على بروج الساعات في مدينتي (بيتولا وبرليب) : إنّ بروج الساعات هي جزء من المساجد التي بناها العثمانيون وكانت ذات شأن كبير ورمزي في الثقافة العثمانية . والحادثتان اللّتان وقعتا في وضع إشارة الصليب في هاتين المدينتين أثّرتا تأثيراً بالغاً في نفوس مسلمي مقدونيا ، وخاصّة أنّ ذلك يحصل في هذا العصر المتحضّر وهذه الحركات الخبيثة ، سلسلة من إحدى السلاسل العدوانية التي تُرتكب تجاه ثقافتنا الإسلامية في مقدونيا وهذه الجناية التي تُرتكب ضد المسلمين كانت سبباً لحزن كبير للمسلمين .

وتُعتبر هذه الآثار من أبرز المعالم العثمانية في البلقان ، إن هذا العمل معناه أنهم لا يقدّرون أي قيمة للآثار ، إن الصليب هو شعار خاص بالمسيحيين فلا يوضع إلا في الكنائس وما يتعلق بها ، وقد قدّم العثمانيون هذه البروج في هذه المدن خدمة للناس ، ووضْعُ الصليب فيها أمر لا يقبله أي عقل سليم ، لقد وعدت الحكومة بأنها سوف تنزع هذا الصليب إلا أنه لم يُنزع من هذه البروج رغم مناشدتنا ومطالبنا وأن بقاء الصليب يدلّ على أن كلامنا غير مسموع[1]! .

٣ـ مسألة مسجد (كوسه قاضي) : في السوق القديم في سكوبيا الذي بناه العثمانيون يقع هذا المسجد وقد بُني في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، وكان هذا المسجد في خراب تام ولم تُقم فيه صلاة منذ سنوات طويلة ، لقد بدأ المسلمون إعادة تعميره وإنشائه من جديد . وهذا المسجد الذي يُعتبر أثراً تاريخياً مهمّاً يقع حرمه في القسم الأعلى ومن تحته توجد ثماني محلات تجارية وفي عام ١٩٤٨ حين بدأ المسلمون في اللّجوء إلى تركيا أُغلق هذا المسجد من قبل السلطات الشيوعية ، وعلى أثر زلزال شهدته مدينة سكوبيا عام ١٩٦٣ خُرّبت أكثر معالم المسجد ، وقدنا معركة مع الحكومة من أجل إعمار هذا المسجد من جديد حتى بدأنا في إعماره ، ولكن الحكومة ادّعت أنها وجدت تقريراً قديماً يدلّ على أن الحكومة سمحت بإعمار مقهىً في موضع المسجد واستدلّوا بهذا التقرير بأن الدولة لم تسمح بإنشاء هذا المسجد بعد ، وما أخذت قرارها بإنشاء مقهى ، لقد وقف عملنا بالفعل حسب القرار المأخوذ واتّخذ قرار جديد بهدم ما بنيناه من المسجد وكان ذلك سبباً

(١) علمت من أحد مسلمي مقدونيا ـ الذين يدرسون في جامعة دمشق ـ بأن السلطة المقدونية نزعت الصلبان ـ موضع الخلاف ـ عام ١٩٩٨ (المؤلف) .

لزيادة خصومة شديدة بين الحكومة والمسلمين . فالمساجد الأخرى التي دُمِّرت عام ١٩٦٣ لا يُسمح بإعادة إعمارها ، ولقد حُرم المسلمون من إقامة الصلاة في هذه المساجد ومن بين هذه المساجد مسجد (دكانجك) ومسجد (خاتونجك) ومسجد (حاج هُداور) وغيرها من المساجد .

٤ ـ إنشاء فندق شيراتون موضع مسجد (بورمالي) : في عام ١٩٢٥ في عصر مملكة الصرب دُمِّر هذا المسجد الذي يرجع أصله إلى القرن الخامس عشر والذي يقع جانب جسر الحجر المعروف في وسط سكوبيا وتريد الحكومة إقامة فندق ومقهى الشيراتون على أنقاض المسجد المهدوم ، وكان هذا المسجد من أعظم الآثار العثمانية ليس في البلقان فحسب بل وفي أوروبا قاطبة ، وقد أُنشىء على أنقاض هذا المسجد نادي الضباط الصربيين ولكن هذا النادي دُمِّر تدميراً كاملاً عام ١٩٦٣ إثر الزلزال ومن ثم صار هذا المكان حديقة للاستراحة ، ولكن حسب القرار المأخوذ من قبل الدولة وحسب المشروع الخاص بالفندق المنوي بناؤه فإن جزءاً كبيراً من المسجد يقع ضمنه والجزء الثاني منه سوف يقام عليه مقهى ومكاناً للعب القمار ولقد تأثر المسلمون تأثراً شديداً بهذا القرار لأن هذا المسجد كان من أبرز المساجد التي تربط المسلمين روحيّاً .

٥ ـ المسائل المتعلقة بالأموال الموقوفة (الأوقاف) .

بعد الحرب البلقانية وعلى أثر الحرب العالمية الأولى وبتخلي العثمانيين عن البلقان سُلِّمت إدارة أموال الأوقاف للجمعية الإسلامية في ذلك الحين ، وبسبب تغيير القوانين وهجرة المسلمين إلى تركيا ، ضَعُف اهتمام الجمعية بالأموال وبدأت الحكومة في ذلك الحين بمحو مسألة الأموال من التاريخ ، سواء في مملكة الصرب أو الجمهورية اليوغسلافية الشيوعية فقد تمّت السيطرة على هذه المسألة ، وفي عام ١٩٤٨ وحسب

الدستور الديني والقانون الوضعي ، كان سبباً في أن يتم فصل الأموال عن الجمعية ، واعتبار هذه الأموال أموالاً قومية ، ومن ثم وضع الدولة يدها على هذه الأموال ، وبعد التحرك الديموقراطي في مقدونيا ، اتخذت الحكومة قراراً بإعادة الأوقاف المالية للكنائس إلى أصحابها ، ولكن مع الأسف ، امتنعت الحكومة عن إعادة أوقاف المسلمين إلى الجمعية عندما طلبت الجمعية ذلك ، ثم جُمِّد هذا الأمر .

٦ ـ الضغط الحكومي على مسلمي مدينة (جوبا) الأتراك .

ضغطت الحكومة المقدونية لمنع تدريس اللغة التركية التي تُدرَّس في بعض المناطق ذات الأغلبية المسلمة في منطقة جوبا غرب مقدونيا ولا تترك لهم الحكومة الحق في التعلم بلغتهم لقد حُرم من التعليم ما يزيد عن ثلاثة آلاف طالب ولقد قام آباء الطلاب بإضراب احتجاجاً على هذا الحرمان ، لقد كان ذنب هؤلاء الطلاب أنهم كانوا أبناءً للعثمانيين ويريدون البقاء على لغة آبائهم ، وفي الأيام الأخيرة كلّفت الحكومة الشرطة المدنية بضرب هؤلاء الطلاب وحجز أساتذتهم ، لتفريغ السكان من هذه المناطق المسلمة . وذلك بجميع وسائل الضغط عليهم من أجل دفعهم للهجرة .

٧ ـ الظلم الصربي لرجال الدين في كوسوفا :

لقد تجاوز وضع المسلمين في كوسوفا التي تقع تحت سيطرة صربية وحشية حدّ المأساة وقبل عدة أشهر احتُجز عالمان من كبار علماء المسلمين الألبان وهما : الأستاذ مختار عايديني رئيس مجلس الوحدة الإسلامية والأستاذ نجاتي إبراهيم رئيس الجمعية العلمية للعلماء ولقد تم احتجازهما من قبل السلطات الصربية وفي الأول من شباط عام ١٩٩٣م حُكم عليهما بالسجن ، ثماني سنوات للأستاذ نجاتي إبراهيم وسبعة أشهر للأستاذ مختار عايديني بتهمة قيامهما بتسليح المسلمين ، وكانت السلطات الصربية تمارس هذه السياسة في البوسنة والهرسك قبل الحرب

وذلك باغتيال أرباب الشعائر الدينية وكان هذا التحريض ينذر بوقوع حرب نارية طاحنة . ولقد أثبت الصربيون أنهم لا يُحسنون التصرف في النواحي الاجتماعية فحسب بل إنهم يُظهرون العدوان على حرمة الأديان .

لقد حاولنا بقدر جُهْدنا إعطاء نظرة موجزة لما يُرتكب من المظالم في حقّ الثقافة الإسلامية في مقدونيا ، ونحن نتمنى أن لا تنفجر (حرب أخرى بعد حرب البوسنة) وأن لا تمتد إلى كوسوفا ومقدونيا وسنجق حتى لا ينفجر بركان الحرب في البلقان ونحن ننتظر مدّ يد العون من شتّى النواحي من العالم الإسلامي لوقف هذه الحرب وهذه المجزرة القمعية داعين الله أن ينصر المجاهدين الذين صمدوا وأصرّوا على أن لا يتركوا السلاح حتى آخر رمق[١] .



"سكوبيا"

(١) بيان أعدّته جريدة « الهلال المقدونية » عن وضع المسلمين في مقدونيا حتى شهر / أيار / ١٩٩٣م ، أعدّه : « بهيج الدين شهابي » مدير تحرير الجريدة .

التوتر في مقدونيا

استطاعت جمهورية مقدونيا أن تحافظ على الهدوء وتفادي نار البلقان التي أُضرمت في سلوفينيا ، وكرواتيا ، ثم البوسنة والهرسك : والآن : كوسوفا ! .

العنف في تيتوفو TETOVO :

في شهر شباط من عام (١٩٩٥)م وبالقرب من حدود « ألبانيا » بدأ العنف الذي حصد قتيلاً وأسفر عن (٢٨) جريحاً ، وتم اعتقال زعماء الأقلية الألبانية ، فلقد طفا النزاع القديم على السطح لمّا حاول الألبان تأسيس جامعة تُدرِّس باللغة الألبانية في مدينة « تيتوفو »[١] فمنعتهم الحكومة من ذلك وأرسلت شرطة مكافحة الشَغَب . هذا التصرف الذي

---

(١) تيتوفو : مدينة مقدونية إلى الغرب من العاصمة سكوبيا بـ (٤٢كم) ، أكثر سكّانها مسلمون . جرت أحداث « تيتوفو » يوم ذكرى (موقعة بدر) في (١٧رمضان المبارك عام ١٤١٥هـ و٩ شباط (١٩٩٥م) وكان اسم القتيل (عبد السلام أمين) الذي دُفن في اليوم التالي ، أما المعتقلون فهم : رئيس الجامعة (فاضل سليمان) الذي اعتقل بعد الحادث ، كما اعتقل معه ثمانية أشخاص ، وبعد الدفن ذهبت آلاف من أفراد الشعب الألباني إلى سجن « تيتوفو » مطالبين بالإفراج عن المعتقلين ، ولكن لم تفرج السلطات المقدونية عنهم إلا بعد عدة أشهر وكان آخرهم رئيس الجامعة بعد أن دفع مبالغ كبيرة من المارك الألماني . .

أجّج العواطف ، يشكّل الألبان نسبة (٤٠٪) من سكان « مقدونيا » ولكنهم أغلبية في هذه المنطقة ، وقد أرادوا إقامة كلية الرياضيات والعلوم هنا كجزء من جامعتهم الخاصة .

يقول أحد الألبان ـ الذي ظهر في البرنامج ـ : « نريد الحفاظ على هويتنا بتراثنا الثقافي ولغتنا ، ولا نريد الاندماج بالثقافة المقدونية ، وهذا هو هدف الجامعة ، ولكن الشرطة حاصرت البلدة » .

وتحدث رئيس الوزراء بصرامة فقال : « في المجتمع الديمقراطي يجب اتخاذ المبادرات في إطار القانون فيسمح ببعضها ولا يسمح ببعضها الآخر » ، غير أن وفاة شخص في الأحداث سلّطت الضوء على التباين القومي ، فقد وضِعت صورته على علم ألبانيّ وزُيِّن قبره بألوان ألبانية ، واتَّهَم رئيس الوزراء المقدوني ، « تيرانا » بالتّحريض على العصيان ، وقال : « لن نقبل تصرفات تتجاوز الحدود وتصبح تدخلاً مباشراً في شؤون بلدنا المحلية . يشعر المقدونيون بالخطر من جراء دخول الألبان إلى بلادهم من إقليم كوسوفا (الصربي) والحصول على مساكن ووظائف مقدونية ويخشون من مطالبة الألبان مستقبلاً بالانفصال ، أما الألبان فيشعرون بأنهم ضحايا التسلّط المقدوني ، وهم يُصرّون على أن تكون لهم جامعتهم التي تُدرِّس بلغتهم ليحافظوا على هويتهم من الذَّوبَان في الثقافة المقدونية الضَّحْلة ، ـ حسب رأيهم ـ وقبل عامين اتهمت السلطات الألبان ببيع سجائر ممنوعة مما أثار شغباً في سوق « تيتوفو » ، ومن أهم عوامل الانقسام بين الألبان والمقدونيين هو : الدّين . وقد عاشت الطائفتان على جانبي هذا الفارق ولم ينشأ بينهما ما يدلّ على اندماجهما ، وقلما التقيا في المناسبات الاجتماعية ، وجاءت قضية الجامعة لترسيخ هذا الاستقطاب ، بالولاء والانتماء .

بالنسبة للأغلبية المقدونية ، ومعظم شعوب البلقان ، تُعتبر المسيحية

الأرثوذكسية البيزنطية بطقوسها ورموزها وتراتيلها رمزاً هاماً وتجسيداً للقيَم عبر الهيْمَنة التركية والاتحاد اليوغسلافي السابق ، وقد تربّوا صغاراً وكباراً على حُبِّ التراث ، ولهذا فإنّهم هبّوا الآن يؤيدون الخط المتشدد للحكومة ، يقول أحد المقدونيين : إنني أُؤيد الحكومة فيما تفعل ، وإذا أراد الألبان أن يتعلّموا فلا بأس أن تكون لهم جامعة ، ولكننا نخشى أن تكون الجامعة مجرد البداية ، وتقول (امرأة مقدونية) : « المطالبة بالجامعة لا مبرر لها فنحن المقدونيين نعيش في دول كثيرة ولا نطالب بجامعات » . ويردّ الألبان ، بأن هدفهم الوحيد هو الحِفاظ على تراثهم .

القوات الدولية في « مقدونيا » :

إن التوتر يحيط بالمراقبين الدوليين ، وتوجد حالياً في « مقدونيا » قوات دولية تحرس الحدود مع « صربيا » شمالاً ، و« ألبانيا » غرباً ، في محاولة لمنع اندلاع العنف من الدول المجاورة ولكن « صربيا » ترفض الاعتراف بـ « مقدونيا » ، كما أن « اليونان » جنوباً تفرض عليها حصاراً تجارياً ودبلوماسياً بسبب النِّزاع على اسم : « مقدونيا » ، وإذا ما حاول الألبان المقدونيون أن يتّحدوا مع ألبان « كوسوفا » في صربيا ، أو « ألبانيا » ذاتها ، فقد يُعطون « صربيا واليونان » حُجّة للتدخل .

يقول منسّق الشؤون الدولية في « مقدونيا » : « إننا متفائلون ، ولكن المشكلة لن تختفي بسهولة في غضون عام أو اثنين ، لقد هدأت الأوضاع في تيتوفو » ، ولكن المشكلة لم تُحلّ ، ويقول الدبلوماسيون الغربيون : أنه لو قدّمت الحكومة بعض التنازلات لأمكنها منع العنف ولكن الدّم الذي أُريقَ ، عقّد المسألة والحلّ[1] .

---

(١) برنامج بعنوان : حول العالم ، أذيع من تلفزيون دمشق في صيف (١٩٩٥م) .

وتَقرَّر تسمية قوة الأمم المتحدة للحماية داخل جمهورية مقدونيا اليوغسلافية السابقة باسم (قوة الأمم المتحدة للوزع الوقائي)[1] (ومع أحداث كوسوفا بلغ عدد هذه القوات أكثر من ٢٥ ألف جندي) .

حوار مع كاتب مقدوني مسلم :

بحثاً عن مظاهر الحياة الثقافية المقدونية كان الحوار مع أحد كبار الكتّاب في « مقدونيا » وهو يكتب باللغتين : المقدونية والتركية ، إنَّه الشاعر « إلهامي أمين » الذي يعمل نائباً لرئيس المجلس الثقافي في مقدونيا (وزارة الثقافة) ، وهو مقدوني من أصل تركي ، وقد تُرجمت بعض أعماله إلى اللغة الفرنسية . .

والدكتور « إلهامي » يقول : « بأن الثقافة المقدونيّة استطاعت أن تحافظ على استمراريّتها بالرغم من عدم السماح بتعليم اللغة المقدونية خلال السيطرة البلغارية والتركية والألمانية على الإقليم ، ومع ذلك بقيت الثقافة المقدونية التي ظلّت كامنة في وعي الناس ، وفي حياتهم ، ونشاطاتهم الاجتماعية بعيداً عن التعليم والإعلام حتى انتهت الحرب العالمية الثانية ، وجاء الاعتراف بجمهورية « مقدونيا » ، ليسمح بازدهار الفنون والثقافات المقدونية في الأدب والفن ، ومن خلال ألوان التعبير في الشعر والقصة والمسرح والغناء والموسيقا . .

ومن كتّاب مقدونيا ممن ينتمون إلى أصول إسلامية ألبانية أو تركية ، منهم : « عظيم غيطاني » وهو يكتب باللغتين : المقدونية والألبانية ، وقد تُرجمت بعض أعماله إلى الفارسية والتركية والإيطالية .

---

(١) انظر : وقائع مجلة الأمم المتّحدة حزيران ١٩٩٥ .

والحركة النقدية المقدونية نشطة ، تعكس حجم الاهتمام الثقافي ، وتبدو في اهتمامات مستقرَّة لبعض الشهريّات الثقافية والمجلات الأسبوعية والصحف اليومية[1] .

* * *



مشاهد من عاصمة مقدونيا

---

(١) انظر مجلة الجيل/ العدد ٩ ، أيلول ١٩٩١ م (ص٦٠ـ٦٩) .

أهم مدن مقدونيا

سكوبيا SKOPJA

لمحة تاريخية :

تدعى بالصربية « سكوبلي SKOPLE » عاصمة الولاية السابقة « قوصوَة » (كوسوفا) ، ثم عاصمة لإقليم « فاردار Vardar » ، وحاليّاً عـاصمـة لجمهـوريـة « مقـدونيـا » ، وأيـام الحكـم العثمـانـي دُعيـت « اسكوب » ، على ارتفاع(٩٦٠) قدماً فوق سطح البحر وسط واد خصب تحيط به الجبال المغطّاة بالثلج ، وهي واقعة على جانبي نهر « فاردار » وعلى الشاطىء الأيسر من هذا النهر الأحياء القديمة من المدينة مثل : القلعة والحي التركي وغير ذلك ، أما المنشآت الجديدة وكذلك محطة السكة الحديدية فتقع على الشاطىء الأيمن ، . . ومن بين المنشآت الإسلامية : مجلس العلماء ، مجلس المعارف ومحكمة شرعية رئيسية ، ومدرسة عالية حكومية يُدرّس فيها إلى جانب المواد العاديّة : الدّين ، اللغة العربية ، وقليل من اللغة التركية . وقد غدت « اسكوب » بفضل موقعها الجغرافي الممتاز مركزاً للحياة الاقتصادية والثقافية لبلاد الصرب الجنوبية . .

وكان لهذه المدينة مثل هذا الشأن في العهد القديم ، فهي في الأصل مستعمرة إليرية كانت تسمى « سكوبي SCUPI » ثم أصبحت بعد ذلك

عاصمة إقليم « دردانيا الروماني » وكانت تقع على بعد ميلين من نهر « فاردار » عند بلدة « زلوكشاني Zlokuani » إلى الشمال الغربي من اسكوب الحديثة ـ ولكنها دُمّرت تماماً في زلزال عام(٥١٨)م ، ويذكر السير « أرثرإيفانز Arthur Sir Evans » أن سكوبي أُعيد بناؤها فيما جاور المدينة القديمة في المكان الذي تقع فيه « اسكوب » اليوم ، وذلك في عهد الإمبراطور « يوستنيانوس » (٥٢٧ـ٥٦٥)م وسمّيَت « يوستنيانا بريما Prima Justiniana » ولكن هذا الاسم لم يدم طويلاً[١] ونجد اسمها في خريطة العالم التي رسمها « الإدريسي »[٢] عام (١١٥٤م) « اسقوبية » .

. . استولى الصقالبة على تلك المدينة في نهاية القرن (٧ م) ، أما في القرون التالية فكانت « سكوبيا SKOPIA » ذلك اسمها عند البيزنطيين وهي تابعة للدولة البيزنطية ، اللّهمّ إلاّ فترات تتراوح قصراً وطولاً كانت خلالها في يد البلغار والصرب . . وفي عام (١٢٨٢م) انتقلت « اسكوب » نهائياً من حكم البيزنطيين إلى يد الصرب . . وغدت المقرّ المختار لملوك وأباطرة الصرب في القرون الوسطى ، وفيها احتُفِلَ بتتويج الملك « دوشان » أول أباطرة الصرب عام (١٣٤٦)م واستمرّ حكم الصرب لهذه المدينة في تلك المرّة (١١٠) سنوات (١٢٨٢ ـ ١٣٩٣م) . ويُعتَبر هذا العصر أزهى العصور التاريخية التي مرّت بتلك المدينة . .

---

(١) انظر : دائرة المعارف الإسلامية (٢/ ١٤٢ـ١٤٣) .

(٢) انظر : الإدريسي : أبو عبد الله الشريف (١١٠٠ـ١١٦٥)م : رحّالة مغربي ، ولد في سبتة . درس في قرطبة وبرع في الهيئة والجغرافيا استقرّ في بلاط « روجيه الثاني » ملك صقلية وصنع له كرة أرضية من الفضّة ، من مؤلفاته : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق .

اسكوب في يد العثمانيين :

بعد وقعة « قوصوَه ـ كوسوفا »[1] (ساحة الطائر الأسود) عام (١٣٨٩)م أصبحت لأسكوب أهمية كبرى عند العثمانيين فاحتلّوها في السنوات الأولى من حكم « السلطان بايزيد الأول » ، ويُطلِقُ أقدم المؤرّخين العثمانيين عليه اسم « قاهر اسكوب » ، وأول حاكم لها : « علي باشا » الذي كان مؤدِّباً « لإسحاق بك » ، وكان له بمثابة الأب . . وقد سُجِّل تاريخ الفتح في نقوش صربية من ذلك العهد وهو : (٦ يناير/ كانون الثاني ١٣٩٢)م .

. . واستمرّ العثمانيون في « اسكوب » . . وأصبحت فترة من الزمن المقرّ الثاني لسلاطين بني عثمان بعد « أدرنه » ، وأضحت « اسكوب » قاعدة للغزوات العثمانية في الشمال ، ومنها استطاع ولاتُهم حُكْم رعاياهم (في البلقان) . وفي « اسكوب » نشأت تجارة رائجة ، كان لأهل « راغوسة »[2] فيها شأن كبير . ونشطت حركة البناء كذلك ، وكانت مقصورة ـ في الغالب ـ على المساجد والمدارس والحمّامات ، وغيرها . وبدأ عهد إنشاء أكبر المساجد وأجملها في القرن (١٥)م :

جامع » السلطان مراد « بني عام (١٤٣٦ـ١٤٣٧)م .

جامع « إسحاق بك » بني عام (١٤٣٨ـ١٤٣٧)م .

جامع « عيسى بك » بني عام (١٤٧٥ـ١٤٧٦)م .

جامع « قوجه مصطفى » عام (١٤٨٥)م .

جامع « كرلوزاده » عام (١٤٩٥)م . وقد تهدّم عام (١٩٢٥)م .

---

(١) انظر : في هذا الكتاب بحث كوسوفا .

(٢) راغوسة : دوبروفنيك الحاليّة (لؤلؤة الأدرياتيكي) مدينة كرواتية فيها آثار جميلة .

جامع « يحيى باشا » عام (١٥٠٢-١٥٠٣)م .

وكان لبعض مدارس « اسكوب » شهرة عظيمة منذ القدم . . وكان لـ « اسكوب » في القرنين (١٦ و١٧)م شأن كبير في ميدان الشعر والعلم في السلطنة ، يدلّنا على ذلك أسماء مشاهير الشعراء والعلماء الذين نذكرهم فيما يلي : « عطا » : كان شاعراً توفي عام (١٥٢٤)م .

« إسحاق جلبي » (اسكوبي) : شاعر غنائي وعالم ، توفي عام (١٥٤٣)م .

« عاشق جلبي (بير محمد) » : كان شاعراً وكاتباً لسيَر الشعراء توفي (١٥٧٢)م ، ويسمى (أويس بن محمد) : كان من أعظم كتّاب عصره ، توفي وهو يشغل منصب قاضي « اسكوب » عام (١٦٢٨)م ، « نوعي زاده » (عطائي) : الشاعر المشهور ، هو الذي أكمل كتاب « الشقائق النعمانية » لطاش كبرى زاده ، وكان آخر منصب قضائي شغله في « اسكوب » وتوفي عام (١٦٣٥)م[١] .

اسكوبيا والرحّالة :

وصف الرحّالة الغربيون أمثال « بيتانسي Petancie » عام (١٥٠٢)م و« د . براون Dr Brawn » (١٦٦٩) م في القرنين (16 و17) مدينة « اسكوب » : إنها مدينة كبيرة وجميلة . ويتفق المصدران العثمانيان اللّذان كُتبا في القرن (١٧) مع ما ذهب إليه هؤلاء الرحّالة ، فنجد « حاجي خليفة (١٦٤٨)م وهو أحد هذين المصدرين ، لا يصف » اسكوب « عاصمة سنجق « اسكوب » بأنها مدينة جميلة فحسب ، بل

---

(١) انظر : دائرة المعارف الإسلامية (٢/ ١٤٣) .

يقول إنَّ برج الساعة الذي يرجع عهده إلى زمن الوثنية هو أكبر الأبراج الموجودة في (أوربا) . أمّا وصف « أوليا جلبي » لهذه المدينة ، وهو أحدث عهداً من « حاجي خليفة » فهو أحسن تلك الأوصاف على الرغم من مبالغته .

وكان بـ « أسكوب » عند زيارته لها عام (١٦٦١)م نحو سبعين محلّة ونحو(١٠٠٦٠) منزلاً من بينها عدد من السرايات الشهيرة ، و(٢١٥٠) حانوتاً و(١٢٠) مسجداً ما بين صغير وكبير ، منها (٤٥) مسجداً لصلاة الجمعة ، وعدّة كنائس للنصارى وبعض المعابد لليهود و(٢٠) تكية للدراويش و(١١٠) من نوافير المياه[١] وكان في « اسكوب »(٧٠) مدرسة عليا ، و(٩) مدارس خاصّة لتجويد وقراءة القرآن الكريم و(٧) فنادق مجّانية ـ لا يدفع فيها العابر شيئاً ـ ، وأكثر من (١٠٠٠) حمّام في البيوت الخاصة ، بالإضافة لعدة حمّامات عامّة[٢] .

وكانت التجارة والصناعة ناشطة في تلك المدينة . أما الأحوال الداخلية فكانت في نصابها ، حتى أنه يكفي لحماية المدينة (٣٠٠) رجل فقط .

ولكن حدث في نهاية القرن (١٧)م أن زحف القائد النمسوي « بوكولوميني Poccolomini » بمعاونة الثوار الصرب نحو إقليم « فاردار » ، وعَبَرَ نهري : الدانوب وسافا ، فنهب مدينة « اسكوب » ودمَّرها في (٢٦ـ٢٧) اكتوبر / تشرين الثاني عام (١٦٨٩)م . وفي القرن (١٩)م

---

(١) انظر : المصدر السابق نفسه .
(٢) انظر : الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية ، عالم المعرفة العدد (٦٨) ، الكويت ١٩٨٣م (ص٩٤ـ٩٥) .

فشا الطاعون في تلك المنطقة ولم يأت آخر ذلك القرن حتى كان سكان المدينة (٦٠٠٠) نسمة فقط .

ولم تنتعش « اسكوب » ثانية إلا في بداية القرن (١٩)م ، وذلك لهجرة سكان الأقاليم المجاورة إليها .

وقد أعادت إصلاحات « عمر باشا » الأمن والسلام والنظام في جميع الأقاليم بعد عام (١٨٤٠)م ، وانتعشت التجارة فيه مرة ثانية .

وقد زاد في عدد سكان هذه المدينة زيادة كبيرة من هاجر إليها من مسلمي « صربيا » والبوسنة « منذ عام (١٨٧٥)م .

في عام (١٨٧٣)م افتُتِحَ الخط الحديدي الموصل بين «سالونيك[١] واسكوب ومتروفيتسا» ونُقلت حاضرة الولاية من «بريشتينا»[٢] إلى «اسكوب» في عام (١٨٧٥)م ، وقد رَبط الخط الحديدي الذي افتُتِح عام (١٨٨٨)م بين « بلغراد » و« نيش » و« اسكوب » و« سالونيك » .

في أواخر القرن (١٩) م بلغ عدد سكانها (٣٢,٠٠٠) نسمة منهم (١٧,٠٠٠) من المسلمين و(١٤,٠٠) نسمة من المسيحيين و(٨٠٠) من اليهود ، وقضت الحرب البلقانية التي نشبت عام (١٩١٢)م على حكم العثمانيين لاسكوب بعد أن دام (٥٢٠)عاماً . ومنذ عام (١٩١٨)م ، . . ، انضمت المدينة نهائياً إلى « يوغسلافيا »[٣] .

---

(١) سالونيك Thessuloiki : عاصمة إقليم « مقدونيا » اليوناني وتقع على ساحل بحر إيجة وتُعتبرَ الآن المدينة الثانية في اليونان بعد العاصمة «أثينا» وهي ميناء عظيم (٥٥٠,٠٠٠) ن ، مركز صناعي وثقافي .

(٢) بريشتينا : عاصمة كوسوفا الآن ، انظر بحث كوسوفا .

(٣) انظر : دائرة المعارف الإسلامية (٢ / ١٤٤-١٤٥) .

سكوبيا بعد الحرب العالمية الثانية :

.. احتل الألمان سكوبيا في نيسان عام (١٩٤١)م وجعلوها قاعدة عسكرية مهمّة.. ، وبعد التحرير أصبحت عاصمة « مقدونيا » إحدى جمهوريات يوغسلافيا الاتحادية التي أقامها الزعيم « تيتو » . وفي عام (١٩٦٣)م أصيبت « سكوبيا » بزلزال قضى على أكثر من ألفي نسمة وتشتّت القسم الأكبر من الباقين ، وتخرّب الحي الشرقي بكامله ، وفيه أكثر الأبنية الأثرية ، من مساجد ، وأسواق ، ومنشآت ، كما تضرّرت أحياء أخرى ، ولكن الحكومة أسرعت بإعادة بنائها ، وعادت مدينة « سكوبيا » مزدهرة في صناعتها وتجارتها ، وزاد عدد سكانها زيادة عجيبة ، فبعد أن كان العدد في إحصاء (١٩٦١)م ، (١٦١,٩٨٣) نسمة ، أصبحوا بعد عشر سنوات أي في عام (١٩٧١)م ـ وعلى الرغم من كارثة الزلزال ـ (٣٨٨,٩٦٢)نسمة[١] . فعلى أنقاض الزلزال المخيف الذي أصابها عام ١٩٦٣م ، نهضت مدينة جميلة وحديثة ، وأصبحت المدينة الثالثة في يوغسلافيا السابقة بعدد السكان .

سكوبيا عاصمة مقدونيا المستقلة :

منذ أعلنت جمهورية « مقدونيا » استقلالها عن الاتحاد اليوغسلافي وهي تُعاني من جفوة مع جيرانها وخاصة اليونان وجمهورية الصرب ، وهذا تسبّب في حالة من الشعور بالوحدة والعزلة تجتاح عاصمة هذه الدولة الجديدة .

---

(١) انظر د . المعارف/ فؤاد أفرام البستاني (١٣/ ٢١٧ـ٢١٨) .

والعاصمة « سكوبيا » مدينة قديمة ـ كما عرفنا ـ تُعدّ بمفاهيم النظام الدولي الجديد أحدث عاصمة سياسية في العالم ، ومع إعلان الاستقلال عمّت البهجة أرجاء « سكوبيا » لكنها بهجة لم تدم ، وتبدّلت بإحساسٍ بالعزلة التي تعيشها الدولة الجديدة مع اعتراض « اليونان » على قيامها بحجّة أن مقدونيا الجديدة تختار اسماً لها من أعماق التراث الوطني اليوناني .

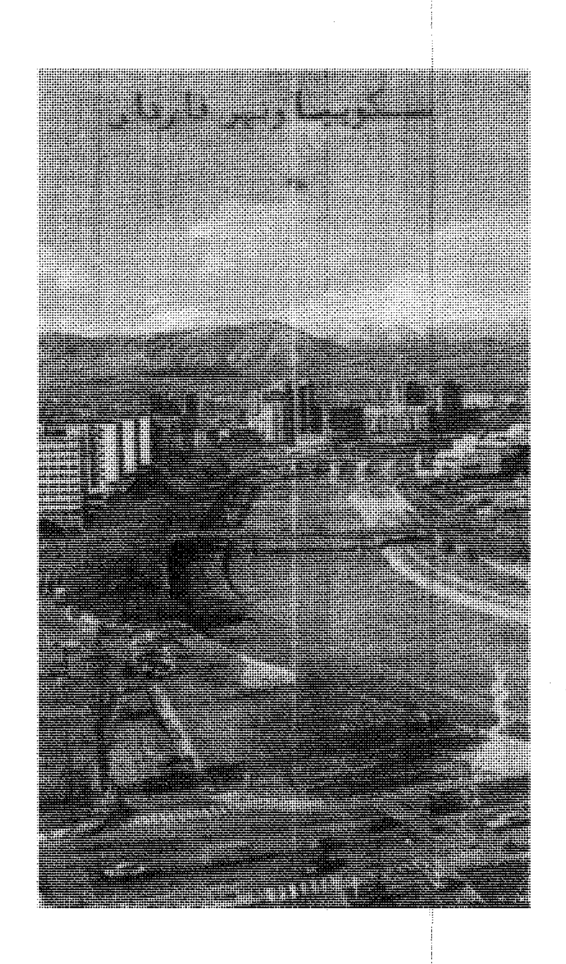
الهدوء القلق في سكوبيا :

تبدّلت بهجة « سكوبيا » مع ردود الأفعال التي استجدّت وأضحت حال المدينة كحال إنسان شاعر المدينة « ترايان بتروفسكي » في قصيدة له نشرت في ديوانه « النفس لا تُباع » يقول فيها : ليس هناك أصعب من الوحدة ، وأنت تقاوم بمفردك أفكارك ، كما يناضل العصفور الصغير صخرة الجبل .

وهكذا . . كانت « سكوبيا » وهدوء مشوب بالقلق يبدو على ملامحها ، وهي حال لم تكن من سِمات المدينة قبل سنوات عندما كانت عاصمة لجمهورية من جمهوريات الاتحاد اليوغسلافي السابق ، فماذا أصاب المدينة التي ردّد العالم اسمها في أغنية شهيرة من غنائيات الدّيسكو قبيل سنوات ؟ ويرى الزائر للمدينة في هذه الأيام أنّ الحياة عادية حتى إذا ما تفرّس في الملامح وضح له القلق الذي يعتري تعبير العيون في هذه المدينة التي تخشى الخطر القادم وتتمنى لو تمتّعت بقدر من علاقات حُسْن الجوار التي تعيد للحياة اليومية بريقها وتجدّدها وطموحاتها المشروعة .

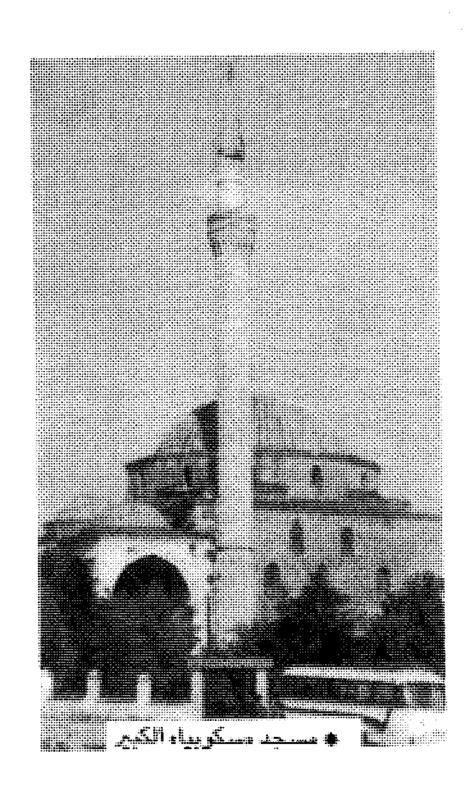
سكوبيا والنهر :

يجتاز المدينة نهر « فاردار » الذي تَسمى الإقليم باسمه قبيْل الحرب العالمية الثانية « فاردارسكا » وفي إطلالة من علٍ ترى المدينة هادئة ساكنة برغم الغليان الذي يجري فيها وبرغم حالة القلق والترقُّب التي تعتريها منذ قرار المجموعة الأوربية الاعتراف بجمهورية مقدونيا الجديدة بينما ردُّ الفعل الدولي بطيء الاستجابة ، بارد التأثير .



سكوبيا ونهر فاردار

يدهشك هدوء المدينة التي يسكنها نحو نصف مليون نسمة من بين مجموع السكان الذي يصل إلى (٢,٥) مليون نسمة وتبدو لك بانوراما المدينة والجبال والمرتفعات تحيطها من كل الأرجاء ، ونهر « فاردار » الذي يخترقها قادماً من مرتفعات الشمال ليصبّ في بحر « إيجة » وفي قلب المدينة التي أنجبت المفكر الإسلامي المعروف « يعقوب بك الإسكوبي » وغيره مما مرّ ذكره آنفاً ، تلحظ الهوية الغالبة على المدينة والتي لم يخفت بريقها فضلاً عن محاولات الطمس[1] (أيام السيطرة الشيوعية) .


• مسجد سكوبياء الكبير

(١) انظر : زهرة الخليج العدد ٧٧٨رمضان ١٤١٤هـ وشباط ١٩٩٤م (ص١٨ـ١٩) .

يبدو سوق البازار القديم بقبابه وعمارته الإسلامية المميّزة ، وفي الجوار يطلّ عليك مسجد سكوبيا الكبير والذي يتجاوز عمره نحو أربعة قرون ومآذنه الشامخة وبنيانه الصَّلد والأضواء الهادئة تحيط بمنارته الشاهقة في مواقيت الأذان ، وجموع المصلّين من الشباب والكبار يهرعون إلى صحن الجامع لأداء الفرائض والإنصات إلى تلاوة من القرآن الكريم التي يجوّدها « الشيخ سلام » ابن المدينة الذي تعلّم في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر الشريف .

وعندما نتجوَّل في سوق البازار نراه يبدو قريب الشبه من أسواقنا العربية المشهورة . .

طبيعة سكوبيا :

الطقس في سكوبيا غير مستقرّ ، فهي تتأثر بتباين ظروف المُناخ ، فهي قارسة البرودة في الشتاء ، شديدة الحرارة في الصيف بسبب الطبيعة القارّية وبُعدِها عن سواحل البحر ، ولهذا يهرع أغلب سكانها في فصل الصيف إلى بحيرة « أوهريد » القريبة والتي تظلّ من أكثر بحيرات أوربا اجتذاباً للمصطافين . . وحتى سنوات قليلة مضت ، كانت مدينة « استروغا » ـ الضاحية البديعة المطلّة على بحيرة « أوهريد » في نقطة اللقاء مع نهر « دريم » ـ تشهد أمسيات الشعر العالمية التي شارك فيها أغلب نجوم الشِّعر من معظم أنحاء العالم .

سكان سكوبيا والتعدّدية الثقافية :

. . سكان المدينة منحدرون من أصول مختلفة وتركيبتهم في سكوبيا وفي كل أنحاء « مقدونيا » ، تضمّ المقدونيين الصقالبة (السلاف) والمقدونيين من أصل ألباني(الأرناؤوط) ومن أصل تركي ، وأقليّات

أخرى هامشية . ومن هذا الخليط المتباين يظهر التنوّع الثقافي ، فنجد في المكتبات المنتشرة في أغلب شوارع المدينة مؤلّفات تُعبِّر عن هذه التعددية الثقافية ، وباللّغات المختلفة التي يتحدّث بها سكان المدينة ، وهي : المقدونية والألبانية والتركية وأيضاً اليونانية .



ومن أشهر كتّاب مقدونيا من السلاف عالم اللغويات « بلاجو كونوفسكي » وأغلب كتاباته تدور حول ربط الأعمال القديمة بالحاضر الثقافي المعاصر ومن كتّاب القصّة « رومان نوبيسي » ومن الشعراء « ترايان بتروفسكي » ، ومن الكتّاب المقدونيين من أصل ألباني الشاعر « إبراهيم رامي » ، ومن أصل تركي الشاعر إلهامي أمين وكلاهما من مسلمي « سكوبيا » .

إضافة لهذه التعددية الثقافية في « سكوبيا » تضم عدداً من المؤسسات الصحفية ودور النشر ، وعدداً من الاستوديوهات الإنتاجية السينمائية

والتلفزيونية ، هذه الوفرة وتلك التعددية ، فسّرها الناقد المقدوني « غرادو بيللكو » في أنّ ثقافة المكان مزيج من ألوان التفكير في الغرب والشرق ، فهناك التأثير التركي وخاصّة في الموروثات الفلكلورية والسلوكيات وهناك التأثير الإسلامي القادم من « ألبانيا » وتركيا « والبوسنة والهرسك » وهناك التأثير السلافي القادم من « صربيا » و« بلغاريا » و« روسيا » ، وهناك أيضاً تأثير الثقافة العربية والتي جاءت عبْر جسرٍ من الاتصال المعرفي العربي ـ التركي في الحقبة العثمانية ، وأيضاً ، التأثير اليوناني في الإنسانيات والفلسفة .

. . هذه المدينة التي دعاها العرب القُدامى « سكوبلي » عندما كانت بلقانيّة الطابع أقرب إلى الشرق . . بينما تحولت هذه الملامح اليوم بعد ما نشطت حركة البناء بعد زلزال (١٩٦٣)م أصبحت الملامح متوازنة في هويّتها بين الانتماء الجغرافي بحكم وجودها في القارة الأوربية ، والموروثات وتقاليد الفعالية والانتماء السابق .

المظاهر الحضارية في سكوبيا :

. . من يتجوّل في مدينة « سكوبيا » تستوقفه المظاهر الحضارية المختلفة التي تقوم على التباين العرقي والديني والثقافي والسياسي ويبدو هذا التباين في إبداعات أصحاب المواهب وإنتاج الحرفيين على نحو يجذبك إلى معروضات المشغولات اليدوية من أعمال التطريز والحفر على الخشب وأيضاً السّخاء في ارتداء الأزياء الفلكلورية والحرص على ارتداء كميات من الذهب والفضّة وارتداء ما يشبه الخلخال والأساور في معصم اليدين عند النساء الريفيّات في ضواحي المدينة التي تزخر أيضاً بوسائل التعبير عن الأعياد والمناسبات السعيدة من خلال وفْرة من الرقصات والغنائيات الفلكلورية تختلف باختلاف المناسبة من أغاني

المهد والميلاد والزواج والحصاد والسفر واللّقاء ، وحيث يقوم المقدونيون بإقامة الولائم وهم يتميزون بنهَم شديد للطعام ويتناولون كميات كبيرة منه وطَبَقُهم المفضّل هو الكباب المشوي ويسمّونه هنا أيضاً « سيخ كباب » وهم يتفننون أيضاً في إعداد أطباق السلطة المقدونية التي تشبه السلطة اليونانية مع إضافات أخرى حرّيفة وشهيّة .

الاتصال الإنساني وحوار الحضارات :

تبدأ الحياة الثقافية في « سكوبيا » من الجامعة حيث تنبع من الإسهام العلمي لجامعة سكوبيا التي تستوعب (٢٥٠٠٠) طالب وطالبة ،. . وفي « مقدونيا »(٢٨) بيتاً للثقافة ، إلى جانب (٢٤) متحفاً ، و(٢٥) مسرحاً و(٧٥) داراً للسينما ، وقناةً للتلفزيون ، وثلاثة برامج للإذاعة . وتنفرد العاصمة « سكوبيا » بوجود دار للأوبرا وقاعة موسيقا للأوركسترا الفيلهارموني بجانب وجود ثلاثة مسارح ، أبرزها المسرح القومي الذي عرض في صيف (١٩٩١)م مسرحية « الفرافير » من تأليف « د . يوسف إدريس » مترجمة للّغة المقدونية . وفي « سكوبيا » معهدان لدراسة الموسيقا ، ومعهد عالٍ للفنون الجميلة والتطبيقية ، وآخر لفنون المسرح والسينما والإذاعة والتلفزيون ، وهذه المعاهد تختلف عن معاهد الأكاديمية المقدونية للعلوم والفنون ، حيث التخصّصات العالية بعد الجامعة .

ويوجد أيضاً في « سكوبيا » عدد من المتاحف وقاعات عرض الفن التشكيلي التي تتناسب واهتمامات سكان المدينة ، وعددهم يقترب من (نصف مليون) نسمة[١] .

---

(١) انظر زهرة الخليج (ص ١٩ـ٢٠) مصدر سابق .

أوهريد Ohrid

تعتبر « أوهريد » من أهم وأشهر مدن « مقدونيا » الحضارية وهي منطقة جذْبٍ سياحيّ بسبب موقعها المطلّ على بحيرة « أوهريد » وتقع في المثلث الجنوبي الغربي من « مقدونيا » ومن منطقة الحدود المشتركة مع كل من اليونان وألبانيا ، يبلغ عدد سكان « أوهريد » (١٥,٠٠٠)نسمة . إنها أشبه ما تكون باللّوحة التأثيرية الرائعة التعبير والتي تبدو فيها بحيرة الماء صافية الزرقة محاطة بسلسلة من المرتفعات الجبلية التي تتوزع فيها الألوان بين الأخضر والأصفر والذهبي والأبيض في درجات متجانسة رائعة التكوين ، وحيث لا يختلف التأثير على من يتأمّلها عن ذلك التأثير الخلاّق الذي تتركه مشاهدة أعمال فنان عظيم[١] .

بحيرة أوهريد :

تبلغ مساحة البحيرة (٣٤٨)كم٢ ، أقصى عمق لها (٢٨٦)م ، وارتفاعها عن سطح البحر (٦٩٨)م . وتتميز منطقة « أوهريد » بجانب جمال الطبيعة جمال السلوك الإنساني فيها والذي تبدو رقّته في التعامل مع زوّار المدينة التي تنفرد بوجود عدد كبير من الكنائس الأثرية ، والمساجد المتميّزة ، والبناء المعماري ، ويُقام في صيف كل عام في « أوهريد » مهرجان الغناء . . البلقاني . . ومهرجان مسرحي[٢] . .

---

(١) انظر : مجلة « الجيل » عدد (٩) أيلول ١٩٩١م (ص٦٠ـ٦٥) .

(٢) انظر : المنجد في الأعلام ط١٩/ ١٩٩٢م (ص٩٠) .

تهديد بحيرات مقدونيا :

وجّه علماء البيئة في جمهورية مقدونيا نداءً لإنقاذ بحيرات : أوهريد ،ودوجران Dojran ، وبريسبا Prespa ، أما بحيرة دوجران فتتقاسمها مع اليونان ، وبحيرة أوهريد فتتقاسمها أيضاً مع ألبانيا ، وهي مدرَجة في قائمة اليونسكو للتراث العالمي و(٨٠٪) من الحيوانات الموجودة مستوطنة بها منذ قديم الزمان ، وهذه البحيرة معروفة بأنها بمثابة مُتحف حفريات حيّة . وأما بحيرة « دوجران » فقد انخفض مستوى سطحها بمقدار (٥,٢ متراً) عن الحدّ الأدنى المقرّر باتفاق بين اليونان ومقدونيا ، وأما بخصوص بحيرة « بريسبا » . فإن ضفافها مقدونية ويونانية وألبانية ، ومستوى سطحها انخفض بمقدار (٥أمتار) على مدى الأربع عشرة سنة الماضية ، وتجري الآن دراسات لمعرفة ما إذا كان هذا الانخفاض يرجع إلى أسباب طبيعية أو إلى أنشطة بشرية ، أو إلى استخدام زارعي التفّاح بالقرب من البحيرة مبيدات حشرية بإفراط . الأمر الذي أدى إلى تلوّث التربة والماء . ووجّهت حركة مقدونيا البيئيّة في سكوبيا نداءً للمساعدة[١] .

* * *

ستروغا Struga

تقع مدينة « ستروغا » على مقربة من « أوهريد » وعلى نفس البحيرة ، حيث يُقام في كل عام المهرجان الدولي للأمسيات الشعرية .

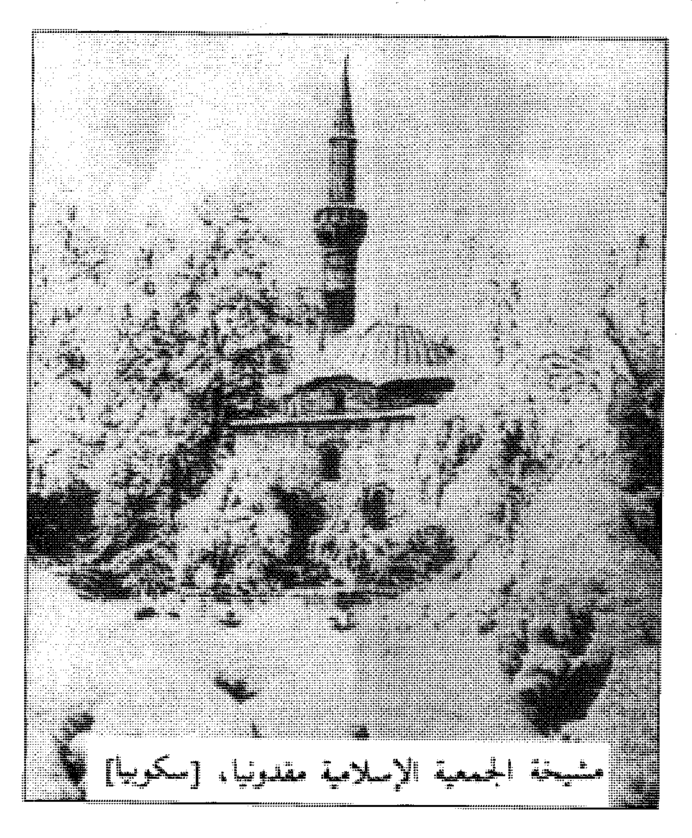
---

(١) انظر : مجلّة رسالة اليونيسكو / ديسمبر / كانون الأول / ١٩٩٤م .

بيتولا (موناستير) Monastir - Bitola

هي المركز الاقتصادي الحيوي في « مقدونيا » بجانب أهميّتها في التاريخ السياسي للمنطقة ، وقد جرت في بيتولا ، معارك عنيفة في الحرب العالمية الأولى . سكانها (٧٥,٠٠٠) نسمة[١] .

ففي القرن (١٧) كانت هذه المدينة تحتوي على : (٧٠) جامعاً ، و(٩٠٠) دكّاناً ، و(٤٠) مقهى ، وعدد كبير غير محدود ، من المدارس الابتدائية و(٦) من المدارس العليا[٢] .


مشيخة الجمعية الإسلامية مقدونيا، [سكوبيا]

(١) انظر : المنجد في الأعلام (ص١٥٦) مصدر سابق .
(٢) انظر عالم المعرفة العدد / ٦٨/ آب / ١٩٨٣م (ص٩٤) .

اتحاد المشيخة الإسلامية

في مقدونيا

في لقاءٍ مع الأستاذ « سليمان رجبي » رئيس المشيخة ، سألناه عمّا يمثّله اتحاد المشيخة تجاه مسلمي مقدونيا وماهي الصعوبات التي تواجهها ؟ .

أجاب الأستاذ « رجبي » : إنَّ هذا الاتحاد يلعب دوراً مهماً في حياة المسلمين في « مقدونيا » ، والإشراف على المساجد والمكاتب التعليمية في كل المدن والقرى ، وأيضاً من مهامِّه تدبير الأمور التي تتعلّق بالمسلمين ، كالمحافظة على الشريعة الإسلامية .

ويقوم أيضاً بتنظيم إلقاء المحاضرات وبخاصّة في شهر رمضان المبارك حيث تُلقى المحاضرات كلّ ليلة في أحد الجوامع بعد صلاة التراويح ، كما تُقام حلقات لتدريس الأولاد في كل جامع من الجوامع الموجودة في « مقدونيا » من قِبَلِ الأئمّة في بعض الجوامع وفي بعضها الآخر يقوم بالتّدريس « المؤذّن » ـ إذا كان قد تعلّم العلوم الشرعية في المدارس الشرعية أو في الجامعات .

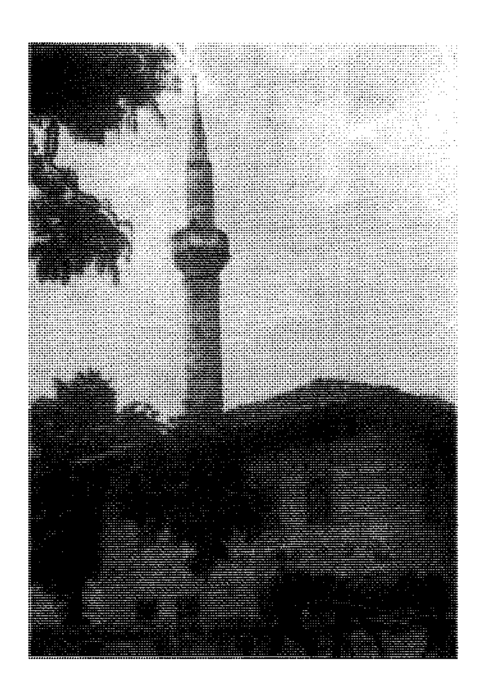
وقال الشيخ سليمان : إنّ للمشيخة لجانٌ في جميع محافظات مقدونيا تقوم بدورها تجاه المسلمين وهي :

١ ـ لجنة « سكوبيا Skopje » :

يبلغ عدد أعضاء اللجنة المشكّلة من قبل الاتحاد للمشيخة الإسلامية (٧٣) عضواً : منهم (٤٦) إماماً و(١٢) إماماً (احتياطيين) و(٤) من المعلمين لتعليم الأولاد ، و(٤) من المؤذنين و(٦) من المؤذنين الاحتياطيين ، وشيخ واحد خاص بتخريج الحفّاظ من دار الحفظ في « سكوبيا » .

المستوى العلمي :

(١٣) من خريجي الجامعات ، و(١١) من خريجي المدارس الثانوية الشرعية ، أما الباقون فقد أجيزوا بعد اختبار إمامي ـ أي يُسمح لهم ممارسة الإمامية ـ أيضاً (٢٢) من حفّاظ القرآن الكريم ، كما تقوم اللجنة بتنظيم الاحتفال بالأعياد والمناسبات الدينية : كـ « ليلة القدر » ، و« ليلة الإسراء والمعراج » ، و« المولد النبوي الشريف » ، و« ذكرى موقعة بدر » ، وغيرها من المناسبات الدينية[1] . .



مسجد الباشا في تيتوفو

(١) أجرى اللقاء « رافز عديلي » يوم الخميس ٢٤/٨/١٩٩٥م في سكوبيا وهو طالب من مدينة « تيتوفو » المقدونية ، يدرس في كلية الشريعة بجامعة دمشق .

٢ ـ لجنة تيتوفو Tetovo :

في هذه المدينة ـ خاصّة ـ نذكر أولاً تمسّك المسلمين فيها بالشريعة الإسلامية ، وقيامهم بالواجبات والمحافظة على التقاليد الإسلامية .

ولقد نالت « تيتوفو » تقدير المشيخة سنة (١٩٩٤) م حيث تخرّج من مدارسها أربعة حفّاظ للقرآن الكريم وهم دون سنّ البلوغ ، بل دون العاشرة من عمرهم بالرغم من عدم فهم اللغة العربية ، وهم يتقنون القراءة بشكل ممتاز ، . . واحتفلت المشيخة أيضاً في سنة (١٩٩٥م) في أحد مساجد « تيتوفو » وهو « جامع الساعة » الذي تقوم فيه اللجنة بتكليف بعض الحفّاظ بختم القرآن الكريم كل يوم وهذا ما يجري في هذا الجامع منذ (٥٣) سنة ، كما احتفل بنفس السنة (٥٨) احتفالاً بختم القرآن ختمةً جماعيّةً ـ أي قراءة فقط ـ من طلاب تتراوح أعمارهم بين السادسة والثانية عشرة ، يقرؤون القرآن الكريم دون فهم معناه ، وهذا ليس إهمالاً من المعلّمين بل لأنّهم ليس لديهم الشروط المتوفّرة لتعلّم اللغة العربية في هذه السِّن ، ولكنّهم يتعلّمون العربية في المدارس الثانوية الشرعية ، سواء في البلاد العربية أو الأجنبية ، وبالمناسبة نذكر أنه في عام (١٩٩٥)م تقدّم في مدينة « تيتوفو » فقط حوالي (٦٠٠٠) طالب برغباتهم في الدراسة الشرعية ، ـ وهذا أكبر عدد حتى الآن في « مقدونيا » ـ وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدلّ على الاهتمام المتنامي بعلوم الدين الإسلامي الحنيف .

موظفو المشيخة في « تيتوفو » :

بلغ عدد العاملين في المشيخة (١٤٠)موظفاً منهم (٨١) خطيباً وإماماً ، و(١٣) معلماً بينهم معلمتان ، و(٢٩) مؤذّناً . . ووظائف أخرى .

المستوى العلمي :

(٣٤) من خريجي الدراسات العليا ، و(٥) من خريجي الجامعات ، أما الباقون فهم بين خريجي المدارس الثانوية الشرعية ، أو بعد اختبار إمامي . .

المعالم الإسلامية :

في محافظة « تيتوفو » (٨٠) مسجداً تقام فيها الصلوات الخمس ، واثنان فقط لصلاة الجمعة ، وبالمناسبة ، فإن المساجد الموجودة في « تيتوفو » لا تكفي للمصلّين فيها بالنسبة لعدد مسلميها . .

(٦٣) من الكتاتيب لتعليم الأولاد ، (مقبرتان) ، (٢٧) إدارة للمساجد ، (٢٣) شقّة سكنية للأئمّة ، وتكيّة واحدة .

٣ ـ لجنة « غوستيفار » Gostivar :

تقوم هذه اللجنة بالإشراف على جميع المساجد والمكاتب التعليمية الموجودة في هذه المحافظة ـ كما في المحافظات الأخرى ـ وكذلك تنظيم الاحتفالات بالمناسبات والأعياد الدينية ، ويشترك في ذلك كل العاملين في هذه المشيخة ، والذي يبلغ عددهم (٧٧) موظفاً وهم كما يلي : (٣٤) من الأئمة ، مع (١٦) إماماً آخر من المتقاعدين المكلّفين أيضاً ـ ، (٤) مدرّسين للتدريس ولإلقاء المحاضرات ، و(٥) معلمين للأولاد ، و(١١) مؤذّناً ، و(٧) من المؤذّنين المكلّفين بأعمال أخرى بالإضافة للأذان . .



بعض أفراد من الأقليّتين التركية والألبانية في مدينة غوستيفار
يقومون بمظاهرة ضدّ الحكومة[١] .

المستوى العلمي :

(اثنان) يحملان دكتوراه في الشريعة ، و(١٣) من خريجي الجامعات ، و(١٠) من خريجي المدارس الثانوية الشرعية و(٣٧) تخرّجوا من مدارس متوسطة شرعية ، و(١٥) بدون وثائق رسمية .

المعالم الإسلامية :

يوجد في محافظة « غوستيفار »(٥٢) مسجداً وتكيّة واحدة وفي السنوات السابقة قامت اللجنة بإصلاح الجوامع الموجودة في هذه

(١) الصورة من مجلّة لوبوان الفرنسية العدد ١٣٣٢/ في ٢٨/ ٣/ ٩٨ ، (ص ٦٦) .

المحافظة . . وبناء مكتب لتعليم الأولاد . خلال سنة (١٩٩٤م) تبيّن أنَّ عدد طلاب العلوم الشرعية ازداد أكثر عمّا كان عليه في السنوات السابقة ممّا زاد في سرور المسلمين فكان (٣٨) طالباً في المدرسة الثانوية الشرعية ـ غير الطلاب الأحرار ـ وفي العالم الإسلامي يوجد حوالي (٣٠) طالباً في الجامعات الإسلامية المختلفة ، ومن الذين يهتمّون بهذه الدراسة (٢٠٥٠) طالباً وطالبة منهم (١٣٠٠) من الإناث وجميعهم يدرسون في الكتاتيب المنتشرة في هذه المحافظة .

٤ ـ لجنة كومانوفو Kumanovo :

تتألف لجنة هذه المحافظة من (٢٨) شخصاً وهم : (٧) من الخرّيجين الجامعيين ، و(١٠) من حاملي الثانوية الشرعية ، و(٨) لم يتخرّجوا بعد ، و(٣) من حفظة القرآن الكريم . وأما مجال عمل هؤلاء فهو : (١٩) إماماً و(٧) معلمين ، و(مؤذّن واحد) . في هذه المحافظة (٢٣) مسجداً وثلاثة كتاتيب و(٧) جمعيات للمساعدة ، وبلغ عدد الطلاب في سنة (١٩٩٥م) ، (٩٥٠) طالباً يدرسون في المدارس والجامعات ، والأولاد يدرسون في المساجد والكتاتيب ، والعدد بازدياد والحمد لله . .

ومن الأعمال التي قامت بها اللجنة في سنة (١٩٩٥م) أنها استطاعت شراء المكان المناسب لإشادة جامعٍ ثانٍ جديد في المدينة بمساحة (٤١٤) متراً مربّعاً ، لأن الجامع الموجود في هذه المدينة لم يكن يتّسع للمصلين ، فقد استطاعت اللجنة أن تحقق مشروع البناء رغم رفض الحكومة لذلك . .

٥ـ لجنة « ستروغا Struga » :

تتابع اللجنة في هذه المحافظة أعمالها كبقية لجان المحافظات الأخرى ، في المحاضرات ضمن المساجد والمكاتب ، وأيضاً في القناة الخاصة التلفزيونية « كالترينا » ، واحتفلت اللجنة بافتتاح مسجد جديد في قرية « نوفوسيللي » وإصلاح عدة مساجد .

المستوى العلمي :

(٤) من الأئمة يحملون شهادات جامعية ، و(١٢) يحملون الثانوية الشرعية ، و(٣)باختبار إمامي ، و(٩) بدون شهادة ، إنما سبق أن تتلمذوا على أيدي الشيوخ .

المعالم الإسلامية :

هي : المساجد التي يؤمها المصلّون حاليّاً وعددها (٢٨) مسجداً ، و(ثلاثة مكاتب) تعليمية ، ومما يدخل الغبطة في النفوس أن طلاب الدراسة الشرعية في هذه المحافظة زاد عددهم في الثانويات الشرعية ، وعدد آخر من الأولاد يدرسون في الجوامع والمكاتب . .

٦ ـ لجنة « كرُتشوفا KruSevo»

(٣٨) إماماً ، منهم (٢١) ، يداومون بشكل رسمي ودائم .

المستوى العلمي :

(٤) يحملون الشهادة الجامعية ، و(٧) بشهادة الثانوية الشرعية ، (٩) بامتحان إمامي ، و(١٨) بدون وثائق رسمية .

المعالم الإسلامية :

ويوجد في هذه المحافظة (٣٨) مسجداً و(ثلاث) تكايا ، وكل هذه المعالم تعمل وهي في حالة جيدة أما الطلاب الذين يدرسون في المساجد فعددهم (٦٠٠) طالب يتابعون دراستهم في (٢٧) مسجد . .

٧ ـ لجنة « ديبار » Debar :

تتألف هذه اللجنة من (٢٨) شخصاً ، (اثنان) من خريجي الدراسات العليا ، و(واحد) بشهادة جامعية ، و(٢٣) بثانوية شرعية و(٣) من المتقاعدين .

المعالم الإسلامية :

فهي : (٢٨) جامع ، و(تكيّة واحدة) ، وهذه المعالم كلّها بحالة جيدة جداً ، وقد وُضع حجر الأساس لخمسة جوامع أخرى .

الدّراسة الشرعية في هذه المحافظة جيدة ـ والحمد لله ـ فبعض الطلاب يدرس في المدرسة الثانوية الشرعية في العاصمة « سكوبيا » و(اثنان) يدرسان في بلد إسلامي دراسة جامعية ، والأولاد الذين يدرسون في المساجد بلغ عددهم عام(١٩٩٥)م (١٥٠٠) تلميذاً بزيادة كبيرة عن السابق .

٨ ـ لجنة « بريلب » Prilep :

يبلغ عدد أعضاء هذه اللجنة (١٥) عضواً منهم (٤) فقط بشهادة ثانوية شرعية ، أما الباقون باختبار إمامي .

المعالم الإسلامية :

(١٩) مسجداً ، وحمام واحد ، و(تكيّة واحدة) .

في هذه المحافظة يتابع عدد من الطلاب دراستهم الشرعية ، (٦) في المدرسة الثانوية الشرعية في « سكوبيا » ، و(واحد) في تركيا ، و(٥) آخرين خارج البلاد ، وعدد من الأولاد يدرسون في المساجد ومن الجدير بالذِّكر أنَّ هناك محاولات لإحراق المسجد الرئيسي في المدينة ، كما أنهم رسموا شارة الصليب بكثرة على سور المسجد الرئيسي وعلى الباب ، وفي كثير من الممرّات !! .

٩ـ لجنة « تيتوف فيليز » Titov ـ Veles :

يطلق اسم هذه المحافظة باختصار : (ت ، فيليز) ، هذه اللجنة وتتألف من عشرة أئمة ، خمسة منهم يحملون شهادات ثانوية شرعية ، والخمسة الآخرين بامتحانات إمامية .

المعالم الإسلامية :

(١٨) جامعاً ، و(٣) تكايا و(٥) مكاتب تعليمية للأولاد و(٦) مراكز لجمعيات المساعدة ، وأخيراً وُضع حجر الأساس لجامع في قرية « فودوبراتي » وبُنِيَ أيضاً مكتب جديد في قرية « كلوكوفيتس » ، كما تمّ في عام (١٩٩٥م) إحراق جامع « فزلي أحمد » بفعل الأيدي الشريرة وكان هذا الجامع قد بُني في « ت ، فيليز » منذ القرن (١٧)م .

وفيما يتعلّق بالتعليم الديني ، فهو في تقدم ، وعدد الطلاب في ازدياد ، وهنا نذكر أن عدد الطلاب الذين يدرسون في المدرسة الشرعية

الثانوية في « سكوبيا »(٨) طلاب نظاميين و(٤) من الطلاب الأحرار ، ويدرس في الجوامع (٤٠٥) من الأولاد ويتم ذلك في (سبعة) جوامع .

١٠ـ لجنة « أوهريد » Ohrid :

لقد تقدمت الأعمال في هذه السنة عن السنوات السابقة خطوة إلى الأمام بعد أن كانت الحال لا تسرّ ، تتألف لجنة أوهريد من أربعة أئمة ، واحد منهم تخرّج من الجامعة الإسلامية في « سراييفو » وإمامين بشهادة ثانوية شرعية ، والرابع بامتحان اختصاصي .

وبالمناسبة فإن مدينة « أوهريد » مدينة سياحية فيها عدد من المعالم الإسلامية ، وحصلت اللجنة على الموافقة لإصلاح مسجدين هما : « جامع جوجي بك » ، و« حاجي حمزة » . أما الناحية التعليمية فهي ضعيفة وعدد الطلاب الذين يدرسون فهم : واحد فقط يدرس في المدرسة الشرعية ، واثنان يدرسان في المملكة العربية السعودية ، ويبلغ عدد الطلاب الذين يدرسون في المكاتب والمساجد (٦٠) فقط .

١١ـ لجنة « موناستير » (بيتو لا) Bitola :

من المؤلم أنه ليس في المحافظة سوى إمام واحد فقط في المدينة ، وآخر في قرية « كيشافة » والمعالم الموجودة في هذه المحافظة (١٧) مسجداً منها (١٠) في المدينة نفسها ، ولكن الذي يعمل منها (ثلاثة) فقط ، ومن هذه المحافظة ، أربعة طلاب فقط يدرسون في المدرسة الثانوية الشرعية في العاصمة « سكوبيا » .

١٢ ـ لجنة « شتيب Stip » :

تتألف هذه اللجنة من (٢٣) شخصاً ، والمعالم الإسلامية الموجودة في محافظة « شتيب » هي (٢٤) جامعاً ومكتبان للتعليم ، وتكيّة واحدة ، أما طلاّب الدراسة الشرعية فهم : ثلاثة في « سكوبيا » ، وطالب في تركيا .

الجماعة الأوربية تساعد مقدونيا :

إن مكتب المساعدات الإنسانية للجماعة الأوربية « ايكهو » يقوم بتمويل (٢١) مشروعاً في جمهورية مقدونيا اليوغسلافية سابقاً ، وذلك في مجال التموين للطاقة (البترول) والدعم الطبي وتغطية الاحتياجات الغذائية والمواد الضرورية الأولية .

وواحد من تلك المشاريع هو أن « ايكهو » يقوم بتشغيل (٤١) مؤسسة لاستضافة الفئات المهدّدة : (المعاقين والأيتام والعجزة) . ومشروع آخر يهتم بتقديم وجبة طعام ساخنة في المدارس خمسة أيام في الأسبوع لـ (٣٠,٠٠٠) من الفتيان ، وإلى جانب ذلك فإنّ أكثر من (١٦,٠٠٠) عائلة في حالة الفاقة يحصلون على طرود غذائية وعلى ألبسة وحطب للتدفئة .

ويعمل مكتب « ايكهو » أيضاً في سلوفينيا وكرواتيا وصربيا ومونتينغرو(الجبل الأسود) بالإضافة إلى البوسنة والهرسك[١] .

* * *

---

(١) انظر : نشرة المساعدات الإنسانية « إيكهو »/ لكسمبورغ : مكتب المنشورات الرسمية للجماعة الأوربية/ ١٩٩٤م (ص١٣) .

الاتحاد الإسلامي في جمهورية مقدونيا

المدرسة الثانوية الإسلامية

(عيسى بك)

تأسّست الثانوية الإسلامية « مدرسة عيسى بك » بمدينة « سكوبيا » في (١٧ رمضان سنة ١٤٠٠هـ و١١ حزيران ١٩٨٠م . مارست عملها في ٢٠ محرم ١٤٠٥هـ و١٥ تشرين أول ١٩٨٤م) .

هي المدرسة الوحيدة من هذا النوع في جمهورية مقدونيا . تعدّ كوادر دينية بقدر ما يسدّ حاجة الاتحاد الإسلامي في جمهورية مقدونيا ، بل تعدّ كوادر للدول المجاورة لها . للمدرسة سكن داخلي (مهجع) يسع (٢٦٥) طالباً منتظماً . يتكوّن مبنى المدرسة من ثمانية فصول دراسية ، ومختبرين لدراسة اللغة الأجنبية ، ومختبراً لمادة الأحياء ، ومسجداً للمدرسة ، ومكتبة الطلبة ، إضافة للمكاتب الإدارية .

واستناداً لحكم النظافة في الإسلام ، فإن النظافة في المدرسة على مستوى جيد ، فصول المدرسة جميعها مفروشة حسب الحاجة ، ويكون عدد الطلاب في الفصل الواحد ما بين ٣٠ ـ ٣٥ طالباً ، والفصل بمفهومه الفنّي مكمّل للشروط التربوية .

يدرس الطالب طيلة مرحلة الدراسة التي تستغرق أربع سنوات (٢٦) مادة علميّة ودينيّة . بعد تخرج الطالب من المدرسة يقدّم امتحانات نهائية

في المواد الدينية حيث تسجّل في تأهل الطالب . وبعد نيْل الشهادة يمارس الطالب الوظائف التالية : إمام ، خطيب ، واعظ ، ومعلّم .

تُعلِّم المدرسة اللغات الأجنبية وقراءة القرآن الكريم وقواعد التَّجويد بصفة جيّدة ، ويتم ذلك بمختبرين مجهّزين بأحدث الأجهزة لاستيعاب اللغة الأجنبية وبأقصى سرعة وأبسط جهد ، ولتعليم القرآن تُستعمَل الأشرطة المسجّلة لأشهر القرّاء .

مكتبة المدرسة والمسجد :

بجانب الكتب الدراسية التي يؤلفها أساتذة المادة حسب المنهج الدراسي يطالع الطالب في مكتبة المدرسة التي تحوي (٤٠٠٠) عنواناً من الكتب ، وهي مؤلَّفة بلغاتٍ : ألبانية ، تركية ، مقدونية ، بوسنوية ، عربية ، إنكليزية ، وفرنسية .

وفي مسجد المدرسة يؤدّي الطلاب خمس صلوات تحت إشراف المؤدِّبين ، يتعيَّن الإمام والخطيب من طلبة السنتين الثالثة والرابعة ، بينما يتعيّن المؤذّن من طلبة السنتين الأولى والثانية ، وهذا يمكِّن الطالب لأن يضع علْمَه في التطبيق العملي .

في شهر رمضان المبارك يتدرب جميع الطلاب في الجماعات المختلفة بشكل إجباري .

السكن المدرسي :

السكن الداخلي للمدرسة يتكوّن من (٣٥) غرفة للنوم بـ (٢٦٥) سريراً كما يوجد لكل طالب خزانته الخاصة ، يبدأ الطالب راحته في الغرفة اعتباراً من الساعة (٩,٣٠) مساء إلى وقت صلاة الصبح ، حيث

ينهض على صوت القرآن الكريم المسجَّل ، وكذلك يستريح بعد الدراسة من الساعة (١٤,٠٠) إلى الساعة (١٦,٠٠) ظهراً . وبعد الساعة (١٦,٠٠) يتوجّه الطالب إلى المدرسة ليواصل مذاكراته استعداداً لليوم التالي .

مرافق أخرى :

تضم المدرسة مستوصفاً لمعاينة ومعالجة الطالب المريض من قِبَلِ الطبيب الخاص ، كما تضع المدرسة مطبخاً مجهزاً بأحدث الأجهزة ، وتُقدم فيه ثلاث وجبات يومية تحت إشراف الطبيب ، وللمدرسة مطعم يضمّ (١٥٠) كرسياً ويتناول الطالب وجبته تحت إشراف المؤدِّبين الذين يوجِّهون الطلبة بالتوجيهات الإسلامية .

طالبات منتسبات :

بجانب الدراسة المنتظمة ، توجد طالبات منتسبات وعدد كبير منهنّ يتابعن الدراسة الدينية ، مع العلم أنه لا توجد مدرسة دينية للبنات في جمهورية مقدونيا .

حتى بداية السنة الدراسية (١٩٩٤/ ١٩٩٥م) سجّل أكثر من (٣٥٠) طالبة وأكثر من (٢٠) طالبة تخرَّجْنَ وأخذْنَ الشهادة من هذه المدرسة التي مكَّنت لكثير من الطالبات دراستهن بالجامعات المختلفة في العالم الإسلامي كالتي في : القاهرة ، أنقرة ، إسطنبول ، عمّان ، وغيرها .

الشهادة الثانوية الإسلامية :

إن الشهادة الثانوية الإسلامية التي تمنحها مدرسة « عيسى بك » في « سكوبيا » تتعادل مع الشهادات الثانوية الأخرى في جمهورية مقدونيا

وخارجها ، وهي المدرسة الوحيدة من هذا النوع . يتعلّم في المدرسة طلاب مسلمون بغضّ النظر عن قوميَّتهم ، وابتداء من العام الدراسي (١٩٩١/ ١٩٩٢م) ضمّت طلاباً من جمهورية ألبانيا ، بلغاريا ، كوسوفا ، والسنجق ، نستطيع أن نقول بأن المدرسة تلعب دور المدرسة البلقانية ، والدراسة فيها مجّانيّة . . . تضم المدرسة (٢٥) مدرِّساً بتخصّصاتهم المختلفة وما يقارب من (٤٠) عاملاً . تُؤمَّن ميزانية المدرسة من المؤسسات الدينية ، التي تقوم بجمع الزكاة وصدقة الفطر وجلود الأضاحي وغير ذلك من تبرعات المسلمين كالمواد الغذائية والمصروفات المالية . يبلغ مصروف الطالب سنوياً ما يقارب (٣٥٠٠) مارك ألماني . . عِلماً بأَنَّ كثيراً من المسلمين الذين كانوا يعملون خارج مقدونيا رجعوا إلى وطنهم ، وكانوا يُسهمون في مساعدة المدرسة بتبرعاتهم[١] . .

المشيخة الإسلامية وعناصرها :

يوضح رئيس المشيخة « سليمان رجبي » هذا الأمر فيقول : « تجمعنا جميعاً رابطة الإسلام ، ولذلك فكلّنا مسلمون ولا نفرّق بين مسلم وآخر . نعم الألبان يكوّنون (٨٢٪) من عدد المسلمين في مقدونيا ، و(١٨٪) من العناصر المسلمة الأخرى وهم :

الأتراك ، الغجر ، الطوربيش ، البوماك ، والبشناق . ولكننا جميعاً مسلمون ، فمثلاً في مدرستنا الثانوية طلبة من جميع العناصر المسلمة ، بل عندنا طلبة حتّى من بلغاريا ومن البوسنة ومن كوسوفا ، وفي مؤسسات

---

(١) انظر : مجلّة الإسراء العدد (١٩٠) / صفر/ ١٤١٥هـ / آب/ ١٩٩٤م - وأيضاً نشرة وزّعها الاتحاد الإسلامي بمقدونيا .

المشيخة موظّفون يمثّلون جميع العناصر المسلمة ، فالمشيخة في خدمة المسلمين جميعهم .

ما هو انطباع زائر مقدونيا عن المساجد الكثيرة ؟ .

الذي يزور مقدونيا لأول مرّة يأخذ انطباعاً كأنه في دولة مسلمة ، فهل هذا سببه كثرة المساجد الموجودة ؟ .

يقول رئيس المشيخة الإسلامية : « ليس هذا الانطباع على مستوى المسلمين الذين يزورون مقدونيا فقط ، بل على مستوى الدبلوماسيين في أوربا والعالم والذين التقيت بهم للحديث عن المشكلة العامّة الموجودة في مقدونيا ، لم أجد أنني في حاجة لإقناعهم بعدد المسلمين في مقدونيا الذين يزيدون عن نصف عدد السكان ، أي أكثر من (مليون و٣٠٠ ألف نسمة) ، وعلى أي إنسان لا يقتنع بعدد المسلمين هنا ، فليتجوّل في طول البلاد وعرضها ليأخذ الفكرة الصحيحة عن المسلمين في مقدونيا . والواقع يترجمه كثرة المساجد الموجودة . وهذا فخر لنا ، فبرغم ما لاقت منطقة البلقان من هجمات ضد المسلمين بقي الإسلام قويّاً فينا لا يتزعزع . في كل حيّ أكثر من داعية ، والمساجد مملوءة باستمرار ، وحرص كامل على المعاملات الإسلامية وأداء العبادات ، أستطيع أن أقول أَنَّ الذين تجوّلوا في البلقان لم يجدوا الإسلام راسخاً إلاّ عندنا ، وتلك نعمة من الله . ونحن عندما نقول هذا الكلام لا ندّعي ، لقد كان لنا دورنا عبر التاريخ ، مثلاً : أكبر عدد من العلماء في البلقان كانوا ألباناً ومتمركزين في مقدونيا ، ولكن للأسف الشديد الذين مثّلونا في العالم الإسلامي لم يُفلِحوا في نقل الصورة عن حقيقة المسلمين في جنوب يوغسلافيا سواء في منطقة كوسوفا أو منطقة مقدونيا » .

دور مسلمي مقدونيا الإسلامي :

يشرح هذا الدور الشيخ سليمان رجبي فيقول : « صحيح أن البوسنة ، وسراييفو بالذّات مركز معروف لدى العالم الإسلامي لأنه كانت توجد فيها المؤسسة الإسلامية المختصّة التي تمثِّل المسلمين اليوغسلاف ، ولكن لنا دورنا الإشعاعي في المنطقة منذ فجر الإسلام في البلقان » .

علاقة مسلمي مقدونيا مع الطوائف الأخرى :

في هذه العلاقة نسير على ما يأمرنا الإسلام به . نحن لا نسيء إليهم ، ونبعث لهم التهاني في بعض مناسباتهِم وأعيادهم ، ولكننا قرّرنا في عام(١٩٩٣م) قطع علاقتنا الديبلوماسية مع الكنيسة الأرثوذكسية ، لأن مسؤولاً كبيراً بها اتّخذ قراراً ، بوضع الصليب فوق أبراج الساعة بالمساجد التاريخية في مدينة « بيتولا » ولم تعترض الكنيسة ، وكذلك وُضِعَ الصليب على أبراج الساعة في مدينة « بيرلاه » . وقد طلبنا من الكنيسة أن تأمر برفع هذه الصلبان ولكنها لم تفعل .

الدعاة في مقدونيا :

عندنا عدد كاف منهم ، فلدينا ما يزيد عن (٥٠٠) داعية يتمتعون بثقافة إسلامية عالية لأنهم متخرّجون من الكليات الإسلامية بجامعات العالم الإسلامي ، بل عندنا فائض من الدُّعاة لدرجة أننا نرسل منهم إلى « ألبانيا » ، وكذلك نرسل في شهر رمضان المبارك دُعاة إلى « بلغاريا » وبالتحديد منطقة « مقدون بيرن » ، فالحمد لله الدّعاة والمدرّسون والعلماء الإسلاميون متوفّرون ، ونحن أغنى الناس بهم في البلقان . أما

المساجد فعددها (٤٧٠) مسجداً ، وهو عدد كبير ، ونقوم الآن بإنشاء المزيد ، في بعض القرى تجد أن هناك (٣) مساجد في قرية واحدة نظراً للعدد الكبير من سكّانها ، ففي كثير من القرى تصل نسبة المسلمين فيها إلى (١٠٠٪) .

ميزانية المشيخة الإسلامية :

تنفق المشيخة الإسلامية ميزانية ضخمة على النشاط الإسلامي في مقدونيا ويوضّح رئيس المشيخة مصادر هذه الأموال فيقول : « جميعها نحصل عليها من تبرّعات المسلمين . وأننا ننفق على الإقامة الكاملة والدراسة لنحو (٢٧٠) طالباً يدرسون في مدرستنا الثانوية الشرعية . وقد بذلنا جهداً كبيراً لتغطية النقص في الميزانية وأرسلنا مبعوثين لنا إلى هيئات إسلامية ، وهناك مراكز إسلامية في الخارج تساعدنا ، وخاصة مراكز الألبان والأتراك .

وزراء مسلمون في حكومة مقدونيا :

ـ « إن عدد الوزراء المسلمين في الحكومة قليل جداً بالنسبة لحجم السكان ، وهذه حقيقة بالإضافة إلى أنه لا توجد وزارة مهمّة إلاّ واحدة وهي وزارة المالية ، ولكننا نحن نعتبر ذلك خطوة أولى ستليها خطوات بإذن الله ، فمن قبل ، لم يكن لنا أيّ وزير في عهد الشيوعية » .

« ومن المعلوم أن الوزراء المسلمين البعض منهم علمانيون ، ولكن لا ننسى أن سياستهم في تمثيل المسلمين محكومة بمبادىء الحزب السياسي الذي يمثّلونه ، وهو « حزب الرفاه الألباني » ، وهذا الحزب يهمّه ألاّ يخسر أصوات المسلمين » .

العلاقة بين المشيخة الإسلامية والحكومة :

ـ « منذ سقوط الشيوعية وحتى اليوم ليس للمشيخة علاقة على مستوى كبير بالحكومة ، أو بتعبير آخر علاقتنا ليست بالمستوى الذي يجب أن يكون ، لأننا كمشيخة إسلامية نعمل لمصلحة المسلمين ، ونطالب بحقوقهم ، وهذا يمثّل للحكومة مشكلة ، فهم يروْن أننا نطالب بما تطالب به الأحزاب السياسية ذات العنصر الإسلامي ، وإننا بذلك نحشر أنفسنا في السياسة ، وهذا لا يعجب الحكومة ، فهي تقول : إنكم مؤسسة دينية ويجب عليكم أن تقوموا بالمراسيم الدينية فقط ، ولا تتدخلوا في الأمور السياسية والقانونية والاجتماعية .

ونحن بدورنا لا نستطيع أن نبتعد عن طلبات المسلمين ، وعندما انتخبوني كرئيس للمشيخة عاهدت المسلمين الذين أمثّلهم بأنني سأقوم بهذه الأمانة وسأحافظ على مصلحة المسلمين ، ولن يكون هناك تراجع في هذا الأمر ، هناك شيء آخر وهو أن الحكومة تخشانا أكثر مما تخشى الأحزاب السياسية ذات العنصر الإسلامي ، وهم لهذا يستجيبون لبعض طلباتنا ، منها مثلاً : أنهم فرضوا تأشيرة مُسبَقة على من يريد زيارة مقدونيا فقلنا لهم ما دامت الأمور لم تستقرّ بعد في مقدونيا ولم يتمّ فتح سفارات وقنصليات لها في الخارج ، فلا تعترضوا على إخواننا في العالم الإسلامي الذين يأتون كضيوف للمشيخة ، ولا تطالبوهم بتأشيرة مسبقة ، فوافقوا على ذلك ، أيضاً هناك أمل كبير بأن يستجيبوا لطلبنا بمنحنا ترخيص إنشاء كلية للدراسات الإسلامية في مقدونيا »[1] .

---

(١) انظر : المسلمون السعودية العدد (٤٧٤) رمضان / ١٤١٤هـ / مارس/ آذار / ١٩٩٤ (ص ٤) . والنص المكتوب هو ما أدلى به رئيس المشيخة الإسلامية في مقدونيا ، للصحيفة السعودية المذكورة.

جمعية مسلمي البلقان

وخطرها

أكد الشيخ « سليمان رجبي » رئيس المشيخة الإسلامية في جمهورية مقدونيا أنّ ممارسات « يعقوب سليموسكي » ومن معه تمثّل فِتْنةً كبيرةً ليست ضد حكومة « سراييفو » فقط بل ضدّ سائر المسلمين في يوغسلافيا السابقة .

وأعلن رفض المشيخة الإسلامية لما يُسمّى (جمعية مسلمي البلقان) وقال إِنَّها خطر كبير على المسلمين ينبغي كشفُه في حينه قبل أن يستفحل . وقال : « لقد تمّ طرد « سليموسكي » من سراييفو ، لأنه تمّ اكتشاف ممارسته وخيانته ، فقد كان يتعامل مع الصرب ومع البوليس السرّي الصربي ، جاء إلى مقدونيا بعد طرده ، ويتعاون حاليّاً مع الشخصيات البارزة في مقدونيا من غير المسلمين لكي يُشعل الفتنة ويمزِّق الصف الإسلامي ، وأوضح أن مشروع الجمعية الإسلامية الذي يسعى إليه ليكون على مستوى منطقة البلقان ، مشروع خَطِرٌ على الإسلام والمسلمين في هذه الظروف ، فالصرب والكروات يريدون تقليل أعداد المسلمين بالمنطقة ، أو بالأحرى محوهم من البلقان ، وهذا المشروع يمهّد بشكل غير مباشر لتنفيذ ذلك ، خاصة أنه يُعتبر تحريضاً للصرب على ضرب المسلمين في منطقة كوسوفا ومقدونيا » . وفي سؤال الشيخ سليمان :

هل يجد « سليموسكي » مساعدة من السلطات المقدونية في جعل مقدونيا هدفاً لتنفيذ مشروعه ؟ .

- أجاب الشيخ « سليمان رجبي » « بقوله : » نعم إن الحكومة المقدونية تساعده على أعلى مستوى . كما أنه يجد مساعدة كبيرة من وسائل الإعلام المختلفة ويجد رجالاً يشتريهم فالأموال عنده كثيرة ، ويدفع مبالغ كبيرة . وللأسف عندما كان في سراييفو ، كان يتعامل مع البوليس السرّي الصربي ، الآن يفعل الشيء نفسه في مقدونيا وتساعده في ذلك الميزانية الضخمة التي استولى عليها من مشيخة « سراييفو » - عندما كان رئيساً للمشيخة الإسلامية - إنه يعمل سراً بين أوساط المسلمين هنا وبإذنٍ من وزير الداخلية ، وبدعمٍ من رئيس الدولة ، ورئيس البرلمان ، ورئيس أركان حرب الجيش . إنه عملٌ غير إسلامي وسيكون خطَراً على الإسلام والمسلمين ، وقد بلّغنا الدول الإسلامية رَفْضَنا لمشروع هذه الجمعية وطلبنا منهم عدم التعامل معها ، الشيء نفسه فَعَلَته مشيخة « كوسوفا » ، وأعتقد أن مشيختي « كرواتيا وسلوفينيا » فَعَلَتا ذلك أيضاً .

- هل تعرف الهيئات الإسلامية العاملة في أوربا هذا الخطر ، خاصة وأن لبعض تلك الهيئات نشاطاً مهمّاً في يوغسلافيا السابقة لاسيّما البوسنة ، مقدونيا وكوسوفا ؟

يجيب الشيخ « رجبي » : « لقد اتصل بي الدكتور « الفاتح حسنين » رئيس منظّمة إغاثة العالمِ الثالث ، ومقرّها « فيينا » منذُ فترة وطلب منّا نحن مسلمي مقدونيا الحذَرَ من ممارسات « يعقوب سليموسكي » وقال : إن ذلك الرجل يقول إن دوْر ألبان مقدونيا وكوسوفا قد حان ذبحهم مثلما حدث لمسلمي البوسنة ، وذلك تنفيذاً للسياسة الصربية .

.. ومن المعروف أن « يعقوب سليموسكي » هو في الأصل من

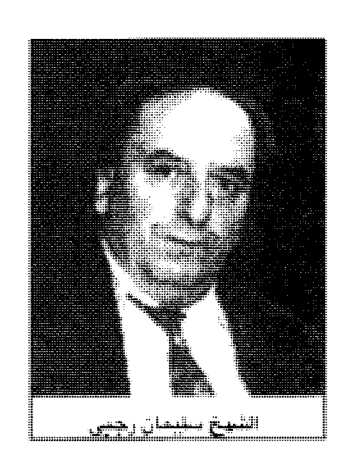
مقدونيا ، ولكنه فَعَلَ أمراً لم يفعله مسلم في مقدونيا من قبل حيث سجّل نفسه حاملاً للجنسية المقدونيّة ، ومعروف ضمناً أن المقدوني معناه (الأرثوذكسي) ، وهي ديانة نصارى مقدونيا ، وهو يقوم بزيارات ، ومحاولات متكررة لمناطق « الطوربيش » ـ وهم المسلمون الذين يعيشون في مقدونيا ـ ويقال عنهم أنّهم مقدون في الأصل واعتنقوا الإسلام مع الفتوحات العثمانية . ويصحبه في هذه الزيارات نائب رئيس الحكومة ورئيس دائرة الأمن ، في محاولة للضغط عليهم لحمل الجنسية المقدونية ، ولكنه يجد الرفض التام منهم ، فكل مسلم هنا يُدرك ماذا يعني أن يكون حاملاً للجنسية المقدونية ، لقد سجّل هؤلاء أنفسهم كألبان أو أتراك ورفضوا مبدأ التسجيل بأنهم مقدون .

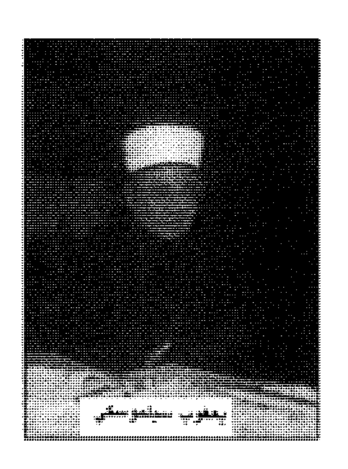
لقد عمل جماعة سليموسكي أشياء سيئة في البوسنة تسببت في وجود صدْعٍ في الجانب المسلم ، وهم الآن يفعلون الشيء نفسه في مقدونيا وكوسوفا .

اتهامات غربية :

تقوم بعض وسائل الإعلام الغربية بإلقاء التُّهم جُزافاً على المشيخة الإسلامية في مقدونيا وتدّعي أنّ رجال المشيخة (أصوليون) ، ولكن هذه التُّهم أيضاً تأتي من داخل مقدونيا ذاتها ، فيقول الشيخ « سليمان رجبي » : « منذ عدّة شهور قامت جهات مختلفة تتهمنا في المشيخة بأننا نقوم بنشاط معيّن لكي توجد ما يسمّى بـ (الأصولية الإسلامية) في مقدونيا وتنشر تلك الجهات على الساحة الأوربية بأن الخطر الإسلامي سيأتي في المستقبل من مقدونيا ، وهذا يلتقي مع مشروع جمعية مسلمي البلقان ، في قناة واحدة ولديهم معرفة دقيقة بمدى تمسّك العنصر الألباني عبر التاريخ بالإسلام ، ويعتريهم خوف أو هاجس بما يمثّله العنصر

الألباني المسلم في المنطقة ، ولذلك نجد أن الدول النصرانية ، مزّقتنا وفكّكتنا عبر التاريخ ، تركوا جزءاً منّا في ألبانيا ، وجزءاً في اليونان ، وجزءاً كبيراً في يوغسلافيا . وإدراكاً من النظام الشيوعي في يوغسلافيا السابقة بقوة العنصر الألباني ، قام « تيتو » بتمزيقنا بين أركان يوغسلافيا ، فترك جزءاً في مقدونيا وجزءاً في كوسوفا ، وجزءاً في منطقة كبيرة في جنوب صربيا ، اسمها : « برشتوا » ، وجزءاً في الجبل الأسود » .


الشيخ سليمان رجبي


يعقوب سيلموسكي

* * *

قراءة تاريخية :

إسكندر ذو القرنين

لقد قيل الكثير في إسكندر ذي القرنين واختلف العلماء والمفسرون في صاحب هذا الاسم . لقد جاء ذكر قصة ذي القرنين في القرآن الكريم في الآية (٨٣) من سورة الكهف ، فهل هو الإسكندر الكبير المقدوني أم هو رجل آخر ؟ .

بحثتُ في بعض المصادر والمراجع الموثوقة وأقوال العلماء والمفسرين فوجدت إجماع معظمهم (المؤلِّف) بأَنَّ ذي القرنين المذكور في القرآن الكريم هو غير ذي القرنين المقدوني وبينهما أكثر من ألفي سنة ، فالأول كان على زمن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وطاف معه في البيت الحرام وكان وزيره الخَضِرُ عليه السلام ، أما الثاني المقدوني فكان قبل عيسى عليه السلام بـ ٣٠٠ سنة . .

وقيل إن إسكندر العربي ينتهي نسبه إلى قبيلة حِميَر من شبه الجزيرة العربية . . ولقد افتخر به أحد شعراء حِميَر فقال :

قد كان ذو القرنين جَدّي مُسلماً　　مَلِكاً علا في الأرض غيرَ مُفنّدِ
بلغ المشارق والمغارب يبتغي　　أسبابَ مُلْكٍ من كريمٍ مرشدِ
فرأى مآب الشمس عند غروبها　　في عين ذي خُلُبٍ وثأطة حَرْمَدِ

الخُلب : الحمأة وهي الطين ـ الثأطة : الحمأة المختلطة بالماء ـ الحرمد : الطين الأسود .

لقد ظنّ الكثيرون أن ذي القرنين المذكور في القرآن الكريم هو إسكندر بن فيليب المقدوني ونحلوه بناء السد كما نحلوه لقب ذي القرنين وكل ذلك بناء على أوهامٍ بأوهام ولا أساس لواحد منها ولا علاقة لإسكندر المقدوني بقصة ذي القرنين المذكورة في سورة الكهف . .

وقيل : إنّه زار الأرض المقدّسة طلباً لعين الحياة . . وقد جرى الخلط بينه وبين المقدوني الذي جاء بعده بعدة قرون . .

أصل اسم إسكندر :

الإسكندر اسم آرامي قديم جعل الإغريق انطلاقاً منه ألكسندروس . . والحقيقة أن اسم إسكندر اسم عربي قديم يعني أصل « الكُندُر » أو روحه « أو أُسُّه » والكندر شجر البخّور أو الصنوْبر . . إنه شجرة عشتار . .

لماذا ذو القرنين ؟

سمّي ذو القرنين لأنّه طاف الدنيا شرقها وغربها ، أو بلغ قرن الشمس من مطلعها وقرن الشمس من مغربها وقيل : إنَّه كان من القلائل الذين بلغوا الجبل المقدّس ذا القمّتين ، فدخل في سراديبه من القمَّة التي تطلع عليها الشمس إلى التي تَغربُ عندها ، وقيل إنه كان له ضفيرتان من الشَعْر ، والضفائر بالعربية تسمّى قروناً ومنه قول الشاعر « عمر بن أبي ربيعة » حيث قال :

فلثمتُ فاها آخذاً بقرونها شُرْبَ النزيف بِبَرْدِ ماءِ الحَشْرَج

النزيف : المحموم الذي مُنِعَ من الماء . والحشرج : ماء من مياه العرب

وقيل : إنه سمّي بذي القرنين لأنّه كريم الطرفين أهل بيتٍ وشرف من

قبل أبيه وأمّه وقيل : لأنّه دخل النورَ والظلمة . وقيل : لأنه مَلَكَ فارس والروم . وقيل : إنَّ لتاجه قرنان . وقيل : ملك الدنيا مؤمنان هما : سليمان ، وذو القرنين . وكافران هما : نمرود الذي ادّعى الألوهيّة على زمن إبراهيم عليه السلام ، وبختَنصّر ، الذي خرّب بيت المقدس وأَهلَكَ بني إسرائيل .

والخلاصة : تكاد تجمع المصادر العربية القديمة على نسب الإسكندر العربي فهو إسكندر بن لطين بن يونان بن حيلان بن يافث بن نوح عليه السلام أما إسكندر بن فيليبس المقدوني فهو غير الذي ذُكر في القرآن الكريم ، ومن أراد زيادة في المعرفة فلينظر في المصادر والمراجع التالية :

١ـ تاريخ سوريا الحضاري/ أحمد داود (ص٧٠٦ـ٧٠٩) .

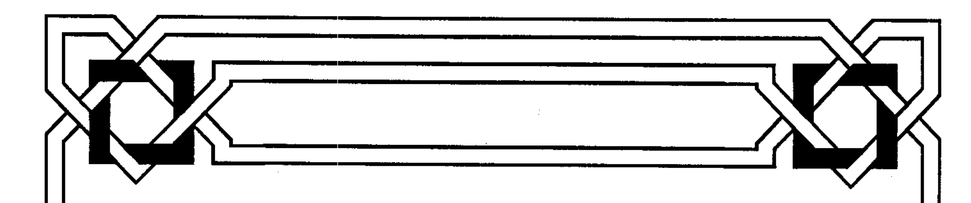
٢ـ فتح القدير/ محمد بن علي بن محمد الشوكاني جـ ٣ ـ ط٢ ـ دار ابن كثير ـ دمشق/ بيروت / ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م (ص٣٦٢ـ٣٦٣) .

٣ـ التفسير المنير/ د . وهبة الزحيلي جـ ١٦ دار الفكر المعاصر ـ بيروت ـ دار الفكر ـ دمشق ط١ / ١٤١١هـ ـ/ ١٩٩١م (ص٢٢) .

٤ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن / أبو جعفر محمد بن جرير الطَّبَري / م ٩ دار الفكر (١٦/ ٨ـ٩).

٥ـ تفسير التحرير والتنوير/ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ـ الدار التونسية للنشر جـ١٦ تونس / ١٩٨٤م (ص١٨ـ٢٣) .

* * *



البحث الثالث

البلغار

ودولة بلغاريا



البلغار

شعب لايُعرف أصله على وجه التحقيق ، تكوّنت منه دولتان في أوائل القرون الوسطى إحداهما على نهر « إيتل ».. الفولغا[١].. ، والأخرى على نهر « الدانوب » ، وقد ورد اسم « البلغار » ، لأول مرّة في القرن السادس الميلادي في التاريخ الكَنَسي لـ « زكريا الخطيب » حوالي ٥٥٥م بين قبائل القوقاز[٢] الرحّل الذين يسكنون الخيام ويقتاتون بلحوم الماشية والأسماك ، ويذكر « يوحنا الأفسوسي Ephesus Johnof » حوالي ٥٨٥م قصة ورد فيها اسم : « خزر وبلغاريون Khazarig /Bulgarioz » انحدر من صلبهما البلغار والخزر ، على أَنَّهما أَخوَان وفي هذا إشارة إلى قرابة هذين الشعبين والتحالف الوثيق بينهما ، وبعد ذلك بعدة قرون ، كانت الرابطة التي بينهما قد انفصمت عُراها منذ أمد طويل ، ولم تعُد حدود كلٍّ منهما تحفُّ بالأخرى ، ومع ذلك نجد « الأصطخري »[٣] يقول : إنَّ لغة

---

(١) إيتل : الاسم القديم لنهر الغولكا يجري في الأراضي الروسية أطول أنهار أوروبا ، على شاطئه « فولغا غراد » ستالينغراد سابقاً ، وفي مراصد الاطلاع : نهر عظيم يمرّ ببلاد الروس والبلغار .

(٢) القوقاز : سلسلة جبال تمتد (١,٣٠٠ كم) بين البحر الأسود وبحر قزوين وتُعتَبر حدوداً فاصلة بين أوربا وآسيا ، ثلوج دائمة ويُطلق اسم بلاد القوقاز على جمهوريات كثيرة منها : أرمينيا وجورجيا وأذربيجان والشيشان وغيرها . .

(٣) الأصطخري : (أبو إسحاق إبراهيم) (ت ٩٥٧م) : رحّالة من علماء الجغرافية المسلمين له « صور الأقاليم وغيره » .

بلغار إيتل تشبه لغة الخزر وهذه الرواية على جانب كبير من الأهميّة ، ذلك لأن هذا الجغرافي يؤكّد وحدة اللغة بين جميع الشعوب التركية من (القرغيز) في الشرق إلى (الغزّ) في الغرب ، ووحدة الأصل التركي للبجاناك أو البشناق ، ويقول الأصطخري : « ويفهم بعضهم عن بعض » ولا يمكن أن تكون لغة الخزر والبلغار هي عين لغة الترك والروس عامّة ، بل لا بدّ أن (البرطاس) كانوا يتكلمون لغة أخرى . . وكانوا يسكنون الأراضي التي بين الخزر والبلغار .

وكانت السهوب الأوروبية الشرقية في القرن السادس الميلادي بما في ذلك حوض « إيتل » تابعة للمملكة التركية البدويّة العظيمة . . ولا يُعرف الآن كيف ومتى زال سلطان هؤلاء الترك عن أوروبا الشرقية . وتذهب المصادر العربية وتتفق معها الروسية ، إلى أن زعيم الخزر كان يحمل اللقب التركي « قاغان » وهو بالعربية « خاقان » ، الروايات التي يوردها العرب عن الحفلات التي كانت تُقام عند اعتلاء كلّ خاقان جديد . . تتفق تماماً وما ذكرته الروايات الصينية عن الحكام الترك في القرن السادس الميلادي . . وقد نستنتج من كل هذا أن مملكة الخزر[1] نشأت مباشرة من الإمارة التركية التي ذكرها الكتّاب البيزنطيون والتي كانت جزءاً من

---

(١) مملكة الخزر : الخزر شعب من قبائل الأتراك ، مدّوا سيطرتهم على منطقة بحر الخزر (قزوين) والقرْم . . قضى على نفوذهم « شعيا توسلاف » ـ أمير « كييف » سنة ٣٥٨هـ ـ ٩٥٤م (المنجد ط١٦ ص٣٣١) ، ومملكة الخزر : يقول عنها المستشرق الروسي « وليم باسيل بارتولد Barthold » والذي يُعتبر حجّة في سعة الاطّلاع على مصادر التاريخ الإسلامي في مملكة الخزر ـ يقول : زالت مملكة الخزر من الوجود عام « ٤٠٧هـ ١٠١٦م » حين هاجمتها القوات البيزنطية والروسية المتحالفة فهزمت آخر ملوك الخزر . . ووقع أسيراً . . ومنذئذ لم يُغْنَ بها أحد . . حتى اليوم . انظر : مجلّة الرسالة ، القاهرة العدد ٩٦٩/ ١٩٥٣م (ص١٠٤ـ١٠٧) والعدد ٩٧٠ (١٤٠ـ١٤١) .

المملكة البدوية العظيمة في القرن السادس الميلادي كما نشأت مملكة القبيلة الذهبية[1] من إمبراطورية المغول العظيمة في القرن ١٣ م ولا بدّ أن الفاتحين في هذه الحالة قد أخذوا لغة حلفائهم الكثيرين ، أو لغة الأقوام الذين تغلّبوا عليهم[2] .

. . ولا تزال معلوماتنا قليلة عن الوقت الذي انفصل فيه البلغار عن إخوانهم الخزر وعن كيفية هذا الانفصال ، وإذا كان صحيحاً ما ذهب إليه « ماركار J. Morqwar » في تفسير « البنجر » وهو اسم يبعث على الحيرة ، فإن « الطَّبَري »[3] يكون قد ذكر البلغار على أنهم أعداء « كسرى أنوشروان » الساساني - إمبراطور الفرس . . وبعد القرن(٧ م) كثرت لدينا الإشارات التي تذكر فروع البلغار الذين استقرّوا على ساحل البحر الأسود وفي الدانوب واتصلوا بالدولة البيزنطية . . كما تراجع فرع آخر من البلغار حتى وصل إلى نهر إيتل الأوسط ؛ ومن الواضح أن ذلك كان بسبب ضغط الأعداء عليهم . حيث اعتنقوا الإسلام ، وظلّوا مدةً طويلة من الزمن طلائع المسلمين ناحية الشمال إلى أن قامت دولة « سيبريا » على نهر « ايرتش والتوبو » .

وليس لدينا سوى قصة واحدة أصيلة عن البلغار في القرن (٤ هـ و١٠

---

(١) القبيلة الذهلية : مملكة مغولية أسّسها « باتوخان » حفيد « جنكيز خان » على نهر الفولغا عام ٦٤٠ هـ - ١٢٤٢م ، شملت سبيريا وجنوبي روسيا وحوض الفولغا وعاصمتها « صراى » انقرضت عام ٩٠٨ هـ - ١٥٠٢م (المنجد في الأعلام ط١٦ ص٣٨) .

(٢) انظر : دائرة المعارف الإسلامية (٤/٨٨ - ١٠٠) .

(٣) الطَّبَري : (علي بن سهل بن رَبَن) (٧٨٥ - ٨٦١) طبيب وكان كاتب السلطان « مازيار » في طَبَرستان ، ثم انتقل إلى سامرّاء ونادَمَ المتوكل العباسي وأَسلم نحو (٨٥٥)م من كتبه : « فردوس الحكمة » .

م) وهي رسالة « ابن فضلان »[1] التي حفظها « ياقوت الحموي[2] ، فقد بعث الخليفة العباسي » المقتدر[3] « ابن فضلان إلى البلغار ، فترك بغداد في الحادي عشر من صفر عام ٣٠٩هـ ـ ٢١حزيران ٩٢١م .

.. يقول ابن فضلان : « إنَّ البلغار قد أسلموا قبل ذهابه ، وأن مَلِكَهم تحدّث إليه ورمى أباه بالكفر . . » ، ولكننا نجد من جهة أخرى أَنَّ كاتباً متقدماً كـ « ابن رُسْته»[4] يصف البلغار ويقول : ووجِّهتِ التحيّات الواجبة لرئيس الوفد عند استقبال الوفد في القصر . ونيط بابن فضلان تعليم البلغار شرائع الإسلام . يدلّنا ذلك على مابذله من الجهود في إعداد الخطبة ، وفي فصل الرجال عن النساء في السباحة[5] .

.. ويقول ابن فضلان أن الملك لقَّب نفسه بعد ذلك بلقب أمير البلغار « في الخطبة ولدينا بالفعل « سكّة » ضُربت في مدينة « سوار » بمعرفة أمير معاصر للخليفة « المقتدر » ، ظهر عليها اسم الخليفة ، وأطلق أمير

---

(١) ابن فضلان : أحمد بن فضلان بن العبّاس بن راشد بن حمّاد ، مؤرّخ ، أوفده الخليفة المقتدر مع البعثة التي أوفدها إلى ملك الصقالبة ، له رسالة عن رحلته ـ هذه ـ نقل عنها الأصطخري والمسعودي وياقوت الحموي .

(٢) ياقوت الحموي : (١١٧٩ـ١٢٢٩م) : مؤرّخ وجغرافيّ . روميّ الأصل . اشتراه تاجر من « حماة » عاش في حلب ، من آثاره « معجم البلدان » و« معجم الأدباء » و« إرشاد الأريب » .

(٣) المقتدر بالله : هو الفضل بن المعتضد ، تولّى الخلافة سنة ٢٩٥هـ ـ ٩٠٨م وقُتل سنة ٣٢٠هـ ـ ٩٣٢م .

(٤) سوسن الرّسّي : أحد أربعة أشخاص كوّنوا الوفد الرسمي لبلاد البلغار ، بالإضافة إلى سوسن مولى نذير الحُرَمي ، تَرْكين التركي ، بارِس الصقلابي ، أحمد بن فضلان ومعهم رسول الصقالبة ، وسوسن يعرف الروسية . . انظر : رسالة ابن فضلان حقّقها د . سامي الدهان ، ط٢/١٩٧٧م ، مديريّة إحياء التراث العربي ، دمشق . (ص٣٢ـ٣٣) .

(٥) انظر : دائرة المعارف الإسلامية (٤/ ٨٨ـ١٠٠) .

البلغار على نفسه « الأمير بارمان » وهناك نموذج من السِّكَّة المذكورة في غرفة النقود بجامعة « سان بطرسبرغ » ـ لينينغراد ـ.

. . وهذه السِّكّة ضربت في « شاش » من أعمال طشقند . .

. . وذكرت روايات « ابن رُسْتة »[(١)] و« البكري »[(٢)] و« الكرديزي » بمعلومات ضئيلة متناقضة عن البلغار وصلت إلى العرب قبل رسالة « ابن فضلان » وذكرت هذه الروايات مساجد ومدارس هناك ، ولكنّها لم تذكر في أيِّ مدينة ، وكان البلغار يشتغلون بالزراعة ويعيشون في الغابات ، وكان (البرطاس أو البرداس) يقطنون الأرض التي بين الخَزَر والبُلغار[(٣)] . .

وانقسم البلغار إلى ثلاثة أقوام ، غير أنّ عددهم لم يبلغ مبلغاً كبيراً فهم لا يتجاوزون (٥٠٠) أسرة إذا تغاضينا عن الأسر الضئيلة الشأن وكانت بلادهم في ذلك الوقت ذات شأن في تجارة الفِراء وهذا هو السبب الذي اجتذب إليها الخزر والروس ، وكانت سفن المسلمين التجارية تصل إلى هذه البلاد وتدفع العشور . كما كان السكان يدفعون الضرائب من الخيل وغيرها . وهناك ضرائب أخرى منها أنه إذا أقدم أيُّ شخصٍ على الزواج فعليه أن يقدم يوم زواجه حصاناً يُضَمُّ إلى خيل الملك ، وهم لا يضربون السكة من المعادن بل يتعاملون بالفراء كما كانوا يتعاملون بالنقود الفضّية التي كانت تأتيهم من بلاد المسلمين يدفعونها ثمناً للبضائع التي

---

(١) ابن رُسْتة : (أحمد) : جغرافيّ من أصل فارسي ، له « الأعلاق النفسية » في تقويم البلدان ، ألّفه (٩٠٣م) .

(٢) البكري : (أبو عبيد) (١٠٤٠ـ١٠٩٤م) مؤرّخ وجغرافي أندلسي ، له « معجم مااستعجم والمسالك والممالك » .

(٣) المصدر السابق نفسه .

يستوردونها من بلاد الروس والصقالبة . كانت بلاد البلغار بين بلاد البرطاس من جهة وبلاد الصقالبة من جهة أخرى .

والصورة التي رسمها ابن فضلان للبلغار وبلادهم أكملُ من غيرها ومما هو جديرٌ بالذكر أنه أطلق اسم الصقالبة على بلغار نهر إيتل (الفولغا) .

.. وتحدّد خرائب بلدة « بلغار سكوي » و« سبنسكوي » في مركز « سبّسك » من أعمال قازان[1] موقع الحاضرة « بلغار » وهذه الخرائب على مسافة (٦,٥) كم من الضفة اليسرى لنهر فولغا وهذا لايتفق مع رواية ابن فضلان تماماً ، كما أشار إلى ذلك « برزين Berzin » . . وقد ذكر الأصطخري مدينتي « بلغار وسوار » وهما قريبتان من بعضهما وخرائبها اليوم بالقرب من « كوز فغيخة » وكان لكل منهما مسجدٌ جامع ، يبلغ عدد سكانهما معاً (١٠,٠٠٠) نسمة تقريباً . .

كانت علاقة ملك البلغار بشعبه أيام ابن فضلان علاقة أبوية أكثر ممّا كانت عند الخزر وبلغار الدانوب ، ويلوح لنا أن مملكة البلغار على نهر إيتل لم تنشأ من المملكة البدوية الكبرى التي قامت في القرن (١٦ م) كما نشأت مملكة الخزر ولم يمتد سلطان الخزر إلى الشمال كثيراً ، ولابدّ أن يكون انفصال البلغار عن الخزر قد تمّ قبل قيام الحكم الخزري في أوروبا الشرقية .

لم يكن التجّار وحدهم هم الذين يزورون بلاد البلغار وقتذاك ، وإنّما كان يزورها كذلك الصنّاع من الأقطار الأسيوية المجاورة ، وكان في بلاط الملك خيّاط بغدادي استقى منه ابن فضلان بعض معلوماته عن المملكة

---

(١) قازان : مدينة روسية على الفولغا أَسَّسها باتوخان وهي عاصمة تتارستان (١,١٠٠,٠٠٠) مركز ثقافي وصناعي رئيسها عام (١٩٩٥م) « منّة يرشامييف » .

وشعبها ،. . يقول « المسعودي »[1] في « مروج الذهب » (١٦/٢) أنّ أحد أبناء ملك البلغار حجّ إلى « مكّة المكرمة » في عهد المقتدر ، أي قبل عام (٣٣٨هـ ـ ٩٣٢م) ، وأنّه اغتنم الفرصة ومرَّ على بغداد وقدّم فروض الطاعة للخليفة .

.. وكان لأمير البلغار « مأمون بن الحسن » في عهد الخليفة « الطائع »[2] حقّ ضرب السّكة.. ولم تضرب السّكة الفضيّة ثانية في بلاد البلغار إلاّ قبيل غزوة المغول في عهد الخليفة « الناصر »[3].. ويقال : إن الروس غزوا أراضي البلغار والبرطاس والخزر كلّها وتركوها خراباً بلقعاً . وفرّ الذين نجوا من القتل إلى خارج بلادهم ، واضطرّ هؤلاء الفارّون بعد ذلك إلى عقد محالفة اتفقوا فيها على أن يعودوا إلى أوطانهم وأن يعيشوا تحت سلطان الروس .

.. ومن المرجّح بوجه عام أن البلغار أفادوا من الحملات الروسية على الخزر أكثر ممّا خسروا ، وتشير الحوليّات الروسية بوضوح ، شأن المصادر العربية ، إلى أنّ مملكة الخزر امتدت كثيراً نحو الشمال الغربي وكانت أقوى كثيراً من مملكة البلغار في القرن (٤ هـ ١٠ م) ولم يكن البرطاس وحدهم الذين يدفعون الجزية للخزر ، بل كان يدفعها كذلك

---

(١) المسعودي : « أبو الحسن علي » (ت ٣٤٦هـ ـ ٩٥٧م) مؤرّخ ورحّالة من أهل بغداد ، من ذرية الصحابي ابن مسعود رحل إلى بلادٍ كثيرة وأقام في مصر وتُوفِّي فيها ، اشتهر بتاريخه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » . ومن كتبه الأخرى « التنبيه والإشراف » .

(٢) الطائع : الطائع لله (عبد الكريم بن المطيع) : الخليفة العباسي ٢٤(٣٦٣ ـ ٣٨١هـ/ ٩٧٤ ـ ٩٩١م).

(٣) الناصر : الناصر لدين الله (أحمد بن المستضيء) الخليفة العباسي ٣٤(٥٧٥ـ٦٢٢هـ/ ١١٨٠ـ١٢٢٥م) ، وضع حدّاً للتسلّط السلجوقي ، اشتهر بالحزْم .

صقالبة « ويتخه Wjatichci » الذين يسكنون ماوراء البرطاس على نهر « أوقا OKA » ، وفي هذا الموضع تَحارَب البلغار والروس واستولى البلغار عام « ١٠٨٨ » على المدينة الروسية « مُروم Murom » التي على نهر « أوقا » . . واستولى البلغار عام « ١٢١٨م » على مدينة « استجك Ustjug » وهي بعيدة ناحية الشمال . . وكان « الباشغرد »[١] خاضعين للبلغار . . ويقول المؤرخون المسلمون :

إنَّ سقوط مملكة البلغار وتدمير عاصمتها حدث في خريف ١٢٣٦م بينما المؤرخون الروس يقولون ١٢٣٧م[٢] .

المغول يعبرون الدانوب :

. . في يوم عيد الميلاد من سنة ١٢٤١م عَبَر « باتوخان ـ حفيد جنكيز خان ـ نهر الدانوب الذي كان متجمّداً لشدة البرد ، وسرعان ما استولى على مدينة » جران « وأغار على بلغاريا في ربيع عام ١٢٤٢م وسار من هناك في شتاء ١٢٤٢ ـ ١٢٤٣م مخترقاً الأفلاق والبغدان[٣] إلى إقليم الفولغا مرة ثانية .

ولم يُهزَم جيشه مرّة واحدة في روسيا أو غربي أوروبا . . ولم يشترك

---

(١) الباشغرد : . . كانوا يسكنون ما يُعرف الآن بناحيتي « أوفا وأورنبورغ Ufa وOrnburg . . وهي على مسافة ٢٥ يوماً من المجر ، وكان الباشغرد خاضعين للبلغار وظلّوا وثنيّين . . وأسلم بعضهم في القرن ١١ وظلّوا خاضعين للبلغار إلى أن جاء التَّتر فأسلم معظمهم . . وفي القرن ١٦ الميلادي أصبحوا أمة إسلامية بالمعنى الصحيح . . انظر : د ـ المعارف الإسلامية (٣/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧) .

(٢) انظر : المصدر السابق (٤/ ٨٨ـ١٠٠) .

(٣) الأفلاق والبَغْدان : إقليمان يؤلِّفان القسم الأكبر من جمهورية « رومانيا » .

« باتوخان » في أيِّ حرب بعد سنة ١٢٤٣م[١] .

ومملكة بلغار نهر إيتل هي : جزء من مملكة القبيلة الذهبية التي أَسَّسها المغول.. وفي غزوة « تيمور »[٢] عام (١٣٩٥م) لم تؤثِّر في البلاد التي ناحية الشمال ، ولكن الروس خرّبوا بلاد البلقان بعد ذلك عام (١٣٩٩م) . ويمكن أن تكون قد تأثَّرت عاصمة البلغار بظهور مدينة « قازان » التي أَسَّسها « باتوخان » قبيل ذلك ، وخاصة لأن « قازان » ، اختيرت لتكون قصبة دولة تترية مستقلّة . ولعلّ « أولو محمّد » المتوفي عام (١٤٤٦م) ، هو الذي أنشأ هذه الدولة ، وضُرِبَت في عهده عام (٨٣١هـ ـ ١٤٢٧ ـ ٢٨م) آخر سكّة عليها اسم مدينة بلغار . وانتقلت شهرة البلغار باعتبارها أهمّ سوق في المجرى الأوسط لنهر إيتل ، أولاً إلى « قازان » ثمّ إلى « نزنك نوفغراد Niznig Novgrad » الروسية ، وظلّت كلمة البلغار إلى عهد متأخر ، وفي المصنّفات على أنها اسم إقليم ، وقد صنّف « شرف الدين حسام الدين البلغاري » حوالي نهاية القرن (١٠هـ ـ ١٦م) تاريخاً لبلاده باللغة التركية عنوانه « رسالة تواريخ بلغارية » وورد في الكتاب نفسه تاريخ ذلك/ وهو (٩٨٩هـ ـ ١٥٨١م) ؟

.. وتدل الكتابات الموجودة بين أطلال مدينة البلغار ، على أن هذه

---

(١) انظر « د . المعارف الإسلامية (٤/ ٨٨ـ١٠٠) .

(٢) تَيْمور : هو تَيْمورلَنْك أو تيمور الأعرج : (١٣٣٦ـ١٤٠٥م) ، ولِد في « كش » من أعمال ماوراء النهر ملك المغول ، حفيد « جنكيز خان » ، فاتح شهير اعتلى العرش (١٣٧٠م) ، أخضع البلاد ، غزا روسيا والهند خَرَّب بغداد (١٣٩٢ـ١٤٠١م) ، انتصر على السلطان بايزيد الأول في أنقرة (١٤٠٢م) اتّخذ « سَمَرْقَنْد » عاصمة له وجمع فيها العمال والمَهَرة والفنانين والعلماء من كلّ البلاد التي فتحها ، فازدهرت فيها الفنون والعلوم . (المنجد في الأعلام ط١٦ ص١٨٩) .

ودخل دمشق فجعل عاليها سافلها عام (١٤٠١م) . (التقويم/ أكرم العلبي ، دار المصادر بيروت) ط١ (١٩٩١م ص٢٢٩) .

المدينة قليلة الشبه بمدينة البلغار التي زارها « ابن فضلان » ، وقبور هذه المدينة ترجع إلى القرنيْن (٧ و٨ هـ ـ ١٣ و١٤ م) ، . . أهمّ مباني هذه المدينة في وسطها وهي : مسجدان جامعان لكل منهما مئذنة تجاوره ، وبالقرب منهما حمّام ، يقول « برزين » أنّه لا يشوّه المدينة . . ويستنتج « برزين » من سعة المسجدين أن سكّان المدينة بلغوا (٥٠,٠٠٠) نسمة ، وتقوم الجمعية التاريخية الأثرية الأثنوغرافية في « قازان » ـ الآن ـ بالمحافظة على هذه الأطلال والعناية بها .

ودَرَجَ الأهالي الحاليّون على استعمال أحجار الآثار القديمة في تشييد مبانيهم ، ولا نرى الآن معظم النقوش التي أمر « بطرس الأكبر »[1] بنقلها عام (١٤٢٢م) .

وتوجد إلى جانب الكتابات الإسلامية التي على شواهد القبور الموجودة بين أطلال هذه المدينة . . وتلك الكتابات كانت أكثرها بالعربية ، وإن كان بينها ما كُتِب بالتركية ويقول « أشمرينAshmarin » أن هـذه الكتـابـة التـركيـة لا تعـود إلـى العهـد التتـري ، بـل إلـى العهـد « الغوشي » . وعلى هذا الأساس بُنيت النظرية التي قال بها « كونيك Kunik » ودعمها « أشمرين » وهي أن اللغة البلغارية القديمة كانت لهجة تركية شبيهة بلغة الغواش ، وإِذاً فلابدّ أَنَّ نعتبر أن هؤلاء الغواش قد انحدروا ، من بلغار نهر إيتل .

ويؤكد « كورش F. Korsh » بحقّ أن هذه المسألة لا يمكن القطع بها إلاّ إذا فُسِّرت أهم المواد المتعلقة بهذا الموضوع تفسيراً مقْنِعاً ، وهذه المواد

---

(١) بطرس الأكبر : أَسَّس مدينة « سان بطرسبورغ » لينينغراد الروسية ، على مصبّ نهر « نيفا » في خليج فنلندا عام (١٧٠٣م) كانت عاصمة روسيا قبل موسكو حتى عام (١٩١٧م) .

هي الأرقام الصقلبية فيما يعرف بجريدة(أمراء بلغار الدانوب) المكتوبة بلغة الغواش[1] . .

. . ويقال أن بلغاريا وولايات مقدونيا المجاورة لها كانت مهداً للغات الصليبية القديمة وكانت لغات البلغار أغناها جميعاً ، وهي لغة الكتاب المقدّس للكنيسة الصقلبية اليونانية والواسطة العظمى للعلوم الدينية في أراضي الصقالبة القديمة[2] .

* * *

(١) انظر : دائرة المعارف الإسلامية (٤/ ٨٨ـ١٠٠) .

(٢) انظر : دائرة المعارف/ بطرس البستاني ، دار المعرفة ـ لبنان ، ١٨٨١م (٥/ ص٥٦٧) .

بلغاريا القديمة

فذلكة تاريخية :

كانت البلاد التي نسميها اليوم « بلغاريا » مأهولة منذ العصر الحجري المتوسط ولكن حياة هؤلاء الناس وغيرهم من الشعوب التي توالت بعدهم ليست معروفة بالتفصيل .

. . جرى للمرة الأولى ذكر سكان الأراضي البلغارية إبّان القرنيْن (٧ و٨) ق .م ، في الميثولوجيا والملاحم اليونانية التي نوّهت بالعلاقات القائمة بين قدماء اليونان والقبائل التراقية . . وكان التراقيون ـ كما وصفهم « هوميروس »[١] : مربّين جيّدين للخيول يزرعون باجتهاد أرضهم ذات التربة الخصبة . . وفي مطلع القرن (٥) ق .م تجمعت عدة قبائل تراقية لتشيّد دولة « تراقيا »[٢] وبدأ هؤلاء يُسهمون بنصيب فعّال في الحياة السياسية لحوض البحر الأبيض المتوسّط ، وامتدت دولتهم إلى الدانوب ، وفي الجنوب إلى بحر إيجة ، وأنشؤوا مدنيّة متميّزة ، وإلى هذه الفترة تعود القبور المخروطية الشكل التي اكتُشِفت في بلغاريا .

---

(١) هوميروس Homiros : (القرن ٩ ق .م) . ولد في آسيا الصغرى . شاعر ملحمي يوناني ، قيل إنّه كان أعمى ، نُسِبَتْ إليه أشعار « الإلياذة » والأوديسة « التي أثّرت كثيراً على الشِّعر .

(٢) تراقيا Thrace : منطقة قديمة في جنوب شرقي أوروبا ، قسمان : غربي يتبع اليونان وشرقي تركيا الأوربية .

ولكنّ ازدهار « مقدونيا » « وقوّتها في ظلّ « الإسكندر الكبير »[1] وضعا حدّاً لانطلاقة الدولة التراقية . وقد استعاد التراقيون حريّتهم . غير أنّهم لم يتوصّلوا إلى استعادة عظَمتهم . ففي القرن (٣) ق . م . شهدت أوربا انبثاق قوّة جديدة هي « روما » التي أخذت توجّه أنظارها ـ بعد سقوط « قرطاجة »[2] نحو العالم الهيليني (اليوناني) حوالي منتصف القرن(الأول) ق . م . وبعد مقاومة عنيدة دامت قرابة مئتي سنة ، احتلّت « روما » جميع الأراضي التراقية في شبه جزيرة البلقان ، وجمعتها في ولايتيْن ، وهكذا ، في واقع الأمر ذاب القسم الأكبر من التراقيين في بيئتهم الجديدة بفعل الضغط الإداري والاجتماعي ، والتأثير المزدوج للثقافتين : اليونانية والرومانية . وظلّ ـ مع ذلك ـ حبّهم للحرية متألقاً ، ويكفي أن نذكر بأن « سبارتاكوس » ـ قائد أول ثورة كبرى للعبيد ضدّ الإمبراطورية الرومانية ـ كان تراقيّا[3] ـ .

* * *

---

(١) الإسكندرر الكبير : (٣٥٦ ـ ٣٢٣ق . م) أشهر الغزاة الفاتحين ، لقب « ذو القرنين » ابن « فيلبس » ملك مقدونيا انظر : بحث مقدونيا .

(٢) قرطاجة أو قرطاجنّة : مدينة فينيقية قديمة في إفريقية الشمالية أسّسها « أليسار » أو « ديدون » بضاحية تونس .

(٣) انظر : موجز تاريخ بلغاريا / برنسور نيكولاي/ ترجمة : أحمد سليمان الأحمد ، دار الثقافة دمشق .

البلغار في البلقان

.. في شمال القسطنطينية (إسطنبول) بحر مضطرب من الخلائق ، يحتقرون الآداب ، ويحبّون الحرب ، ولم تكد موجة « الهون »[1] تتراجع حتّى أقبلت من « التركستان » خلائق أخرى جديدة تَمُتُّ إليهم بِصِلة الدم ، يُدعوْن « الآفار » مخترقين جنوب روسيا في عام (٥٥٨م) واستقرّوا جموعاً وهم « الصقالبة »[2] وأغاروا على ألمانيا حتى « منطقة الألب »[3] عام(٥٦٢م) ودفعوا « اللّومبارد »[4] أمامهم إلى إيطاليا عام (٥٦٨م) ، وعاثوا في بلاد البلقان فساداً ، وبَسَطَ « الآفار » سلطانهم على البلاد الممتدة من بحر البلطيق إلى البحر الأسود ، وحاصروا القسطنطينية عام (٦٢٦م) وكادوا يستولون عليها ؛ وكان عجزهم عن

---

(١) الهون أو الهياطلة : شعوب آسيوية من غُزاة العالم القديم ، أصلهم من سيبيريا ومنغوليا . دفعوا أمامهم شعوباً بربرية أخرى وبلغوا الدانوب نحو (٤٠٥م) ـ غزوا الإمبراطورية الرومانية واستقرَّ بعضهم فيها واندمجوا بشعوبها . اشتهر منهم « أتيلا » م الأعلام ط١٩ (٦٠٣) .

(٢) الصقالبة Slavs : مجموعة الشعوب المنتشرة في أوربا الشرقية والوسطى نحو (٢٧٥ مليون) . المصدر السابق (٢٤٦) .

(٣) منطقة الألب : أكبر سلسلة جبال في أوربا تمتد من المتوسط حتى النمسا عبر فرنسا وإيطاليا وسويسرا ويوغسلافيا وألمانيا بطول (١٠٠٠كم) . . (المصدر السابق (ص٦١) .

(٤) اللومبارد: نسبة لمنطقة « لومبرديا Lombard : وهي بشمال إيطاليا بسفح الألب بين سويسرا وبحيرات : ماجيورة وكوموغاردا ونهر « بو » عاصمتها « ميلانو » (م سابق ص٥٠٠) .

ذلك بداية اضمحلالهم ، فغلبهم « شارلمان »[1] على أمرهم عام (٨٠٥م) وما لبثوا أن امتصّهم البلغار والصقالبة شيئاً فشيئاً .

وكان في أصلهم خليطٌ من الدَّم الهوني والأجري (Ugrian) والتركي ، وكانوا ـ قبل ذلك الوقت ـ يكوّنون جزءاً من إمبراطورية الهون في الروسيا ، وأقام فرع منهم بعد موت « أتيلا Atilla »[2] مملكة لهم « بلغاريا القديمة » على ضفاف نهر (الفولغا Volga) (إيتل) حول مدينة « قازان » ـ الحالية ـ وأَثْرت عاصمتهم « بلغار Bolgar » من التجارة النهرية ، وظلّت مزدهرة حتى خرّبها التتار في القرن (١٣ م) ، وكان قد هاجر فرع منهم في القرن (٥ م) نحو الجنوب الغربي إلى وادي (الدّون Don)[3] وعبرت إحدى قبائل هذا الفرع وهي قبيلة (اليوتغر Utigurs) نهر الدانوب[4] عام (٧٦٩م) وأسّست مملكة بلغارية ثانية في (موئيزيا Moesia) واسترقّوا مَنْ فيها من الصقالبة ، وأخذوا عنهم لغتهم وأنظمتهم ، وآخر الأمر امتصّهم العنصر الصقلبي[5] .

---

(١) شارلمان أو شارل الكبير Charlemagne : (٧٤٢ ـ ٨١٤م) ملك الإفرنج وإمبراطور الغرب ، مؤسس السلالة الكارولية ، جعل « إكس لاشايل (آخن) عاصمة له . . أقام علاقة تجارية مع الشرق ـ (تبادل الهدايا مع الخليفة العباسي (الرشيد) الذي أهداه ساعة تعجَّب منها) ـ انظر : م الأعلام ط١٩ (ص٣٢٧) .

(٢) أتيلاّ Attla : ملك الهون (٤٣٢ ـ ٤٥٣م) اشتهر بغزواته البربرية ، اجتاح « بيزنطة » والإمبراطورية الرومانية . . دحر « آيتيوس » عام (٤٥١م) نهب مدن إيطاليا وعفا عن روما انهارت مملكته بموته (المصدر السابق ص٢٦) .

(٣) الدّون Don : نهر في روسيا ينبع جنوبيّ موسكو . . يصبّ في بحر « آزوف » على البحر الأسود (م سابق ص٢٥١) .

(٤) الدانوب أو (الدونا) Danube : نهر في أوربا الوسطى والشرقية ، هو (الطونة) قديماً .

(٥) انظر قصة الحضارة (١٣/ ١٩٣ ـ ١٩٤) .

البلغار في دائرة معارف القرن العشرين

الأصل والتاريخ :

أصل البلغار من (آسيا) فقد كانوا يقيمون في (سارباسيا) الآسيوية في غرب (نهر الفولغا) أسلم بعض هذا الشعب وصارت له علاقات مع الشرق واندمج في المملكة الروسية ، وهاجر بعضه الآخر ، نحو (نهر الدانوب) ونزل بجواره ، وأخذ المهاجرون يشنّون الغارات الشعواء على مملكة الرومان الغربية التي كانت قد ضعفت بتوالي الفتن الداخلية ، وفي سنة (٤٩٩ و٥٠٢م) هزموا جيوش إمبراطور الرومان « أناستازا » ، ووصلوا في تعقُّبِها إلى « القسطنطينية » ، فلم يسعِ الإمبراطور إبعادهم عنها إلا بالمال ، وأخذ أباطرة الرومان يفكّرون في وسيلة لردِّ عاديَتِهِم عن بلادهم ، فأحدثوا سوراً جديداً للقسطنطينية ، فلم يمنعهم هذا السّور بل جاوزوه في عهد « جوستنيان » وهدّدوا القسطنطينية « من جديد ولكن الجنرال الروماني « بليزير » هزمهم شرّ هزيمة بقوّة السيف وشتّتهم في البلاد .

وقع البلغاريون تحت سيادة « الأفاريين » الذين كانوا قد جاؤوا من (آسيا) ثم تخلّصوا من نيْرهم ، ولم تأتِ سنة (٦٧٩م) حتى كان للبلغاريين مملكة مستقلة واقعة بين نهر الطونة (الدانوب) وجبال البلقان ، ولكن عزّ على إمبراطور الرومان أن تقتطع هذه الأمة لنفسها

قطعة من أحسن موضع في إمبراطوريته ، فدخل معها في حرب مستمرّة ، فأراد « جوستنيان الثاني » إمبراطور الرومان ، أن يبيد هذه المملكة الناشئة ، فضرَبها أولاً ضربات متوالية سنة (٦٨٨م) ولكنَّ جيوشاً كثيفة من المتوحشين قابَلَته في ممرّ (رودوبا) ، واضطرته إلى الاعتراف باستقلال البلغاريين ، ولمّا ثار الشعب الروماني على الإمبراطور « جوستنيان الثاني » التجأ هذا الإمبراطور إلى بلغاريا وكان ملكها آنذاك « تيربليس » فأجاره ، ثم لما رجع « جوستنيان » إلى ملكه ، تقاضاه أجر هذه الحماية ، بأن يملأ اليد اليمنى من كل جندي من جنوده ذهباً واليسرى فضّة ، ولما تولّى « كورموس » مُلْكَ بلغاريا شرع في الغارة على مملكة الرومان ليحمل الإمبراطور « كونستانتين » على إعطائه الجزية التي فرضها عليه فاتفق أن ثارت عليه جنوده فقتلوه وجعلوا المُلْكَ بالانتخاب بعد أن كان بالوراثة[١] .



(١) انظر : دائرة معارف القرن العشرين/ محمد فريد وجدي/ (٢/ ٣٤٠/ ٣٤٢) .

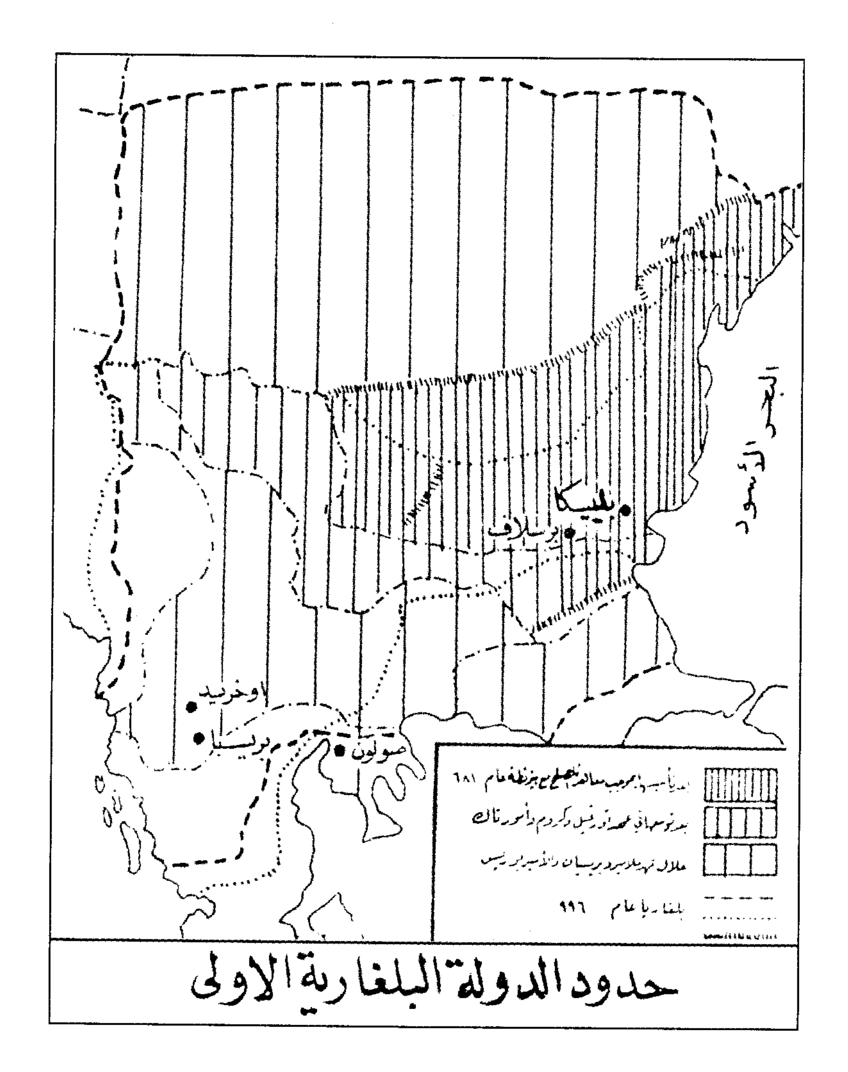
دولة بلغاريا

هي بين اليونان والمجرى الأدنى لنهر الدانوب ، أخذت اسمها من أحد فروع شعب البلغار ، وقد أنشأ هذه الدولة بعد سقوط إمبراطورية الهياطلة العظيمة ، ـ بقايا المغيرين الذين طُردوا من مجرى الدانوب الأدنى إلى سهوب روسيا الجنوبية . . وخاصة القبيلة التي عبرت الدانوب عام (٧٦٩م) تحت إمرة (إسبريه أو إسبروخ Isperich) بن (كوبرات Kubrat) ، وأسَّسوا مملكة قوية بعد فتح الأقاليم التي يسكنها الصقلب .

واستطاعت هذه القبيلة ـ على قلّة عددها ـ أن تفرض اسمها على الأقاليم ثمّ اندمجت ـ آخر الأمر ـ في السكان الأصليين واستطاع النفوذ الإسلامي أن يمتدّ إلى البلغار منذ منتصف القرن (٩)م ، وقد يكون هذا النفوذ أقدم من ذلك لو أخذنا برأي (بُرى Bury) : وهو أن البلغار استعاروا (السنة القمرية من العرب في القرن (٧)م ، واعترض « ماركار Marqar » على هذا الرأي ، ومهما يكن الأمر ، فإن الإسلام لم يصبح دين الدولة الرسمي ، بل المسيحية التي أدخلها « بوريس Boris » عام (٨٦٤م) ، وتخضع الكنيسة البلغارية لبطريق القسطنطينية ، وإن كانت في الوقت نفسه قد اصطنعت القدّاس الصقلبي[1] .

---

(١) انظر : د : المعارف الإسلامية (٤/ ١٠٣ ـ ١٠٥) .



الدولة البلغارية الأولى في القرن السابع عشر والتابعة لبيزنطة حسب معاهدة صلح (٦٨١م) ثم توسّعها حتى عام (٩٩٦م) .

* * *

المملكة البلغارية
في القرن الثالث عشر

ظلّت بلغاريا ، التي كانت من قبل دولة قوية في عهد « كروم Krum » وسيميونSimeon « (٦٨) عاماً ، وبقيت خاضعة لبيزنطة (١٠٠) عام . ووجد من يعبّر عن تذمّر » البلغار والفلاخvlach « ـ أهل ولاشيا Wollochia ـ في شخص الأخويْن » يوحنا وبطرس آسن « وكان لهما من الدَّهاء والشجاعة ما تتطلبه ظروف ذلك الوقت ، وما تحتاجه البلاد ـ ودعا الأخوان : أهل « ترنوفا Trnova »[1] إلى كنيسة القديس « ديمتريوس » وأقنعاهم بأن هذا القديس غادر مدينة « سالونيك » اليونانية ليتَّخذ « ترنوفا » موطناً له ، وأَنَّ في وسع بلغاريا إذا انضوت تحت لوائه أن تستعيد حريتها ، وأفلحا في بلوغ هدفهما وقسّما الدولة الجديدة تقسيماً ودّياً بينهما ، فاتخذ « يوحنا » ، (ترنوفا) مقراً لحكمه ، واتخذ « بطرس » ، (برسلاف Preslav) ، وكان أعظم مَلِكٍ من نسله ، وفي تاريخ بلغاريا كله ، هو : « يوحنا آسن الثاني » (١٢١٨ ـ ١٢٤١م) ، ذلك أن هذا الملك لم يضمّ إلى مُلْكِهِ (تراقيا ومقدونيا وأبروس وألبانيا) فحسب بل حكم هذه البلاد حكماً عادلاً ، أحبّه من أجله رعاياه من اليونانيين أنفسهم ، وكسب رضاء البابوات بإظهار الولاء لهم ، وبإغداق

(١) ترنوفا : من المدن الشهيرة في بلغاريا عاصمة للمملكة سابقاً .

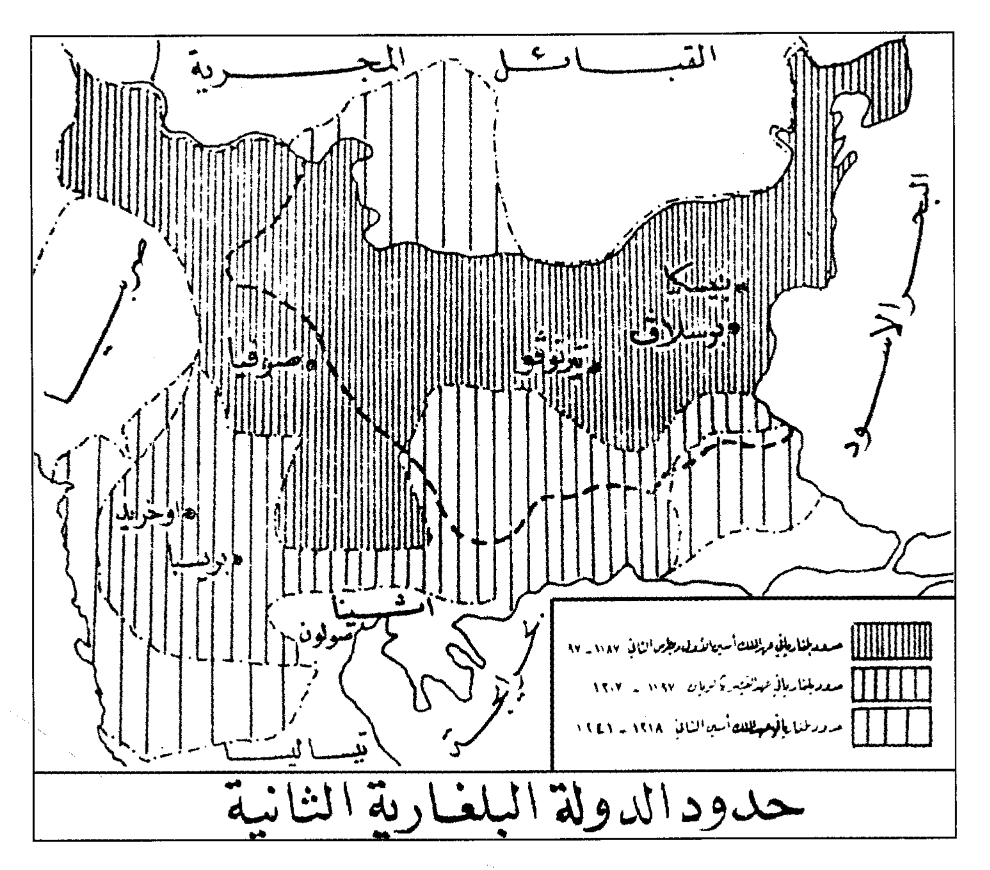
الأموال على الأديرة ، وشجّع التجارة ، والآداب ، والفنون بمناصرتها ، وبما سنَّه لها من القوانين المستنيرة وجعل (ترنوفا) من أكثر مدائن أوربا جمالاً ، ورفع منزلة بلغاريا في الثقافة والحضارة إلى مصافِّ معظم الأمم الراقية في تلك الأيام ، لكن خلفاءه على العرش لم يرثوا منه حكمته ، وأشاعت غزوات المغول الاضطراب في الدولة ، وأضعفتها (١٢٩٢ ـ ١٢٩٥م) وأدّى ذلك إلى خضوعها في القرن الرابع عشر إلى « الصّرب » أولاً ، ثم إلى « العثمانيين » فيما بعد[1] .

من هذا الحين توالت هزائم البلغاريين أمام الرومان حتى ضعف أمرهم واستخفّ بهم جيرانهم ، حتى أنه في عهد « بانمان » سنة (٧٦٣م) داهم بلغاريا جيش « كونستانين » إمبراطور الرومان ودخل البلاد مُوقِعاً الرعب في قلوب أهلها ثم خرج منها دون أن يستفيد من فتوحه هذه ولما تولّى الملك « تيهريك » دخل تحت حماية « القسطنطينية » وتمذهب بمذهب إمبراطور الرومان وتزوج ابنة أخي الإمبراطور .

أما الملك « كروم » البلغاري فقد كان عصره من أكبر عصور بلغاريا شأناً ، فقد استولى سنة (٨٠٧م) على سارديكا (صوفيا) وذبح فيها (٦٠٠٠) رجل ، وبعد أربع سنين حاصر جيشاً يونانياً في بعض الوديان وأعمل فيه السيف على شكل مذبحة عامّة ، ذَبح فيها الإمبراطور « نيسيفور » مع جميع قوّاده ، وفي سنة (٨١٥م) هَزَم الإمبراطور « ميشيل » وتعقَّبَه في « أدرنه » إلى أبواب « القسطنطينية » ، فلما مات « كروم » تأَخَّر دمار مملكته إلى عدة قرون ، وفي عهد « بوريس » انتشرت الديانة المسيحية في بلغاريا . ظهر على هذه الأمة آثار الإعياء عقب قرون عديدة صرفتها في سفك الدماء والعدوان على المجاورين لها ، فرأت أرملة

(١) انظر : قصة الحضارة (١٥/ ١٦١ ـ ١٦٢) .

« بازيلاسي » سنة (١٠١٨م) أن تضع بلغاريا تحت حماية مملكة الرومان وكان ذلك في عهد الإمبراطور « بازيل » فكان يرسل لحكومتها الدوقات ، فاختلط البلغار من ذلك العهد بـ (السلاف والأنتيين) فتركوا لغتهم الأصلية وتكلَّموا بلغة (السلاف) ، وبعد مضي (١٦٧سنة) أي في سنة (١١٨٦م) استردت هذه الأمة استقلالها فحكمتها عائلة (الأسانيد) وكانت مع اليونان والرومان والهنغار ، والتتار في حروب مستمرّة إلى سنة(١٣٨٩م)[1] . حيث الجيوش العثمانية قد دخلتها . .



الدولة البلغارية الثانية بعد توسعها وحكمها من قبل الأخوين يوحنا وبطرس آسن .

---

(١) انظر : المصدر السابق (ص٢٤٢ ـ ٢٤٦) .

العثمانيون

مراجعة تاريخية :

بضغط من المغول هربت قبائل الأتراك باتِّجاه بلاد الروم خلال القرن الحادي عشر الميلادي ، حيث بدأت في تثبيت أقدامها في بلاد الأناضول ، ثم عملت على تشكيل إمارات تركيَّة على سواحل بحر مرمرة ، خلال النصف الثاني من القرن (١٣)م . أثناء هذه المسيرة برز « سليمان » جدّ « عثمان » ، قائداً عسكرياً محنّكاً ، ومنظّماً ، ومفكِّراً استراتيجيّاً ممتازاً ، فلفت انتباه أبناء القبائل التركية بما حقّق من انتصارات وفتوحات مستمرّة ، أثارت إعجابهم ، وبما استولى عليه هذا القائد من فلاّحين وأراضٍ مما حمل هؤلاء الأبناء على التطوّع والانخراط في صفوف قواته ، وهذا ما أتاح للدول التي أسّسها من بعده حفيده « عثمان » أن تتغلّب على بقية الإمارات التركية الأخرى وأن تتوغل في شبه جزيرة البلقان ، وبفضل نظامها العسكري المتفوّق ، استطاعت الدولة العثمانية الجديدة أن تسحق الجيوش البيزنطية ، وأن تحتل القسطنطينية عام (١٤٥٣م) . ثم تدخل بلاد المشرق العربي وجزءاً من مغربه . وأخيراً تفوّقت القوات العثمانية على الخلافة العباسية ، ففرضت نفوذها على المسلمين ، وبذلك أصبحت بحقٍّ وجدارة في طليعة الإمبراطوريات العظمى[١] .

---

(١) انظر : لمحات من تاريخ بلغاريا ، (١٦٥ـ١٦٦) .

سلاطين بني عثمان :

بلغ عدد سلاطين الدولة العثمانية (٣٦) سلطاناً ، أَولهم « عثمان الأول » مؤسّس الدولة (١٢٨١ ـ ١٣٢٤م) ـ. . وكان « عثمان » على فراش الاحتضار في « سكود »[١] عندما توّج ابنه « أورخان » سنة (١٣٢٦م) ، أعماله الكبيرة باحتلال « بروسّه » الواقعة على سفح « الأولمبوس » ، (كَشِين طاغ) . ودفن أباه في كنيسة القصر ، التي حُوّلت للتوِّ والساعة إلى مسجد . . أضحت « بروسة » مدينة العثمانيين المقدّسة . وسرعان ما شُيِّد ، في العاصمة الجديدة للمملكة ، منشآت فخمة رائعة . وأقدم مساجدها (أُوْلُو جامع) .

وفي سنة (١٣٢٧م) سقطت « إزْميد » أيضاً في يد « أورخان » ـ التي كانت رعايتها عنواناً من أعظم عناوين المجد عند الحكّام المسلمين في جميع الأجيال ـ فأنشأ أول جامعة عثمانية (مدرسة) وعهِدَ في إدارتها إلى « داود القيصري » ، أحد العلماء الذين تلقّوْا علومهم في مصر[٢] .

فتوح مراد في البلقان :

. . توفي « أورخان » سنة (١٣٦٢م) فخلفه على العرش ابنه الثاني « مراد » الذي اتَّجه اهتمامه في الحال ، نحو شبه جزيرة البلقان ، حيث كان عدد من صغار الحكّام ، . . يتنازعون السلطان ، في حروب موصولة

---

(١) سكود : تقع في غرب « تركيا الحالية » وهي أول إمارة عثمانية .

(٢) انظر : تاريخ الشعوب الإسلامية/ الأتراك العثمانية وحضارتهم/ كارل بروكلمان ، تعريب . نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي/ دار العلم للملايين ـ بيروت ط٣ / ١٩٦١م (ص١٥ـ١٦) .

الحلقات . وكان عليه أن يقضي على جمهرة من خصومه في آسيا الصغرى قبل أن يندفع في اتجاه البلقان . . في حملة سريعة . . قضى على مناوئيه فصار في ميسوره أن يفرغ للحرب البلقانية . فحمل على أمراء البلقان واحداً إثر واحد وقد تساقطوا في قبضة العثمانيين ، وفقد البيزنطيون « أَدْرَنة »[1] ، فاتخذها الأمراء العثمانيون عاصمة لهم من سنة (١٣٦٦م) حتى سقوط القسطنطينية . وحاول البابا « أوربانوس الخامس » أن يدعو النصارى إلى حرب صليبية تنقذ « أدرنة » من أيدي المسلمين ، ولكن عَبَثاً .

وعلى الرغم من أن جيشاً من فرسان النصارى ، يقوده « أماديوس كونت سافوا » ، استطاع أن يوطّد أقدامه في « غاليبولي »[2] فترة قصيرة من الزمان ، فقد أخفق في التفاهم مع البيزنطيين على خطة مشتركة ، فاضطرَّ إلى الانسحاب في وقت قريب . وانتهى الأباطرة من أسرة « بليوجيوس » إلى أن يصبحوا شيئاً فشيئاً أكثر اعتماداً على الأتراك ، بل لقد تعيّن عليهم فيما بعد أن يقدّموا إلى هؤلاء مساعدة عسكرية عند فتح آلاشهر (فيلادلفيا)[3] .

كان لاختلاف صقالبة البلقان وتفرّق كلمتهم أثر في تغلّب العثمانيين عليهم ، في سهولة ويُسر . ففي عام (١٣٧١م) بينما كان « مراد الأول » في آسيا ، حاول الصرب أن يُقْصوا عن أعناقهم نير الاستعباد الذي كان يتهدّدهم ، فشنّوا هجوماً على العثمانيين بقيادة « ووقاجين » . ولكن

---

(١) أدرنة : مدينة تركية في القسم الأوربي من الجمهورية التركية .
(٢) غاليبولي : هي المنطقة التي تقع في أوربا من تركيا غربي الدردنيل .
(٣) فيلاديلفيا : مدينة أمريكية في بنسلفانيا وأيضاً هو الاسم اليوناني لمدينة « عمّان » انظر : م الأعلام (ص٤٢٦) .

« حاجي إيلبَكي » هزمهم هزيمةً شنعاء عند (شِرْمن : جرمن) على ضفاف نهر (مَريج) ، ففقدوا ممتلكاتهم في مقدونيا . ثم إن العثمانيين احتلّوا بعد ذلك « صوفيا » و« نيش »[1] ، سنة (١٣٨٥ـ١٣٨٦م) . وأتمّ « خير الدين باشا » فتح مقدونيا من « غاليبولي » ، حيث شيّد ١٣٨٥م الجامع الكبير : (أسكي جامع) يساعد في ذلك قائد الجيش « أورنوس بك » الذي التحق بعد سقوط أسرة « قره سي » الذي ينتمي إليها ، بخدمة « سليمان » ، ومن (كوملجِنة) ـ التي فتحها « أورنوس » ، استولى العثمانيون على(سَرِي) ، وكانت محلَّ نزاع بين الصرب والبيزنطيين ، ومن هناك فتحوا « سالونيك »[2] . .

كان قيصر بلغاريا ، « شيشمان » ، قد اقتسم هو وأخوه « سَراسِمير » المقيم في (فيدين)[3] سنة (١٣٦٤م) إمبراطورية أبيهما « الإسكندر » وصاهَر « مُراداً » . ولكن تقدّم « مراد » في البلقان لم يلبث أن أثار مخاوفه فعقد حلفاً مع الصرب والبشناق . وفي سنة (١٣٨٧م) تصدّى القائد التركي « لالاشاهين » للجيوش المتحالفة ، عند (بلوِشنك) ، فأوقعت به هزيمة ساحقة ، وقضت على جيشه قضاءً يكاد يكون تاماً . والواقع أن هذا النصر ما كان ليتم لولا انهماك « مراد » مرّة أخرى ، في شؤون آسيا .

. . وفي سنة (١٣٨٨م) استطاع « علي باشا » أن يثأر لهزيمة العثمانيين في البلقان . فعبر وثلاثين ألفاً من رجاله مجاز (نادر) ،

---

(١) نيش : مدينة صربية جنوب « بلغراد » (١٥٠,٠٠٠) نسمة ، آثار بيزنطية وقلعة عثمانية .

(٢) سالونيك : المدينة الثانية في اليونان على خليج بحر إيجة . . وانظر : تاريخ الشعوب الإسلامية / العثمانيون . . (ص٢٣ـ٢٤) .

(٣) فيدين : ودين : في الشمال الغربي من بلغاريا .

واحتل مدينتي (ترنوفو ، وشملا) . وطُوِّق القيصر « شيشمان » في (نيقوبوليس)[1] على نهر الدانوب ، ولكن العثمانيين صالحوه على أن يدفع الجزية إليهم ويتنازل عن « (سِلِسْترَة) » . . وفي عام (١٣٨٩م) .

جرت معركة كوسوفا بين العثمانيين والصرب وانتهت بهزيمة منكرة[2] وبعد موت مراد في معركة كوسوفا خلفه ولي عهده بيازيد . وفي سنة (١٣٩٠م) فقد البيزنطيون آخر ممتلكاتهم في آسيا الصغرى . .

صليبية جديدة :

. . جزع الغرب لهذه الانتصارات العثمانية ، فقام البابا « بونيفاسيوس » يدعو إلى حرب المسلمين ، . . وإذا بالفكرة التي نسيَها الناس ـ في الظاهر ـ منذ أمد طويل تعود إلى الظهور ، فلا يطلّ ربيع (١٣٩٦م) حتى يكون « سيجسموند » ملك المجر قد استطاع أن يجمع حوله ، في (بودا)[3] ، جيشاً قوياً من الفرسان تقاطروا إليه من بلدان أوربا الغربية . ولكن فقدان روح النظام عند هؤلاء المحاربين في سبيل الإيمان جعل حماستهم عديمة الجدوى بالكليّة . وذهبت جميع جهود « سيجسموند » لقيادتهم في حرب منظَّمة أدراج الرياح[4] .

واستطاع « بايزيد » في (٢٧ أيلول ١٣٩٦م) إلى أن يُنزل بهم ، عند

---

(١) نيقوبوليس Nicopolis : مدينة بلغارية على الدانوب ومعناها (مدينة النصر) أَسَّسها الإمبراطور « تراجان » المتوفى (١١٧م) وذلك عند انتصاره على أعدائه شمال بلغاريا على حدود رومانيا .

(٢) انظر : المعركة في قسم كوسوفا . .

(٣) بودا : أحد قسمي عاصمة المجر بودا ، وبست الذي يفصلهما الدانوب .

(٤) انظر : تاريخ الشعوب الإسلامية (ص٢٤ـ٢٨) ./ ١٤ـ المصدر السابق (ص٢٨ـ٣٧) .

(نيقوبوليس) ، هزيمةً قاسيةً ، وتوغّلت الجيوش العثمانية اللاّحقة بفلولهم حتى (سَتيزيا) . .

الخطر المغولي :

كانت الدولة العثمانية ، منذ فترة من الزمن ، تستشعر الخطر المغولي يتهددها من الشرق ، ويمنح الروم البيزنطيين ، في الوقت نفسه ، فرصة جديدة يتنفسون خلالها الصعداء . لقد أنزل المغول بالعالم الإسلامي ضروب الفظائع الوحشية على اختلافها ، وكان قائدهم بطل عظيم يدعى « تيمورلنك » ، كان يُضرم نيران الحروب سنوياً ، في طول البلاد وعرضها من (موسكو) ، إلى نهر (الغانج) في الهند شرقاً ، وحتى (سوريا) غرباً ، وأدرك « بايزيد » بثاقب نظره ، أنه لا مفرّ له من منازلة هذا الفاتح العظيم يوماً ما . وكان أن صدق حِدْسُ « بايزيد » ، واشتبك جنود الطرفين في معارك جانبية . .

معركة أنقرة بين بايزيد وتيمورلنك :

وما أطلّ ربيع (١٤٠٢م) حتى بدأ « تيمور » هجومه متقدماً نحو سهل (أنقرة) . . وبدأت المعركة بين « بايزيد وتيمور » في صباح (٢٠تموز سنة ١٤٠٢م) في صالح العثمانيين . . وثبت « بايزيد » وحوالي (٥٠٠٠) من الإنكشارية في وجه « تيمور » وجنوده ثباتاً باسلاً حتى المساء ، وعندها لم يعد في طوق المقاومة أن تدفع الهزيمة أكثر مما فَعَلَت .

. . فلما هبط الليل لاذ السلطان بالفرار ولكنه أُسِرَ هو وابنه « موسى » في حين فرَّ ابناه الآخران « محمد وعيسى » ، إلى (قرمان) . وأحسن « تيمور » في بادىء الأمر معاملة الأسير ، حتى إذا قام بمحاولة مخفقة للهرب ، شدّد عليه الأسر وحمله معه في قفص حديدي . وتوفي

« بايزيد » في (آق شهر) . . في (٨آذار ١٤٠٣م) ، فأكرمه « تيمور » بأن سمح بدفنه في جامع (بروسه) .

النزاع بين أبناء بايزيد :

نشب نزاع بين أبناء « بايزيد » عقب وفاته مباشرة وهم أربعة : محمد ، وهو أشدّهم بأساً ، وأكثرهم نشاطاً وأخاه الأكبر « عيسى » ، ثم « موسى » ، و« سليمان » . وجرت معارك بين الأخوة وأنصارهم حتى امتد ذلك إلى سنة (١٤٢١م) حيث توفي « محمد » في (أدرنة) فخلفه « مراد الثاني » .

مراد الثاني والحرب ضد المجر :

. . حاول السلطان « مراد ٢ » أن يبسط سلطانه شمالاً على البلقان ، فتصدّت له القوات المجرية التي هزمت القوات العثمانية على يد « يوحنّا هو نيادي الترانسلفاني » ، وبها بُعِثَتْ الحروب الصليبية ، ورحّب النصارى بإعلان البابا « أوجانيوس الرابع » لهذه الحرب ترحيباً حماسياً في المجر وبولندة ، وألمانيا ، وفرنسا ، . . واشتعلت الحرب بين الحلف الصليبي والعثمانيين . . بين كرّ وفرّ منذ (تموز ١٤٤٣م) حتى (٩تشرين الثاني ١٤٤٤) ، حيث تقدم « مراد » لقتال النصارى تحت أسوار مدينة (فارنا)[١] وانتصر عليهم انتصاراً عظيماً[٢] . . .

* * *

---

(١) فارنا Varna : مدينة بلغارية على ساحل البحر الأسود (٢٧٥,٠٠٠) نسمة .

(٢) انظر : تاريخ الشعوب الإسلامية ص٢٤ـ ٢٨) ./ ١٤ـ المصدر السابق (ص٢٨ـ٢٧) .

الأدوار التي مرت بها الدولة البلغارية

مراجعة تاريخية :

احتفلت بلغاريا في عام (١٩٨١م) على مرور (١٣٠٠عام) على إنشاء الدولة البلغارية باعتبار أن بلغاريا أنشئت عام (٦٨٠م). . وفي عام (١٠٨١م) استولت القوات البيزنطية على بلغاريا ، ويطلق البلغاريون على هذه المرحلة بـ (الدولة البلغارية الأولى) ، حيث استمرَّ العهد البيزنطي يسيطر على بلغاريا حتى عام (١١٨٧م) عندما أنشئت الدولة البلغارية الثانية ، وهذه الدولة قُضي عليها من قِبَل الأتراك العثمانيين ، والمعروف أَنَّ الحكم العثماني بدأ عام (١٣٧٢م) حيث دخلها السلطان «مراد الأول» فاحتل صوفيا والجزء الجنوبي من بلغاريا ، وفتح ابنه « بايزيد الأول » الجزء الشمالي عام (١٣٩٦م) ، وبذلك أصبحت بلغاريا كلها تحت الحكم العثماني الذي انتهى عام (١٨٧٨م) ، وبقيت بلغاريا تابعة اسمّياً للدولة العثمانية حتى عام (١٩٠٨م) ، وفي ٢٢ أيلول من هذا العام أعلنت بلغاريا استقلالها السياسي . .

الأتراك وأصل البلغار :

. . القبائل التي أتت إلى بلغاريا وأسست الدولة البلغارية الأولى برئاسة القائد « إسبريه أو إسباروخ » هي قبائل تركية وكانت تتكلم اللغة

التركية أيضاً. . والمعروف أن أصل البلغار شغل محافل التاريخ عدة قرون ، فقد نسب علماء التاريخ الشعب البلغاري في البداية إلى العنصر السلافي ، وأخيراً تخلّوا عن هذه الفكرة ، ووافقت جميع الأطراف المعنية على : (أَنَّ الدولة البلغارية الأولى أُسِّست من قِبَل الأتراك) . وقد أيّد ذلك أُستاذ التاريخ البلغاري « إيفان شيشمانوف » حيث سعى هذا الأستاذ إلى إجراء دراسات واسعة حول أصل البلغار ومنشئهم. . وذلك في كتاب صدر له عام (١٩٠٠م) ، وتأكد له أن أصل البلغار هم من القبائل التي استوطنت في البداية على حافّة نهر (الفولغا) ، (إيتْل). . وأيضاً تأكد لدى علماء التاريخ والأجناس : (أن أصل البلغار من الأتراك). . وهذه أمثلة حول ذلك : فقد ذكر الأستاذ « ديمتري أنجيلوف » الأستاذ في جامعة صوفيا ـ عام ١٩٧١م في كتاب له بعنوان : الشعب البلغاري ونسبه ، في الصفحة ١١٧ قوله : (إنَّ الذين أسّسو الدولة البلغارية الأولى هم من الأتراك ، كما كانوا يتكلمون اللغة التركية بشكل لا يدعو إلى الريبة. . وأَنَّ هناك صلة قريبة جداً بين اللغة البلغارية القديمة واللغة التركية . ويقول الادّعاء بأن البلغار هم من أصل سلافي أو غيره ، أمور مبالغ فيها ، وإن اسم (تراقيا) مأخوذ من الأتراك منذ القديم ، ومن الصعب إقامة صلة بين الأتراك والعنصر السلافي ، وأن البلغار ، والذين هم من أصل تركي ، استخدموا العنصر السلافي الذي كان يقطن في تلك الجهات لإنشاء الدولة البلغارية الأولى عام (٦٨١م) .

أمّا بالنسبة للدولة البلغارية الثانية فقد ساعد على إنشائها الأتراك من قبيلة (قومان) وبفضل هؤلاء أُمكن إنقاذها من السيطرة البيزنطية ، أما بالنسبة للدولة البلغارية الثانية فقد ساعد على قيامها « السلاف » واعتُبِر هؤلاء بأنهم المنقذون لبلغاريا. . وهكذا بقي الشعب البلغاري مكبّلاً من

قبل هؤلاء المنقذين ومن غيرهم من القوى التي ساعدت بلغاريا على نيْل استقلالها . وفي (١٥/٩/١٩٤٦م) ، أُنشِئَت في بلغاريا دولة حديثة أُطلق عليها اسم (الجمهورية الشعبية البلغارية)[١] .

* * *

---

(١) انظر : دراسات حول الكيان التركي في بلغاريا (ص١-٢) .

اللغة بين الأتراك والبلغار

.. عقب انتهاء حكم العثمانيين الأتراك في بلغاريا ، أخذت الحكومة البلغارية بتغيير أسماء المدن والقرى والسهول والجبال والوديان التي هي من مصدر تركي.. فقد جاء في كتابٍ نشره الخبير بأسماء البلدان ومواقعها : « فاسيل ميكوف » (١٩٤٣م) ، وصف فيه هذا التطور بإسهاب.. وقال : إن موضوع تغيير أسماء البلدان أعيد النظر فيه عام (١٩٠٣م) ، ومن ثم اتخذت وزارة الداخلية البلغارية قراراً في عام (١٩٣٤م) على تبديل اسم (١٦٠٠) قرية ومدينة تحمل أسماء أجنبية ووضعت مكانها أسماء بلغارية.. واستمرَّت بلغاريا في تغيير الأسماء عامة (١٩٤٦م) وسمّت بعض الأماكن بأسماء بعض الشخصيات ، فاسم « جمعة بالا » أصبح باسم أحد كبار الاشتراكيين البلغار « ديمتري بلاجويف » وسمِّيت المدينة « (بلاجويف غراد) وهكذا.. وعليه ، يمكن تغيير أسماء المدن والقرى بسهولة ، وخاصة تلك التي تعيش فيها بضع مئات ، غير أنه من الصعب جدّاً تغيير أسماء البلدان والمناطق ذات الأهمية العالمية ، وخير دليل على ذلك اسم (شبه جزيرة البلقان) والذي هو باللغة التركية ، فكلمة (بلقان) تدل على أن الأتراك سيطروا ، لا على بلغاريا فحسب ، بل وعلى شبه الجزيرة بأكملها .

فقد قام الأستاذ البلغاري المعروف « فلاديميرجور جييف » على رأس لجنة من الخبراء باللغة في وضع قاموس للمترادفات في اللغة البلغارية

(المطبوع في صوفيا عام ١٩٧١م المجلد الأول ص٢٩) . فقال : (إنَّ كلمة « بلقان » تركية الأصل أُطلقت على جبال البلقان . .) .

. . ويُذكر أنه أُطلق في السابق اسم (أيوس) على هذا الجبل ، وفي اللاتينية (هاموس) ومعناه الجبل الكبير ، كما أطلقوا عليه اسم (ستارابلانينا) غير أن هذا الاسم ظلّ معتبَراً بالبلغارية الرسمية فقط ، واكتفيَ بإطلاق اسم (البلقان) على هذا الجبل وبالتالي على المنطقة بأسرها .

فقد جاء في الإنسكلوبيديا البلغارية الصادرة لعام (١٩٦٢م) : (أنَّ كلمة البلقان : كلمة تركية قديمة) ، وقد أُطلق على شركة سياحية تعمل في بلغاريا اليوم باسم : (بلقان توريست) ، وكذلك على الحرب البلقانية ، وعلى الحلف البلقاني ، كما يطلق اسم البلقان على أقدم فندق في صوفيا ، وأَطلق الكاتب البلغاري : « اليكوتوسطانطيوف » على روايته . . اسم (بلقانيسكا) ، أي : الرجل البلقاني ، كما أطلق الكاتب البلغاري الروائي « يوردان يوكوكوف » الذي عاش في الفترة (١٨٨٠) ـ (١٩٣٧م) على روايته التي كتبها عام ١٩٢٧م) اسم : (أساطير البلقان) . وهناك أسر عديدة في بلغاريا يطلق عليها اسم (بلقانيسكي) .

. . ومع أن الحكومة البلغارية تسعى جهدها لتغيير أسماء بعض الأمكنة أو الأنهار أو الجداول وغيرها ، فإن الاسم الأصلي (أصل الكلمة) يظلّ تركيّاً . .

والمعروف أن المنطقة الواقعة شمال منطقة (دلي أورمان) يطلق عليها اسم : (دوبريجه) وهي نفس الكلمة التي تستعمل في اللغتين البلغارية والرومانية ، وهذه الكلمة معطوفة على اسم الأمير (دوبرونيكا)

الذي أقام إمارته في تلك المنطقة في الفترة من (١٣٥٤ ـ ١٣٨٦م) . وقد أطلق على هذه المنطقة بأسرها اسم : (بلادادوبرونيكا) ، وعندما استولى العثمانيون على هذه المنطقة بدّلوا اسم دوبرونيكا إلى (دوبريجة) . وظلّت هذه الكلمة مرعيَّة حتى يومنا هذا . . وهناك تعابير كثيرة وأسماء عديدة تنمّ عن أصلها التركي كأسماء المهن والمواد ، وأصحاب المهن مثال : . . يقول الأستاذ : « جورجيوف » : إنَّ اللغة البلغارية القديمة كانت تَستعمِل نفس الأحرف التركية المستعمَلة للمهن ، فكلمة (كمي) وتعني السفينة يطلق على ربّانها اسم (كميجي) أي ربّان السفينة ، وكلمة (دمير) ومعناه الحديد ، والحدّاد : (دميرجي) وهكذا فـ (جي) تستعمل للمهن في التركية والبلغارية .

فالكلمات المستعملة في اللغة البلغارية مثل : عبا ، شوربا ، بقلاوة ، باصطرما ، يوغورت وغيرها كلها كلمات تركية ، وهي كثيرة جداً ولا يمكن إحصاؤها لأنها تُعدّ بالألوف ، ومع هذا أراد البلغار تغيير اسم (اليوغورت) ومعناه بالعربية : (الحليب الرائب ـ اللبن) ، إلى لغتهم ، فأطلقوا عليه اسم (كيسلوماجاكو) أي : الحليب الحامض ، غير أنهم لم يتمكنوا من الاستغناء عن كلمة (يوغورت) .

. . فقد وضع العالم البلغاري الشهير « استيفان ايلثيف » عام (١٩٦٩م) مُعْجَماً باللغة البلغارية أشار فيه إلى العديد من مشتقّات الكلمات البلغارية وأصلها التركي ، إضافة إلى أن معظم الألقاب البلغارية هي من مصدر تركي أيضاً . .

ومع أنه قيل : إن عملية تبديل الأسماء في بلغاريا قد انتهت ولكنها مازالت في مجالها الضيق . . فقد غيرت الحكومة البلغارية كثيراً من أسماء المدن والقرى والسهول والجبال وغيرها . . ، وكانت غَيَّرت اسم مدينة

(فارنا) إلى (ستالين) عام ١٩٦٢م ، غير أنها عادت وتخلّت عن الاسم الأخير .

.. ومع ذلك لن تستطيع ولن تتمكن من تغيير كثير من الأسماء.. وهل ستعمل على تبديل اسم « إبريه » وهو أول من أسّس الدولة البلغارية في القرن (٧م) وكان من أصل تركي؟ وهل ستعمل على إزالة هذه الكلمة من كتب التاريخ؟.. وأخيراً كيف ستعمل على تغيير اسم (قومان) ، و(تاتار) والتي نشأ منها عدة حكام؟ وكذلك أسرة (شيشمان) والتي نشأ منها عدد غير قليل من رجال الدولة؟ ، وغيرها من الكلمات التي تملأ صفحات التاريخ البلغاري[١]!!...

* * *

(١) انظر : المصدر السابق (ص٤ ـ ١٧) .

السلاف (الصقالبة)

أصلهم وتاريخهم :

يرجع السلاف في أصلهم إلى الجنس الآري Aryens أو (الهندي - أوربي Indo Europeene . . في الألف الأولى قبل الميلاد ، كان السلاف وهم شعب كثير العدد . . يقطنون الأراضي الرحبة في شمال الدانوب بين جبال الكاربات وبحر البلطيق ، وقد أشار المؤلفون القدامى ، بصورة خاصة إلى هجرة القبيلتيْن الكبيرتيْن : « السكلافين والآنت » والمعروف . . أنهم استمرّوا يتوسّعون حتى القرن (١٠ م) توسّعاً مطّرداً في أوروبا نحو الغرب والجنوب ، وإن ظلّ مستواهم الحضاري في هذه الفترة ضعيفاً نوعاً ما ، بحيث لم يكن في استطاعتهم التقدم عندما يصطدمون بحضارات أخرى أكثر رقيّاً . وكل ما كان يحدث لهم في هذه الأحوال ، هو أن يتحوّلوا إلى أقنان[١] أو أتباع للعناصر الأرقى التي يحتكّون بها . وتحوّلوا تدريجيّاً إلى شعب محارب ، وأسّسوا دولاً تزعّمها بعض القادة الأجانب ، كما تشرّبوا بعض الحضارات المجاورة ، ثم اعتنقوا المسيحية . .

---

(١) أقنان : مفردها ، قِنٌّ : وهو العبد المملوك هو ووالديْه .

السلاف والبلغار :

.. من الجدير بالذكر أَنَّ السلاف أطلق عليهم العرب اسم « الصقالبة » أَمّا البلغار فهم ليسوا سكان بلغاريا الحالية الذين ثَبَتَ أَنَّ أصلهم يتَّصل بالأتراك ، أَمّا البلغار الذين كانوا يقطنون على ضفاف نهر « إيتل (الفولغا) في روسيا يختلفون كثيراً عن البلغاريين ، الحاليين ، وأطلق اسم الصقالبة على بلغار الفولغا . .

وبمقتضى الزمن ازدادت حركة السلاف اتساعاً وازداد تباعدُ قبائلهم ، ولم يكن لهم مقدرة من الناحية السياسية ، ولكن لم يلبث أَنْ طرأ تغيير ملحوظ على طبيعتهم ، فانقسموا إلى ثلاثة أقسام كبرى : أولها : « السلاف الجنوبيون أو اليوغسلاف » في الجنوب والوسط ويشملون الصرب والكروات والبشناق والسلوفين ، وثانيها : السلاف الغربيون ، في بولندا وبعض ألمانيا والمجر والسلوفاك والتشيك ، وثالثها : السلاف الشرقيون أو الروس ، وينقسمون إلى الروس الكبار في الوسط والشمال ، والروس الصغار في الجنوب ، والروس البيض في الغرب ، ومن الواضح أن كل قسم من هذه الأقسام الكبرى الثلاثة وقع تحت تأثيرات وظروف خاصة ، مما جعل منهم ثلاثة عناصر متباينة[١] .

السلاف الجنوبيون وأهل بلغاريا :

.. السلاف الجنوبيون قد تداخل تاريخهم في تاريخ الدولة البيزنطية ، وقبل أن نعرض لتاريخ هذا الفريق من الشعوب السلافية ،

---

(١) انظر : أوربا العصور الوسطى / د . سعيد عبد الفتاح عاشور/ مكتبة الأنجلو المصرية ط١٠/١٩٨٦(١/٦٠٨ ـ ٦١١) .

يصحُّ أن نشير إلى أنَّ (البلغار) وهم قوم آسيويون ، اندمجوا مع بعض القبائل السلافية في البلقان ، وتأثروا بحضارة السلاف ولغتهم .

وعلى الرّغم من أن البلغار يرجعون إلى أصل غير سلافي ، إلاّ أَنَّ تشرّبَهم عادات السلاف ولغتهم وحضارتهم ، جعلتهم يتقاربون من العناصر السلافية المحيطة بهم ، وقد استقرّ هؤلاء البلغار على الدانوب حيث كوّنوا إمبراطوريتهم الأولى ـ كما ذُكِرَ ذلك مفصّلاً ـ . . وبما أن العنصر السلافي (الصقلبي) أكثر عدداً من البلغار صار له السيطرة والسلطة على البلغار الذين ما لبثوا أن فقدوا ما كان لهم ـ قبلاً ـ من قومية تركية ، وغلبت عليهم الصفة السلافية وتكلموا بلغة السلاف[1] . .

* * *

---

(١) انظر : جريدة تشرين / ٥/ ٤/ ١٩٩٤ عدد ٥٩٠٣ (ص٠٩) .

الدولة البيزنطية والبلغار

في شبه جزيرة البلقان تعرّضت الإمبراطورية البيزنطية لمشاكل جديدة ، بسبب قدوم البلغار إلى هذه الجهات ، والبلغار ـ كما نعرف ـ يرجعون إلى أصل تركي ، أقاموا إمبراطورية اشتهرت باسم « أونوغور بلغار » ، وكانت على علاقة ودّية مع « بيزنطة » ، ـ زمن هِرَقْل ـ غير أنها تفككت في منتصف القرن السابع الميلادي .

أدرك الإمبراطور « قسطنطين الرابع » ، أَنَّ ظهور هذه الأقوام المشهورة بحب القتال على الأطراف الشمالية للإمبراطورية ، يُعتبر خطَراً يُهدِّد كيان الدولة البيزنطية فما كاد يُبرم الصلح مع المسلمين سنة (٦٧٩م) ، حتى بادر « قسطنطين » إلى إعداد حملة لمواجهة البلغار ، ولم تلبث الحرب أن نشبت سنة (٦٨٠م) ، إذ أن أسطولاً ضخماً من السفن بقيادة الإمبراطور ذاته ، اجتاز البحر الأسود ، وألقى مراسيَه إلى الشمال من مصب نهر الدانوب ، غير أن ما اشتهرت به هذه الجهات من المستنقعات جعلت من العسير على البيزنطيين القيام بعمليات حربية ، على حين أَنَّ البلغار حرصوا أن يتجنّبوا لقاء عدوهم الذي يفوقهم عدداً ، فأضاع الجند البيزنطي جهودهم بغير طائل ، وتحتّم عليهم آخر الأمر ، أن ينسحبوا ، بعد أن تخلّى الإمبراطور عن القيادة ، بسبب مرضه ، وحين عبر الجند الدانوب ، هاجمهم البلغار فكبّدوهم خسائر فادحة ، وتعقّبوا المرتدّين منهم على امتداد النهر ، واندفعوا نحو « فارنا » . وبذلك فشلت

حملة « قسطنطين الرابع » ، ولم تستطع أن تدفع عن الإمبراطورية ما يهدّدها من خطر ، بل إنَّها هيّأت للعدو الفرصة للتّوغّل في داخل أملاك الإمبراطورية ، وبمقتضى المعاهدة التي عقدت بين الإمبراطور البيزنطي والبلغار ، تعهّد الإمبراطور بدفع جزية سنوية للبلغار ، وتنازل لهم عن البلاد الواقعة بين نهر الدانوب وجبال البلقان ، وهي المعروفة قديماً باسم (موئيزيا وسيزيا الصغرى) ـ ديبروجا الحالية ـ ، وأضحى في يد البلغار مصب نهر الدانوب وجانب من البحر الأسود ، وأضحت المملكة الجديدة التي قامت واعترف بها الإمبراطور البيزنطي ، خطراً على دولته ، وحين أخذ البلغار يوسّعون ممتلكاتهم اصطدموا بسكان الأقاليم المجاورة التي يسود فيها الصقالبة الذين خضعوا للبلغار ، واتحدوا سويّاً ضد البيزنطيين ، وبذلك ، نشأت دولة صربية بلغارية في الأراضي الواقعة بين الدانوب والبلقان ، على أن الأباطرة البيزنطيين ، صاروا يوجهون الحملات ضد البلغار والصقالبة ، غير أن العنصر الصقلبي ـ بفضل تفوّقه في العدد على البلغار ـ صار له السيطرة والنفوذ ، وخضع البلغار لتغييرات عنصرية هامة ، ولم يلبثوا أن فقدوا ما كان لهم ـ أصلاً ـ من قومية تركية ، وغلبت عليهم الصفة الصقلبية[1] .

البلغار من الوثنية إلى المسيحية :

.. خلال النصف الأول من القرن (٩ م) ، وعلى أثر التوسع الاقليمي الهائل ، ضمّت بلغاريا عدة عناصر سلافية كانت تقيم في حدود الإمبراطورية البيزنطية ، وقد ساعد تدفّق سيل الجماهير السلافية ، هذا ، في تسريع صقلبة (البلغار القدامى) ، بشكل نهائي .

---

(١) انظر : الدولة البيزنطية / د . السيد الباز العريني ، (ص١٥٢ ـ ١٥٤) .

وفي عام (٨٦٥)م حظي هذا التطور بدفع حاسم عندما اتَّخذ « بوريس الأول » (٨٥٢ ـ ٨٨٩م) المسيحية كدين رسمي .

وكانت الوثنية ديانتهم السابقة . . وباعتناق « بلغاريا » للدين المسيحي صُنِّفت في عداد الدول المسيحية ، ووطَّدت بذلك وضعها الدولي واندمجت في الحياة الثقافية للعالم المسيحي .

تكوين القومية البلغارية :

نشأت القومية البلغارية من أعراق بيّنة الاختلاف ، ثم تكوّنت بشكل قاطع حوالي نهاية القرن (٩ م) ومطلع القرن (١٠ م) ، عندما استكملت عملية انصهار السلاف والبلغار في خطوطها العريضة ، وكان اعتناق المسيحية ، وتبنّي الألف باء السلافية ، من العوامل التي أسهمت بشكل حاسم في تحقيق هذا التطور[١] . .

سقوط الدولة البلغارية تحت الحكم العثماني :

. . في الربع الأخير من القرن (١٤ م) حلّت التجزئة العميقة داخل الدولة البلغارية ، حيث سيطر « البولياري باليوليك » الملقب بـ « دوبرونيتسا » ، على المنطقة التي عرفت فيما بعد باسمه . .

وبانقسام بلغاريا إلى عدة دويلات ، حلّ الضَّعْفُ والانهيار فيها ، ومزّقتها التجزئة ، التي هيّأتها للهزيمة والاندحار أمام جحافل القوات العثمانية التي عبرت شبه جزيرة البلقان ، وقد ساعدت الحملات الصليبية القوات العثمانية على تحقيق المزيد من الانتصارات المتتالية في

---

(١) انظر : موجز تاريخ بلغاريا (ص١٩ ـ ٢٩) .

شبه جزيرة البلقان ، لأن الحملات الصليبيّة ألحقت الضعف ، وأقامت العوائق أمام دول البلقان[1] .

في أوائل القرن (١١ م) قامت في بلغاريا حركة دينية كان لها أثر كبير في قطاع واسع من الشعب البلغاري وأيضاً في شعوب البلقان ، وهي البوغوميلية .

* * *

(١) انظر : لمحات من تاريخ بلغاريا /حسن سعيد اللمع/ دار الثقافة بدمشق/ ط١ ، ١٩٨١م (ص١٣٧ ـ ١٣٨) .

البوغوميلية

هي : حركة دينية تبشيرية ، قائمة على أساس فلسفي روحي الطابع .

.. تتنكّر هذه الحركة لكل ما هو مادّي في هذا العالم ، وتميّزت أفكار هذه الدعوة بالحب العميق للإنسان وعلى النحو الذي دعا إليه السيد المسيح ـ عليه السلام ـ تماماً.. وكان ظهور حركة البوغوميل باعتبارها تياراً إصلاحياً في صفوف الكنيسة الأرثوذكسية في فترة مقاربة لانقسام الكنيسة ـ ثم تحولت إلى كنيسة مستقلّة عن الأرثوذكسية والكاثوليكية ، وتختلف معهما في الكثير من القضايا الدينية والفلسفية .

وقد استمدّ الكاهن « بوغوميل Bogomil » أفكاره هذه ، من حركة قديمة.. وطوّرها.. وتنادي الحركة البوغوميلية بالإصلاح وتستند في دعوتها على شكلها الديني الموجَّه ضدّ أعمال رجال الكنيسة الكبار ، متّهمة إيّاهم بالانحراف عن المسار الصحيح للدِّين ، والسيْر وراء الملذّات المادِّية واكتناز المال ، ضاربين عُرْضَ الحائط بكلّ وصايا السيد المسيح المقدّسة . وأتباع هذا المذهب ينكرون القول : أَنَّ « عيسى » عليه السلام ـ هو ابن الله ـ ويعتبرونه نبيّاً فقط وتنفي الحركة عنه الصِّفة الإلهية وتعتقد أَنَّ له طبيعة بشرية فحسب ، خِلافاً لكل الطوائف المسيحية ويرفضون التعميم ويرفضون التعميد.. ويقولون : إِنَّ عبادة الصّوَر والصلبان والتقرُّب إلى القدّيسين وعبادة البقايا المقدّسة ضَرْبٌ من

الوثنية ، وتُحرِّم كنيسة البوغوميل شرب الخمر وأكل لحم الخنزير .

إنَّ جوهر هذه الحركة ، له مضمون اجتماعي شعبي معادٍ للظلم الاجتماعي المسيْطر آنذاك وموجّه ضد كل أشكال الثروة ، . . وضد كل ما كانت تجمعه الكنيسة من أموال منقولة وغير منقولة من فقراء الفلاحين ومن الأقنان .

وكانت الحركة البوغوميلية تدعو جماهير الفلاحين للنضال ضد السلطة المركزية المسؤولة عن كل ما يحدث ويجري داخل المجتمع ، وطالبت الفلاحين والأقنان بالوقوف بحزم ضد أعمال الكنيسة وضد الأيقونات والتعميد وتقديس مختلف الصور والرسوم والتماثيل . وأَمَرت الجميع بالتخلّي عن كل خدمة لأي سيّد كان ، سواءً أكان قيصراً أم أميراً . ونصحتهم بأن لا يعملوا في الأرض طالما أنّها مُلْكٌ للآخرين ، وألاّ يمتثلوا لأي أمر كان ؛ وبيّن أنصار هذه الحركة للناس أَنَّ سبب مآسيهم تكمن في الملكية للأراضي وكل أدوات العمل الأُخرى .

وطالبوا الفلاّحين بالتمرّد والعصيان وعدم إطاعة الأغنياء وحرّضوهم على عدم دفع الضرائب للدولة ، وناشدوهم الوقوف بحزم ضد الحرب العدوانية وسفك الدماء[1] .

. . وقد تعرّضت الحركة البوغوميلية لهجوم شرس ، ومع ذلك فقد انتشرت بسرعة داخل وخارج بلغاريا . . وكان على رأسها (كاهن وَرِعٌ

---

(١) انظر : مجلة الشاهد / شهرية شاملة مصورة ، تصدر عن « شركة الشاهد للنشر المحدودة » نيقوسيا ـ قبرص ، العدد ١١٣ كانون الثاني ١٩٩٥م (ص ١٠٠ ـ ١٠١) . انظر : لمحات عن تاريخ بلغاريا/ حسن سعيد اللمع ، مطبوعات دار الثقافة بدمشق ط١٩٨١١٠م) ،(ص٩٩ ـ ١٠٠) ، وأيضاً ، انظر : دائرة المعارف الإسلامية (٤/ ٢٩٤) .

تقيّ) . . وكان للحركة نوعان من الاجتماعات ، الأول : خُصِّص من أجل الابتهال والصلاة ، والثاني : من أجل الوعظ والإرشاد .

وقد لاحق رجال الكنيسة والسلطة المركزية وأتباع الإقطاعيين أعضاء هذه الحركة وأنزلوا بهم العذاب وعاقبوهم شرّ عقاب وعاملوهم بمنتهى القسوة والشدّة ، وطَردوا وشَرَّدوا عدداً كبيراً منهم في دول كثيرة . وأحرقوا ما وجدوه من كتب ونشرات صادرة عن هذه الحركة وبرغم كل هذا لم يتمكنوا من منع الأَقنان والفلاحين عن الإقبال عليها والانتماء إليها ، وفشلوا في حصارها ، فلقد تغلغلت في كل شبر من الأراضي البلغارية ثم انتشرت خارجها وتسرَّبت إلى داخل الدولة البيزنطية ودول إيطاليا وفرنسا وعاش قسم من أعضائها في ألبانيا وبعض مرتفعات الألب الدينارية في المنطقة التي تُسمَّى اليوم « البوسنة » .

. . تتجلّى الأهمية التاريخية للحركة البوغوميلية في قدرتها عَلى توحيد جماهير الشعب . . في صفّ واحد . وفي قدرتها على تشريح نظام الإقطاع وفضحِه والكشف عن الأسباب التي تؤدي إلى إفساد حياة الفلاحين ومضاعفة آلامهم وبؤسهم وبالتالي في قدرتها على توعيتهم وقيادة نضالهم وتعليمهم كيف يجب عليهم أن يناضلوا ضد الظالمين بدءاً بالقيصر وانتهاءً بالكنيسة والإقطاعيين .

وبلغت الحركة البوغوميلية ذروة قوتها عام (١١١١م) ـ أي قبل ظهور الحركات الأخرى بقرون ـ ، واستمر انتشار هذه الدعوة بين ربوع بلغاريا وغيرها من البلاد الأوربية حتى القرن (١٤ م) . وكان البوغوميليون في بعض مناطق بلغاريا والبلقان كـ (البوسنة والهرسك) من أوائل الذين أعلنوا إسلامهم .

والبوغوميل طائفة نصرانية خاصة احتفظت ببعض العقائد الخاصة بها

والتي تَمُتُّ إلى النصرانية الأولى ، فكانت موضع اضطهاد من قِبَلِ النصارى الآخرين سواء الكاثوليك أو الأرثوذكس الذين اعتبرو مبدأها مخالفاً للنصرانية ، ويجب محاربته ، وبالفعل ، قام الفاتيكان وزعماء أوربا النصرانية وجرّدوا أكثر من حملة على هذه الطائفة فاستباحوا معابدها وشرّدوا زعماءها[١] . . .

. . في عام (١٠١٩م) اندلعت انتفاضتان ، الأولى في مقاطعة « ميسينغريا » تحت قيادة « دوبرمير » ، والثانية في مدينة « سرديكا » (صوفيا) الحاليَّة بقيادة الحركة البوغوميلية ممثَّلة بالأب « فاسيلي » وتلاميذه الاثني عشر ، ووقفت البوغوميلية ضد النظام الإقطاعي . . وخلال فترة الإحتلال البيزنطي من عام (١٠١٨م) لغاية (١١٨٧م) تحولت الحركة البوغوميلية إلى حركة شعبية جماهيرية واسعة ذات طابع وطني تحرري معادٍ للنظام الاستغلالي والعبودية والإقطاعية ، وانقلبت الحركة البوغوميلية إلى قوة محرِّكة قائدة وملْهِمة للشعب البلغاري في نضاله الذي زعزع السلطة البيزنطية ، وهيأت هذه الحركة الظروف من أجل حرب التحرير الوطني الظافرة ، وقد بذل الأب « فاسيلي فراتس » وتلاميذه جهوداً جمّة في مقاومة الاحتلال البيزنطي ، وانتشروا في طول البلاد وعرضها داعين ومبشّرين ومحرّضين ضد نير العبودية ، فغضبت الدوائر الحاكمة في « القسطنطينية » وأرسلت في طلب الأب « فاسيلي » للمثول بين يدي الإمبراطور « فاسيلي الثاني » الذي استدرج الأب في الحديث إلى أن تكشّفت أمامه آراء ونوايا الدعوة البوغوميلية ، وحين لم

(١) انظر : لمحات المصدر السابق (ص١٠٠ ـ ١٠٣) وانظر أيضاً المسلمون تحت سيطرة الشيوعية (ص ١٠٩) ثم المسلمون في العالم (ص٣٨٩) .

تُجْدِ الوعود والإغراءات نفعاً مع هذا الأب الجليل ، المتمرّد والجريء الذي رفض التخلّي عن دعوته بكل شجاعة ، حكم الإمبراطور عليه بالموت حرقاً في الساحة العامة للعاصمة .

.. وقد اتّسع نشاط الحركة البوغوميلية التي عبَّرت عن طموح الجماهير في التخلّص من النظام الإقطاعي والحكم المطلق ، وهذا ما دفع بالقيصر « بوريل » إلى دعوة المجمع الكَنَسي إلى الانعقاد في مدينة « ترنوفو » وطالبه بإدانة هذه الحركة ومحاكمتها واعتبار كل من ينتمي إليها أو يؤدي طقوسها ، من الهراطقة الزنادقة[1] .

البوغوميلية والكاثار :

في بداية القرن (١٢ م) أخذت أفكار البوغوميل تنتشر في القسطنطينية عاصمة بيزنطة ، وردّ الأمبراطور البيزنطي على ذلك بإعدام الكاهن (فاسيلي) حرقاً ، على أن هذا الإجراء لم يمنع حكّام البوسنة من اعتناق مذهب البوغوميل الذي أصبح عقيدة رسمية لمملكة البوسنة .

وبدأت كنيسة البوغوميل تنسّق نشاطها مع كنيسة « الكاثار » ذات الأفكار المماثلة التي انتشرت تعاليمها في فرنسا وايطاليا ، وكانت تدعو إلى التفاهم بين المسلمين والمسيحيين وتعارض تعبئة الحملات الصليبية .

في أعقاب فشل الحملتين الصليبيتين (الثالثة) على الوطن العربي ، و(الرابعة) ضدّ القسطنطينية والوطن العربي ، شنّ ملوك أوربا حملة تطهير ضد (الهراطقة) في بلادهم . وفي عام (١٢٤٤م) سقطت قلعة

(١) انظر : لمحات(ص١١٤ ـ ١٢٤) .

« مونسيغور » ـ معقل « الكاثار » في جنوب فرنسا ، ونُظِّمت مذبحة جماعية ضد أبناء الطائفة ذهب ضحيتها نحو (ثلاثة ملايين) إنسان ، ولجأ من تبقّى إلى طائفة البوغوميل في البوسنة واستقرّوا في إقليم الهرسك[1] .

* * *

(١) انظر : مجلة الشاهد مصدر سابق (ص ١٠٠ ـ ١٠١) .

العثمانيون

وحركات التمرّد في بلغاريـــا

تعرّضت « بلغاريا » لغزو القوات التركية العثمانية عام (١٣٨٢م) في عهد السلطان « مراد الأول » (١٣٦٠ ـ ١٣٨٩م) . وتمكنت من إسقاط الدولة البلغارية الثانية حين استطاع السلطان « بايزيد الأول » ابن السلطان « مراد » (١٣٨٩ ـ ١٤٠٣م) ، القضاء على حركة « إيفان ستراتسمير » المعادية للعثمانيين عام (١٣٩٦م) . وواصلت الدولة العثمانية توسيع حدودها ونفوذها ، وتعزيز قدراتها العسكرية حتى نهاية القرن (١٦ م) وبداية القرن (١٧م) حين بدأت تظهر علائم الضعف عليها تارة والتوازن والصمود تارةً أخرى . وبعد أن وصلت هذه الدولة العسكرية ذُروة القوّة والعَظَمَة في سلَّم الارتقاء والتطوّر . . ، بدأت تتعثّر وتتهاوى من عليائها ببطء ، ما بين الحين والحين ، اعتباراً من منتصف القرن (١٢م) . . ولم تعد الدولة العثمانية قادرة على المضيِّ في عملية الدفاع عن النفس دون مساعدة الدول الكبرى (إنكلترا ـ فرنسا وروسيا القيصرية) التي كانت تتصارع فيما بينها حول الانفراد بالقسم الأكبر من تَرِكَة الرجل العثماني المريض الذي خارت قواه . . ونتيجة لما لحق بالدولة العثمانية من أزمات سياسية واقتصادية حادّة ، هزّت كيان الإمبراطورية ودفعت كل الأوساط الحاكمة للقيام بالإصلاحات المختلفة ، . . لتقوية نفوذ السلطة المركزية . . من جانب ، وامتصاص نقمة الشعوب المضطَّهَدة وإرضاء

الدول الكبرى من جانب آخر . . وجاءت هذه الإصلاحات من الهيئات العليا في الدولة .

. . إنَّ هذه الإصلاحات . . قامت بهدف تعزيز النظام وتوطيده ومع ذلك وقف ضدها الكثير من العناصر النشيطة داخل الطبقة الحاكمة ، ولم يُرضِ الإصلاح بعض الأغوات في مناطق بلغاريا أيضاً ، فقامت انتفاضة (يانين) ، التي تزعّمها « عثمان بازيفان توغلي » ، وصارت الأراضي البلغارية ميداناً لمعارك حامية الوطيس ، دارت رحاها بين السلطة العثمانية المركزية والحكّام الأتراك الذين انشقّوا عنها .

وهكذا لم تبق بلغاريا بعيدة عن كل ما يجري في ساحة المجتمع العثماني[1] . .

. . . ولم تُفلح إصلاحات السلاطين العثمانيين المتواصلة داخل الإمبراطورية العثمانية في إزالة التناقضات القومية والدينية والاجتماعية الأخرى ، بل أدّت إلى احتدامها . . لتصفية الوجود العثماني في بلغاريا . . واستمرّ نضال الشعب البلغاري مدّة طويلة ضد السيطرة العثمانية . . ظهرت خلالها حركات الثائرين الذين عُرفوا بلقب « الهايدوك » . . وقادوا التمرّدات الفلاّحية والمسلّحة ضد العثمانيين[2] . .

اجتماع إسطنبول وتقسيم « بلغاريا » :

في نهاية عام (١٨٧٦م) عُقِدَ اجتماع بين الدولة العثمانية والدولة الروسية في مدينة « إسطنبول » بناء على طلب من السلطات الرسمية في

---

(١) انظر لمحات من تاريخ بلغاريا (ص١٧٩ ـ ١٨٥) .

(٢) انظر : المصدر السابق (ص١٩٦) .

« بطرسبورغ » عاصمة روسيا ، واشترك في الاجتماع ممثلون عن دول غرب أوربا الكبرى .

وفي هذا الاجتماع اقترحت روسيا الاعتراف بالحكم الذاتي لبلغاريا ، وعدة مناطق أخرى من شبه جزيرة البلقان .

عارض الاقتراح كل من مندوب « بريطانيا ، ومندوب النمسا ـ الهنغارية » اللّذين اتفقا على مشروع يقضي بتقسيم بلغاريا إلى دولة بلغارية شرقية عاصمتها (ترنوفو) ، وأخرى غربية عاصمتها (صوفيا) ، . . وفُضَّ الاجتماع بالمصادقة على مشروع التقسيم (البريطاني ـ النمساوي) الذي طالب بالاستقلال والسيادة الوطنية لشمال بلغاريا ، وبالخضوع ضمن دائرة النفوذ العثماني لجنوبها ، ومع ذلك فقد اعترضت الجهات العثمانية بحجّة الإصلاح الذي فرغ لتوّه السلطان « عبد المجيد » من إقراره ، والذي جرى بموجبه تعديل الدستور العثماني ، بحيث صار يضمن كافة حقوق وحريّات جميع الشعوب الخاضعة للدولة العثمانية .

إنَّ هذا الموقف من جانب السلطات العثمانية ، لم يؤدِّ إلى إيقاف المعارك بين البلغار والدولة العثمانية ، وإنما ضاعفها ودفع روسيا القيصرية للّجوء إلى القوة من أجل تنفيذ المشروع الذي أُقرَّ في اجتماع « إسطنبول » المشار إليه آنفاً . .

ولم يبقَ أمام الدولة العثمانية إلا إعلان الحرب ضد روسيا اعتباراً من (١٢ نيسان ١٨٧٧ التي استمرّت حتى بداية ١٨٧٨م .) .

الحرب العثمانية ـ الروسية :

انتهزت اللجنة المركزية البلغارية فرض إعلان الحرب ، فدعت جماهير الشعب البلغاري للالتحاق بصفوف المتمرّدين والانضمام إلى

الجيش الروسي والتصّدي للقوات العثمانية.. وجرى تشكيل جيش بلغاري من المتمرّدين بلغ قوامه (٧٤٤٤) متمرداً من المتطوعين البلغار بقيادة الجنرال الروسي « ن .ح . ستوليتوف » . والتحم هذا الجيش مع قوات « عثمان باشا وسليمان باشا » في معارك طاحنة بهضاب (ستارابلانينا) . وفي ضواحي مدينة (بلفنة) ، وعلى قمة سلسلة جبال (شيبكا) في (٩ ، ١٠ ، ١١ من آب ١٨٧٧م)[١] .

.. كانت القوات الروسية قبل ذلك قد استطاعت عبور نهر الدانوب يوم (٢٢ حزيران ١٨٧٧م) وأكملت عبورها يوم ٢٧ منه فتصدّت القوات العثمانية لها ، وكانت القوات الروسية قد استولت على مدينة (نيقوبوليس) وسارع الجيش العثماني وحصّن مدينة (بلفنة).. وعاود الروس هجومهم مرة وأخرى في (تموز) ونجحت القوات العثمانية في إحباط الهجوم الروسي مرتين وأنزلت بالقوات الروسية والرومانية التي تحالفت معها ، خسائر فادحة.. وكادت الفِرَقُ العثمانية ، أَنْ تعيد الروس إلى الحدود ، ولكنَّ روسيا ورومانيا ألقتا بكامل ثقلهما في المعركة ، ومع ذلك استطاع العثمانيون الصمود وإحراز بعض الانتصارات أمام مضيق (شيبكا) وحول (بلفنة) ، غير أن التفاوت بالعَدَدَ والعُدَد ، غيّر مجرى المعركة واندحرت القوات العثمانية حتى (بلفنة) التي حاصرتها القوات الروسية ـ الرومانية (مع المتمردين البلغار) ، وانهزم العثمانيون.. وتراجعوا ، واغتنم الفرصة الجبل الأسود فأعلن الحرب عليهم ، وتقدّم الروس واحتلّوا (صوفيا) وتابعوا سيرهم حتى أصبحوا على مسافة (٥٠) كيلومتراً فقط من العاصمة

---

(١) المصدر السابق (ص ٢٤٩ ـ ٢٥٢) .

(إسطنبول) وطَلَبَ الباب العالي من الدول التوسّط بينه وبين الروس حقناً للدماء .

ولكنّ أوربا لم تُلْقِ بالاً لهذا الطلب واستمرّ القتال طيلة الشتاء .

وتوجّهت الجيوش الروسية إلى ماوراء جبال البلقان كي تكمل احتلالها لبلغاريا والروملي الشرقية بمساعدة الجيش الصربي.. وتكاثرت الدول على الدولة العثمانية فكان لا بدَّ لها من طلب الصلح لعدم قدرتها على مواصلة القتال..

انتهت العمليات العسكرية وبدأت المفاوضات بين العثمانيين والروس في (٢١ كانون الثاني ١٨٧٨م) ورفع العثمانيون الحصار عن سواحل البحر الأسود الروسية ، وطلبت النمسا من إنكلترا الاشتراك في عقد مؤتمر لمندوبي الدول المُوَقِّعة على معاهدة باريس التي عقدت في (٣٠ آذار ١٨٥٦م) ، للنظر في شروط الصلح والمحافظة على حقوق الدول الغربية واضطرت الدولة العثمانية التوقيع على المعاهدة الجديدة باسم (معاهدة سان استيفانوس)[١] .

* * *

---

(١) انظر : كتابنا : المسلمون في يوغسلافيا (ص٨٥ ـ ٧٨) وانظر فيه : معاهدة باريس (ص٦٦ ـ ٦٧) .

معاهدة
سان استيفانوس

التقى مندوبو الدولة العثمانية ومندوبو روسيا في بلدة (سان استيفانوس[1]) وتقدّم المندوب الروسي بشروط مسبقة ، طلب التوقيع عليها مباشرة ، وإلاّ تتقدم الجيوش الروسية وتحتل العاصمة العثمانية ، ولم يكن للدولة العثمانية من خيار سوى التوقيع على الشروط الروسية ضمن المعاهدة ، وفيما يلي بعضاً من بنودها :

- تعترف الدولة العثمانية باستقلال : رومانيا ، وتأخذ « بلغاريا » استقلالاً إدارياً ويكون موظفوها وجندها من النصارى فقط ، كما يجري انتخاب أميرها من أهل البلاد بحرية تامّة ، ولا يمكن للجنود العثمانيين البقاء في بلغاريا ، كما حدّدت مدة ثلاث سنين لإنهاء أملاك المسلمين الذين كانوا يقيمون في البلاد التي استقلّت عن العثمانيين وتصفّي كل علاقاتها بهذه البلاد .

كما نصّت المعاهدة على أن تبقى مضايق بحر (مرمرة) ، (البوسفور ، والدردنيل) مفتوحة للسفن الروسية زمن الحرب والسلم .

---

(١) سان استيفانوس : بلدة تركية (يزيلكوي) اليوم .

مادة ١٩ ـ (إنَّ مبالغ التعويضات الحربية التي طلبها حضرة قيصر الروسيا ، هي في مقابل الأضرار والخسائر التي تكبدتها دولة روسيا بسبب هذه الحرب والتي تعهَّد بدفعها الباب العالي) .

.. ويكون مجموع المبالغ المطلوبة ـ كتعويضات ـ (١,٤١٠ مليار روبل) أو (٢٤٥,٢١٧,٣١٩١) مليون ليرة عثمانية ذهبية ، وريال مجيدي أبيض ونصف .

(هذا وإن القيصر قد لاحظ ضيق حال الدولة العلية من جهة المال. . ووافق بالقبول على أن تترك الدولة العلية الأراضي المحرّرة أسماؤها أدناه عوضاً عن المبالغ المذكورة). . والأراضي هي : التي تجاور روسيا من الشرق والجنوب والغرب من حدودها مع إيران إلى حدود رومانيا مقابل (مليار و١١٠ملايين روبل) أما الباقي وهو (٣٠٠مليون روبل و١٠ملايين روبل خسائر المواطنين الروس . حُرِّرَ في سان استيفانوس بـ ٣ مارس / آذار ١٨٧٨م)[1] .

نتائج المعاهدة :

كان من نتائج هذه المعاهدة : سَلْخُ كامل ممتلكات الدولة العثمانية عن جسمها في أوربا ، ـ عدا بعض القطع الصغيرة المتفرقة والتي لا يمكن الدفاع عنها ، لعدم اتصال أجزائها ببعضهاـ . ويمكن القول أن خلاصة الأمر انحصرت في تخلّي الدولة العثمانية عن ممتلكاتها ـ عدا ألبانيا ـ مثل : الجبل الأسود ، صربيا ، البوسنة والهرسك ، بلغاريا . . وبلغت

---

(١) انظر : تاريخ الدولة العلية العثمانية/ محمد فريد ، لمعرفة النص الكامل للمعاهدة (ص٤٤٣ ـ ٤٦٣) .

خسارتها بموجب معاهدة (سان استيفانوس) ، (٨٣٪ من الأراضي و٦٩٪ من السكان) ، وبقيت هذه المعاهدة دون تطبيق لاختلاف البلقانيين على تقاسم الأراضي ، لعدم مراعاة مصالح الأمم وحدودها في هذه المعاهدة ، بل أضافوا ، وخلقوا كثيراً من المشاكل ، ولم يُراعوا فيها إلاّ صالح سياسة روسيا ، وأرسلت هذه الأمم رسائل إلى سفراء الدول الأوربية طالبة إعادة النظر في هذه المعاهدة وصَوْن حقوقها . .

العلاقات الدولية المضطربة :

. . اقترحت النمسا بعد هذه المعاهدة وعدم رضا جماهير البلقان ، بعقد مؤتمر في (برلين) برئاسة « بسمارك » الذي يُعْتَبَر المؤسس الحقيقي للإمبراطورية الألمانية . . للنظر بالأمور الطارئة . . ولكنَّ روسيا عارضت هذا الشرط . . وساءت العلاقات بينها وبين بريطانيا التي أخذت تستعد لخوض الحرب ، وجمعت أكثر سفنها الحربية في جزيرة (مالطة)[١] لإكراه روسيا على تعديل المعاهدة ـ ولو بالقوة ـ لإضرارها بالمصالح البريطانية[٢] .

تعديل معاهدة (سان استيفانوس) ومؤتمر برلين :

. . كان المؤتمر الذي عقد في مدينة (برلين) الألمانية برئاسة مستشار ألمانيا « بسمارك » قد ألغى المعاهدة واستعاض عنها بمعاهدة

---

(١) مالطة : Malta : دولة وجزيرة في المتوسط جنوب جزيرة صقلية الإيطالية عاصمتها : فاليتا ، سكانها (٣٥٠,٠٠٠) نسمة استقلّت ١٩٦٤م ، من دول الكومنولث .

(٢) انظر : فن الحرب الإسلامي / بسام العسلي (٥/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩) .

جديدة لحرمان روسيا من المكاسب التي منحتها المعاهدة لها وترضية لبريطانيا . . وانتهى المؤتمر بمعاهدة (برلين) .



* * *

معاهدة برلين

.. انعقد مؤتمر برلين بحضور : الدولة العثمانية ، بريطانيا ، ألمانيا ، النمسا ـ المجر ، فرنسا ، إيطاليا ، وروسيا . . وأهم مواد المعاهدة التي تتعلق بأملاك الدولة العثمانية في البلقان وبخاصة (بلغاريا) ، هي :

ـ مادة ١ ـ تكون بلغاريا إمارة مستقلة في أمورها الداخلية ، تحت التبعية العثمانية .

ـ مادة ٢ ـ المسلمون ، وغيرهم من أصحاب الأملاك في بلغاريا ، ويسكنون خارجها ، يجري تصفية ممتلكاتهم خلال ثلاث سنوات .

ـ مادة ١٣ ـ تشكيل في جنوب البلقان ولاية (الرومللي الشرقية) ، تتبع الدولة العثمانية ويكون واليها نصرانياً .

ـ مادة ٢٥ ـ تقوم النمسا ـ المجر ، بإدارة البوسنة والهرسك .

ـ مادة ٤٥ ـ إمارة رومانيا تعيد إلى روسيا أراضي (بيسارابيا) التي كانت قد انفصلت بمعاهدة باريس . .

ـ مادة ٦٢ ـ لا يجوز التمييز في العقائد الدينية في جميع أراضي الدولة العثمانية .

ـ مادة ٦٣ ـ تبقى معاهدة باريس الموقعة في (٣٠ آذار ١٨٥٦م) . ومعاهدة لندن الموقَّعة في ١٣ آذار ١٨٧١م) . . مرعية الاجراء .

برلين في (١٣ تموز ١٨٧٨م)[١] .

التواقيع

---

(١) انظر : تاريخ الدولة العلية العثمانية / محمد فريد (ص٤٧١ ـ ٤٩٢) .

ما بعد المعاهدة

.. لم تحلّ الحرب الروسية ـ العثمانية (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨م) ولا المعاهدات التي أُبرمت ، قضية الشعب البلغاري حلاً عادلاً ، بالرغم من الدَّوْر الذي لعبته.. فواصلت جماهير بلغاريا الجنوبية وخصوصاً في مقدونيا ، نضالها ضد قرارات مؤتمر برلين ولم تستسلم أمامها ، وواصلت نضالها ، من أجل توحيد الأمة البلغارية.. ومن أجل هذه الغاية ظهرت في عدة مناطق من جنوب بلغاريا مجموعة من المنظمات الثورية التي بدأت بإشعال نيران الانتفاضات الشعبية الرَّامية إلى تحقيق الهدف في التحرير والوحدة..

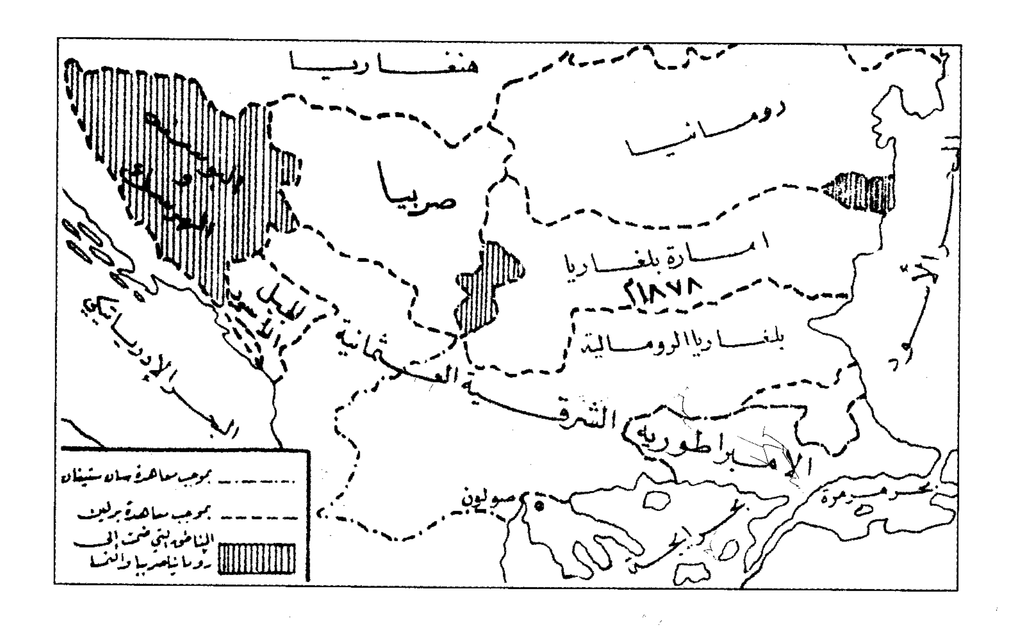
أمّا في شمال بلغاريا فقد أخذت القوات الروسية تُنظِّم الحياة السياسية وتدير الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ومن أجل هذه الغاية قَسَّمت البلاد إلى ثماني محافظات ، وخمس وخمسين ناحية ، وشكّلت جيشاً وطنياً قوامه (٢١,٠٠٠) مجنّد.. ثم أخذت تمهّد لإعداد مشروع لدستور الدولة الفتية.. حيث جرى تحت إشراف القوات الروسية انتخاب أميرٍ للبلاد.. ، بناء على طلب وترشيح قيصر روسيا « أَلكسندر الثاني » ، الذي اختار الأمير من الأقرباء المقرّبين للعائلة الملكية .

وفي بلغاريا الجنوبية (الروماللي الشرقية) أُقيمَ حكم الإدارة التي تولّى زمام السلطة فيها خمسة مندوبين ، وشُكِّلَ مجلس تشريعي أُنيطت به مسألة إقرار القوانين التي ماكان لمفعولها أن يسري قبل أن يحظى بموافقة

السلطان العثماني ، الذي كان مسؤولاً عن تعيين الحاكم العام الذي يرأس ـ عادة ـ إدارة البلاد .

تطورت الأمور في بلغاريا بعد الحرب العثمانية ـ الروسية ، ومعاهدة برلين كثيراً . . واتفقت الأطراف جميعها المؤيِدة والمعارضة لسياسة الحكومة للعمل في تحقيق وحدة بلغاريا . . وفي نهاية عام ١٨٨٤م) وبداية ١٨٨٥م) انسحبت القوات الروسية من بلغاريا . . وتشكلت بدلاً منها منظّمات سريّة مسلّحة .

احتلت هذه المنظمات مدينة « بلوفديف » وأعلنت وحدة « الرومللي الشرقية » مع إمارة بلغاريا الشمالية في (٦ أيلول ١٨٨٥م) . وفي (٢٥ حزيران) انتخبت الجمعية الوطنية أميراً جديداً للدولة البلغارية يدعى « فرديناند كوبور غوسكي » وهو من المقربين لإمبراطور النمسا[1] .



---

(١) انظر : لمحات من تاريخ بلغاريا (ص٢٥٣ ـ ٢٥٤ و٢٦١) .

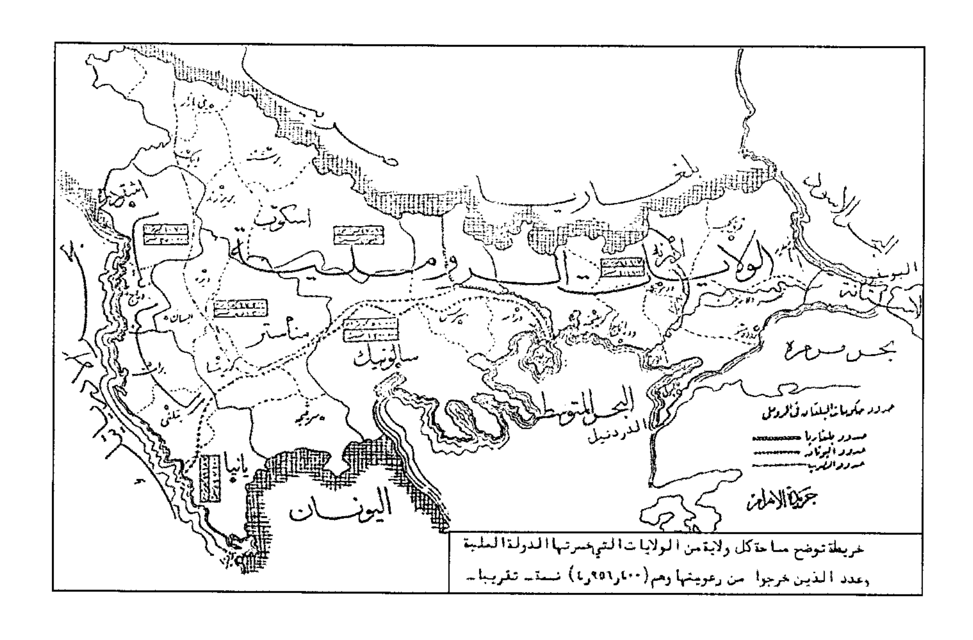
خسائر الدولة العثمانية

في أوربا

(من يطّلع على التاريخ العثماني في القرن التاسع عشر ، وبخاصة في نصفه الثاني يرى أن معاهدات كثيرة ومؤتمرات متعددة مثل مؤتمر ومعاهدة لندن ، معاهدة باريس وتعديلاتها ، معاهدة سان استيفانوس ، ومعاهدة برلين ، وفي أوائل القرن العشرين ، بعد الحرب العالمية الأولى ، معاهدة فرساي ، معاهدة تريانون ، معاهدة سيفر ، . . وغيرها من أنواع الاتفاقيات والمعاهدات وتعديلاتها وبروتوكولاتها . . تَنادىٰ الغرب لإبرامها مع الدولة العثمانية ، وإذا بحثنا عن الأسباب القريبة والبعيدة ، المباشرة وغير المباشرة ، نرى أَنَّ ساسة الغرب يلفّون ويدورون لخلق الأسباب الموجبة لتقييد الدولة ، ـ التي كانت تُعتَبر حامية للإسلام والمسلمين ـ ، بوضع العراقيل في كل مكان استطاع الغرب فيه أن يدسّ أنفه ويثير المتاعب أمام الدولة الإسلامية . . وإذا أمعنا النظر في مواد تلك المعاهدات والاتفاقيات التي أُرغمت الدولة على توقيعها ، نلاحظ التآمر الصريح والحقد الواضح ضد الدولة العثمانية لا لشيء إلاّ لأنها رفعت راية الإسلام على أرض أوربا ، الأمر الذي أقلق زعماء الكنيسة وملوك أوربا لخوفهم من ضياع مكتسباتهم وتسلّطهم على الأرض وجماهير الشعوب المسحوقة ، ومع أن الدولة العثمانية كانت توافق على

تنفيذ هذه الاتفاقيات ، إلا أن الغرب يظلّ يحيك الدسائس والمؤامرات ، ويشعل نار الحقد بين الحاكم والمحكوم ليزيد من انحسار الدولة الإسلامية عن أوربا ، وكان مسلسل هذه المعاهدات ماهو إلا لكسر شوكة الدولة الإسلامية ومحاصرة أهلها المسلمين ، وذلك ثأراً لهزائم الغرب السابقة ومحاولة إخفات صوت الحق !!) .

* * *



خريطة توضح مساحة كل ولاية من الولايات التي خسرتها الدولة العلية وعدد الذين خرجوا من رعويتها وهم (٤٬٩٥٦٬٤٠٠) نسمة تقريباً .

المسألة الشرقية

.. حسب مقرّرات مؤتمر برلين الموقّعة في تموز ١٨٧٨م ، بقيت (مقـدونيـا) ، (MACDONIE) ، وأدرنـة (Adrianopolie) ، وتـراقيـا (Thracie) تحت السيطرة التركية مع الوعد بإجراء الإصلاحات فيها ، وأعطيت منطقة دوبروجا الشمالية (Dobroudja) ، إلى رومانيا ، أمّا مناطق نيش (Niche) وبايروت (Pyrute) فقد أُعطيَتْ لصربيا ، فالمناطق التي ضُمَّت إلى رومانيا وصربيا كانت حتى ذلك الوقت تدخل في عِداد المناطق التي امتدت إليها سلطة الكنيسة البلغارية ـ بعد استقلال البلغار دينياً عن الكنيسة اليونانية في إسطنبول . ووضعت بلغاريا توحيد ، إمارة بلغاريا ومقاطعة الرومللي ، على لائحة مهامّها . والتخلُّص نهائياً من السلطـة العثمـانيـة ، وتحـريـر (مقـدونيـا) ، و(أدرنـة) مـن السيطـرة الأجنبية .

.. لقد بقيت الكنيسة الممثّل الشرعي الوحيد والمدافع عن حقوق السكان البلغار في الولايات العثمانية الأوربية ، فاهتمَّت بقضيتهم الثقافية وخلقت ، وبشكل تدريجي ، فئة لا بأس بها من المثقفين التي رفعت شعار النضال الثوري ، ولقد تمكن التنظيم الكَنَسي البلغاري من تأسيس سبع أسقفيات ـ بموجب براءة من السلطان . .ـ[1] .

---

(١) انظر : تاريخ العرب والعالم/ العدد ١٤٠ت٢ وك١ (١٩٩٢م مجلة لبنانية/ مقالة بقلم=

وتحوّل الجزء الرئيسي من السكان المسيحيين في (مقدونيا) إلى رعاية الكنيسة البلغارية . .

وكان التنظيم الثوري الداخلي في مقدونيا وأدرنة ، في تلك الفترة يُعتبر المؤسسة السياسية والقومية الثانية ، للرعايا البلغار في مقدونيا وأدرنة . . وكان هذا التنظيم يطمح إلى الوصول بمقدونيا وأدرنة إلى الاستقلال السياسي الكامل .

. . ولكن هذا التنظيم فشل في انتفاضة قام بها في العام (١٩٠٣م) . . وفي أوائل خريف العام نفسه ، التقى قيصر روسيا وإمبراطور النمسا ـ المجر في مدينة (مورسنتاغ) ونتج عن اللقاء برنامج إصلاحي في ولايات : سولون ، بيتوليا ، وسكوبيا . . لكن هذه الإصلاحات الإدارية المقترحة لا تصل إلى حدٍّ طرح فكرة الحكم الذاتي الذي تناضل من أجله الحركة ، والأخذ بعين الاعتبار أَنَّ الإصلاحات لا تشمل (أدرنة) .

أما السلطات العثمانية فقد بذلت جهودها من أجل إفشال هذه الإصلاحات . .

وخلال العام (١٩٠٨م) نجحت ثورة (تركيا الفتاة) واتُّبِعَ في الإمبراطورية العثمانية نظام دستوري ، رافقه عفو سياسي ، إلاّ أَنَّ النظام السياسي الجديد بُني على أساس فكرة (الطورانية) التي تهدف إلى استيعاب وهضم القوميات الأخرى غير التركية . . وهذا أدّى إلى ازدياد التوتر والتناقضات في الإمبراطورية .

إثر نجاح ثورة (تركيا الفتاة) خرجت العصابات المسلّحة التي كانت

= د . لطفي المعوش ، أستاذ في الجامعة اللبنانية (ص٦١ ـ ٦٢) .

مخبّأة في جبال مقدونيا وغاباتها والعصابات البلغارية واليونانية والصربية التي كانت لا تنقطع عن تحيّن الفرص لمهاجمة المخافر وإحراق القرى ، خرجت من معاقلها ونزلت إلى مراكز الإدارة تعلن تأييدها للعهد الجديد ، وكان من نتائج ذلك أَنَّ أعلنت السلطات العثمانية العفو عن الكثير من البلغار ، . . وباختصار يمكن القول أن حلَّ المشكلة القومية البلغارية تَمكَّن مِن تحقيق مَهَمَّتيْن رئيسيَتَيْن : اتحاد إمارة بلغارية مع الروملي الشرقية ، وإعلان استقلال الدولة الموحدة لبلغاريا ، وبقيت مشكلة مقدونيا وأدرنة دون حلّ ، واستمرت الخلافات في جميع انحاء البلقان[1] .

* * *

(١) انظر العرب والعالم (ص٦٣ ـ ٦٤) .

وضعية الإسلام والمسلمين في بلغاريا والرومللي الشرقية

.. إن الأمر في بلغاريا والرومللي الشرقية صعب ومعقّد لدراسة أوضاع المسلمين فيها ، وتنمو الصعوبة كلما حاولنا ضبط هذه الطائفة المسلمة إمّا عن طريق الإحصاء أو عن طريق رصد تطورها ونموّها وتقلُّصها ومعرفة موقفها من السلطة المحلية أو من الباب العالي .

لا تكمن الصعوبة في الدراسة بحدِّ ذاتها نظراً لما تذخر به البلاد من منشآت دينية ومؤسّسات إسلامية بقدر ما توجد هذه الصعوبة في الأرض وفي النطاق المحيط بها وهو النطاق السياسي العام الذي عمّ بلاد البلقان برمّتها ، ويتّضح ذلك بسرد سببيْن اثنين :

١ ـ إن المرء يجد نفسه أمام فسيفساء دينية تضمّ أربع مجموعات عرقية مسلمة تنتسب كل واحدة منها إلى مناطق مترامية الأطراف ، لكنها استقرّت في منطقة البلغار بعوامل متعدّدة.. لأن هجرة المسلمين كانت واردة في كل وقت وحين إمّا بتصدّع العلاقات المحلّية أو الخارجيّة ، أو بمفعول الحروب الطاحنة..

٢ ـ إنّ النزاعات السياسيّة والحروب التي تعرّضت لها منطقة البلقان أدّت كذلك إلى استحالة ضبط الأرض بوساطة الحدود لأنّ المنطقة كانت تتعرّض إلى التقلّص الترابي بعد هزيمةٍ عسكريةٍ ما ، أو إلى التوسُّع الترابي

بعد نجاح عمليّةٍ عسكريّةٍ ما . وسنرى أَنَّ الحربين البلقانيّتين الأولى والثانية اللتين عرفتهما المنطقة في بداية القرن العشرين كانت فيها حدود دولها تتغيّر كما يتغيّر الطقس . .

. . لقد لعب مؤتمر برلين دوراً حاسماً في تغيير الخريطة السياسيّة في أوربا كما أدخلت بسببه تعديلات مهمّة على صعيد العلاقات الأوربية ، بل إنّه كانت تمهيداً للتقارب الروسي الفرنسي الذي نتجت عنه معاهدة ١٨٩٠م فكانت بمثابة حلف دفاعي هجومي ضدّ الإمبراطوريّة الألمانيّة وبه دخلت الدولتان المذكورتان جنباً إلى جنب في الحرب العالمية الأولى ضدّ ألمانيا .

لم تكن الطائفة الإسلامية في بلغاريا والروماللي الشرقية ـ نظراً للتشتّت العرقي ـ تتمتّع بالقوة والانسجام ، كما كان عليه الحال في ألبانيا ، لانعدام التنظيم أولاً وغياب القوانين الأساسيّة لضبط العلاقة بين أفراد الطائفة الإسلامية وبين مجموعاتها وضبطها ثانياً أمام السلطة الحاكمة[١] . .



قائد حامية يانينا



قائد موقع اشقودره

---

(١) انظر : التاريخ العربي / العدد ٧/ صيف /١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م/ ، مجلّة تبحث في التاريخ العربي والتراث الإسلامي ، المملكة المغربية ، الرّباط (ص٢٣٩ ـ ٢٤٣) .

الاتحاد البلقاني
والحرب البلقانية الأولى

(. . لم تستطع الدول الغربية الكبرى إنهاء مشكلة المسألة الشرقية وبقيت أمور كثيرة معقّدة لم تُحلّ بسبب أطماع الدول الكبرى واختلاف سياساتها . .) .

قال أحد الساسة في وصف المسالة الشرقية : « إنّ هذه المسألة ستبقى شوكة في جنب أوربا إلى الأبد »[1] .

. . عندما وصل « فرديناند » إلى الحكم في بلغاريا بصفته ملكاً عليها حاول أن يقود الدولة بحكمة وتبصّر ، لكن الظروف الأوربية ووضعيّة بلاده والانقسامات الداخلية من جهة والخارجية من جهةٍ أخرى حيث أخذ البلغار الذين ظلّوا تحت الهيمنة العثمانية في مقدونيا يطالبون بالاستقلال والوحدة ، كل ذلك كان سبباً للتخبّط السياسي الذي أدّى بالبلاد إلى الخسائر السياسية والعسكرية والإقليمية .

قطع فرديناند سنة ١٩٠٨م كلَّ صِلاتِه مع الباب العالي لينصِّب نفسه قيصراً على بلغاريا في مدينة « ترنوفو Tarnovo » في يوم السادس من أوكتوبر / تشرين الأول/ من السنة المذكورة ، ثم عقد مع صربيا ورومانيا

---

(١) انظر : تاريخ الحرب البلقانية المصوّر / سليم العقّاد ١٩١٣ (ص١/٢٨) .

الحلف المشهور وهو الاتفاق البلقاني ليعلن عن طريق هذا الحلف الحرب على تركيّا « سنة ١٩١٢ » وهي الحرب البلقانيّة الأولى[١] .

(. . كانت الحلول المؤقتة والتي لم تراعِ حقوق الشعوب في البلقان دافعاً للبحث عن طريق توصلها إلى غايتها) . . ، وكانت فكرة عقد اتحاد بلقاني يهدف إلى إعلان الحرب على الدولة العثمانية ، واشتركت كل من : صربيا واليونان وبلغاريا في هذا الاتحاد ، بعد أن قامت كل واحدة منها على حِدة بطلب توقيع اتفاقية دفاع مشترك مع بلغاريا ، وإقامة حلفٍ معها لإعلان الحرب على الدولة العثمانية بهدف تحرير الأراضي البلقانية التي مازالت تحت نفوذها ، ومن أجل تقاسم وتوزيع القسم الشرقي من أراضيها في حال التغلّب عليها في هذه الحرب[٢] . .

التعبئة البلغارية :

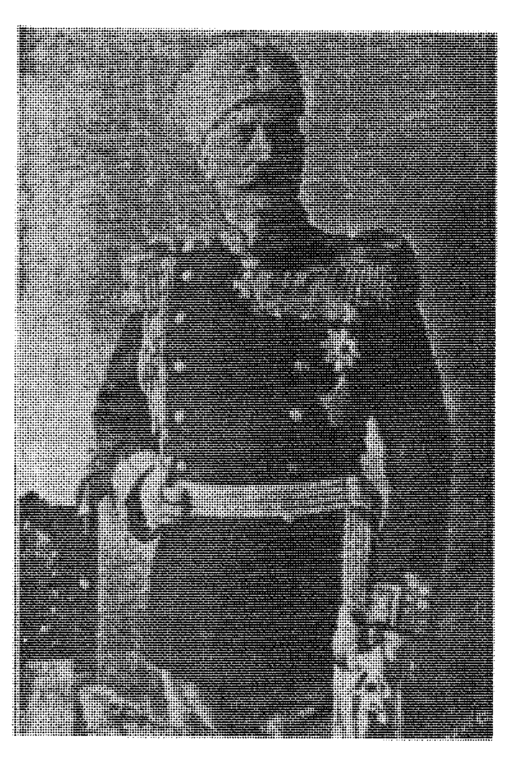
. . أجرت الحكومة البلغارية في شهر (أيلول سنة ١٩١٢م) تمرينات حربية مهمّة في شمالي البلقان بين (شوملا « شومن » وتيرنوفو) . . فلما كان الثلاثون من الشهر المذكور ، أصدرت حكومتا البلغار والصرب في وقت واحد أمرهما بتعبئة الجيش ، فقابلت الحكومة العثمانية أمر التعبئة بالحجز على العُدَدِ الحربية المشحونة إلى الصرب ، وعلى البواخر اليونانية التي كانت راسية في موانىء البحر الأسود وبحر مرمرة ، فاعتُبِرَ هذا الحجز تحرّشاً وعدواناً ، وبدأت المناوشات بين خفراء الحدود من عثمانيين وبلغار ، وصرب ، وكان ذلك قبل إعلان الحرب ببضعة عشر يوماً .

---

(١) انظر : التاريخ العربي (ص٢٤٤) .

(٢) انظر : لمحات من تاريخ بلغاريا (ص٢٨٢ ـ ٢٨٣) .

تجمع الجيوش وإعلان الحرب :



الجنرال كوتنتشيف
قائد الجيش الاول البلغاري

استمرت الحكومة البلغارية مدة ثلاثة أسابيع باذلة همّتها في حشد جيوشها ، ونقلها إلى الحدود بينما كانت فرق الفرسان تهبط من (شومن) إلى الرومللي . . ، فلما تمت التعبئة وأصبح الجيش متأهباً للزحف قررت حكومة صوفيا إعلان الحرب .

كانت الوزارة العثمانية في صباح يوم (١٠ تشرين الأول ١٩١٢م) قد أوعزت إلى المعتمد البلغاري في الآستانة « سرافوف » بمبارحة العاصمة ، فكان جواب المعتمد تسليم وزارة الخارجية العثمانية البلاغ البلغاري بإعلان الحرب[1] .

.. وبدأت القوات الصربية واليونانية والبلغارية تزحف من عدة مناطق ، باتجاه الحدود العثمانية ، فاخترقتها ، ثم توغّلت عبر أراضيها ،

(١) انظر : الحرب البلقانية (١/ ٦٥ ـ ٦٦) .

وحين اصطدمت بالقوات العثمانية حققت الجيوش البلغارية انتصاراً ساحقاً عليها وفتحت الطريق أمامها إلى بحر مرمرة[1] .

الفشل العثماني :

.. في الساعة الأخيرة من ليل ١٧ـ ١٨ تشرين الثاني ١٩١٢م ، زحفت الفرقة الثالثة البلغارية واستولت على الخنادق العثمانية في الجنوب الشرقي من (لازاركوي) وعلى الاستحكامات التي كانت الخنادق تحميها . . وبين كرّ وفرّ جُرح (الفريق محمود مختار باشا) ـ قائد الفيلق الثالث العثماني ـ مرّتيْن .

.. وتوقفت الحركة الحربية نهار (١٨) تشرين الثاني . فكانت خسائر البلغار في ذينك اليومين بلغت (١٠,٠٠٠) بين قتيل وجريح . أمّا خسائر العثمانيين فكانت أقلّ . . هكذا كانت خسائر الجيشين ولم تلتحم في ذلك اليوم غير الطلائع . . وقد كانت حرب يومي (١٧ و١٨/ ١١/ ١٩١٢م) حرب استطلاع واستكشاف ليس إلا ، كلّفت الخصمين خسائر كبيرة ، وعلم البلغاريون أَنَّ العثمانيين أصبحوا في مواقفهم الجديدة مستعدّين لردّ أي هجوم . . ، وكانت قد بدأت المفاوضات بعقد الهدنة وتفشّت الأوبئة بين الجنود وغصّت المستشفيات في الدول الخمس المتحاربة بالجرحى والموبوئين ، فأوقفت الحركات الحربية بين الجانبين ، أما البلغاريون فتقهقروا بمعظم قواتهم زهاء ستة كيلومترات بين (١٩ و٢١ منه) . . ثم حصلت مناوشات خفيفة . . وفي يوم (٢٢) منه كانت آخر الحركات الحربية أمام (شطلجة) قبل الهدنة . التي بدأت في (٣كانون الأول ١٩١٢م) ، وكانت المفاوضات قد بدأت

---

(١) انظر : لمحات (٢٨٦) .

منذ (١٥ تشرين الثاني / نوفمبر) بين الباب العالي والحكومات البلقانية ، وقد طالت المفاوضات لأن (أدرنة) كانت تحت الحصار ـ الذي دام حوالي أربعة أشهر وتم تسليم (أدرنة) إلى الجيش البلغاري يوم (٢٦ آذار ١٩١٣م) وكان قائد الحامية العثمانية (شكري باشا) وقائد الجيش البلغاري هو : (الجنرال إيفانوف).. ثم استردّتها الدولة العثمانية بعد الحرب البلقانية الثانية ما بين ليلة وضحاها من غير حرب ولا طِعان ، لعجز بلغاريا عن صدّ القوات العثمانية .



محمود مختار باشا قائد الفيلق الثالث



الجنرال ايفانوف قائد جيش الحصار البلغاري

صكّ الهدنة :

.. تم الاتفاق على مايأتي : يتم عقد الهدنة بين القوات المسلَّحة البلغارية والصربية وقوات الجبل الأسود من جهة ، وقوات السلطنة العثمانية من جهة أخرى ، حتى يمكن مباشرة المفاوضات لعقد الصلح بين الدول المتحاربة .

ـ. . ومما جاء في صكِّ الهدنة. . تتعهد الحكومة العثمانية بأن ترفع الحصار عن موانىء البحر الأسود . وأن تُطلق حرية المرور على الخط الحديدي ، ولا تُعارض تموين الجيش البلغاري ، . . وتكون مفاوضات الصلح في (لندن) تبدأ بعد عشرة أيام من التوقيع على صك الهدنة[1] . .

تملّص اليونان من الهدنة :

أمّا اليونانيون فاتخذوا رفض الباب العالي تسليمهم (يانينا)[2] ـ وكانت لم تسقط بعد ـ حجّة للانفصال عن حلفائهم وعدم القبول بعقد الهدنة ، فاستمرّت الحرب ناشبة بين اليونان والعثمانيين في البر والبحر ، على أن تملّصها هذا لم يمنعها من الاشتراك في مفاوضات الصلح التي ابتدأت في العاصمة الإنكليزية في (١٦ كانون الأول ١٩١٢م). . وعلى الجملة فإن تملّص اليونان كان نافعاً للحكومات المتحالفة من كل جهة ومضرّاً بالحكومة العثمانية بشكل عام. .

أسباب الفوز والفشل

فوز البلغاريين :

. . لَغَطَ الكتّاب العسكريون كثيراً في أسباب هذا الانتصار وهذا الفشل. . ومهما يكن من أمر فإن الأسباب التي أفضت إلى انتصار البلغاريين لم تكن بمعزل عن أن يكون لها شأن كبير في الوصول إلى تلك النتيجة .

---

(١) انظر : الحرب البلقانية (١/ ١٢٣ ـ ١٢٧) .

(٢) يانينا : عاصمة (إيبرا ، وتسمى أيضاً (يانيا) موقعها حصين لغاية. . واسمها محرّف من (بوانينا : يوحنا) باليونانية كان فيها ١٧ جامعاً و٦ كنائس وكنيس واحد. .

أعلن البلغاريون الحرب بعد أن تعمّدوها سنين طويلة وأخذوا الأهبة لها على مهل ، فإِنَّ هذه الأمة التي كانت إلى عهد قريب ولاية عثمانية ، كان لا همّ لها ولا شاغل يشغلها ، غير مناجزة سيّدها القديم ، العداوة ، وإصلائه حرباً عواناً ، فأعدوا لخوض الحرب العدَّة اللازمة ، وتأهّبوا لها أدبيّاً ومادّياً ، باذلين في هذا السبيل كل مرتخص وغال . وكانت الغاية التي جعلها كل جندي بلغاري قبلة أفكاره هي :

(الفوز على الدولة العثمانية وإخراجها من أوربا) . .

فشل العثمانيين :

. . كانت أسباب الفشل والخذلان على كل لسان ، وفي رأس كل قلم ، وألقى معظم الكتّاب تَبِعَتَهُ على انقسام الأحزاب السياسية في البلاد العثمانية وتفرّق كلمتها وعلى اشتغال الجيش بالسياسة ، وتلاهيهم بها عن الجيش . .

إنّ قوام الحرب ثلاثة أمور : إعدادها ، وإدارتها ، وتنفيذها ، فإذا لحق الخَلَلُ واحداً من هذه الأمور الثلاثة ، كان وحده كافياً للتّسبب في الفشل .

قال الكولونيل « بوكابيل » : أما الإدارة العثمانية فلا ندري مقدار التّبِعَةِ التي نوجّهها إليها . . وأما التنفيذ فكل ما عُلم بشأنه ينحصر فيما كتبه فريق من المراسلين العسكريين شهود العَيان . بقي أمر إعداد الحرب وقد عرف القاصي والدّاني ، أنه كان بالغاً الدرجة القصوى من الخلل والنقص ، حتى ليصحّ أن يُقال : إنه لم يكن ثَمَّةَ استعداد للحرب على الإطلاق .

حديث أحمد مختار باشا :

. . وحادث السيد « جيفرياي » مراسل جريدة « الايكودي باريز » « أحمد مختار باشا » ـ رئيس الوزراء ـ حين إعلان الحرب ـ ، قال « مختار

باشا » : « إن حزب تركيا الفتاة قد قَلَبَ كل شيء رأساً على عقب . فقد كان ضباط لدينا في الماضي ترقّوا من بعد أن خدموا كجندي بسيط ، وآخرون تخرّجوا في المكاتب ، فلم يرضهم ذلك ، وأول ما فعلوه حين تقلّدوا الأحكام بدؤوا في إحالة أكثر الضباط على التقاعد وتعيين غيرهم ضباطاً . . من فتيان المدارس حتى بلغ عدد الذين أُدخلوا إلى الجيش في مدة ثلاث سنوات (١٥٠٠) ضابطاً ولكنّهم من الفتيان غير المجرّبين .

ثم لمّا نشأت الحرب لم يكن في الطابور ـ وهو ٨٠٠ مقاتل ـ سوى (سبعة ضباط) . . وكان من قبل (١٦ أو١٧) ضابطاً . . على أني توفّقت إلى أن أجمع في بدء الحرب لصدّ البلغار ، (٢٣٠,٠٠٠) مقاتل . . بيْدَ أن إدارة الميرة المكلّفة بالتموين لم تكن منظّمة فلبث كثير من الجنود الشجعان بغير قوت ثلاثة أيام . وماذا تريد أن يصنع جيش خالٍ من الضباط ومن الطعام ؟ لم يكن أقرب إليهم من الفرار ، ففعلوا[1] ! .


احمد مختار باشا


الجنرال سافوف
القائد العام لجيش البلغار

(١) انظر : الحرب البلقانية (٢/ ١٣١ ـ ١٣٦) .

مفاوضات الصلح

التقى ممثلو الدول المتحاربة كما يلي :

الوفد العثماني : برئاسة ناظر التجارة « رشيد باشا » وستة أعضاء .

الوفد البلغاري : برئاسة الدكتور « دانيف » ـ رئيس نوابها ـ وأربعة آخرون .

الوفد الصربي : برئاسة : « ستوبان نوفاكوفتش » ـ رئيس مجلس نوابها السابق ـ وخمسة آخرون .

الوفد اليوناني : برئاسة : « الفثيفيوس فنيزيلوس » ـ رئيس وزرائها ـ وأربعة آخرون .

جرت المحادثات في (لندن) ولكنها ، قُطعت فجأة من الجانب العثماني بسبب انقلاب قامت به مجموعة من الضباط الموالين للدولة الألمانية ، الذين كانوا غاضبين من موقف حكومتهم ، وحين تسلّموا زمام الأمر قطعوا الهدنة وواصلوا الحرب ضد القوات البلغارية .

.. وبعد فترة عادوا إلى المحادثات التي استمرت من (١٣ آذار حتى ١٧ آيار ١٩١٣م) .

.. وجرى في النهاية توقيع المعاهدة التي أسفرت عنها المحادثات ـ وهي معاهدة لندن ـ . يوم الجمعة في (٣٠ أيار/ مايو عام ١٩١٣م) .

* * *

معاهدة لندن

تضمنت المعاهدة سبع مواد أهمها :

المادة الثانية : يتنازل جلالة السلطان الأعظم للملوك المتحالفين عن كل الأملاك العثمانية في القارة الأوربية الواقعة غرب خط يبدأ من (إينوس) على بحر إيجة ، وينتهي في (ميديا) على البحر الأسود ـ مع استثناء (ألبانيا) .

أما تخطيط الحدود الجديدة بين (إينوس وميديا) فتتولاّه لجنة تعيّنها الدول الأوربية العظمى .

المادة الرابعة : يتنازل جلالة سلطان تركيا للملوك المتحالفين عن (جزيرة كريت) وعن كل مالَهُ عليها من حقوق السيادة وماجرى مجراها .

المادة الخامسة : وفيها ، أن زعماء الدول الكبرى يقرّرون مصير الجزر العثمانية في بحر إيجة[1] . .

* * *

---

(١) انظر : الحرب البلقانية (٣/ ١ و٩٠ و٩١) وأيضاً انظر : لمحات (ص٢٨٧) .

الحرب البلقانية الثانية

أو حرب الحلفاء

ما إن انتهت الحرب البلقانية الأولى ضد العثمانيين ، حتى نشب خلاف حادّ بين الدول الثلاث المتحالفة : صربيا واليونان وبلغاريا ، وبسبب الأطماع التوسّعيّة لدى ملك البلغار ، تحوّل الخلاف بسرعة إلى نزاع عسكري كان بداية الحرب البلقانية الثانية ، وكانت بداية هذه الحرب بين صربيا وبلغاريا في ليلة / ٢٤/ يونيو/ حزيران سنة / ١٩١٣م/ عندما هاجم (٦٠٠) رجل من الجيش البلغاري المراكز المتقدّمة للجيش الصربي ، في منطقة « كراتوفو Kratovo » ، وكان هذا الاعتداء يرمي إلى تحقيق هدفٍ وطني في رأي المسؤولين البلغار ، أي إلحاق مقدونيا ببلغاريا[١] .

كما ادّعت كل دولة أنّ لها الحق في السيطرة على الأراضي المقدونية باعتبارها جزءاً لا يتجزّأ من كامل أراضيها ، وحينما عجزت صربيا واليونان عن إثبات ذلك ، ولم تستطع تحقيقه والفوز بهذه الأراضي ، طالبت كل واحدة منها بجعل قضية (مقدونيا) قضية مستقلة بذاتها . وأصرّتا على عدم اعتبارها قضية خاصة بأيِّ دولة من هذه الدول الثلاث .

---

(١) انظر : التاريخ العربي (ص ٢٤٥) .

واتفقت الآراء ، والتقت أخيراً حول المطالبة بالحكم الذاتي لكل المناطق البلقانية المحرّرة أثناء الحرب البلقانية الأولى عام (١٩١٢م) ، بما في ذلك الأراضي المقدونية .

وقد توخّت كلٌّ من اليونان وصربيا من وراء ذلك ، العمل على اجتذاب سكّان (مقدونيا) نحوها مع مرور الزمن ، وبالتالي الاستيلاء على أراضيهم بطرقها الخاصّة ، ثم ضمّ مقدونيا إليها .

أما بلغاريا فقد أدركت اللعبة وارتضت بترك المسألة للمنظّمات الثورية المقدونية صاحبة الحق في تقرير مصير الأراضي المقدونية . . ونجحت في دفع المنظّمات للمطالبة بالاستقلال والحكم الذاتي الذي كان يُعتبر خطوة تمهيدية لاسترجاع (مقدونيا) وضمّها للأراضي البلغارية . . وانتهزت الدول الكبرى هذا الخلاف ، الذي عملت من أجله طويلاً ، ثم دفعت أعوانها ومؤيديها في كل من الدول الثلاث للعمل على تعميقه ، وفي الوقت نفسه قامت بتشجيع (رومانيا) على المطالبة بمنطقة (دوبرجا) ، . . بصفتها بالأصل أرضاً رومانية قبل أن تكون أرضاً بلغارية .

وسعت كل دولة من الدول الغربية إلى الوقوف بجانب الدول البلقانية وتقديم الوعود لها بالمساعدة بهدف الحصول على تأييدها والتحالف معها ، في هذه الفترة بالذّات حيث أخذت الدول الكبرى تنقسم على نفسها وتتجمّع في حلفين رئيسين الأول : جمع إنكلترا وفرنسا وروسيا القيصرية ، والثاني : ضمّ : ألمانيا والنمسا وإيطاليا . وقد سعى كل حلف إلى التظاهر بتأييد مطالب كل دولة من دول البلقان ، وبعضها سارع إلى توقيع المعاهدات العلنية والملاحق السرية معها وعمل على تشجيعها بكل السبل للوقوف إلى جانبها في الحرب العالمية المقبلة التي كان كل

طرف يتوقّعها ، ويعمل من أجل إشعالها[1] . . ولكن السلام قد تحقق في مؤتمر « بخارست » عام (١٩١٣م) وتم الاتفاق بين رومانيا وصربيا واليونان والجبل الأسود من جهة ، وبلغاريا من جهة أخرى . .

. . إن موضوع الخلاف الحاصل في منطقة البلقان يرجع إلى المرامي التوسعية والبحث عن منافذ بحرية ، وهذا الصراع الذي اشتدّ شأنه واستفحل داؤه هو الذي جرّ الدول الأوربية إلى المصيدة البلقانية[2] .

* * *



مؤتمر بخارست . يتصدره (١) المسيو ماجورسكو . وعلى شماله (٢) المسيو فنيزيلوس . وعلى يمينه (٣) المسيو طوشف (٤) المسيو باسيك . و (٥) مندوب الجبل الاسود وامامهم المندوبون العسكريون

---

(١) انظر : لمحات من تاريخ بلغاريا (ص٢٨٩ ـ ٢٩١) .

(٢) انظر : التاريخ العربي (ص٢٤٦) .

الخسائر البشرية في الحرب البلقانية الأولى والثانية

١ـ بلغاريا :

	الضباط	الجنود	المجموع
القتلى	٥٧٩	٤٣,٧٧٣	٤٤,٣٥٢
الجرحى	١,٧٣١	١٠٢,٨٥٥	١٠٤,٥٨٦
المفقودون	٧١	٧,٧٥٣	٧,٨٢٤

٢ـ اليونان :

وقدرت خسائر اليونان في الحربين بنحو (٤٠,٠٠٠) ألفاً بين قتيل وجريح .

٣ـ الصرب :

قدّرت خسائرهم في الحرب الأولى بنحو (٣٠,٠٠٠) ألفاً بين قتيل وجريح ، ولم تكن خسائرهم في الحرب الثانية بأقلّ منها .

٤ ـ الجبل الأسود :

أما الجبليّون فتقدّر خسارتهم بـ (٨٠٠٠) مقاتل .

الأرباح والخسائر في الأراضي والسكان

الأرباح :

كان لليونان النصيب الأكبر من الأملاك العثمانية المسلخة ، وتلتها صربيا فبلغاريا ثم رومانيا فالجبل الأسود .

وكان مجموع الأراضي التي ربحتها الدول البلقانية المذكورة هي ما يلي :

(١٣٥,٣١٦) كيلومتراً مربعاً ، أما السكان الذين دخلوا في حكمها فبلغ عددهم (٤,٠٦٥,٤٠٠) نسمة .

الخسائر :

كان القسم الأكبر منها واقعاً على الدولتين العثمانية والبلغارية .

فالدول العثمانية كانت مساحتها في أوربا قبل الحرب (١٨٥,١٦٠) كم٢ فبقي لها بعد الحرب الأولى بموجب معاهدة لندن (٩,١٦٧) كم٢ ، ولكنها عادت في الحرب الثانية فاستردت أملاكاً مساحتها (١٦,٢٠١) كم٢ ، أما سكانها في أوربا كان عددهم (٦,٩٩٧,٦٤٦) نسمة ، فبقي لها (١,٦٢٣,٠٠٠) ن ولكنها استردت (٧٢٥,٠٠٠) نسمة[1] . وكانت حصيلة حروب البلقان أن زادت حدّة التناقض بين الدول التي أعلنتها إلى أن

---

(١) انظر : الحرب البلقانية (٣/ ١٧١ ـ ١٧٢) .

تحولت إلى حرب باردة مهّدت السبيل لنيران الحرب العالمية الأولى . .

(بعد أن انتهت حرب البلقان الثانية في أواخر عام (١٩١٣م) ، وما كادت دول البلقان ومنها بلغاريا أن تلتقط أنفاسها ، إلا وبدأت الحرب العالمية الأولى في ٢٨/٧/١٩١٤م ، وامتدت حتى ١١/١١/١٩١٨م) .



ملوك وقادة الجيوش في حروب البلقان

بلغاريا في الحرب العالمية الأولى

لقد دخلت بلغاريا هذه الحرب بجانب دول المحور : ألمانيا والنمسا ، ولكنها انهزمت . . وقد تسببت هذه الهزيمة التي لحقت بالجيش البلغاري باستياء شعبي كاد أن ينقلب إلى ثورة عامّة ، الأمر الذي دعا الملك « فرديناند » إلى التخلّي عن الحكم لابنه « بوريس Boris » وكان ذلك في شهر أكتوبر/ تشرين الأول سنة ١٩١٨م ، وبناءً على معاهدة « نويللي Neiully » سنة ١٩١٩م ، فقدت بلغاريا أغلب الأراضي التي احتلتها خلال الحرب بما في ذلك المنفذ البحري على بحر إيجة الذي كانت قد أخذته بناءً على معاهدة بخارست سنة ١٩١٣م ، ولينحصر جيشها في عدد ضئيل لايتجاوز (٣٣,٠٠٠) جندي مع منعها من امتلاك سلاح جوّي .

في ضوء ما تقدّم نلاحظ أن الهزيمة العسكرية التي لحقت بلغاريا والأزمة السياسية التي أعقبتها كان لهما أثرٌ كبير على أوضاع المسلمين حيث لعبت الهجرة دوراً أساسياً في زعزعة الاستقرار الإسلامي . .

كما لعبت الإقطاعية العسكرية والمدنية دوراً كبيراً في ذلك دون إغفال دور السلطة الحاكمة التي كانت تُرغم المسلمين على تغيير أسمائهم . وهكذا بدأ هؤلاء المساكين يبحثون بوسائل مختلفة لمغادرة الأرض والهجرة إلى تركيّا عن طريق اليونان[١] . .

---

(١) انظر : التاريخ العربي (ص٢٥٢ ـ ٢٥٣) مصدر سابق .

الجماعات الإسلامية ومؤسساتها

في بلغاريا بضع مئات من الجماعات الإسلامية ، وقيل إنها تبلغ ألف جماعة عدّاً ، وهذه الجماعات تُهيْمن على شؤون المسلمين الاجتماعية والثقافية والدينية ، فتشرف على المدارس ، وتعيّن المعلمين ، وتصدر الصحف ، وتساعد المؤسسات الإسلامية ، وتنفق على المساجد وما يتبعها ، وتنفق هذه الجماعات من رَيْع الأوقاف الإسلامية ، وما تجمعه من اشتراكات دورية .

ولكل مدينة أو نحوها في بلغاريا (مفتي) تعيّنه وزارة الخارجية والمذاهب البلغارية ، وعدد رجال الإفتاء يبلغ (الثلاثين) ، ويشرف على هؤلاء (المفتي العام) في (صوفيا) ويتخرّج رجال الإتاء في مدرسة (شومن) ، وهي مقسمة إلى ثلاث : ابتدائية ، وثانوية ، وعالية ، وجملة سنيّها ، اثنا عشر سنة ، وكان رجال الإفتاء فيما سبق ، يدرسون في مدرسة القضاء في (إسطنبول) ، ومن مدرسة (شومن) العالية ، ترسل بلغاريا وفودها إلى الأزهر[1] .

---

(١) انظر : على الدانوب (ص٢٣٣ ـ ٢٣٨) .

المساجد والمدارس أيّام العثمانيين :

تزخر البلاد بعدد لاحصر له من المساجد منها ما هو موجود ومنها ما خُرّب وهُدِّم . وعلى سبيل المثال : كانت صوفيا عاصمة بلغاريا ، تحتوي على (٢٧) مسجداً لايزال قائماً منها إلا مسجداً واحداً فقط ، إذ تحوّل ثلاثةٌ منها إلى كنائس وصار مسجدٌ آخرُ مُتحفاً أمّا الباقي فقد مسّته يد الهدمِ والخراب . . تمّ إحصاء المساجد في بلغاريا أو في الرومللي الشرقية فبلغ (١٥٧) مسجداً .

أمّا المدارس الاسلامية فكان التعليم فيها نسخةً تامّة لما كانت عليه الحال في تركيّا ، كانت توجد (١٥) مدرسة إعدادية (الرشيدية) في بلغاريا و(٦) مدارس في الرومللي الشرقية ، وكلٌّ مدرسة تحتوي على ثلاثة أو أربعة أقسام . . كانت توجد مدارس مخصّصة للبنات بثلاثة أقسام في مدن « فيليبّولي » و« روستشوك » كما كان يوجد في كلّ مدينة يقطنها المسلمون ما بين مدرسةٍ واحدةٍ وأربع مدارس ابتدائية . . كانت بلغاريا ومنطقة الرومللي الشرقية تضمّ (١٢٩٣) مدرسة ابتدائيّة مسلمة يتلقّى التعليم فيها (٦٤,٤٢٢) تلميذاً وتلميذةً وكانت مصاريف المدارس تدفع بنسبة (٨,٥٪) من الدولة البلغارية والباقي من المسلمين ومؤسسة الوقف[1] . .

* * *

---

(١) انظر : التاريخ العربي (ص٢٥٠ ـ ٢٥٢) .

المسلمون في بلغاريا

.. المسلمون في « بلغاريا » هم من أصول عدّة : البلغار ـ الذين يُعرفون بـ (البوماق) ، وهم البلغار الذين اعتنقوا الإسلام إبّان الفتح الإسلامي العثماني وخلال العصور العثمانية الطويلة ، ثم : الأتراك والمقدون ، والتتار ، والألبان والغجر .

١ ـ البوماق :

يسكن (البوماق) المناطق الجبلية في غرب بلغاريا وجنوبها ، والتي تمتد إلى البحر عند (قَوَلَة)[١] ، إلاّ أنّ هذه المنطقة أصبحت من نصيب (اليونان) منذ الحرب العالمية الأولى ، . . يشتغل (البوماق) بالغابات وقطع الأخشاب ، ورعي قطعان البقر والغنم والماعز التي يصنعون من ألبانها جبن (القشقوان) الذي اشتهرت به بلغاريا ، وكذلك يشتغلون بزراعة التبغ .

ويتعلّم (البوماق) في المدارس البلغارية ، وتخصّص لهم ساعتان أسبوعياً لدروس الدين ، ويقوم بتعليمهم أصوله ، معلّمون من أبناء

---

(١) قَوَلَة : كافالا Kavalla : مرفأ في اليونان على بحر إيجة (٥٠,٠٠٠) ن . . مسقط رأس « محمد علي باشا » .

جنسهم يتلقّون الدراسات الإسلامية في مدرسة بمدينة (شومن)[1] ، ويتعلّمون فيها العربية والتركية ، وآي الذكر الحكيم[2] .

.. وهم أشدّاء يحافظون على إسلامهم بقوّة ، ولذا بدأ الحزب الحاكم بهم عملية (البلغرة) ، التي قاوموها بشدّة ، واستشهد بسببها آلاف المسلمين منهم .

ويبلغ عددهم ـ حالياً ـ حوالي (٧٠٠,٠٠٠) نسمة . وقد صمد هؤلاء في صراعهم ضدّ الإرهاب والبطش ، وحتّى عام (١٩٧٠م) لم تنجح كل الوسائل التي اتَّبعها النظام لاحتوائهم عقائدياً وتمييع ثقافتهم ، وهويّتهم الحضارية ، ولذا قرّر إنزال الجيش البلغاري إلى مناطق البوماق لبلغرتهم عام (١٩٧٤م) ، وكانت ترى السلطات البلغارية الشيوعية أنهم مصدر خطر ، لأنهم ظلّوا برغم كل الضغوط متمسّكين بدينهم ، بشتى الطرق الممكنة . .

٢ـ الأتراك :

يؤلِّف الأتراك غالبية المسلمين في بلغاريا ، ـ كما يقول الدكتور « الفاتح حسنين »[3] ، وكان عددهم نحو (ثلاثة ملايين) مسلم أُبيد منهم نحو (مليون) إلا قليلاً . وقبل مجيء الحزب الحاكم ، وكذلك قبل

---

(١) شومَن : شملا Shumen غرب فارنا الساحلية بمسافة (٦٠كم) وهي من الحصون المنيعة .

(٢) انظر : على الدانوب/ أحمد عطية الله/ مطبعة الاعتماد بمصر ، ط١ ، ١٩٣٩م (ص٢٢٩ـ٢٣٣) .

(٣) الفاتح حسنين : رئيس منظمة إغاثة العالم الثالث ـ أيضاً ـ ومقر هذه المنظمة في « فيينا » ، وأيضاً نائب رئيس لجنة التضامن مع مسلمي بلغاريا .

حكومة النازيين ، كانت نسبة الأتراك فقط أكثر من (٥٠٪) من بقية المسلمين . .

وقد حافظ المسلمون في بلغاريا ، على ديانتهم ، ولغتهم ، وثقافتهم ، وعاداتهم ، وتقاليدهم ، ومدارسهم ، ومساجدهم ، ومعاهدهم الدراسية العليا ، ومحاكمهم الخاصة بهم ، وأسواقهم ، ولباسهم ، وأدبهم ، وفنّهم وصحافتهم عبر التاريخ ، وفي أحلك الظروف وأشرسها[١] . .

٣ـ المقدونيون :

ويعيشون في الجنوب الغربي من بلغاريا ، وهذا جزء من مملكة (مقدونيا الكبرى) . . وفي بلغاريا تُسمى منطقتهم باسم (مقدونيا بيرين) .

وتقدّر نسبتهم بنحو (٤٥٠ ألف) مسلم ، ولكن الإحصاءات الرسمية تتجاهلهم تماماً ، وأعلن النظام الحاكم ـ مؤخراً ـ أنه لا توجد أقلية مقدونية في بلغاريا ، فقد قام بتذويب لغة الشعب المقدوني ودينه وعاداته ، واستعان بالجيش لإتمام جريمته العنصرية اللاّإنسانية هذه ، وقد أباد كل حركات المقاومة التي رفضت مشروع البلغرة !! .

٤ـ التتار :

يعيش في بلغاريا نحو : (١٠٠ألف) من التتار وجميعهم مسلمون ، ويشير المؤرخون إلى أن هؤلاء التتار هاجروا من الأناضول إلى ما يُعرف

---

(١) انظر : المسلمون في العالم/ قضايا وتحديات/ حامد عثمان ط١/ دار اقرأ/ مالطا ١٩٩٠م (ص٣٥٦ ـ ٣٥٧)

اليوم ببلغاريا ، في القرن (١٥ م) ، وكانت تلك هجرتهم الأولى حيث أسّسوا منطقة خاصة بهم ، عاصمتهم المدينة التي تُنسب إليهم وتحمل اسمهم حتى اليوم في بلغاريا ، وهي مدينة (تتار بازارجيك) ، وبعد أن تكاثروا أخذوا في النـزوح نحو الشمال .

أما هجرتهم الثانية فكانت من شبه جزيرة (القَرْم) وذلك في أثناء حرب القرم حيث هاجروا إلى بلغاريا ، ويُسمّون بـ « تتار القرم » واستوطنوا المدن بشمال بلغاريا وحافظوا على لغتهم وعاداتهم وقاوموا عمليات التذويب حتى السنوات الأخيرة ، وقبل أن يُبلغروا بالقوة عن طريق ما يسمّى بالجيش الأحمر[١] .

٥ـ الألبان أو الأرناؤوط :

يعيش اليوم في بلغاريا حوالي (٥٠ ألف ألباني) وقد احتفظوا بإسلامهم ولغتهم وعاداتهم وتقاليدهم إلى أن تمّت بلغرتهم بالقوّة تحت زعم أنّه تمّ تتريكهم (إسلامهم) في العهد العثماني ، وهذا جهل بأن الألبان مازالوا حتى اليوم قومية مغايرة للقومية التركية ، وأنهم يوجدون ـ الآن ـ في يوغسلافيا (السابقة) بمنطقة (كوسوفا) محتفظين بلغتهم وعاداتهم ، وأن هناك دولة بأكملها للألبان تُسمى (ألبانيا) وما يجمعهم مع الأتراك هو الإسلام .

٦ـ الغجر أو الجيتان :

.. قسم كبير منهم رحّل متجولون بشكل مستمرّ ، وهم منتشرون في كل أنحاء بلغاريا ، استماتوا في الحفاظ على دينهم ، وأعراقهم ،

---

(١) انظر : المصدر السابق (ص٣٥٨) .

وتقاليدهم ، ويُعرِّفون أنفسهم بأنهم (أتراك) ويتراوح عددهم ما بين (٧٠٠,٠٠٠ ـ ٨٠٠,٠٠٠) مسلم ، يؤلِّفون مصدر قلق للنظام الحاكم ، ـ كما يُزْعَم ـ لأنهم يجوبون البلاد طولاً وعرضاً بطابعهم الإسلامي ، ويتحمّلون ظروف البرد القاسية ، وإن كانوا لا يهتمون بالأمور السياسية ، إلاّ أنّهم يَرَون أن تركيبتهم الإسلامية دونها الموت[١] .

.. هؤلاء الغجر أو الجيتان يُنتسبون إلى شعوب الغجر التي تكثر في جوانب البلقان ، وينتسبون لكل الأديان والمذاهب ، ولكن تقاليدهم الموروثة ، أبعد غوراً من تعاليم هذه الأديان جميعاً .. ويطلق عليهم الأتراك (نصف ملّة) ، إذ أن معرفتهم بأصول الإسلام محدودة ، ولهم لغتهم الخاصة ، ومن العجيب أن لغة الغجر المسلمين تختلف عن لغة الغجر المسيحيين[٢] .

أكاذيب بلغارية :

.. إن الأكاذيب التي أطلقها الحزب الحاكم عن الفئات المسلمة في بلغاريا ، بأن أفرادها لم يكونوا مسلمين وإنما (تمّ تتريكهم) في عهد العثمانيين . ولكن لضَعف تلك الأكاذيب ، تفتّق ذهنهم عن نوع آخر من الدَّجَل ، وصرّحوا بأن أتراك بلغاريا (أُجبروا) على الإسلام ، ولم يكونوا يحبّون المسلمين ، وأن إجبارهم على الإسلام كان له ردّة فعل معاكسة تسبَّبَ في نفورهم من الإسلام !! إلى آخر تلك الأكاذيب والادّعاءات التي لا تقوم على دليل .

---

(١) انظر : المصدر السابق (ص ٣٥٦ ـ ٣٥٩) .
(٢) انظر : على الدانوب (ص٢٣٣) .

وحاول الحزب الحاكم في بلغاريا بثّ تلك الافتراءات عن طريق بعض الكتّاب المتحيزّين حيث كتبوا ما يمليه عليه النظام ، من أنّ أتراك بلغاريا لم يتحمّسوا للدخول في الإسلام ، وإنما أُجبروا على الإسلام ، وقد أدّت ادّعاءاتهم تلك ، إلى مقاطعة المسلمين لهم ونبذهم ، ويؤكّد أن هذا أمر لا يستحقّ أن يناقش لأن أتراك بلغاريا كانوا هم الذين يُنفقون على التعليم والمؤسّسات الإسلامية ، من حسابهم الخاص وحتّى تمّ إغلاقها بفعل الحزب الحاكم ، وقد توّجوا ذلك الجهاد بإقامة (مدرسة النواب) في منطقة (شومن) ـ وهي بمثابة معهدٍ عالٍ لتخريج المعلمين والوعّاظ وذلك في نهاية العهد النازي الذي سمح لهم بذلك ، بينما حرمهم الحزب الحاكم ، فأثبت أنّه أسوأ بكثير من النازيين . .

* * *

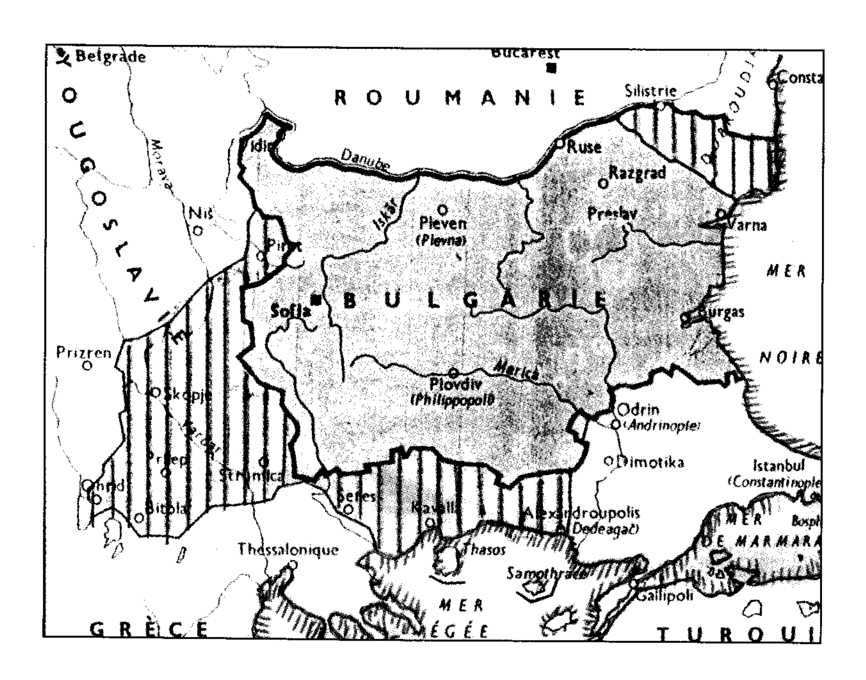
بلغاريا
والحرب العالمية الثانية

قبل أن يقوم هتلر بتنفيذ عملية باربا روسا بالهجوم على الاتحاد السوفييتي قام أولاً باحتلال بلغاريا ليضمن حيادها حتى يقطع الطريق أمام تدفّق الجيش الروسي عبر دول البلقان ، بعد أن فرض عليها توقيع معاهدة فيينّا في أول مارس/ آذار سنة ١٩٤١م . مقابل ذلك سمح للجيش البلغاري باحتلال أجزاءٍ ترابية مهمّة في مقدونيا ، هذه الأجزاء التي كانت تابعة لليونان وصربيا بل إنّه سمح لبلغاريا بإدماج هذه المناطق وإلحاقها بتراب الدولة البلغارية .

من خلال هذا الواقع الجديد يشير مغزاه إلى أن تزايد السكان المسلمين في دولة بلغاريا والروملّلي الشرقية كان يقع تحت تأثير الحروب فيتقلّص عدد السكان المسلمين بتقلّص الأرض بعد هزيمةٍ عسكريةٍ ما أو يتزايد بعد اتّساع الأرض عقب نجاح عمليّة عسكريّة ما . وبناءً على ذلك فإنّنا نلاحظ من خلال السنوات الأربع التي بدأت بالحرب الكونية الثانية وانتهت بهزيمة الألمان كانت الزيادة المسلمة لاتحتاج إلى دليل[١] . .

---

(١) انظر : التاريخ العربي (ص٢٥٣ ـ ٢٥٤) مصدر سابق .



بلغاريا حتى عام ١٩٤٦م

* * *

حملة ضدّ الإسلام

لماذا افتعلت بلغاريا الشيوعية هذه الحملة ؟ . .

ولماذا انتظرت كل هذه السنين ؟ . .

ولماذا توقيتها بالذّات : في منتصف الثمانينيات ؟ . .

أسباب الحملة :

. . يتساءل « فانيمارك » ـ السكرتير التنفيذي للجنة « هلسنكي » لحقوق الإنسان ، عمّا إذا كانت هذه الحملة لاستراتيجية رُسمت منذ عشرات السنين ، أم هي محاولة قصوى لحلِّ المشاكل السياسية والاجتماعية في البلاد البلغارية . ؟

إن « فانيمارك » يعتقد أنهما الاثنان معاً .

ففي أوائل الستينيات حمل البلغار شعب (البوماق) المسلم على اعتناق المسيحية ، ـ كما ذكرنا آنفاً ـ وتكرّرت المحاولة أكثر من مرّة ، ومع المسلمين بالذات ، وكان آخرها مع المسلمين الأتراك ، حيث بدأت الحملة في (كانون أول ١٩٨٤م) ، وبدأ الأتراك يفقدون حقوقهم كأقليّة شيئاً فشيئاً .

ويعتقد « فانيمارك » أن حملة (الدمج) ـ التي يلقّبها بالوحشية ـ ، لم تُشكّل مفاجأة للمواطنين ذوي الأصل التركي ، وللمسلمين الآخرين ،

فقد روجّت الدولة خلق (دولة موحدة) ، بلغارية إثنية ، منذ فترة طويلة لتحلَّ مشاكلها .

وأول مشاكل الدولة البلغارية ، هي : المشكلة الديموغرافية (السكانية) ، باعتراف الخبراء جميعهم . . فالأسرة المسلمة التركية ، كثيرة العدد ، وكثيرة النسل ، مما يشكّل من وجهة نظر حكومة صوفيا - تهديداً محتملاً للهوية السلافية - البلغارية في الدولة .

وإجبار السلطات للمواطنين ذوي الأصل التركي على الموافقة على سياسة الدمج يثير تساؤلاً آخر : إذا كان هؤلاء لا يريدون أن يتخلّوا عن أسمائهم ودينهم ولغتهم ، ويطلبون الهجرة فلماذا لم تدعهم منذ البداية يرحلون؟[1] .

لجنة حقوق الإنسان والأقليات :

يقول « فانيمارك » : (إن هذا أيضاً انتهاك جديد لاتفاقية هلسنكي بشأن الأقليات) .

ويرجع أسباب إحجام السلطات عن الموافقة على ترحيل الأتراك ، لأن الأتراك يدٌ عاملة ماهرة ، كما أن السماح لهم بالسفر ، سيدفع باقي المواطنين البلغار إلى التمرّد والمطالبة بحقهم في السفر أسوة بهؤلاء ! .

ومن الأسباب الأخرى ، أيضاً :رؤية بلغارية تقول : (إنَّ النِّزاع مع الدولة المجاورة (تركيا) يمكن أن يَحلَّ مشاكل بلغاريا الداخلية والسياسية ، وذلك باللعبة السياسية المعروفة بأن تحصل على مزيد من التأييد الداخلي ، عن طريق إظهار العدوّ الخارجي) .

---

(١) انظر : مأساة المسلمين في بلغاريا (ص٢٠٩ - ٢١٠) .

فالدعاية البلغارية الرسمية دأبت على تكرار إظهار (تركيا) كعدوّ أصيل لبلغاريا قديماً وحديثاً . ولكن أخطر هذه الأسباب في رأيه وأهمّها : (الاعتقاد بأن الوجود الإسلامي البلغاري مصدر للنزاع القادم سياسياً ، فتأثُّرُ المسلمين داخل بلغاريا ، بالموجة الإسلامية المتشددة القادمة من الشرق الأوسط عبر تركيا يمكن أن يُهدِّد الوجود العلماني والشيوعي للدولة ، ككيان! .

وانتماء المسلم ، وسواء كان بلغاريّاً أصلاً ، أو تركيَّ الأصل ، إلى أصوله الإسلامية أشدّ بكثير من انتمائه لأديولوجية (موسكو) ، مهما حاولت الدولة غرسها فيه .

وهناك في التاريخ ما يثبت أن الأتراك الذين قدموا من (تركيا) ـ أيام الحكم العثماني ، لم يختلطوا بالسكان الأصليين للبلاد ، بل أقاموا لأنفسهم قرىً ومدناً منفصلة ، وكان يحكم بينهم القانون ، ومعظم سكان هذه المناطق التي تكوّن اليوم دولة بلغاريا ، كانوا مسلمين .

وهذا الانفصال للأقلية التركية المسلمة التي تتزايد عدداً كل سنة واحتفاظها بدينها وعاداتها ولغتها ، أوجد نوعاً من الخوف لدى السلطات ، بأن تتدخّل (تركيا) ثانية![1] . وهذا يدخلُ في أمرين :

١ ـ الخوف من عودة الحكم التركي :

وهذا الخوف يشابه خوف الدول الأوربية من (ألمانيا) بعد الحربين العالميتين في هذا القرن .

فاكتساح الإمبراطورية العثمانية للدول الأوربية مازال كابوساً يؤرّق

---

(١) المصدر السابق نفسه (ص٢١٠ ـ ٢١١) .

الأوربيين الحاليين في الشرق ، وبالذّات في البلقان والقرْم ، ولكن (تركيا) اليوم بالتأكيد ، تختلف كثيراً عن الدولة العثمانية بالأمس ، والظروف السياسية في العالم تختلف كثيراً أيضاً عنها في القرون الوسطى .

ولعلّه يكون صحيحاً ما قالته صحيفة « هيرالد تربيون » ـ البريطانية ـ في عددها يوم (٥ حزيران ١٩٨٥م) فقالت : (إن هذه الحملة البلغارية ضد المواطنين الأتراك ترجع إلى تقاليد قديمة في البلقان وشرقي أوربا ، حيث كانت كل دولة تحاول قمع الأقليات فيها ، وتحاول كل جماعة فرض هيمنتها على الجماعات الأخرى ، والماركسية تدعو إلى الأممية كبديل عن القومية ، والاتحاد السوفييتي ـ السابق ـ . لم يستطع تطبيق هذا النص الماركسي ، دون اضطهاد الأقليات ، وأوضحها مثلاً : الأقليات المسلمة ، وهو إن استطاع وضع كل هذه الأقليات تحت السيطرة ، إلا أن هذا لايعني أنها تحسّ بالاندماج داخل المجتمع الشيوعي ـ السابق ـ ، بل إن أحداث أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينات والاضطرابات التي ظهرت في بعض جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق ، بداية من (كازاخستان ، ثم أذربيجان وأرمينيا ، مروراً بجورجيا) تدل وبقوّة على أن الأقليات الأثنية أو الدينية لا يمكن دمجها بالقوة داخل المجتمع ، (وهذا ما تحقق في أوائل التسعينيات وانهيار وزوال الحكم الشيوعي). . وهذه النظرة القاصرة من قبل السلطات البلغارية ، يؤكّدها تعليق (يولي بانيف) رئيس لجنة حقوق الإنسان البلغارية بقوله :

(لقد كان خطأً فاحشاً في حساباتنا ، حيث قِصْر نظرنا وعدم قابليتنا أو استعدادنا لمعرفة أبعاد مشاعرالمسلمين أثناء حملة تغيير الأسماء)! .

٢ـ الخوف من انتشار الدعوة الإسلامية :

من المؤكّد أن الدافع الأول لقيام السلطة الشيوعية في بلغاريا بحملة (البلغرة) هو ازدياد عدد السكان المسلمين من أتراك وغيرهم ، والخوف من انتشار الدعوة الإسلامية وتيقّظ الإسلام نشيطاً بين المجموعات الأثنية المسلمة ، والصحوة الإسلامية التي ظهرت في أكثر من قطر ، إضافة إلى نجاح ثورة « آية الله الخميني » الإسلامية في إيران ، وسيطرة الأصوليين الإسلاميين ـ كما يسمّونهم ـ هي الدافع الثاني لحملة (البلغرة) ، وإن كان هذا الدافع لا يقلّ أهميّة عن الدافع الأول .

فكلا الدافعين مرتبطين وملتحمين ، فالمواطنون الأتراك ، مسلمون ، ويتزايدون بسرعة ، ومن هنا تخشى السلطة قوّتهم المحتملة ، خاصة وأنهم (عمال مهرة) ، والمثقفون منهم نشيطون إلى حدّ كبير .

ويحدث هذا الخوف ، بالرغم من أن الأتراك مسلمون من أهل السنّة ، وليسوا من الشيعة . . ولكن هذا لا يمنع أن يستلهم هؤلاء قوتهم كمسلمين[١] . .

* * *

---

(١) انظر : المصدر السابق (ص٢١٢) .

الرجل المريض
ومذابح المسلمين في بلغاريا

(. . عندما أخذ الضعف ينهش من قوة الدولة العثمانية بدأت الأنباء تتوالى من ولايات الدولة بقيام مذابح ضدّ السكان المسلمين . . وكان الرأي العام الإسلامي بشكلٍ عام وفي (إسطنبول) بشكلٍ خاص ، وكذلك أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة تثور ثائرتهم عندما ترامى إلى مسامعهم أنباء ذَبْحُ المسلمين في ولايات الدولة ، . . وكانت المظاهرات الصاخبة تطوف في شوارع العاصمة تنادي بضرورة الردّ على هذه المذابح وتُحمِّل السلطان الحاكم مسؤولية تعرّض الرعايا المسلمين للذبح وتُتهمه بالتقاعس عن أداء واجبه .

. . هذه المذابح قد حدثت في القرن التاسع عشر حين كانت الدولة تمرّ بدور عصيب من أدوار اضمحلالها والذي انتهى بزوالها عقب الحرب العالمية الأولى . في هذا الدور تعرّضت جيوشها لهزائم حربية أليمة متعاقبة أو معارك ضارية متتالية . . وزادت القروض المالية الخارجية مما أدّى إلى ارتباكات مالية حادّة في الموازنة العامة للدولة وأعلنت سنة (١٨٧٥م) عجزها عن سداد فوائد القروض المتراكمة عليها لمدة خمس سنوات (مما أدّى إلى تدخل الدول الغربية كفرنسا وبريطانيا) مما أثار كثيراً من الشكوك حول قدرتها على البقاء دولة متماسكة .

فكانت الحالة النفسية للعثمانيين هابطة ، وأرادوا أن يثبتوا لأوربا

وبخاصة لرعاياهم المسيحيين أنهم قادرون على توجيه ضربات مماثلة لهم ، كمبدأ المعاملة بالمثل . . وكانت الاتصالات للتخطيط للثورة قائمة على قدم وساق بين عملاء روسيا والبلغاريين ، وكانت الاجتماعات تتم تارة في بلغاريا ، وتارة أخرى في (رومانيا) التي ازدحمت بعدد كبير من البلغار على اختلاف نوعياتهم .

وكان من أسباب تذمر البلغاريين أن الدولة العثمانية قد أنزلت في بلغاريا عائلات من الشراكسة هربت من حكومة روسيا طلباً للاحتماء بالدولة . وانتهز عملاء روسيا فرصة الهجرات الإسلامية التي تمّت تحت إشراف السلطات العثمانية فأدخلوا في روْع البلغار أن الدولة تبغي إقطاع أراضيهم لهؤلاء الشراكسة واستبعاد المسيحيين أصحاب البلاد الأصليين[1] .

مذابح متبادلة :

. . وبدأ الثوار عملياتهم في كافة أرجاء بلغاريا في أول (أيار ١٨٧٦م) بإجراء مذابح عامّة بين المسلمين الذين كانوا مجرّدين من السلاح ، فكانت خسائرهم فادحة . وعجزت القوات العثمانية غير النظامية عن مواجهة الموقف على جبهات متعددة . واستنجد الوالي العثماني بإسطنبول لترسل له نجدات عسكرية من القوات النظامية ، ولجأ ـ كإجراء مؤقت ـ إلى توزيع مالديه من أسلحة على السكان المسلمين ، وفي فورة غضبهم ردّ المسلمون على البلغاريين بالمثل .

ولكن كانت كفة المسيحيين راجحة على كفّة المسلمين في هذه

---

(١) انظر : الدولة العثمانية دولة مفترى عليها/ د . عبد العزيز الشناوي (٢/ ٨٣٦ ـ ٨٤٢) .

المذابح فيما عدا قرية (باتاق Batak) وتقع شمال جبال (رودوب Thodope) وكان أهلها قد انضمّوا إلى الثوار فهاجمتها قوة من الجنود غير النظامية بقيادة « عصمت آغا وزميله محمد آغا » وأعمل أفراد القوة القتل في سكان القرية . . البالغ عدد سكانها (سبعة آلاف) نسمة لم ينج منهم إلا (ألفان) فقط . ويقول « بارنج » أحد رجال السفارة البريطانية في إسطنبول بعد زيارته للقرية : « إن مذبحة (باتاق) تعدّ أشنع جريمة وحشية لطّخت تاريخ القرن التاسع عشر ، وكان هذا الرجل من أكبر المتحاملين على الدولة العثمانية في مذابح البلغاريين على النقيض من رئيسه (سيرهنري إليوت Sir Henry Elliot) السفير البريطاني في اسطنبول .

هياج الرأي العام الإسلامي :

وقد ثار الرأي العام الإسلامي في الدولة على المذابح التي تعرّض لها المسلمون في بلغاريا . وقام طلبة المدارس الدينية في العاصمة وكذلك أتباع الطرق الصوفية بمظاهرات صاخبة ضد السلطان « عبد العزيز » واعتبره المتظاهرون مسؤولاً عن هذه المذابح وعن الارتباكات المالية التي عانت منها الدولة . واتهموا الصدر الأعظم بأنّه ذو ميول أو اتجاهات روسيّة ، واستقرّ رأي معظم الوزراء ومن إليهم من كبار المسؤولين على ضرورة عزل السلطان عبد العزيز . . وتم عزله في (٣٠ أيار ١٨٧٦م) وعُيِّنَ مكانه السلطان « مراد الخامس »[(١)] .

* * *

---

(١) المصدر السابق نفسه (٢/ ٨٤٤ ـ ٨٤٥) .

المذابح تكرّرت في القرن العشرين

إبادة ما يزيد عن ثلاثة ملايين مسلم :

(منذ عام (١٨٧٦م) بدأت مذابح المسلمين في بلغاريا على أيدي رجال الثورة البلغار واستمرت بين مدّ وجزر حتى خرجت بلغاريا من سيطرة الدولة العثمانية ، والمسلمون المقيمون على أرض بلغاريا تعرّضوا للاضطهاد المستمر وإن كانت هناك فترات قليلة شملها بعض الهدوء ، وما أن تسلَّم الحزب الشيوعي الحكم في بلغاريا عقب الحرب العالمية الثانية حتى عاد التفكير من جديد بخطة جهنمية لإرغام المسلمين في بلغاريا على ترك شخصيتهم وهويتهم الإسلامية ضمن برنامج لمحو الإسلام والمسلمين سمّوه (البلغرة) .

مجتمع بلغاري خالٍ من الإسلام والمسلمين :

لتحقيق ذلك اتخذت اللجنة المركزية للحزب الحاكم في بلغاريا قرارها التاريخي بإبادة وتمسيخ ما يزيد على ثلاثة ملايين مسلم في (١٧/ ٧/ ١٩٧٠م) وقامت بإرسال تعميم لكل لجان الحزب في المحافظات المختلفة حيث تحرّكت كلّ محافظة في مباشرة عملياتها لتنفيذ ذلك القرار .

وقد احتوى هذا القرار على جزأين : خطة صغرى وخطة كبرى .

وتمثّلت (الخطة الصغرى) في محاربة المسلمين ثقافياً ، وبُدىء في تطبيقها رسمياً في عام (١٩٧٠م) ، ولكن الحزب الحاكم كان يمهّد لها بخطوات بدأ باتخاذها منذ أن تولّى السلطة عام (١٩٤٤م) ، فأوقف تدريس اللغتين العربية والتركية اللّتيْن كانتا تُدرّسان كمادتين للأقليّة المسلمة ، كما أوقفت قبل ذلك دروس الدِّين الإسلامي[1] .. في عام (١٩٥٨م) خطَّط النظام الحاكم في بلغاريا ونفّذ أضخم عملية إبادة في ذلك الوقت ، وكانت موجّهة ضدّ المسلمين المنحدرين من أصول (مقدونيّة) كان عددهم (٤٥٠,٠٠٠) نسمة أُبيد منهم عشرات الآلاف واعتُقل وعُذّب الكثيرون ، ولم يتحرّك أحد لمساعدتهم أو إبراز قضيتهم مما شجّع النظام الحاكم على السير قُدماً في تكملة تنفيذ خططه اللا إنسانية .

أخيراً جاء دور المسلمين المنحدرين من أصول (تركيَّة) ، وتفاقمت المشاكل ونُشرت حقيقة المأساة.. فقد أعدّ النظام الحاكم خطة واسعة ومدروسة خلال عام (١٩٥٧ ـ ١٩٧٠م) لتغيير هوية المسلمين وتجريدهم من هويتهم الإسلامية وتاريخهم وتقاليدهم وأعرافهم وقيَمهم..

واندفعت السلطات في تنفيذ هذا المخطط الإجرامي حيث بدأت بقطاع التعليم فدمجت المدارس الإسلامية في المدارس غير الإسلامية ، وأضحت العلوم الإسلامية غير إجبارية ، كانت تلك البداية ثم ما لبثت السلطات أن صعّدت من تطبيق خِطَّتها بصلابة متجاهلة كل القوانين والأعراف الدولية .

فبدؤوا في نشر القصص التي تهاجِم وتَسخر من الإسلام والمسلمين ، وطبعوا دواوين الشعر التي تُسيء للمسلمين ، وأخذوا يهاجمون الإسلام

---

(١) انظر : المسلمون في العالم (ص٣٦١) .

والمسلمين في لقاءاتهم الحزبية أولاً ، ثم في المناسبات والاحتفالات الوطنية . وكذلك في المحاضرات والمناظرات التي كان الحزب يقيمها خصِّيصاً لتلك الأغراض . وفي كل مناسبة يمجّدون فيها الدولة البلغارية كانوا يسيؤون ويحطّون من قدْر الدول الإسلامية . .

وقد أخذت خطة التشويه والمسخ الحضارية الكبرى للمسلمين طابعيْن أساسييْن : الطابع السياسي والطابع العسكري الذي اتّسم بالبطش والعنف لإنهاء الوجود الإسلامي في بلغاريا ومن ضمن التدابير التي اتخذت في هذا الصدد ، إحداث تغيرات جذرية في التربية العسكرية لقوات الاحتياط المركزي وخاصة في دوراته التنشيطية المستمرّة كل شهرين تقريباً ، حيث أخذوا يتدربون على أسلوب جديد للقتال ، وقد أضحت قوات ما يسمّى (بالدّوسو) التي أشرفت على إبادة المسلمين الرافضين للتمييع الثقافي الحضاري . . صارت هذه القوات وكأنّ في بلغاريا حالة حرب معلنة بالإضافة إلى نظام التدريب المستمر لقوات الدفاع المدني ، كما تمّ في هذا السياق إجراء تعديلات كبيرة في قيادات القوات المسلحة بما يتناسب ومتطلبات عمليات التمسيخ ، ويتضح مما سبق أَنَّ هدف كل تلك الإجراءات والتعبئات في الجيش والدفاع المدني والاحتياطي المركزي هو تحقيق الهدف غير الأخلاقي بقوة السلاح وبالقوات النظامية .

وكانت الأوامر صريحة وواضحة وهي اتباع كلّ الوسائل لإنجاز هذه المهمّة بالاعتداءات الشخصية وانتهاك الحُرُمات والرمي بالرصاص أمام الأسرة والأهل ، وكذلك أمام الجميع في الميادين والشوارع ، ومن يتردد في تنفيذ ذلك تُنَفَّذُ فيه هذه الإجراءات .

وقد قام المسؤولون فيما يسمّى بالشعبة السياسية بعمليات غسيل مخٍّ للجنود الذين يتولّون التنفيذ ، وإفهامهم أَنَّ الذي يقاوم خطة التمسيخ

(البلغرة) إنما يخطط بالتأكيد مع جهات أجنبية لغزو البلاد واستعباد المواطنين ، لذا وجب قتله والتخلّص منه ، وأَنَّ هؤلاء المسلمين هم الذين حكموا الشعب البلغاري وأساؤوا إليه خلال ستة قرون ، ولذا يجب أن يتمَّ تشريدهم والتنكيل بهم .

فكانت تلك الحملات التي شهدتها صفوف المسلمين في أسوأ عملية اضطهاد ديني وثقافي تلتها عملية التهجير القسرية . .

هدم وإغلاق ١٥٠٠ مسجد :

يؤكد الأمين العام لمنظمة إذاعات الدول الإسلامية أنّ الحكومة البلغارية لم تقتصر على تغيير أسماء المسلمين بل أغلقت وهدمت نحو (١٥٠٠) مسجد بحجّة إنشاء الطرق والمرافق أو أماكن للانتظار . ولم يبقَ من هذه المساجد إلا مسجد صوفيا الذي أغلقته الحكومة ، كما تمنع بلغاريا أيضاً طبع وتداول القرآن الكريم والكتب الدينية ، كما حظرت الحجَّ ومنعت الزواج على الطريقة الإسلامية ، كما ثبت اختفاء أئمة المساجد في كثيرٍ من القرى . .

وقامت السلطات البلغارية بإلغاء وإغلاق (١١١٩) مدرسة إسلامية كان يتلقّى فيها أكثر من (١٠٠,٠٠٠) طالب وطالبة العلوم المختلفة ، وكان يقوم بالتدريس فيها أكثر من (٣٠٠٠) معلّم من المسلمين كما لايسمح للمسلمين بالتحدّث بلغاتهم القومية ، ولايتلقّوْن التعليم العالي ، ولايسمح لهم بإصدار الصحف والمجلات التي تُعبِّر عن آرائهم . وذلك ضمن المخطّط البلغاري للقضاء على الإسلام والمسلمين في تلك المنطقة![١] .

---

(١) انظر : المسلمون في العالم (ص٣٩٥) وأيضاً صحيفة الأهرام بتاريخ ١٤/٦/١٩٨٧م .

بداية فكرة القومية :

ومع أن المؤرّخين البلغار يعيدون بداية دولتهم إلى العام (٨٦١م) إلا أن الفكرة (القومية البلغارية لم تظهر بذورها الأولى إلا في القرن (١٨ م)[1] على يد المطران « يايسي فيلاندارسكي » عندما كتب مؤلَّفَهُ الشهير (تاريخ البلغار السلاف) عام (١٧٦٢م) ، وقد تلازمت على يد هذا المفكّر ومن تلاه (الفكرة القومية بالنزعة الدينية المسيحية) بحيث بات التحرر القومي تحرراً دينيّاً وبالعكس ، والتحرر الديني هنا ـ كما يؤكّد الكاتب ـ هو بالطبع تحرر من حكم الأتراك العثمانيين الذين طبع فترة حكمهم لبلغاريا بالطابع الإسلامي المتميّز جميع ميادين الحياة بحيث ورث عداوة شرسة ، من قبل ما يسمّى بالقومية البلغارية . ولم تخفّف النظريات (التقدمية) اللاحقة من حدّة هذه العداوة والنظرة الحاقدة إلى الأتراك والمسلمين ، (فامتلأت مؤلّفات البلغار بالحقد والمغالطات والتشويه لكل ما يتصل بالإسلام) . وما كتبه مؤخّراً أحد المستعربين البلغار الجدُد حول الإسلام والعرب ، والمتّسم بالموضوعية والرصانة ، لم يستحسنه المتعصبون وقد ساهم أحد أعداد مجلة (كوربيه) الصادرة بالبلغارية عن الأونسكو والخاصَّة بالإسلام في تدعيم موقف هذا المستعرب في وجه مناوئيه[2] .

---

(١) ولكن الكاتب البلغاري « برنسونيقولاي تودروف » يقول في كتابه : (موجز تاريخ بلغاريا) ترجمة « أحمد سليمان الأحمد » إن القومية البلغارية نشأت من أعراق بيّنة الاختلاف ، ثم تكوّنت بشكل قاطع حوالي نهاية القرن (١٠ م) عندما استكملت عملية انصهار السلاف والبلغار في خطوطها العريضة ، وكان اعتناق المسيحية وتبنّي الألف باء السلافية من العوامل التي أسهمت بشكل حاسم في تحقيق هذا التطور . . (وهذا ما يخالف الكاتب « يايسي » الذي قال : إنَّ القومية ظهرت في القرن (١٨ م) . انظر : موجز تاريخ بلغاريا (ص٢٩) .

(٢) انظر : المسلمون في العالم/ قضايا وتحديات (ص٣٥٩ ـ ٣٦١) .

ولعلّ غياب حرية الفكر في بلد (ديمقراطي شعبي اشتراكي) ، ـ كما يدّعون ـ من الأسباب الرئيسية التي مازالت تحول دون تصويب النظر إلى الأتراك والعرب والمسلمين عموماً عند البلغار .

كما يحول مثل هذا الغياب ، دون فتح الباب أمام الجدل والحوار وإطلاق الافتراءات على مختلف الصعد ، فكتُبُ التاريخ أحادية النظرة ، كذلك كتب الفلسفة . . وفي بلد صغير مثل بلغاريا تضم مايزيد عن (٢٢٪) من السكان المسلمين لا بدّ من أن يؤدّي هذا الوجود إلى تضعضع في بنية المجتمع حسب نظرة البلغار ، لذا كان هناك اتجاهان لحلّ المشكلة :

إمّا إعطاء هذه الأقليّة الإسلامية حقوقها ، وهذا غير وارد نهائياً للاسباب الآنفة الذكر ، وإمّا ترحيل هذه الأقليّة والتنكيل بها ، وهذا ما قررته السلطات البلغارية ونفّذته بقوّة[١] .

* * *

(١) انظر : صحيفة : الحياة اللبنانية بتاريخ ٣/ ١٠/ ١٩٨٩م وصحيفة الأهرام المصرية بتاريخ ١٤/ ٦/ ١٩٨٧ .

أضخم عملية تهجير

في وضح النهار وأمام أنظار العالم ضربت بلغاريا عُرْضَ الحائط بكل القوانين والأعراف الدولية وطردت مئات الآلاف من مواطنيها المسلمين إلى خارج البلاد ، بعد أن مارست ضدهم مختلف صنوف القهر والاضطهاد ، ولم تحرّك منظمات حقوق الانسان والهيئات الدولية ولا الحكومات التي تزعم الديمقراطية في أوربا الشرقية والغربية ساكناً . .

وتحت نشوة الإحساس بقدرتها على القيام بأكبر عملية تهجير إجباري تُقام بحق المسلمين . . ـ منذ عملية تهجير العدّو الصهيوني للفلسطينيين عام (١٩٤٧م) ودون أن يناله حساب أو عقاب ـ أعلنت بلغاريا أن عدد المهجّرين سيتجاوز (ربع مليون) في ظرف شهور !! .

وبالفعل ، استمرّت مأساة التهجير هذه منذ شهر (أيار ١٩٨٩م) حتى أن أعداداً كبيرة من المناطق الشمالية الشرقية والجنوبية من بلغاريا ـ حيث يتركّز المسلمون ـ ، قد خَلَت تماماً من سكانها . .

وتدّعي السلطات في (صوفيا) أن (المليون ونصف المليون) من المسلمين الذين ينحدرون من أصول تركية قديمة هم (سلافيون) في الأصل وليسوا أتراكاً ، وأنهم أُجبروا على اعتناق الإسلام إبّان الحكم العثماني لبلغاريا الذي استمر (٦٠٠)عام .

ولم يُعطَ للذين طُردوا خارج البلاد ما يكفي من الوقت لجمع أو

التصرّف في ممتلكاتهم أو سحب أرصدتهم من المصارف . أما الذين وصلوا إلى الحدود التركية في شهر (أيار ١٩٨٩م) ومعهم شيء من النقود ، أو الممتلكات الثمينة فإنّهم تعرّضوا للمصادرة من قِبَل ضباط الجمارك البلغار . .

ويقولون : إن السلطات في (صوفيا) تعمل على قدم وساق لشَغْل المناطق التي هُجِّر منها المسلمون ، ويتوافد زبانية النظام ليحتلّوا ، ـ وهم فرحون ـ المصانع والمزارع والمساكن التي كان يُشغلها المسلمون الذين باتت تضمّهم معسكرات اللاجئين في (تركيا) ويواجهون مصيراً مجهولاً . .

المسلمون وجهاً لوجه مع الدّبابات :

وحين نزل (٣٠ ألف) مسلم للتظاهر في شوارع المدن في شرق بلغاريا تصدّت لهم قوات الجيش والشرطة مستخدمة الأسلحة النارية والهراوات ، الأمر الذي أسفر عن مقتل وجرح الآلاف من المسلمين .

الاحتجاجات ضد سياسة تذويب الشخصية الإسلامية بدأت حين أضرب أربعة مسلمين عن الطعام ، بعد أيام حذا حذوهم مسلمون آخرون في مدن وقرى : (لازغراد وفارنا) . وتصاعدت حملة الاحتجاجات لتشمل منطقة (هاسكوفو) حيث انضمّ إليها المئات من المسلمين ، وقد أوردت التقارير أن صفوفاً مدرسية كاملة وعائلات بأجمعها التزمت بحملة الاحتجاج هذه ، وأخذت الاحتجاجات منعطفاً جديداً حين بدأ مؤيّدو المضربين عن الطعام يُنظّمون تظاهرات في الشوارع ، وعندها ودون تحذير مسبق وجد المتظاهرون أنفسهم وجهاً لوجه أمام الدبابات وأسلحة الجنود الرشّاشة . .

وتتمثّل عملية التمسيخ الثقافي حسب قرار الحكومة في إجبار المسلمين كافّة على تبنّي أسماء غير إسلامية ، (فأحمد إسماعيل) أصبح (اليان مكتوف) و(ناصيف حازم) تحوّل إلى : (أناناس ديميتروف) و(علي)صار (إيليا) ، و(إبراهيم) أصبح اسمه (إبرام) وحينما احتج اقتيد إلى السجن حيث يقضي هناك سنتين . .

كما لا يُسمح للنساء المسلمات بأزيائهن المحتشمة بركوب وسائل النقل العامّة أو الدخول إلى الأسواق أو الدوائر الحكومية ، ومنعت السلطات (الخِتان) ، وفرضت عقوبة السجن خمس سنوات لمن يخالف هذا الحظر ، كما منعت فريضة الصيام ، وأُجبر المسلمون على دفن موتاهم في التوابيت ـ (وسنجد كل ذلك مفصلاً : تغيير الأسماء من إسلامية إلى بلغارية مسيحية حتى الجدّ ، وعن إغلاق المدارس الإسلامية ، ومنع التكلم بغير البلغارية في الأماكن العامة وفي الحافلات ، وحتى اللِّباس القومي للمسلمين ، وسنتعرّف عن كل الأدوار التي مرّت بها عملية التهجير والبلغرة والمفاوضات التي جرت بين الحكومتين التركية والبلغارية لحل هذه المشكلة وإيقاف المأساة ـ كل ذلك سنجده مفصلاً بشكل واسع في فقرات تالية . .) .

لا مكان لمسلم في بلغاريا يحتفظ بإسلامه ! !

. . أكّد الكثيرون الذين وصلوا إلى (تركيا) خلال شهر (أيار ١٩٨٩م) ، أنه لم تعد المشكلة مجرّد تغيير الأسماء للمسلمين في بلغاريا ، بل تعدّت ذلك بكثير فإمّا أن يصبح المسلم بلغاريّاً دون دين ، وإمّا أن يُطرد إلى تركيا ، أو إلى أيّ جهة أخرى تستقبله ، فلا مكان في بلغاريا لمسلم يصرُّ على إسلامه . .

مسيرات في إسطنبول وأنقرة :

في العاصمة التركية نظّمت مسيرة شعبية انتهت إلى أكبر ميدان في وسطها ، للمشاركة في المؤتمر الوطني الشعبي الذي حضره أكثر من (١٠٠ ألف) مواطن ، قاموا بإحراق العلم البلغاري احتجاجاً على سياسة بلغاريا العنصرية ، وطالبوا العالم الإسلامي بموقف حازم وحاسم إزاء هذه المشكلة . . ورفعوا لافتات كتبت عليها : (الصلاة لن تقف . . والمسلمون معايير واحدة) .

وقد بلغت درجة الحماس ، أن تظاهرة طافت شوارع (إسطنبول) طالبت الجيش التركي بالزحف على (صوفيا) العاصمة البلغارية[1] . . .

* * *

(١) انظر : المصدر السابق نفسه (ص٣٦٣ ـ ٣٦٨) ، وانظر أيضاً : صحيفة القبس الكويتية في ٣٠/ ٦/ ١٩٨٩م وصحيفة اللواء الأردنية بتاريخ ٢/ ٨/ ١٩٨٩م .

بداية هجرة المسلمين من بلغاريا

لقد بدأت هجرة المسلمين الأتراك من بلغاريا ولأول مرّة في عام (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨م) على أثر الهزيمة التي مُنيت بها القوات العثمانية أمام روسيا ، هذه الهجرة التي صادفت قيام الدولة البلغاريا عام (١٨٧٨م) .

ويُذكر أن الإمبراطورية العثمانية أقامت صرحها في البداية على المنطقة الواقعة بين نهر (الدانوب) و(جبال البلقان) في الشمال في ولاية عرفت (ولاية التونا) حيث كان يقيم في تلك الولاية نحو (١,١٢) مليون مسلم تركي مقابل (١,١٣) مليون بلغاري ، ومن الصعب إقامة دولة بلغارية بشكل طبيعي على أساس هذا المزيج من أتراك وبلغار ، إضافة إلى أن (٧٠٪) من الأراضي البلغارية كانت ملكاً للأتراك المقيمين فيها ، وهكذا سادت لدى السلطات الروسية ـ التي كانت تتطلّع إلى تحقيق سياسة التوّسع ـ ضرورة تهجير هؤلاء المسلمين ، وإن لم يكن ، فبالقضاء عليهم أي (إبادتهم) . .

وقد بقيت هذه الفكرة (الإجرامية) تجول في أفكار السلافيين فترة طويلة حتى عام (١٨٧٦م) ، حتى أن الأمير « جيركاسكي » ـ وهو من المتحمّسين للعرق السلافي ـ كان يقول : (لايمكن طهي البيض دون كسر قشرته !) .

وأخيراً تمّ الاتفاق على تهجير المسلمين الأتراك من المناطق التي

يعيشون فيها أو إبادتهم والقضاء عليهم ، وعلى هذا الأساس دخلت روسيا الحرب في عام (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨م) مع العثمانيين غير أن القوات الروسية لم تتّبع قواعد الحرب المألوفة ، بل قواعد الإبادة الجماعية . .

وأخذت جموع البلغار بالتعاون مع الروس بحملة إبادة واسعة ضد المسلمين الأتراك استمرّت (سبعة أشهر) وهجرة (١,٥) مليون مسلم تركي تاركين وراءهم ممتلكاتهم وأموالهم وهم في حالة يُرثى لها حيث قضى (٤٥٠ ألفاً) منهم بسبب الجوع والبرد والمرض ، وأخيراً أُقيمت الدولة البلغارية على الهياكل العظمية لهؤلاء .

وهنا يجب الاعتراف أَنَّ المسلمين الأتراك لم يتعرّضوا في أي بلد كانوا يقيمون فيه بأعمال تعسّفية وحشية بقدر ما تعرّضوا له من قِبَل الدولة البلغارية ، وكمثال على ذلك فإن العصابات البلغارية قضت على نحو (٥٠ألف) مواطن تركي في عام (١٨٧٨م) في المنطقة الواقعة بين (فيليبة) وبلدة (مصطفى باشا) .

كما سُلِبت أموال هؤلاء وصودرت ممتلكاتهم من قِبَل البلغار وأنكر المؤرّخون الروس عمليات السلب والاغتصاب هذه لفترة طويلة حتى عام (١٩٥٣م) وبمناسبة مرور (٧٥عام) على قيام الدولة البلغارية أخذت الإذاعات والصحف السلافية تشير إلى تلك الوقائع واصفة إيّاها وبما قامت به العصابات البلغارية في حينه بأنّها عملية (استيلاء على الأراضي) .

. . لقد كانت حرب (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨م) بالنسبة للمسلمين الأتراك البلغار كارثة غير أَنَّ هذه الكارثة لم تتمكن من القضاء على الكيان التركي في هذه الديار . . بصورة كليّة . . ومع أَنَّ الأتراك أصبحوا أقليّة ، غير أَنَّ هذه الأقلية تُعتبر أكبر أقليّة موجودة في بلغاريا .

ولازال الأتراك المسلمون في المنطقة الشرقية الشمالية من بلغاريا يشكّلون الأكثرية نظراً لكون منطقة (شمنو) كانت مقراً للجيش الثالث العثماني فالقوات الروسية لم تتمكّن من الوصول إلى هذه المنطقة كما أَنَّ الأشقياء البلغار لم يتمكّنوا من القيام بعمليات إبادة في هذه المنطقة ولهذا بقيت الجموع الإسلامية في هذه البقعة محافظة على كيانها .

ومما يؤكّد ذلك أن الإحصاء الذي جرى في (كانون الثاني عام ١٨٨١م) أكّد أن الأتراك المسلمين في هذه المنطقة يشكّلون الأكثرية وبنسبة (٢ ـ ٣) وأن المسلمين في بلدة (أسكي جمعة) يؤلفون (٨٢٪) ، وفي بلدة (برافادي) بنسبة (٦٢,٣٪) وفي (رازاغراد) بنسبة (٦٨,٨٪) وفي (شمنو) ، (٦٧,٩٪) ، وفي (روسيجوك) بنسبة (٥٢,٤) وفي (سيلسترة) بنسبة (٧١٪) . . وهكذا . .

ففي شهر (شباط ١٨٧٨م) عندما بدأت المباحثات بين روسيا والدولة العثمانية حول وضع الأتراك في بلغاريا ، ترأس الوفد العثماني (صفوت باشا) وعرض على الطرف المقابل إجراء مبادلة سكنية بين الأتراك المقيمين في الشمال ليحلّوا محلَّ البلغاريين المقيمين في الجنوب وبالرغم من كون هذه العملية صعبة لكونها تشمل هجر المئات من الألوف من مساكنهم وأراضيهم إلى مناطق يجهلونها غير أن الدولة العثمانية قبلت بهذا الاجراء باعتباره (أهون الشّرين) .

ومع هذا فإن المندوب الروسي رفض هذا الاقتراح مما يدلّ على النيّة أنها كانت مبيّتة لإجبار المسلمين على النزوح . .

وقد تقرر في معاهدة الصلح[١] التي وقّعت في برلين في (١٨٧٨م)

---

(١) معاهدة برلين : انظرها : في مكان آخر من هذا الكتاب مفصلة بموادها العديدة . .

إنشاء أمارة في ولاية (تونا ـ الدانوب) حيث اعترفت هذه الأمارة بضمان حقوق وحريّات الأقلية المسلمة والمحافظة على حريّة الدين والمعتقدات وممارسة الشعائر الدينية وعدم إصدار أي قانون يتعرّض مع مصالح الأقلية الإسلامية التركية .

وهكذا نجد أَنَّ الحكومة البلغارية تعهَّدت بالمحافظة على حقوق وحريّات الأقلية واحترامها وأَنَّ هذه المعاهدة تُعتبر بالنسبة لبلغاريا كدستور عليها التمسّك بها . . وعلى أثر التوقيع على معاهدة برلين ظَنَّ المسلمون في بلغاريا أنهم سيجدون الطمأنينة والمحافظة على أرواحهم وممتلكاتهم والانصراف إلى أعمالهم على غرار الشعب البلغاري والتطلع نحو حياة هادئة وسعيدة . . غير أن هذه الأحلام ذهبت أدراج الرياح . . فبعد أن انسحبت القوات الروسية من الأراضي البلغارية عام (١٨٧٩م) بدأت العصابات البلغارية بعمليات إرهابية واسعة ضد المسلمين في المناطق التي يقيمون فيها ، كما أعلنت الحكومة البلغارية الأحكام العرفية في هذه المناطق غير أَنَّ هذه الأحكام العرفية كانت من نوع آخر . . وذلك بنزع الأسلحة من المسلمين ومنعهم من حملها ، وكذلك تجمّعهم وخروجهم ليلاً بينما سمحت الحكومة البلغارية للمواطنين البلغار باقتناء شتّى الأسلحة حتى أخذ هؤلاء الأشقياء بمهاجمة القرى المسلمة وذلك بمهاجمة قرية إسلامية كل يوم تقريباً . . إضافة إلى التهديدات التي كانوا يوجّهونها للمسلمين بقولهم : (عليكم بالتخلّي عن هذه المناطق وإلاّ فستجدون من الأعمال الإرهابية ما لم يخطر على بالكم) . وكانت الحكومة البلغارية تجاه هذا كلّه تصمّ آذانها عن شكوى المواطنين المسلمين ، وهناك وثائق لا تُعدّ ولا تُحصى حول هذه المظالم محفوظة لدى الأرشيف العثماني . .

الديبلوماسيون يقولون :

جاء في تقرير رفعه القنصل الفرنسي في (فارنا) ، « هنري موتيت » يوم (١٢ تشرين الأول ١٨٨٠م) إلى حكومته والذي يشتمل على (٤٠) صفحة حول الأعمال الإرهابية التي يتعرّض لها المسلمون على أيدي العصابات البلغارية بقوله : (لقد وقعت في الفترة من (أيار ١٨٧٩م) حتى أيار (١٨٨٠م) وفي المنطقة التابعة للقنصلية الفرنسية نحو (٨٠) حادثة مهمّة تعرّضت فيها القرى الإسلامية لهجوم البلغار الثوار وسُلبت أموالهم وصُودرت حيواناتهم وهُوجمت بعض المنازل لأثرياءٍ منهم حيث عُذِّبوا وتَعرّضوا للحرق بالحديد (المحمّى) . . كما اعتدي على عفاف بعض النساء المسلمات ، وشوهد وقع أحداث قتلٍ وجرحٍ عديدة .

وجاء في التقرير المذكور أن (٣٩) مسلماً قُتلوا من قِبَل الثوار البلغار وقد بلغ مجموع الأموال التي سُلبت من المسلمين نحو (٢٨٨ . ٨٠٩) قرشاً ذهبياً . .) .

. . ويقول القنصل الفرنسي : (إنَّ الأسباب الداعية للمظالم البلغارية تعود إلى إجبار المسلمين الأتراك على الهجرة وأَنَّ هذه الأعمال التعسُّفية بدأت على إثر انسحاب القوات الروسية من بلغاريا في (أيار ١٨٧٩م) . . ويقول إنّه هاجر من ميناء (فارنا) وحده نحو (١٨,٠٣٣) مسلم تركي إلى الأناضول في الفترة من (حزيران ١٨٧٩ حتى ١٨٨٠م) وذلك على النحو التالي :

المسلمون الأتراك الذين هاجروا من ميناء فارنا :

الشهر	السنة	العدد	الشهر	السنة	العدد
حزيران	١٨٧٩	١١٣٣ شخصاً	كانون ٢	١٨٨٠	٩٣٠ شخصاً
تموز	=	٣٩٧ =	شباط	=	٩٠٦ =
آب	=	٤٨١ =	آذار	=	٩٥١ =
إيلول	=	٢٦٠٠ =	نيسان	=	٨٨٦ =
تشرين ١	=	٢٢٤٦ =	أيار	=	١٠٣٠ =
تشرين ٢	=	٢٢٢٦ =	حزيران	=	١٠٤٦ =
كانون١	=	٥٤٩ =	تموز	=	٩٤٣ =
			آب	=	٧٣٠ =
			إيلول	=	٣٣٦ =
	المجموع	٩٦٣٢ شخصاً		المجموع	٧٧٥٨ شخصاً

هذه الأرقام عائدة إلى ميناء (فارنا) فقط ، وبعد تاريخ (حزيران ١٨٧٩م)وذلك بالنسبة للسفن الفرنسية والنمساوية والروسية والتركية التي زارت هذا الميناء وكانت تقوم بنقل المهاجرين (٣ أو ٤ مرّات أسبوعياً) إلى إسطنبول[١] .

. . وفي تقرير القنصل البريطاني في (فارنا) لحكومته في (٥ حزيران ١٨٨٠م) يقول فيه : (إنَّ البلغار يقتلون رجال المسلمين ويغتصبون النساء ويسلبون البيوت ثم يُضرمون النار بها وكان ينبغي أن أخطركم بهذه

(١) انظر : دراسات عن الكيان التركي في بلغاريا (ص ٦٥ ـ ٧٠) .

التجاوزات ، ولكنّي آثرت أن أعطي نفسي بعض الوقت لأتخلّص من انفعالي)[1] .

كما كانت هناك أفواج من المهاجرين إلى تركيا عبر نهر الدانوب فقد ذكر قنصل فرنسا في بلدة (روسجوك) المدعو : « م . فريت » في تقرير صدر عنه يوم (١٦ أغسطس/ أب ١٨٧٩م) .

(إن هناك نحو ٢٤ أسرة مسلمة يبلغ عدد أفرادها نحو ٣٩٠ شخصاً ، تابعة لقرية (بالبينارلي) قضاء (أسكي جمعة) قد تخلّت عن كل ما تملكه وهاجرت إلى تركيا) .

وجاء في تقرير له مؤرّخ يوم (٢٣/ أغسطس آب ١٨٧٩م) : (إنَّ القرويين من أهالي (روسجوك) يستعدّون للهجرة إلى تركيا على غرار زملائهم) .

كما كانت هناك قوافل عَبْر البرّ تهاجر من بلغاريا إلى (أدرنة) فقد ذكَر في (أدرنة) قنصل فرنسا فيها السيد « لافون » في تقريره الصادر يوم (٣١ أكتوبر /ت١/ ١٨٨٣م) أنّه مرّ من (أدرنة) في ظرف ثلاثة أشهر الأخيرة نحو (٣٠٠ ألف) مهاجر مسلم تركي وأَنَّ المهاجرين من بلغاريا وشمال اليونان يزدادون يوماً بعد يوم ، وأَنَّ هناك نحو (٥٠ ألف) أسرة مرّت من أدرنة ، فلو علمنا أَنَّ كل أسرة تتألف من أربعة أشخاص أدركنا أَنَّ المجموع بلغ نحو ٢٠٠ ألف) نسمة ممن هاجروا من بلغاريا إلى تركيا نظراً لفقدان الأمن والاستقرار هناك . .

---

(١) انظر : الإسلام والمسلمون في بلاد البلقان (ص٢٤١) .

وقال القنصل أنه تحدّث إلى المهاجرين الذين أعربوا له عن أنّهم فرّوا من جَوْر الحكم والتعسّف والاعتداء عليهم من قبل البلغاريين باعتبار أنَّهم منعوا نساءهم من التستّر ، ومنعوهم من مزاولة شعائرهم الدينية وأغلقوا مساجدهم وأجبروهم على الذهاب إلى الكنائس وغير ذلك . .

. . وجاء من قنصل فرنسا في صوفيا في تقرير له : إنَّ عدد الذين نزحوا عن بلغاريا حتى (يوم (٣ أبريل/ نيسان ١٨٨٤م) بلغ نحو (٦٠٠ ألف) نسمة أو ما يزيد ، ويقول إنَّ الأراضي الواقعة بين نهر الدانوب وجبال البلقان ومن سفوح جبال البلقان وحتى صوفيا ، هذه الأراضي الخصبة للغاية أصبحت جرداء بسبب قلّة اليد العاملة فيها على أثر هجرة المسلمين الأتراك الذين بلغ عددهم نحو (٦٠٠ألف) نسمة إضافة إلى أن هذه المناطق التي تخلّى عنها المسلمون الأتراك بقيت دون سكن من قِبَل غيرهم من المزارعين[١] .

وهكذا استمرّت حركة الهجرة من بلغاريا على هذا النحو من عام (١٨٨٦ حتى ١٨٩٠م) حيث بلغ عدد الذين هاجروا من بلغاريا نحو (٧٠,٦٠٣) أشخاص موزّعين على السنوات كما يلي :

---

(١) انظر : دراسات عن الكيان التركي في بلغاريا (ص ٧٠ ـ ٧٢) .

هجرة المسلمين الأتراك إلى الأناضول كما جاء في إحصاء الحكومة البلغارية من عام ١٨٩٣ حتى ١٩٠٢م

السنة	رجال	نساء	المجموع
١٨٩٣	٥٧٧١	٥٦٨٩	١١٤٦٠
١٨٩٤	٤٤٢٢	٤٤١٥	٠٨٨٣٧
١٨٩٥	٢٤٩٢	٢٦٠٣	٠٥٠٩٥
١٨٩٦	٠٩٥٨	٠٩٨٨	٠١٩٤٦
١٨٩٧	١٣٨٨	١٤١٣	٠٢٨٠١
١٨٩٨	٣٥٧٢	٣٠٦٨	٠٦٦٤٠
١٨٩٩	٣٨١٨	٣٥٣٦	٠٧٣٥٤
١٩٠٠	٣٧٠٤	٤٧٧٥	٠٧٤١٧
١٩٠١	٤٥٦٤	٤٩٨٥	٠٩٣٣٩
١٩٠٢	٤٧٢٩		٠٩٧١٤
		المجموع العام	٧٠٦٠٣ نسمة

وهذه السنوات هي أقلّ السنوات التي وقعت فيها الهجرة باعتبار أَنَّ العلاقات بين الدولة العثمانية وبلغاريا كانت طبيعية ولم يكن هناك ما يعكّر صفو الجوِّ بين البلدين .

ومع هذا فإِنَّ الهجرة لم تتوقف وكانت تسير رويداً رويداً ، كما يسيل النهر الراكد . .

فقد بلغ عدد الذين هاجروا في شهر واحد عام (١٨٨٣م) نحو (٧٠,٠٠٠) ألف نسمة ، هبط هذا العدد في العشرين سنة التي أعقبت هذا التاريخ إلى (٧٠٠٠) نسمة مهاجر سنوياً ومع هذا ، فسيْل الهجرة لم ينقطع ، اعتباراً من إنشاء الإمارة البلغارية حتى حرب البلقان عام (١٩١٢ ـ ١٩١٣م) .

ففي حرب البلقان الأولى والثانية كما هو الحال في الحرب العثمانية ـ الروسية ، اندحرت القوات العثمانية أمام القوات البلغارية التي كانت تساندها العصابات البلغارية والتي قامت بأعمال الإبادة في (تراقيا ومقدونيا) وتمكَّنت القوات البلغارية التقدم في الأراضي التركية حتى وصلت إلى بلدة (شطلجة) ولا يُعرف عدد الذين أبيدوا في هذه الحرب . .

استمرار عمليات الإبادة لمسلمي البلقان :

فقد جاء في صحيفة مجَرية اسمها (أناب) بتاريخ (٧ فبراير/ شباط ١٩١٣م) أنّه أبيد في (مقدونيا) نحو (٦٠ ألف ألباني و٤٠ ألف تركي مسلم) كما قُتل في (تراقيا الغربية والشرقية) مايقرب من هذه الأرقام من الأتراك المسلمين نظراً لأن القوات البلغارية اجتازت المناطق التي تكثر فيها الكثافة السكانية من الأتراك المسلمين . . ويمكن القول بأن الأتراك المسلمين الذين قُتلوا في هذه الحرب لا يقلُّ عن (٢٠٠ ألف) نسمة .

وهكذا فإن المسلمين في تراقيا ومقدونيا اضطرّوا للنزوح عن أراضيهم تجاه عمليات الإبادة المنسّقة . . تخلّصاً ، من عمليات القتل والإبادة . . مع هذا لا توجد إحصائية دقيقة حول الذين هاجروا من بلغاريا إلى تركيا وإن كانت بعض الإحصائيات تقول إن عدد الذين هاجروا من تراقيا الغربية بلغ (٢٠٠ ألف) نسمة ومن (مقدونيا ٢٤٠ ألف) نسمة . . ولو أضفنا إلى هذه الأعداد بقية المهاجرين الذين تركوا مساكنهم وهاجروا إلى تركيا إبّان حرب البلقان من مناطق أخرى لبلغ (مليون) نسمة .

. . واستمرّت عملية الهجرة إلى تركيا من بلغاريا في العهد الجمهوري أيضاً حيث وُقِّعت لأول مرّة اتفاقية يوم (١٨ اكتوبر / ت١/ ١٩٢٥م) في (أنقرة) باسم (اتفاقية الإقامة) وقد تعهدت الحكومة البلغارية بموجبها عدم ممانعة الأتراك الراغبين بالهجرة إلى تركيا كما سُمح لهم أخذ أموالهم

المنقولة وحيواناتهم معهم والسماح لهم ببيع ممتلكاتهم بحرّية .

(. وقد ظنّ المسلمون في بلغاريا أَنَّ هذه الاتفاقية ستُبْعِدُ عنهم الظلم ، والتصرف باطمئنان وحرية ، ولكن هذا لم يكن ، واستمرَّت الاعتداءات عليهم من قِبَل اللجان الثورية بشتى أنواع التنكيل والظلم ، والسلطة البلغارية لم تحرّك ساكناً مما اضطرَّ العديد من المسلمين أن يعاودون الهجرة إلى تركيا . .).

. . ولهذا فإن سيل الهجرة من بلغاريا إلى تركيا لم ينقطع وبقي مستمرّاً ، وفيما يلي جدول يبين عدد المهاجرين منذ قيام الجمهورية التركية كما يلي : من عام ١٩٢٣ حتى ١٩٣٩م ومن ١٩٤٠ حتى ١٩٤٩م

المهاجرون بين ١٩٢٣ و١٩٤٩ وحتى ١٩٦٩م

السـنة	عدد المهاجرين	السـنة	عدد المهاجرين
١٩٢٣ـ١٩٣٣م	١٠١,٥٠٧ شخصاً	١٩٤٠م	٦٩٦٠ شخصاً
١٩٣٤	٨٦٨٢ =	١٩٤١	٣٨٠٣ =
١٩٣٥	٢٤٩٦٨ =	١٩٤٢	٢٦٧٢ =
١٩٣٦	١١٧٣٠ =	١٩٤٣	١١٤٥ =
١٩٣٧	١٣٤٩٠ =	١٩٤٤	٤٨٩ =
١٩٣٨	٢٠٥٤٢ =	١٩٤٥	٦٣١ =
١٩٣٩	١٧٧٦٩ =	١٩٤٦	٧٠٦ =
المجموع	١٩٨,٦٨٨ شخصاً	١٩٤٧	١٧٦٣ =
		١٩٤٨	١٥١٤ =
		١٩٤٩	١٦٧٠ =
		المجمـوع	٢١,٣٥٣ شخصاً

.. هذا وقد هاجر من بلغاريا إلى تركيا منذ قيام الجمهورية التركية نحوَ أكثر من (نصف مليون) نسمة موزعين حسب الجدول التالي :

من عام ١٩٢٣ وحتى ١٩٣٣م ١٠١,٥٠٧ مهاجراً (كما ورد أعلاه)

= ١٩٢٤ = ١٩٤٤ ١١٥,٢٨٨ =

= ١٩٤٥ = ١٩٦٠ ١٦٠,٧٦٦ =

= ١٩٦٩ = ١٩٨٠ ١٣٠,٠٠٠ تقريباً

المجمـــوع ٥٠٧ . ٥٦١ مهاجراً

.. وعاد موضوع الهجرة إلى حيّز الوجود من جديد إثْرَ قيام بلغاريا بتبديل أسماء المسلمين الأتراك فيها جبراً وتحت تهديد السلاح[1] ..

* * *



(١) انظر : دراسات عن الكيان التركي في بلغاريا (ص٧٣ ـ ٩٢) .

حالة المسلمين الديموغرافية (السكانية)
في بلغاريا بين عامي ١٩٤٩ و١٩٧١

كان عدد سكان بلغاريا في عام (١٩٤٩م) ، (٧,١٠٠,٠٠٠) نسمة ، وفي إحصاء ١٩٧١ كان (٨,٥٢٤,٠٠٠) نسمة أمّا التوزيع السكاني فهو كما يلي :

المجموعة	عددها عام١٩٤٩	١٩٥٦	١٩٧١	الزيادة المئوية
المسلمون الأتراك	٦٨٣,٠٠٠ نسمة	٧٤٠,٠٠٠	٨٩٠,٠٠٠	٣٠٪
= البلغار « بوماق »	١٥٠,٠٠٠ نسمة	١٩٠,٠٠٠	٣٢٠,٠٠٠	١١٣٪
المسلمون الغجر	١١٥,٠٠٠ نسمة	١٤٥,٠٠٠	٢٤٠,٠٠٠	١٠٩٪
مجموع المسلمين	٩٤٨,٠٠٠ نسمة	١,٠٧٥,٠٠٠	١,٤٥٠,٠٠٠	٥٣٪
مجموع غير المسلمين	٦,٠٧٤,٠٠٠ ن	٦,٥٢٥,٠٠٠	٧,١٥٢,٠٠٠	١٥٪
المجموع العام	٧,٠٢٢,٠٠٠ ن	٧,٦٠٠,٠٠٠	٨,٦٠٢,٠٠٠	
النسبة المئوية	١٣,٣ ٪	٤١,١٪	١٧,٠٪	

من المعروف ، المسلمون يتزايدون أكثر من غيرهم بأضعاف ، ففي بلغاريا كانت نسبة تزايد المسلمين ـ في فترة (٢٢سنة) بين عامي (١٩٤٩ ـ ١٩٧١م تعادل (٥٢٪) بينما كان تزايد غيرهم في الفترة نفسها تعادل

(١٥٪) . وتزايد المسلمين المستمر سيرفع نسبتهم بين السكان حيث سيكون عددهم في غضون عام (٢٠٠٠م) ما يعادل (ربع السكان) .

لا تتزايد القوميات المسلمة الثلاث في بلغاريا بالنسبة نفسها ، فأقلّهم تزايداً هم (الترك) ، ورغم ذلك كان تزايدهم ضِعْفَ تزايد غير المسلمين ، أما (البلغار والغجر المسلمون) فكلاهما تضاعف في الفترة نفسها ، وسبب قلّة تزايد الأتراك ، يعود إلى هجرة الكثير منهم إلى تركيا ، كلّما سنحت لهم الفرصة ، ولولا هذه الهجرة لكانت نسبة المسلمين في بلغاريا أعلى بكثير مما عليه هي اليوم . .

وأدّى هذا التفاوت في تزايد المسلمين في بلغاريا ، إلى تغيير نسبتهم العددية بين بعضهم البعض ، ففي عام ١٩٤٩م كان من بين كل (١٠٠٠مسلم) في بلغاريا (٧٢٠ تركيّاً) ، و(١٥٨ بلغاريّاً) ، و(١٢٢ غجريّاً) . بينما تغيرت هذه النسبة عام ١٩٧١م إلى : (٦١٥ تركيّاً) و(٢٢٠ بلغاريّاً) ، و(١٦٥ غجريّاً) .

الناحية التنظيمية للمسلمين في بلغاريا :

للمسلمين في بلغاريا حوالي (١٢٠٠) مسجد ، يرعى شؤونهم الدينية (مفتي أكبر) ، وُزِّعت بلغاريا إلى ست مناطق إسلامية ، على رأس كل منطقة منها مجلس للعلماء ، ومن أهم هذه المراكز مدينة (بورغاز) الإسلامية حيث يكثر فيها المسلمون الأتراك وتقع على شاطىء البحر الأسود ، ومدينة (سمبوليان) حيث يكثر المسلمون البلغار ـ قرب الحدود التركية[١] .

---

(١) انظر : المسلمون في المعسكر الشيوعي /د . على المنتصر الكتّاني/ رابطة العالم الإسلامي مكة المكرّمة ١٩٧٣م (ص٩٨ ـ ١٠٢) .

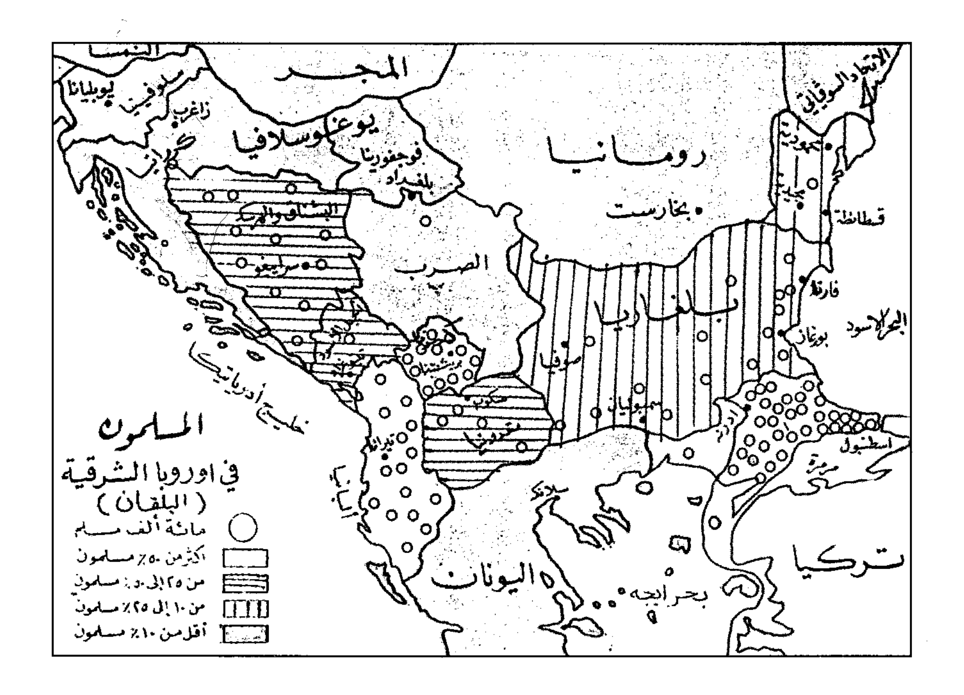
الجذور الإسلامية في الدولة الشيوعية

كما يحدث ـ دائماً ـ في التاريخ ، يقف رجلان ينتميان إلى عالمين متناقضين تماماً ـ وإن كانت تجمعهما مساحة مكان واحد ـ : الرجل المسلم التركي القديم بتراثه وماضيه وتاريخه ، والرجل البلغاري الجديد المنتمي إلى نظام الفكر (اللاّديني) أو بالتسمية الحرفية ، ـ وإن كانت غير مستحبّة ـ (الرجل الملحد) ، باعتبار مايطلقه الشيوعيون على أنفسهم (Theist) ـ وهو لفظ بالإنكليزية ـ وهو ما أوجده الرجل السوفييتي الجديد كأسلوب حياة ، وهذا الرجل البلغاري ، هو نتاج ما تهدف إليه الشيوعية من تكوين (الإنسان السوفييتي الجديد) ، الذي يجب أن يكون حُرّاً تماماً من أي عوالق ، سواء قومية أو دينية !) . . وحتى أنهم أسموا عِلْمَهُمْ (عِلْمُ الإلحاد) ، وطبقاً للترجمة الحرفية ، هو : (الإلحاد العلمي أو الكُفْرُ العلمي Atheism seintipic)

وتقول الأستاذة « ماريا إيفا سابتلني » ـ من جامعة (تورنتو) بكندا ـ ، إنه : (حتى الكتّاب السوفييت ، والمتخصّصون في الدعاية اللاّدينية ، يعترفون بأن كل جهود محو ظواهر الاعتقاد بالدين الإسلامي ، وممارسات الطقوس الإسلامية ، التي هي بقايا من الماضي ، فشلت فشلاً ذريعاً ، وخاصة في الجمهوريات السوفييتية الوسطى) . وتقول : (حتى الغربيين يردّدون استمرار الإسلام إلى طبيعة التقاليد الإسلامية الموروثة

المحافِظة ، ذات الجذور العميقة ، ودليلهم على ذلك ، تأثُّر المسلمين الضعيف بالبناء الاشتراكي)[١] .

ورغم أن السوفييت ظلّوا يلاحقون المنتمين للأديان بشراسة طيلة الحقبة الماضية إلاّ أن حكومات أوربا الشرقية التي خضعت للنظام الشيوعي ، كانت أشدّ شراسة من الشيوعيين السوفييت أنفسهم![٢] .



* * *

---

(١) جريدة : ميدل إيست جورنال في مقال عنوانه : الممارسات الدينية بين المسلمين السوفييت (١٩٨٩م) .

(٢) انظر : مأساة المسلمين في بلغاريا (ص٦ ـ ٩) . السوفييت ، الجريدة (١٩٨٩م) .

النمو السكاني أثناء الحكم العثماني[1]

عدد العائلات	خلال ١٥٢٠ ـ ١٥٣٠م		ومن ١٥٧١ ـ ١٥٨١م	
المدينة	مسلمون	غير مسلمين	مسلمون	غير مسلمين
روسي	٨١ عائلة	٥٧٤ عائلة	٨٢٤ عائلة	٨٧٥ عائلة[2]
فارنا	٣٤ =	٥٣٤ =	٤٥٣ =	١٢٩٥ =
صوفيا	٩٧١ =	٢٨٠ =	١٣٧٦ =	٢٠٤ =
بلوفديف	٧٦١ =	١١٩ =	١٠١٩ =	١٥٣ =

* * *

---

(١) انظر : موجز تاريخ بلغاريا (ص٦٥) .

(٢) ملاحظة : تعدّ العائلة قرابة خمسة أشخاص.

اضطهاد المسلمين

وَضْعُ المسلمين في بلغاريا ، مأساة ، . . إِنَّهم ليسوا بأقلية صغيرة . . وليسوا أيضاً أقلية ثانوية فعددهم زاد عن المليونين . . أي أَنَّهم يشكِّلون حوالي (٢٢٪) من مجموع السكان الذين بلغ عددهم في إحصاء (١٩٨٢م) ، (تسعة ملايين) نسمة ، وكان تكاثر المسلمين بنسبة أكبر من غيرهم ، حيث تكاثر المسلمون بنسبة (٣٪) ، والمسيحيون (١٪) وهذا ما يخيف الأغلبية ، لذلك فالمسلمون يقعون ضحية اضطهاد كبير . . ومدمّر لمسخ هويتهم الإسلامية . . وتدميرها تماماً ، إمّا بالتَّهجير . . ، أو بالتَّنصير ، . . أو التَّكفير بدينهم . . وأُمَّتهم الإسلامية الكبرى التي تسمع صرخاتهم . . ولا تتحرّك ، ـ كالعادة ـ إلا عن طريق الدبلوماسية الهادئة . . فإن غضبت كان غضبها ينحصر ـ عادة ـ بالشجب والاحتجاج ، (شديد اللهجة !!) .

. . مما حدا بنظام « جيفكوف » لوضع خطة البلغرة الجديدة عام (١٩٨٤م) والتي انتهت بتهجير (٤٠٠ ألف) مسلم[١] .

التهجير والبلغرة وتغيير الأسماء :

تقول آخر التقارير السياسية : . . إِنَّه منذ (كانون الأول ١٩٨٤ وحتى آذار ١٩٨٥م) قادت السلطات البلغارية حملة كبيرة موجّهة ومخطّطة

---

(١) انظر : الإسلام والمسلمون في بلاد البلقان (ص ٢٦٠) .

لتغيير الأسماء الإسلامية إلى أسماء بلغارية . وتصف مجلة (تايم) الأمريكية هذه الحملة البشعة فتقول : « في الساعة الثالثة قبل الفجر ، سمع سكان بلدة (يابلونوفو) التي يسكنها مسلمون بلغار من أصل تركي - أصوات عربات عسكرية ، ومع بزوغ الفجر أُغلقت كل الطرق المؤدية إلى البلدة ، واندفع رجال المليشيات الحزبية الشيوعية داخل المنازل وأمروا ربّ كل أسرة بتغيير اسمه وأسماء أفراد أسرته من أسماء إسلامية إلى أسماء بلغارية وتسجيل ذلك في دفاتر يحملونها ، وقد صُعق على الفور من رفض الأوامر ، بينما أجبر من استمرّ على الرفض على مشاهدة بناتهم وزوجاتهم تُغْتَصَب من قِبَلِ رجال المليشيات ، أو تُعرّىٰ على الأقل . . وقد وضعوا المسدسات على الرؤوس لإجبارهم على التغيير ، وهنا تبرز وحشية النظام البلغاري في اضطهاد المسلمين .

فمثلاً : أثناء مسيرة في مدينة (ساموكوفو) ، حصدت قوات الجيش بمدافعها الآلية العديد من المتظاهرين ، وألقت في نهر المدينة حوالي (٦٠٠ مسلم) وذلك بسبب احتجاجهم على بعض القوانين المجحفة .

وفي قرية (دوسباد) أُحرق الكثيرُ من المسلمين لرفضهم تغيير أسمائهم الإسلامية ، كما قامت السلطات بهدم بعض المساجد ، وتحويل البعض الآخر إلى كنائس . . ، أو معارض ، أو مخازن للخمور !! ، كما منعت أي مسلم من التعليم أو مواصلة التعليم للعلوم الدينية ، وبخاصَّة القرآن الكريم ، ومنعت أيضاً دفن الموتى المسلمين على الطريقة الإسلامية ، وإلزام أهلهم بدفنهم داخل صندوق على الطريقة النصرانية .

وأغلقت السلطات المدارس الإسلامية ، وحوّلت التلاميذ إلى مدارس بلغارية داخلية لتسهيل تنشئتهم بعيداً عن عائلاتهم الإسلامية . . كما فرضت عقوبة بالسجن لمدة تتراوح ما بين (٥ و١٠ سنوات) على

أهل كل طفل أجريت له عملية (الختان) بالإضافة إلى الإهانة والتعذيب والتشريد[1] . .

جذور المحنة :

. . إن جذور محنة المسلمين في بلغاريا ضاربة في عمق التاريخ . . لكنَّ حدّتها تصاعدت خلال عام (١٩٧٠م) حينما اتخذت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الحاكم في بلغاريا ـ آنذاك ـ قرارها التاريخي بإبادة وبلغرة ما يزيد على مليوني مسلم ، وأيضاً القرار الذي اتخذه الرئيس « جيفكوف » في عام (١٩٨٤م) كخطة جديدة للبلغرة ـ حتى لم يعد أمام المسلم سوى أحد أمرين : إمّا أن يصبح بلغاريّاً ملحداً بلا دين ، وإمّا أن يخرج من وطنه بلغاريا إلى تركيا ، أو إلى أي جهة أخرى فلا مكان في بلغاريا لمسلم يُصرُّ على إسلامه !! .

وأمام ذلك الخيار الصعب وتحت الضغط والإكراه ، أخذ يعبر في اليوم الواحد الحدود إلى تركيا ما بين (٢٠٠٠) إلى (٥٠٠٠) مسلم ، في أكبر علمية تهجير عرفها العصر الحاضر . وجرى ذلك كله تحت سمع وبصر كل المنظّمات والهيئات التي تزعم الدفاع عن حقوق الإنسان ورعاية شؤون المظلومين والمغبونين من ضحايا التمييز العنصري والقومي ، ـ ولكن دون أن تحرّك تلك المنظمات ، والهيئات التي في مجملها تقع تحت سيطرة الغرب ساكناً ، ولقد كشفت الحوادث والأحداث وتتابع المواقف ، أن تلك المنظّمات ولا سيّما ـ المتمركزة في ديار الغرب لا تُعنىٰ إلا بحقوق الغربيين فقط ، المستندة إلى حقّ التّفوّق على الآخرين واستتباعهم . أما ماعداهم من أجناس وشعوب وعقائد ، فليس لها مكان

---

(١) انظر : مسلمون لا تغرب عنهم الشمس/ حامد سليمان/ (ص٩٨) .

على خارطة اهتماماتهم ، وإن تعرّضت للإبادة ـ كما حدث ويحدث في فلسطين المحتلّة ـ[1] .

منع وتحريم كل ما يتصل بالإسلام :

.. إن بلغرة الأسماء.. ومنع المسلمات لباس الزّي الإسلامي ، وإلغاء المقابر الإسلامية ودفن موتى المسلمين مع غيرهم في مقابر موّحدة ، وإلغاء إجراءات الدفن على الطريقة الإسلامية ومنع النحر في عيد الأضحى.. كل ذلك جعل المسلمين يتقدّمون بعريضة إلى الحزب الشيوعي ـ لأنه الجهة الوحيدة التي يُسمَحُ لها بالتحدّث معها ـ فكان الرّد : أنه يجب عليهم مسايرة تطور (الديالكتيك ـ المنهج ـ الماركسي)[2] ..

.. قاوم المسلمون هذه الإجراءات التي تتنافى مع أبسط القواعد الإنسانية ، فالمسلمون انقادوا بالعشرات إلى السجون يومياً ، وكابدوا أشدّ أنواع العذاب النفسي والبدني ، وقد أبيد عدد ممن عارض هذه الإجراءات ، وهُدِّمت المساجد في بلغاريا ، واستعمال بعض أبنية المساجد لأغراض أخرى ، مثلاً : فالمتحف في صوفيا ، أصله مسجد أُزيلت منارته.. ، ولليهود مركز كبير في الحزب الشيوعي البلغاري[3] .

* * *

---

(١) انظر : المسلمون في العالم/ قضايا وتحدّيات (ص٣٥٥) .

(٢) الديالكتيكية : يدل هذا المصطلح في الأصل على منهج في المحاكمة مكمّل للمنطق الصوري ، وللعلماء أفكارٌ مختلفةٌ فيه أمّا ماركس فيقول : إنَّها علاقات اجتماعية ترتبط بالواقع المادّي.. انظر : قاموس الفكر السياسي ترجمة د . أنطون حمصي ، منشورات وزارة الثقافة السورية ـ ١٩٩٤م (١/ ٣٠٩) .

(٣) انظر : المسلمون تحت السيطرة الشيوعية (ص١٣٥ ـ ١٣٦) .

قضية الأقلية الإسلامية

من زاوية الحقوق الدولية

الاعتداء على المصلين :

.. جرى قبل فترة من عام (١٩٨٤م) في قرية (الاكوز : بيستروك) ، إحدى القرى التركية التابعة لقضاء : أورتاكوي (إيفاي لوف غراد) ، أنه بينما كان أهالي القرية يؤدّون صلاتهم في مسجد القرية ، داهمت مفرزة عسكرية المسجد ، وأخذت تطلق النار داخل المسجد حيث أنزلوا الإمام « إسماعيل بن علي » من على المنبر ، وأخرجوه من المسجد ، وبعد أن أوسعوه ضرباً ولَكْماً قال له قائد المفرزة مخاطباً بقوله : « كلُّكم من الشعب البلغاري ، فما لكم وهذا المسجد؟ وهل يتمكن الله أو النبي إنقاذ أيديكم ؟ »!!

وطلب من الخطيب العودة إلى المصلّين في المسجد وتلقينهم بهذا الأسلوب ، وأن يقول : نحن البلغاريين علينا تبديل أسمائنا ، لأن هذا المسجد سيُحوَّل إلى كنيسة مع الزمن ، غير أن الإمام رفض هذا الاقتراح وقال : إنه لا يجوز قطع الصلاة ، إذا كانت هذه الصلاة مسيحية أو إسلامية .

عند ذلك ما كان من الجنود إلا أن هجموا على الإمام وعادوا لضربه ولكمه بأيديهم وأرجلهم ، ومن ثم أدخلوه إلى المسجد لكي يرى

المصلّون الحال التي عليها والدماء التي تسيل منه وهدّدوه ، بأنّه إذا لم يفعل بما أمروه ، فسيعذبونه أشدّ من السابق وعلى مرأى من المصلّين . وأخيراً هؤلاء الذئاب خاطبوا المصلين بعد أن منعوهم من أداء فرائضهم الدينية : بأن هذا المسجد سينقلب إلى كنيسة ، وسيعيّن بدلاً من هذا الإمام (الحقير) راهباً يعلّم الأهلين الدين المسيحي ! ![1] .

(إذا حاول الإنسان أن يفهم كيف يُنفِّذون ـ هؤلاء الشيوعيون ـ مبدأهم في محاربة الأديان ، فيرى : أن الدين الإسلامي وأتباعه هو العدّو الألد في تطبيق الماركسية ، أليس من الغريب أن يُبدَّل الإمام المسلم براهب مسيحي والمسجد بكنيسة وهم ينادون بمحاربة الأديان ؟) .

أيديولوجية[2] شيوعية :

.. في قرية (أغري دره) استطاع أحد المواطنين الأتراك المدعو (عصمت بن عزت خليل)من أهالي قرية (أردينو) ، أن يكتسب محبة الأهالي بذكائه الوقّاد وتقرّبه من مثقفي البلدة وكان اهتمامه بزوجته وأبنائه والاستقرار في حياته العائلية وتمسُّكِه الشديد بقوميته ،كل ذلك جعله محبوباً من نساء القرية ورجالها .

غير أَنَّ هذا لم يرُقْ لرجال الشرطة البلغارية ، حيث قادوه إلى المخفر

---

(١) انظر : دراسات حول الكيان التركي في بلغاريا/ جمعية التاريخ التركي/ أنقرة ١٩٨٧م (ص٢٢ ـ ٢٣) .

(٢) الأيديولوجية : هي مجموعة من القناعات والتعبيرات.. التي تسمح بتقدم العالم وتقويمه وتفسيره بموجب نموذج معيّن.. والأيديولوجية الشيوعية الماركسية استخدمت هذا المصطلح للحطّ من شأن القناعات والنظريات والممارسات المعادية.. انظر : قاموس الفكر السياسي (١/ ٩١ ـ ٩٧) .

للتحقيق. . ثم داهم رجال الشرطة منزله وأخذوه هو وزوجته ، حيث بقي أياماً في الطابق الأسفل من مخفر البلدة جائعاً عطشاً ، إضافة إلى الضرب والتعذيب ، كما تعرَّضت زوجته لشتى الإهانات قبل تغيير اسمها وعندما عادت زوجته إلى بيتها ومعها زوجها ،أبلغته بما فعل الشرطيون معها. .فبعث بها وأولادها إلى والدها . وفي صباح اليوم التالي عندما عادت الزوجة إلى بيتها ومعها ولداها وجدت زوجها قد فارق الحياة من تأثُّره. . للإهانة التي تعرضت لها زوجته. .

. . ففي بلغاريا لا توجد حرية للكلام إذْ يُعتبَرُ هذا الموضوع ذو علاقة بالسياسة ، ولإذابة المجتمع التركي المسلم في بلغاريا ،فقد حُرِّم على أفراده حقَّ التكلم بلغة آبائهم وأجدادهم ،ولتحقيق هذه الغاية قامت الحكومة البلغارية باتِّباع الوسائل التالية منها :

ـ إغلاق المدارس التركية وإلغاء تعليمها .

ـ إغلاق المكتبات التي تنشر الكتب التركية ، وإلغاء نشاطاتها في بلدة (ناردونا بروسفاتا).

ـ إلغاء جميع النشرات والمسرحيات ، والكتب الواردة من الخارج للأقلية التركية ، ومنع الشعراء والكتَّاب من كتابة أي شيء باللغة التركية ، كما مُنِعَ الغناء التركي في الاحتفالات والأعياد أو حفلات الزواج ، كما مُنع التحدث باللغة التركية في الأزقة أو وسائل النقل ، ومُنِعَ الاستماع إلى الإذاعات التي تَبثُّ برامجها باللغة التركية ، وأخيراً : افتتاح دورات تعليمية لتعليم الأتراك اللغة البلغارية (جبراً)في المدن والقرى[١] . .

---

(١) دراسات حول الكيان التركي (ص٢٢ـ٢٥) .

المجازر البلغارية :

.. لقد أثبتت الحكومة البلغارية في قرارها الذي اتخذته في (١٧ تموز ١٩٧٠م) بناءً على قرار (الإذابة) الذي اتخذه المجلس الأعلى الشيوعي البلغاري ، والذي يهدف بسرعة إلى تبديل أسماء ، وأديان ، وقوميات الأقليات المقيمة في بلغاريا ، .. وبموجب القرار رقم (٥٤٩) ، على دمج الأقليتين في (رودوب) و(مقدونيا بيرين) ضمن المجتمع البلغاري ..

وعندما بدأ تنفيذ قرارات البلغرة والإذابة ، تمَّ القضاء على (١٧ ألف) مواطن مسلم في المجازر التي نفذوها بصورة وحشية ، وتمَّ العثور على (جثث ألف شخص) في بحيرة سد (مريج) وحدها .. هذه الواقعة التي أثبتتها الإذاعة المرئية اليوغسلافية وندَّدت بالحكومة البلغارية على هذه الأعمال الوحشية التي تقوم بها .. ومن جراء هذه الممارسات اللانسانية والعنصرية تجاه الأقليات في بلغاريا . قامت دول كثيرة بالتنديد بها كما قامت بعضها بطرد الخبراء البلغار (مثل ليبيا) كردٍّ على هذه الأفعال ..

.. وفي صدد قرار الحزب بتنسيق الأشتراكية البلغارية ، أي القضاء على بقايا الآثار البرجوازية ، والتي هي : (الدّين والقومية) باعتبارهما من بقايا الماضي وضرورة التخلص من هذه المفاهيم ،لإنشاء مجتمع بلغاري اشتراكي موحد .

ففي هذا العصر الذي يدافع فيه الجميع عن حقوق الإنسان ، ويطالبون بالعدالة والمساواة . كان الوضع في بلغاريا يختلف تماماً[1] ..

* * *

---

(١) انظر : المصدر السابق (٢٥ـ٢٧) .

اتفاقية جمع الأُسَر

بين الرئيسين التركي والبلغاري

. . في كلمة ألقاها « تورغوت أوزال » ـ عندما كان رئيس وزراء تركيا ـ أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة بمناسة مرور (٤٠) عاماً على تشكيلها مايلي : « إننا نستنكر المظالم التي تقوم بها الحكومة البلغارية تجاه الأقلية التركية المقيمة في بلغاريا » . . وتجاه هذا الموقف ومواقف الدول الأخرى من الأعمال البلغارية تجاه أقلياتها ، لم يكن ردُّ الحكومة البلغارية سوى إنكار الحقائق ، وإِنَّ موضوع الأقليات يتعلق بالحكومة البلغارية وحدها . . وأنها لا ترغب مناقشة هذه المواضيع مع أي دولة ، بما فيها تركيا ، وعدم السماح لأي دولة التدخل في شؤون بلغاريا الداخلية . . كما أظهرت بلغاريا ردَّ فعل هذه المواقف من ذلك التصريح الذي أدلى به مساعد وزير الخارجية البلغارية « إيفان كانيف » إلى مراسل صحيفة « ملليت » التركية في صوفيا والتي تُؤيِّد هذه الحقائق ، فقد كان تصريحه يوضِّح أَنَّ الحكومة البلغارية ستستمر في تبديل الأسماء وتحقيق البلغرة ، وإزالة كل أثر يعود إلى العهد العثماني ، وهذا مايؤكد عدم تمسك بلغاريا بالمواثيق الدولية ، وعدم رعايتها لحقوق الأقليّات بصورة واضحة . . . وفي لقاء تمَّ بين الرئيسين التركي « كنعان إفرين » والبلغاري « جيفكوف » عام (١٩٨٢م) استعرضا موضوع الاضطهاد والحرمان ،

وضرورة (جمع الأُسَر) ، غير أن الرئيس البلغاري أكّد أن موضوع الضغط بالنسبة للأتراك غير وارد !

. . وفي عام (١٩٨٣م) عُقِدَ اجتماع ثانٍ بين الرئيسين في (أنقرة) وفيه وَعَدَ الرئيس البلغاري أَنَّهُ سيعمل على (جمع الأُسَر) وطلبت الحكومة التركية من الحكومة البلغارية السماح بهجرة (١٥٠٠) شخص بموجب قوائم . . وبالرغم من هذا الوعد فإن عملية (جمع الأسر) لم تتم ولم يُتَّخذ أي نشاط في هذا المجال . وعليه فإن الأقلية التركية في بلغاريا بقيت تتعرّض لشتّى أنواع الظلم والاضطهاد[1] .

* * *

(١) المصدر السابق (ص٢٩ ـ ٣١) .

مأساة المسلمين في بلغاريا

شهادات عالمية :

.. تشير كل التقارير الواردة من الوكالات العالمية في أوائل (١٩٨٥م) والتي نشرتها الصحف البارزة في العالم أمثال : تايم الأميركية ، وواشنطن بوست ، والإيكونومست البريطانية والصنداي تايمس ، والديلي تلغراف ، والصحف الألمانية مثل : فرانكفورتر ، وشتوتغارت ، ودير شبيغل.. والتقارير المنقولة عن شهود عيان من البعثات الأجنبية ، تُشير كلها إلى أَنَّ الأقلية التركية قد تعرَّضت لعنف شديد من جانب السلطات البلغارية ، بعد أن عارضت قرارها بالبلغرة التي تحاول السلطات بها محو الشخصية الإسلامية بتغيير الأسماء الإسلامية ومحاولة التنصير..

في كانون الثاني ١٩٨٥م ، نقلت وكالة رويتر للأنباء : (أَنَّ هناك حالات وفاة حدثت أثناء مقاومة الأتراك للسلطات البلغارية لإجبارهم على تغيير أسمائهم) . ولكن الدبلوماسيين يقولون : (إنه لا يمكن التأكد من عدد الضحايا بسبب القيود التي فرضتها السلطات البلغارية على تحركات الدبلوماسيين ، خاصة في مناطق الحدود.. وقالت الوكالة إِنَّ بلغاريا تحاول القضاء على الهوية الإسلامية للأتراك ، وتمارس التفريق بينهم ، كما تمارس التمييز العنصري ، واستكمالاً للتصفية الثقافية ، قامت

السلطات بإصدار قرارات وزَّعتها على الأهالي بمنع اللغة ، وإغلاق المدارس وعدم التحدث باللغة التركية .

وكل من يعارض هذه الإجراءات يُلقىٰ في السجن حتى لو كان منهم كتّاب كبار وصحفيون مرموقون وشعراء .

. . وفوق كل ذلك فإِنَّ السلطات البلغارية كانت تباهي بكل صَلَفٍ ووقاحة وتقول : (إِنَّ الدمج يتم طواعية وبسرعة) ! !

في شهر (تموز ١٩٨٦) جاء أيضاً أن حوالي (١٠٠٠) تركيّ ، قد اعتُقلوا بسبب العقيدة الإسلامية وكانت السلطات البلغارية قد قامت بهذه البلغرة الإجبارية للأقليات الألبانية المسلمة ، وكذلك الغَجَر ، وحتى الأقلية الأرمنية وحين صدر إحصاء (١٩٦٥) اعتبر كل العناصر المقدونية في منطقة (بيرين) ، بلغاريين ، ومنعت السلطات بموجب قرار رسمي تداول اللغة المقدونية والتحدّث بها .

. . وفي تقرير لمنظّمة العفو الدولية عام (١٩٨٧م) والذي قدَّمته لجنة التقصّي التي تتخذ مقرّها في مدينة (ستاسبورغ) ، إشارة واضحة إلى سياسة (العنف) التي تتَّبعها السلطات البلغارية ، فيما يخصُّ : (الاسم ، والدين ، واللغة ، والزِّي ، والعادات ، والشعائر الدينية) .

. . وفي الدليل السنوي البلغاري لعام (١٩٨٦م) . . حُذِفت كلمة (الأتراك) من لقب المفتي الرئيس ، بل إِنَّ اسم المفتي العام للمسلمين تغيّر من « محمد » إلى « ميران » . بينما كان في الدليل السابق ـ أي في العام (١٩٨٥م) ذكر أسماء الأعضاء والمؤسسات والمنظمات الإسلامية كما يلي : . . قد ورد اسم « مفتي بلغاريا » باعتباره « محمد توبشيف » للمسلمين الأتراك .

.. وهذا الدليل موثَّق لدى الحكومة التركية . وبالرغم من ذلك ، فإِنَّ وزير الخارجية البلغاري « إيفان كانيف » أنكر كل الاتفاقيات الموقّعة من قِبَل بلغاريا قبل عام (١٩٤٧م) .

بيان أنقرة :

.. في بيان لجامعة (أنقرة) يوم (٥/ شباط/ ١٩٨٥م) جاء فيه :

(إنَّ الحكومة البلغارية اتّبعت وسيلة أخرى للضغط على الأتراك المسلمين من الناحية الدينية ، حيث أغلقت بعض المساجد ، وأخذت تتعقّب أولئك الذين يمارسون شعائرهم الدينية في مجال الخِتان والزواج والوفاة ، وأجبرتهم على اتِّباع طرق لاتتفق والدين الإسلامي) .

.. إِنَّ بلغاريا منعت دخول اللجان الرسمية المنبثقة عن المؤتمرات ، وتسمح ـ أحياناً ـ بدخول الأفراد فقط ، ولكن ليس لمناطق المسلمين .

وقد حاولت لجنة ـ غير رسمية ـ مكوّنة من خمسة أعضاء الدخول إلى بلغاريا للتقصّي والوقوف على حال المسلمين وحال المنشآت الإسلامية هناك.. وقد نُشر تقرير هذه اللجنة عن الزيارة في مجلة (معهد شؤون الأقليات الإسلامية ، لندن) ، والتي تمت بين (١٩ تموز و١١ آب ١٩٨٥م) وشملت بلغاريا ويوغسلافيا والمجر ورومانيا .

قال التقرير : (بعد أن عبرنا الحدود البلغارية توقفنا عند محطة (بالتشيك) وهي منطقة سياحية على البحر الأسود ، وأصرّت المرافقة البلغارية على أَنَّه لم يكن هناك مسجد قبل ذلك ، وكان هناك بعض العمال الأتراك المسلمين يعملون في المنطقة ، واختارت اللجنة امرأتين عجوزتين تعملان في الزراعة وسألتهما عن أوضاع المسلمين ، فاشتكتا

من أَنَّ الحكومة تجبرهم على تغيير أسمائهم وأسماء أجدادهم ، ومن يرفض يُعاقب بالضرب والسجن .

وطلبت الامرأتان من اللجنة أن تنقل شكوى المسلمين إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي لتحسين أوضاعهم ، أو السَّماح لهم بالهجرة إلى أقرب بلد مسلم وهو تركيا .

وحين عرفتا أن اللجنة من الأراضي المقدّسة ، طلبتا نسخة من القرآن الكريم ، فأعطتهما اللجنة (جزء عمّ) لسهولة حمله فدّستاه بين الثياب !!

لجنة إسلامية في فارنا :

.. وفي (فارنا) ثالث أكبر مدينة في بلغاريا ، وكانت مزدحمة بالسياح ، وتقع على ساحل البحر الأسود.. تجوّلنا في المدينة ، ووقفنا أمام مسجد مغلق ، وسألنا سيدة معها طفلان ، سألناها عن الإمام ، فقالت : إنه لم يعد موجوداً منذ أن أُغلق المسجد.. ودلّتنا على مسجدٍ آخر في (فارنا) .

كان هذا المسجد مهدّماً ومخرّباً ولم يبق منه إلا المئذنة ، ونصحت إحدى السيدات المسلمات اللجنة بالذهاب إلى مسجد آخر للصلاة في شارع (الدانوب) ، وكان هذا المسجد أول مسجد تزوره اللجنة .

حديث مع إمام جامع (فارنا) :

... دار حديث بين بعض أفراد اللجنة وبين إمام المسجد « إسماعيل إلياس » الذي غيّرت الحكومة اسمه إلى « رافائيل » ، وقال إنه طلب تغيير اسمه إلى « إسرافيل » ولكن طلبه رُفِضَ ، وعرفت اللجنة منه أَنَّ الكتب الدينية ممنوعة وكذلك المصحف الشريف ، وأراهم الإمام نسخة قديمة تالفة ، من القرآن الكريم ، ومعها نسخة حديثة ، مقسّمة إلى (ثلاثين

جزءاً) منفصلاً وموضوعة في صندوق خاص ، وقال إنها هدية من : (جمعية الدعوة الليبية الإسلامية) .

وقال الإمام إنه يتمنى الحجّ ولكن هذا ممنوع . !

وكان هذا المسجد هو الوحيد الذي يعمل في كل المدينة ويسمى (الخيرية) ، وكان قد بُني عام (١٢٥١هـ / ١٨٣٥م) ويزوره السياح الأجانب بالرغم من أن سقفه متداعٍ ، وجدرانه آيلة للسقوط ، ويحتاج إلى ترميم سريع ، أما المسجد الثاني فكان : (جامع العزيزية) ، وطلبت اللجنة ترميم المسجدين : (الخيرية والعزيزية) ، ونصَحَنا الإمام بأن نناقش أمر الترميم مع المفتي (الحاج « محمد توبشيف » ، والمسؤولين في صوفيا) .

وفي طريق العودة إلى الفندق ، رأينا مسجداً آخر قد تحوّل إلى كنيسة ، لكنَّ الكتابات العربية على المحراب ، كان المارّ يراها من الخارج بوضوح .

ولم يكن بالإمكان أن تواصل اللجنة أسئلتها عَلَناً أو التحدّث مع الناس .

الاسم الإسلامي بالوشم :

.. قال مراسل الجريدة التركية (ملليت) أو (ملّة) وهو : « ستاش آي » : بعد الحملة البلغارية ، توجّهتُ إلى بلغاريا للتحقق عن حال المسلمين ، وعند منطقة الحدود ، سُئلتُ من قبل السلطات عن المكان الذي أعتزم التوجّه إليه فقلت : (إيطاليا) ، وبالتالي سمحت لي السلطات بالدخول وزودتني بخريطة توضّح الطريق التي يجب عليَّ أن

أسلكها ، دون المرور بالشوارع والطرق الفرعية ، والجانبية ، وكان رقم الطريق . .

يقول المراسل : قبل الوصول لبلدة (هارفيلا) غيّرتُ طريقي متوجهاً إلى قرية (منستير) . . وقالت امرأتان تغسلان الملابس أمام أحد البيوت ، وخاطَبْتُهُما بالتركية : أريد كوباً من الماء . وعندما سمعتاني أتحدث بالتركية غمرتهما الفرحة . . ولما عرفتا أني صحفي من تركيا ، أصابهما الذعر وابتعدتا ، لوجود أحد قادة الشرطة في البيت المقابل وهذا سيعرّضهما للمساءلة والتعذيب بعد رحيلي . وأكّدت المرأتان بأن الشرطة البلغارية ستمارس ضدهما أبشع أنواع التنكيل وستحمّلهما مسؤولية إيوائي والتحدّث إليّ ، وأكّدتا أَنَّ موقف الجالية الإسلامية متردٍّ للغاية . . وفي الأسبوع الماضي اعتقل رجال الشرطة سبعة أشخاص بينهم امرأة لأنهم رفضوا التوقيع على الورقة الخاصة بتغيير الأسماء . . ولا نعرف عنهم شيئاً إلى الآن . ويتابع المراسل حديثه فيقول : (ثم توجّهتُ إلى قرية أخرى ، لن أذكر اسمها حفظاً على أرواح أهلها ، وهناك عَرَضَ علي رجال القرية أيادي الأطفال وقد خُتم عليها الاسم الإسلامي (بالوشم) حتى لا يزول ولا يُنسى . . فإن المسلمين أدركوا خطورة الموقف والخوف من أن لا يتعرّف الأولاد على بعضهم بعد جيل واحد ، فقاموا بهذا الوشم بالنار حتى يتعرّفوا عليهم ولو بعد عشرات السنين) .

(كما أبلغني سكان القرية بأن المسجد قد هُدم ودُمّر تماماً) .

(وفي أثناء وصولي إلى مفترق الطرق الذي يؤدّي إلى الطريق الدولية ، قاطعتني سيارة شرطة واعتقلتني ، وبعد تحقيق لمدة (سبع ساعات) كاملة ، أطلقوا سراحي ، وأوصلوني إلى الحدود اليوغسلافية ، وكانوا قد قاموا بتفكيك السيارة أثناء التحقيق وفحصوها

جيداً وكنت قد أتلفت كل الصور التي التقطها وابتلعت المذكرات التي كتبتها قبل ذلك . .

. . وفي طريق العودة سنحت لي الفرصة للتحدث إلى اثنين من أولاد المدارس الأتراك ، وقد علمت أَنَّ اسم الأول « محمد » والثاني « رمضان » وقد تحوّلا إلى « إيفان » و« بوريس » ، وبعد الوصول للحدود التركية ـ البلغارية وُضعتُ رهن الاعتقال مع اثنين من الصحفيين الأتراك لمدة ١٤ ساعة واستجوبنا بصورة أبشع من الأولى . .



هدم المساجد

.. مساجد بلغاريا العثمانية ، تُحفٌ رائعة ، وذات قيمة فنية وأَثَرية ، ولذلك حوَّلت السلطات معظمها إلى متاحف ، كما هُدِمَ البعض منها ، مثل (مسجد البازار الجديد) في مدينة (شومَن) وهذا المسجد كان بني أيام العثمانيين ، ولكنه هدم تماماً في عام (١٩٨٤م) ، مع بداية حملة البلغرة ، وبنيَ بدلاً منه ـ على أيدي المسلمين ـ مسجد صغير مكان بيت قديم كبير ، ويعمل الآن فيه إمام المسجد « علي أفندي » الذي تغيّر اسمه إلى : « إنجيل أباد شيف » .

الصلاة يوم الجمعة فقط :

ذكرت لجنة (هلسنكي) : (إنَّ السلطات البلغارية حدّدت مواعيد الصلاة وأعداد المصلين المسموح بها واقتصرت على التصريح بالصلاة في ساعات محدودة ومعيّنة ، وهي : في يوم الجمعة فقط من كل أسبوع ، مما يشكّل ممارسة عنف صريحة على مقتضيات الشرائع الإسلامية) ، وتذكر بعض المصادر أَنَّ أكثر من (١٣٠٠ مسجد) أُغلق من قِبَلِ السلطات منذ بداية الحملة ، وكانت مساجد أخرى قد تحوّلت إلى كنائس ، أو متاحف ، أو محلات لبيع الملابس ، أو مقاهٍ ، وحتى دكاكين حلاقة !!

الصلاة لكبار السن فقط :

.. في بلغاريا لا يمكن سماع أي أذان للصلاة ، لأن الأذان لا يُرفع أصلاً ، وقد أُغلق المعهد الذي يُخرِّج الأئمة والوعّاظ وتحول إلى مكان لدفن الموتى ، والمسجد الوحيد الذي يُسمح فيه بالصلاة في (صوفيا) ، مغلق الأبواب وإذا حدث وأراد أحد الدخول ، فيجب أن يقرع الباب ثم يضغط على المقبض ، ويدفع الباب ليجد حوالي (خمسة مصلين فقط) ، على الأكثر يؤدون الصلاة على استحياء[1] . ولا يُسمح للمصلّين إلا إذا كانوا كبار السن ، وأما الشباب فيتعرّضون للاعتقال والسجن بتهمة (محاولة) الذهاب إلى المسجد . (منظّمة العفو الدولية ١٩٨٦م) .

صحف الغرب تقول :

.. قالت صحيفة (التايمس) اللندنية في عددها الصادر في : (٢٧/ حزيران / ١٩٨٩م) : (أَنَّ السلطات البلغارية فرضت ألاّ يقلّ عمر المصلّين عن (٣٥ عاماً) !! وروى اثنان من اللاجئين الأتراك من بلغاريا إلى تركيا لمراسل الصحيفة ، كيف يقف الحرّاس البلغار على أبواب المساجد قبل صلاة الجمعة المسموح بها ، للتأكّد من هويات المصلين ، وعلى كل من يثبت أنه تحت سن الـ (٣٥ عاماً) ، عليه أن يعود وإلاّ فإن عليه أن يصلّي في الكنيسة المسيحية ، كما يصلّي في المسجد .

.. وقال أحد اللاجئين ويسمّى « يسار » بأن حملة التفتيش على المصاحف اشتدت في عام (١٩٨٥م) ، وكانت تتم من بيت إلى بيت ، من قِبَل السلطات البلغارية ، وقال إن الأشخاص الوحيدين المسموح لهم

---

(١) انظر : جريدة : الأخبار المصرية / ٢/٨/ ١٩٨٧م/ .

بحيازة المصحف ، هم : أئمة المساجد فقط ، ولكن معظمهم من أتباع السلطة ، ونحن لا نكنّ لهم أي احترام .

في عام (١٩٨٧م) حاول وفد من منظمة المؤتمر الإسلامي برئاسة « د . عبد الله عمر ناصف » ـ السكرتير العام لاتحاد العالم الاسلامي ـ زيارة أحد مساجد صوفيا ، فصدمتهم رائحة عفونة نفّاذة ، مما يدلّ على أن المسجد كان مغلقاً منذ سنين طويلة ، وقد تم فتحه في الليلة السابقة لزيارة الوفد ، كما أن الوفد علم أَنَّ المصلين داخل المسجد لم يكونوا إلاّ عمّالاً في المصانع أتوا بهم ليملؤوا المكان وليستدلَّ الوفد على أنّ المسجد مفتوح دائماً ، وأَنَّ المسلمين يمارسون عباداتهم الدينية بشكل عادي ، لكن الرائحة كشفت الحيلة .

وفي سؤال لمراسل صحيفة (زوودويتشه تسايتونغ) الألمانية الغربية : عن كيفية دفن المسلمين موتاهم في ظل الأوامر البلغارية ، فقالت مجموعة من المسلمين : (بدلاً من أن يأتي الشيخ ليقرأ القرآن ، يأتي قسّيس بملابس سوداء ، ويلقي خطبة باللغة البلغارية ليس لها أي معنى ، فإذا كان المتوفّى يُسمى (عليّاً) ـ مثلاً ـ فإن القِسّيس يتحدث عن واحد اسمه(ديميتروف) ويقول : هذا كان شخصاً طيباً . . ! وقال القانوني الأميركي « جيروم شيستاك » : (كل الأديان تُضطهد في بلغاريا ، ولكن يبدو أن الأقلية المسلمة تعاني أكثر من غيرها وتُمارَسُ عليها ضغوط خاصّة) .

* * *

رئيس بلغاريا يخالف الواقع

أدلى « تيودور جيفكوف » الرئيس البلغاري بحديث للصحفي الشهير « روبرت ماكسويل » عام (١٩٨٢) عندما سأله عن المسلمين في بلغاريا .

فقال : (إنَّ المسلمين في بلغاريا ثاني أكبر عقيدة ، وهم يُعتبرون متساويين تماماً مع باقي الموطنين ، وهم أحرار في اعتناق دينهم ، وهناك أكثر من (١٣٠٠) مسجد و(٨) مكاتب إفتاء رسمية موزَّعة في المقاطعات ، ومكتب للمفتي العام و(٥٧٠) إماماً .

والدولة تُعطي إعانات لمكتب المفتي الرئيسي لتضاف إلى ميزانية الدعم الخاص برجال الدين . وفوق كل هذا ، فإن الدولة تُعنى بالحفاظ على الآثار وترميمها ، وهي الآثار التي خلَّفها العثمانيون ، والتي لها قيمة تاريخية وأثرية كبيرة .)

وقال : (إنّ الفئة المسلمة مازالت تملك وتدير أملاكها الخاصة حسب قانون الشريعة وإيراداتها تذهب إلى المقاصد الدينية . أما الجوامع فهي مفتوحة في كل وقت !! ويزورها المسلمون للصلاة دون أيّ قيود !!) ـ وهذا كلّه مخالف للواقع .

ذكرت وكالة (رويتر) في : (كانون الثاني ١٩٨٥م) قول نائب الخارجية البلغارية في حديثه للصحفيين الغربيين . . : (بأنه من

المستحيل في بلغاريا إجبار شخص على تغيير اسمه ! .) .

وقد ذكر مراسل (تايم) الأمريكية (جون مودي) في صوفيا في (أذار ١٩٨٥) :

(إنَّ سكان المدينة رفضوا التوقيع على الصِّيَغ المطلوبة لتغيير أسمائهم ، وقرروا مقاومة الحملة مهما كانت النتائج ، ولكن الجنود البلغار بدؤوا في تخويفهم وتهديدهم بالسلاح ، بينما قام فريق آخر من الجنود بإجبار الرجال على مشاهدتهم وهم ينتهكون حُرُمات زوجاتهم وبناتهم أمام أعينهم مما أجبر عدداً من سكان المدينة على التوقيع على تلك الصيغ !!) .

❊ ❊ ❊

بلغاريا تنتهك دستورها

. . من المعروف أن تكون أيَّ دولة حديثة مؤلفة من عدة أقليات ، وهذه الأقليات تكون : طائفية أو عرقية أو دينية أو لغوية .

فبلجيكا ـ مثلاً ـ دولة مقسّمة لغوياً بشكل بارز ، وفي أستراليا طوائف عديدة ، ومتباينة ، كما أَنَّ هناك عدداً غير قليل من الألمان ينتشر في أنحاء دول عديدة من أوربا ، (ولا تزال في بلغاريا أقلية ألمانية موجودة من القرن الرابع عشر) . وكل هذه الأعداد من السكان التي تُعتبر أقليّات في مواطنها ، تحتفظ بحقوق الإنسان الرئيسة والتي ضَمِنَها القانون الدولي والمحلّي ، ومبدأ قانون حفظ حقوق الإنسان هو : (عدم اتخاذ أيّ إجراءات اضطهادية ضد أي أقليّة) .

وفي الواقع فإن بلغاريا تنتهك دستورها بنفسها ، بعيداً عن الالتزام بالمعاهدات الدولية . فالدستور البلغاري ينصُّ في المادة (٣٥) على مايلي :

١ ـ كل مواطني الجمهورية الشعبية البلغارية : متساوون أمام القانون .

٢ ـ لا يُسمح بأيّ امتيازات أو قيود على حقوق المواطنين فيما يخصّ : الجنسية ، والقومية ، والأصل التاريخي ، والعقيدة الدينية ، والجنس والعِرْق والتعليم والوضع الاجتماعي والمادّي .

٤ ـ كل محاولة لبَثِّ الضغينة أو التحقير ، أو الإذلال بسبب عوامل العرق أو القومية أو الدين ممنوعة ، وغير مسموح بها ، ومعرَّضة للعقاب .

وفي المادة (٤٥) مايلي :

بند ٧ ـ كل المواطنين الذين ينتمون إلى أصل غير بلغاري ، لهم الحق في دراسة لغتهم بالإضافة إلى الدراسة الإلزامية لدراسة اللغة البلغارية .

ومعاهدة السلام الموقَّعة بين الحلفاء وبلغاريا في نويللي عام (١٩١٩م) تنص في المادة (٥٠) على مايلي :

تلتزم بلغاريا بالحماية الكاملة لحياة وحرية كل السكان الموجودين على أرضها دون تمييز في : المولد والقومية ، واللغة ، والعرق ، والدين . كل المواطنين في بلغاريا لهم الحق في ممارسة شعائرهم الدينية بحرية سواء كانت عامة أو خاصة ، وذلك فيما يتعلق بالعقيدة أو الدين أو الاعتقاد ، بحيث لا تتعارض مع الأخلاق العامة أو النظام العام .

. . البروتوكول الملحق بمعاهدة الصداقة بين تركيا وبلغاريا في عام (١٩٢٥م) ينص على مايلي :

كِلا الجانبين يوافق على أَنَّ بلغاريا تضمن تمتُّع الأقلية المسلمة في بلغاريا الكاملة بشروط حماية الأقليّات التي وردت في معاهدة (نويللي) عام (١٩١٩م) كاملةً . .

ولكن ! (كل ماجاء في دستور بلغاريا والمعاهدات الدولية والاتفاقيات الثنائية ، والتزمت السلطات البلغارية بها أمام العالم في ضمان حقوق مواطنيها وأقلياتها على اختلاف مشاربهم ولغاتهم وعقائدهم وانتمائاتهم العرقية واعتبارهم مواطنين متساويين مع جميع السكان في الحقوق والواجبات في بلغاريا .

كل ذلك لم يكن سوى حبر على ورق) .

حقوق الأقليّات في الاتفاقات الدولية :

. . هناك اتفاقيات دولية وقَّعتها الحكومة البلغارية لحماية حقوق الإنسان عملاً بمبادى الأمم المتحدة . . ، فقد ورد في المادة (٢٧) من الاتفاقية الدولية الخاصة بالحقوق السياسية والمدنية مايلي :

(إنَّ الأقليات الموجودة في أيّ دولة ، والأشخاص المنتسبين لها ذات لغة ودين وعرق يختلف عن البيئة التي تعيش فيها ، من حقّها : ممارسة ثقافتها وشعائرها الدينية ، وتَعلُّم لغتها ، والقيام بعباداتها ، ولا يمكن حِرْمان هذه الأقليّة من هذه الحقوق)[١] . . وهذه الحقوق مُعتَرف بها ولكن . . ؟

الشيوعية في بلغاريا :

كان الضغط قد زاد على الأتراك في بلغاريا بعد قيام الثورة الشيوعية في روسيا ، وكان لذلك ردّ فعل في بلغاريا ، التي تضم عناصر سلافية ، فتشكلت فيها منظّمتان تابعتان للقوات المسلّحة البلغارية ، ولهما مهمة محدّدة وهي : اضطهاد المسلمين وترحيلهم . فقالت : (هناك منظمة لا زالت تقوم بنشاطها في بلغاريا ضد المواطنين الأتراك والاعتداء عليهم ، وضربهم ، وجرحهم ، وقتلهم ، وتلويث مصادر المياه بدهن الخنزير وقذف الحجارة على المصلّين ، والمؤذِّنين ، وحرق المساجد . .)[٢] .

وقد استمرّت الهجرة حتى بداية الحرب العالمية الثانية عام

---

(١) انظر : دراسات حول الكيان التركي في بلغاريا (ص٥٢) .

(٢) انظر : مأساة المسلمين في بلغاريا (ص١٠٢ ـ ١٠٣)

(١٩٣٩م) حيث كادت أن تتوقف ، وكان عدد المهاجرين من عام (١٩٤٠ إلى ١٩٤٩م) حوالي (٣١ ألفاً) فقط ، وكان قد مرّ على الدولة البلغارية (٧٢) سنة .

وساد النظام الشيوعي في بلغاريا عام (١٩٤٤م) ، فمُنع الأتراك من الحصول على جوازات سفر وبذلك توقفت الهجرة تماماً . . وقد ساء وضع الأقليات التركية أكثر من ذي قبل ، خاصة أن النظام الشيوعي الحاكم كان يعتقل الشباب التركي المسلم دون سبب حقيقي ، وخاصة المثقفين منهم ، ويرسلهم إلى المنفى سنين طويلة ، حتى تنقطع أخبارهم[1] . .

بداية المعاناة :

لقد كانت بداية معاناة المسلمين في بلغاريا منذ أن سيطر الشيوعيون على الحكم عام (١٩٤٦م) ، وكانت الخطوات الأولى التي خطتها السلطات البلغارية هي : إجبار المسلمين على الهجرة إلى تركيا ، وما بين عامي (١٩٤٩ إلى ١٩٥١م) هاجر إلى تركيا أكثر من (١٥٠ ألف) تركي بلغاري مسلم ، إلا أن النقص الذي سبّبته الهجرة في عدد الفنيين في بلغاريا ، دفع الحكومة لانتهاج أسلوب آخر يركّز على إذابة الشخصية الإسلامية ، وذلك بتفريق المسلمين بعضهم عن بعض ، فتمَّ إرسال (٢٨ عربة) تحمل العائلات المسلمة من مناطق : (موستانلي) ، و(كوساكافاك) ، و(درويري) ، إلى الشمال وذلك في (أيلول ١٩٥٠م) ، وتم ترحيل حمولة (٦٣ عربة) من العائلات المسلمة من

---

(١) انظر : مأساة المسلمين في بلغاريا (ص ١٠٤ ـ ١٠٥)

(كوسوكافاك) إلى مناطق : (ترويان ورازاغراد وشومنو) حيث لا يكاد يوجد سكان مسلمون ، والأكثر من ذلك انتزاع الفتيات المسلمات من عائلاتهن وتوزيعهن على الأقاليم البلغارية ، حيث يُجْبَرْنَ على الزواج من بلغار غير مسلمين[1] .

منع الهجرة وسياسة البلغرة :

بدأت مشاكل الأقلية التركية تضغط على حكومتي صوفيا وأنقرة ، . . وتحت ضغط الظروف ، توصّلت المباحثات الدبلوماسية الطويلة إلى السماح عام (١٩٥٠م) لـ : (٢٥٠ ألف) طالب هجرة بالسفر .

. . إنَّ تركيا لم تفكر قط في عملية التهجير بالكيفية التي ترغبها بلغاريا . . فساءت العلاقات بين الدولتين ، ورفضت بلغاريا في مذكرتها بتاريخ (٢٢/١٢/١٩٥٠م) ما تدّعيه تركيا من سوء معاملة الأتراك لديها . وأكّدت على إصرارها بتهجير هذا العدد من المواطنين الأتراك ، وفي المهلة التي حددتها ، وفي حال رفض تركيا لهذا العدد ، وهذا الاقتراح ، تكون هي مسؤولة عن تطبيق الاتفاقية ، وردّت تركيا بمذكّرة قالت فيها : إنها تلفت النظر إلى إمكانية أن ينقلب موضع الهجرة إلى تهجير . . وبعد مفاوضات لمدة شهرين عاد سيل الهجرة من جديد ، على أن يتم قبول (٨٠٠ شخصاً) يومياً حتى بلغ عدد مهاجري عام (١٩٥٠م) فقط (٥٢ ألف) مهاجر[2] .

---

(١) انظر : الإسلام والمسلمون في البلقان (ص٢٦٠) .
(٢) انظر : مأساة المسلمين في بلغاريا (ص ١٠٦ ـ ١٠٨) .

التهجير بين المنع والإطلاق :

أغلقت تركيا من جديد حدودها وأُعيد فتح الحدود يوم (٢٠ شباط ١٩٥٣م) ، ولكن بلغاريا تعمّدت عدم السماح بالهجرة حتى عام (١٩٦٨م) ، حيث عقدت بين الدولتين اتفاقية (جمع الأُسَر) .

وفي استفتاء جرى بين (١٥٤ ألف مهاجر) بين عامي (١٩٥٠ ـ ١٩٥١) تبيّن أن (١١,١٪) فقط من أرباب الأسر هاجر بمحض إرادته .

وأن (٨٥,٣٪) بسبب الأوضاع الشاذّة وسوء المعاملة ، وقال (٢٤,٤٪) إنَّهم هم أنفسهم لم يتلقوا معاملة شخصية سيئة ، ولكن الذين حولهم .

وأعرب (٧٤٪) منهم ، أنّهم أوذوا من قبل السلطات البلغارية .

وأن(٨٪) منه ضُربوا ضرباً مبرّحاً ، وأُهينوا إهانة بالغة .

وأن (٤,٣٪) منهم سُجنوا ونُفوا .

وأن (٨٢٪) منهم تعرضوا لإهانات جسمية وأعمال غير قانونية .

وأن (٢,٦٪) فقط تمكنوا من بيع ممتلكاتهم بأثمانها الفعلية .

وأن (٦٣,٤٪) لم يتمكنوا من الحصول على أثمانها الحقيقية .

وأن (٣٧,٣٪) لم يتمكنوا من البيع على الإطلاق .

وقال معظمهم : إنهم اضطرّوا إلى التنازل عن أراضيهم الزراعية ، للحصول على معطف شتوي أو غطاء صوفي ، لأن السلطات البلغارية منعتهم من اصطحاب ممتلكاتهم معهم . وأُغلق بعد ذلك موضوع الهجرة ، حتى أنه فُرضت عقوبة على كل من يتحدّث عن الهجرة وظلَّ الحال يغلي في هدوء ، حتى حدثت عمليات التأميم الجماعية وإغلاق المدارس التركية ومنع تدريس اللغة التركية .

اتفاقية جمع الأُسَر مرّة أخرى :

ثمّة بوادر إيجابية ظهرت عام (١٩٦٦م) ـ إِثْرَ زيارة وزير خارجية بلغاريا « إيفان باشيف » إلى (أنقرة) ، وعُرِضَ موضوع الهجرة على بساط البحث ، وانتهى إلى إصدار بيان مشترك يوم (٢١ آب) بما سمي باتفاقية (جمع الأسر) . . واشترطت بلغاريا أن يكون اللّحاق بالأقارب الذين هاجروا قبل عام (١٩٥٢م) ، وقد بلغ عدد الذين هاجروا في السنين العشر التالية حوالي (١٢٠ ألف) مواطن بلغاري من أصل تركي ليصل عدد الذين هاجروا منذ قيام الجمهورية التركية ، وحتى بداية الثمانينات حوالي (نصف مليون) إنسان .

. . استمرت معاناة المسلمين بين مدّ وجزر ، حتى صمّمت السلطات البلغارية عام (١٩٨٤م) بتنفيذ سياسة (البلغرة) . . التي كانت السلطة الشيوعية في بلغاريا قد وضعتها سابقاً لصهر كل السكان في بلغاريا وجعلهم مجتمعاً موحداً ـ حسب خطتها الماركسية[١] . .

المراسلون والهجرة :

. . مما أثار جميع المراسلين ، أَنَّ معظم القرى الإسلامية قد هجرها أهلها جماعات وقد حدث هذا فجأة بداية من عام (١٩٨٩م) .

فقد تدفّق عشرات الآلاف من الأتراك المسلمين على الحدود التركية ـ البلغارية بشكل مفاجىء ، تاركين بلدهم بلغاريا ، ومعظمهم لا يملك متاعه الشخصي مما يوحي بأن وراء هذه الموجة الجماعية عملية (تهجير واسعة) .

---

(١) انظر : المصدر السابق (ص ١٠٨ ـ ١١٠) .

ففي منتصف عام (١٩٨٩) أصدرت السلطات البلغارية ـ فجأة ـ قراراً بمنح حرية السفر للمواطنين البلغار المسلمين .



محظوظ يعبر نقطة الحدود بمتاعه كاملاً

.. ولكن قرار السفر أو السماح بالسفر كان مَشوباً بكثير من الغموض ، لأن السلطات قرّرت هذه الحرية لكل راغب فيها ، لكن تقرير الأمين العام للأمم المتحدة عن وضع العناصر التركية في بلغاريا في يوم (٩/ آب/ ١٩٨٩) يعترف بأنه : (يسود في بلغاريا وضع مأساوي إلى حدّ بعيد ، حيث بدأت منذ خمسة أعوام سياسات الدمج الإجباري ، والضغط على المواطنين البلغار من أصل تركي) . ويقول التقرير : (بأن هذا الوضع المأساوي قد اتخذ مساراً آخر مع (طرد) هؤلاء المواطنين ، والهجرة الجماعية نتيجة لحرمانهم من حقوقهم الإنسانية الأساسية ، وقد وصل عدد المهاجرين إلى أكثر من (٢٥٠ ألف مهاجر) .

موجات الهجرة :

كانت أول الهجرات الجماعية قد تمت عام (١٨٧٧م) ـ أثناء الحرب الروسية ـ العثمانية ، حيث نُهبت أموال الأتراك المسلمين وممتلكاتهم ، وكانت الموجة الثانية من الهجرة ، في عهد « فرديناند » الذي نصّب نفسه حاكماً مستقلاً في عام (١٩٠٨م) . واشتدت أعمال العنف ضد المسلمين وانخفض عددهم بسبب الهجرة إلى أكثر من (١٣٪) في عام (١٩٣٩م) .


الرحيل خارج البلاد

أما الموجة الثالثة من الهجرة فكانت بعد تسلُّم الحزب الشيوعي السلطة في بلغاريا عام (١٩٤٦م) ، حيث اشتدت سياسة ملاحقة المسلمين وطرد أكثر من (١٦٠ ألف) تركي مسلم من بلغاريا إلى تركيا في عام (١٩٥١م) وحده .


الاضطهاد والطرد لم يستثن الشيوخ

التخلص من المسلمين :

.. كانت حرية السفر بمثابة أمر للأتراك المسلمين بمغادرة البلاد خلال يومين أو ثلاثة أيام على أبعد تقدير !.. ولا شك أن إرغام المسلمين الأتراك على السفر إلى تركيا في نظام مبدأ الحرية الممنوحة لهم بالسفر ، يؤدي إلى غرضين في وقت واحد :

أولهما : التخلّص من المسلمين .

وثانيهما : الضغط على الحكومة التركية بإثقالها بهذا العبء الضخم .

والحكومة البلغارية كانت تخشى من اقتحام موجة التغيير السوفييتية في بلادها ، والتي كان المراقبون يتوقعون وصولها إلى بلغاريا سريعاً .

وإذا ما حدث ذلك كانت تتوقّع السلطات البلغارية أن تطالب الأقليّات الموجودة فيها بنصيبها من الديمقراطية والمساواة . وفي هذه الحال سيكون من الصعب جداً ، إنكار حقوق الأقليّة المسلمة في : (الحياة والحرية والدين) .

ولذلك أراد الحكم الشيوعي في بلغاريا أن يقطع الطريق على المسلمين خاصة بعد أحداث : جورجيا ، وأذربيجان ، وكازاخستان ، وطاجكستان ، في الاتحاد السوفييتي السابق ، فكانت الهجرة إجبارية .

وطبقاً لرأي المؤرّخ التركي « بلال شمشير » فإن الهجرة من البلقان إلى تركيا تعيد دائماً (جرحاً مفتوحاً دامياً) .



* * *

المأساة في الصحف العالمية

واشنطن بوست :

تقول في تعليقها : (إنَّ شكوى الأتراك في الواقع ، شكوى جدّية . فالبلغار يتصرّفون بطريقة قاسية وعنيفة وشاذّة ، والسفير البلغاري يلوي عنق الحقيقة عندما يقول (عن حركة التهجير الإجبارية) ، : « إنها حركة سياحية » ، فما يجري في بلغاريا هو في الواقع أحد أهم أحداث انتهاكات حقوق الإنسان في السنين العشر الأخيرة) .

وكانت بلغاريا قد تعرضت للهجوم من قبل الرأي العام العالمي بسبب إجراءات القمع القاسية ضد المسلمين الذين يرفضون تغيير أسمائهم . وحين انتهى عام (١٩٨٦م) توقّع العالم نشوب حرب بين تركيا وبلغاريا بسبب قضية البلغرة ، ولكن الذي منع نشوب الحرب ـ على ما يبدو ـ الخوف من اتساع نطاقها ، بسبب عضوية كل منهما في حلفين متعاديين : حلف وارسو ، وحلف الأطلسي .

.. وقد سمحت السلطات البلغارية للمواطنين الأتراك المسلمين بتقديم طلبات للهجرة! ، ولكن غالباً ما يتسبب تقديم هذه الطلبات بملاحقات (بوليسية) وأمنية لطالب الهجرة وعائلته وقد يتسبب في فقد وظيفته أو عمله ، أو منع أطفاله من التعليم ، أو يتعرّض للمراقبة الدائمة ، أو للعقوبات ، أو للسجن ، وفي بعض الأحيان لعمليات قتل

فظيعة : (القانوني الأميركي : جيروم شيستاك) .

وهناك قائمة مرعبة بأسماء ، وإجراءات تُتخذ ضد الأشخاص لمجرّد أنهم يرغبون في الرحيل خارج البلاد ويتهمون ببساطة : (بالتآمر على أمن الدولة) .

وول ستريت جورنال :

يقول مراسل هذه الصحيفة في ١١/ تموز/ ١٩٨٩ « جون فاند » أنه التقى في مدينة (كابيكول) على الحدود التركية ، بمجموعة من اللاجئين أو المهاجرين أو السيّاح ـ على حد تعبير السلطات البلغارية ـ ، وأن معظم هؤلاء يقولون : أنه صدّرت لهم جوازات سفر وتأشيرات خروج دون إنذار مسبق ، وأجبروا على الرحيل خلال (٢٤ أو ٤٨ ساعة فقط) .

(ومنذ حزيران / ١٩٨٩) وأفواج السواح تتدفق حتى بلغت في شهر واحد أكثر من (١٢٥ ألف سائح (مهاجر)) فجأة ، وكلهم في طريق واحدة واتجاه واحد) .

ويقول أيضاً : (لقد عومل الأتراك في بلغاريا دائماً على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية ، ولهذا تبدو حملات الترحيل نتيجة طبيعية لقلق البلغار من زيادة مواليد المسلمين ، وقد حكمت السلطات البلغارية على مدّرس يسمى « علي خليل غوستان » (٥٢ سنة) بالسجن لمدة خمس سنوات لأنه كان يعلم اللغة التركية .

دير شبيغل :

قال مراسل هذه المجلة الألمانية : بعد اشتداد انتقاد الغرب للسياسة البلغارية في عملية الترحيل ، اتّخذت موقفاً (أكثر ديمقراطيةً) فوزّعت

جوازات السفر على المهاجرين وطلبت منهم الرحيل ليبدو الأمرُ وكأنّهم يمارسون حقّهم في السفر .

شتوتغارت :

.. ونقلت صحيفة (شتوتغارت) الألمانية عن مراسلها في مدينة (أدرنة) التركية الحدودية في (٢٧ حزيران ١٩٨٩) مايلي : (ما تزال موجات اللاجئين تتدفق بلا انقطاع عبر الحدود إلى تركيّا ،.. ويتابع المراسل الألماني : (كل المسافرين يصبّون هنا في (أدرنة) بوساطة القطار فقط.. لقد اكتظت (أدرنة) فوق طاقتها باللاجئين ويصلها يومياً (٥٨٠) تركيّاً كل ليلة .

وقالت إحدى السيدات التركيّات للمراسل : (فينا دمٌ بلغاري ، وفيهم يجري أيضاً دم تركي ، لقد عشنا معاً وتوارثنا واختلطنا وفعلنا الكثير معاً) .

ويقول المراسل : (هؤلاء اللاجئون تؤويهم السلطات التركية في خيام بيضاء نظيفة كالثلج أعدتها لهم منظمة الهلال الأحمر التركية.. ولكن الحياة ـ رغم كل شيء ـ صعبة في الخيام والظروف في بلغاريا لم تكن أحسن حين وضعتهم السلطات البلغارية تحت الخيام قرب الحدود قبل نقلهم الجماعي وتكديسهم في القطارات أو العربات القديمة ، ودفعهم دفعاً لعبور الحدود مشياً على الأقدام! بالرغم من أن المعسكر في بلغاريا يبعد عن المعسكر في تركيا بحوالي (١٠٠كم) .

(.. وقد أبدت العائلات التركية أصالةً نادرة ـ على حد تعبير المراسل ـ حين استضافت أقاربها القادمين من بلغاريا مع تقديم التسهيلات والتضحيات بشكل لا يصادفه المرء هذه الأيام..

وهؤلاء اللاجئون ليس لديهم وثائق إلا جوازات سفر أو أوراق بلغارية . وتبدي السلطات التركية تفهّماً كبيراً لوضعهم. . ويقول مدير المعسكر « شاهين عثمان » إنَّ هويتهم هي لغتهم ودينهم . وإذا قال لي أحدهم : أنه تركي ، أعرف بالتأكيد أنه صادق ، ولهذا لا أحتاج إلى أوراق .

وروت القروية التركية ـ البلغارية « سُكَيْنَة أصلان » كيف وقفت مع أطفالها يومين عند معسكر الحدود للتفتيش قبل الترحيل : (قاموا بتفتيشنا بمنتهى الدّقة بكثير من المبالغة ! واستولوا على أموالنا وحليّنا الذهبية وصادروها ، وأخذوا منا الأوراق الخاصة بنا وكانوا مهتمين أشد الاهتمام بالصوَر التي أخذناها معنا ، وقد صادروها كلها ، وبالذات صورة قبر زوجي ! حتى لا نستطيع إثبات أصلنا كأتراك ومسلمين) . وتضيف « سكينة أصلان » : (لي ثلاثة أبناء في الجيش البلغاري ولا أعرف عنهم الآن شيئاً ، وهم لا يعلمون أني رحلت مع إخوتهم . لقد غيّروا أسماءهم مرتين ، ولا أعرف الآن ماهي أسماؤهم لأسأل عنهم ، كل مَنْ في قريتنا رحل ولن يجدوا أحداً) . وبكت السيدة التركية بحرقة !!) .

الأندبندت :

. . وقال مراسل صحيفة (الأندبندت) البريطانية في عددها الصادر يوم (١٠ تموز ١٩٨٩) من صوفيا :

(. . كل من قابلت من البلغار ، وجدته متأثراً بالدعاية ضد المسلمين) ، ومهما كان الأمر فإن الواقع أَنَّ هؤلاء الناس قد عاشوا جنباً إلى جنب لمدة تزيد عن (خمسة قرون) دون كراهية. . ولم تكن تثيرهم قضية الاختلاف بينهم. . إلى أن تدخّل السياسيون .

والحقيقة هي أَنَّ كل هذه الفوضى قد أثّرت بشكل حاد وسلبي على الاقتصاد البلغاري وعلى صورة بلغاريا أمام الرأي العام العالمي) .

نيويورك سيتي تربيون :

. . أما صحيفة (نيويورك سيتي تربيون) فقد وصفت قطار اللاجئين في عددها في (٦ تموز ١٩٨٩) بأنه : (قطار العار) .

انتظار قطار العار !

زوودويتشه تسايتونغ :

. . جاءت أدق التفاصيل مما يُغْني عن مئات التقارير الرسمية والحكومية والدعائية في مقال هذه الصحيفة الألمانية الغربية التي وصفت القطار بـ : قطار العار القادم من بلغاريا ، فقالت عن اللاجئين القادمين : (إنهم أناس يجلبون معهم فقط ما يستطيعون حمله بأيديهم ، ومايستطيعون اختزانه من ذكريات أليمة) .

قال المراسل : (يصل القطار إلى (أدرنة) ، العجائز يُحملون على الأبواب إلى خارج القطار ، والصبيان يقفزون من النوافذ ، وأصوات بكاء الأطفال ، يتبع الجميع عربة عليها أشياء شخصية ، أكبرها فِراش . . والعجائز محنيات الظهور ، يجلسون القرفصاء ، والأولاد يجلسون بأدب بجانب أهليهم ، والبنات يمسحن بحنان على العرائس التي يحمِلْنها ، أما الآباء فيُمسكون بجوازات السفر ذات اللون الأحمر الداكن ، ولا يُسمح لأي منهم أن يخرج من بلغاريا بأكثر من (٥٠٠) ليفا[١] ، مهما كان حجم ممتلكاته وأمواله في بلغاريا . .

---

(١) ليفا : العملة البلغارية وهي الآن أقل بكثير من الدولار الأميركي الواحد.

. . وعلى رصيف المحطة يقف مئات من الناس الذين أتوا منذ زمن ينتظرون ساعات طويلة وصول القطار ليستقبلوا باقي أفراد علائلاتهم الذين تركوهم في بلغاريا ، وقد يمتد الانتظار أياماً طويلة. . إنهم لا يعرفون من الذي سيصل ، ومتى ؟ ، وغالباً لا يأتي انتظارهم بفائدة !! . . والأطفال الذين أتوا إلى تركيا في موجات هجرة سابقة ، لا يعرفون ماذا يُدعىٰ آباؤهم الآن في بلغاريا . ويقول أحد المهجّرين : إنه ظلّ يقف أكثر من ثلاثة أسابيع على الحدود في انتظار زوجته وابنته لأنه لم يسمح له بصحبتهن!

وتنهال الأسئلة والأجوبة من المراسلين الأجانب بعد وصول القطار ونزول راكبيه وتختلط الردود :

ـ لقد ظللت ١٤ ساعة جالساً القرفصاء على الأرض

ـ لقد استغرقت الرحلة ٢٠ساعة بينما لا تزيد المسافة عن (٢٨٠كم) .

ـ كنا عشرة معاً ، ولكنهم أعطونا أربع تذاكر سفر فقط .

ـ كنا ١٨ شخصاً في عربة واحدة .

قصص كثيرة تُروى بطرق معقدة. . (إنهم أناس بسطاء تماماً ، عمال وفلاحون ، ويبدون تماماً أنهم قُطعوا كليةً عن العالم الخارجي بشكل متعمّد) .

هروب جماعي وسياسة ماكرة :

ولا يقتصر الأمر على محطات القطارات ، ولكن هناك نقاط عبور أخرى على الحدود يصل عن طريقها كثير من اللاجئين يومياً في سيارات مكدّسة ، وهؤلاء أحسن حالاً ، فهم يجلبون معهم كراسي للجلوس ،

وغسّالات ومدافىء ، بينما يأتي آخرون في عربات نقل أو عربات يجرّها حصان منهك ، ولا يجلبون معهم إلا عربة أطفال مثلاً ، تكاد تكون وحدها التي تحمل أشياءهم القليلة .

وبعض اللاجئين يصلون مشياً على الأقدام من مسافة تزيد عن (١٠٠كم) وهم يُعدّون بعشرات الآلاف ، وهؤلاء الأتعس حالاً . فهم لا يعرفون شيئاً ، لا يعرفون إلى أين هم ذاهبون ؟ ، ولا أين سيقيمون؟ ولا إلى من يتوجّهون؟ ، ويعسكرون غالباً في خيام ينصبونهاليناموا على الأرض الجرداء!! ويقول المراسل : (كانت بلغاريا أبعدت رسمياً (٢٠٠) من المنادين بحقوق الإنسان إلى (فيينا) بالنمسا).

وقد اتخذت بلغاريا سياسة ماكرة ، لتضطرَّ المسلمين إلى الرحيل خلال ساعات ، تاركين البيت والمزرعة والأصدقاء والأقارب وكل الممتلكات والأموال التي استولت عليها الحكومة والعمل ، وتاريخ خمسة قرون بأجيال عديدة . . ومنعت الحكومة الاتصالات الهاتفية مع الخارج على الإطلاق ، كما منعت بلغاريا دخول أي من السياسيين أو الصحفيين إلى مناطق معسكرات الأتراك الإجبارية ، وبخاصة : الصحفيين الغربيين .

وتضيف الصحيفة : هناك قسم خاص للأقلية التركية في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البلغاري ، وقد حارب الأتراك في بلغاريا إلى جانب البلغار الأصليين الجيش النازي كما ساعدوا على إنشاء الدولة البلغارية الحديثة ، واليوم : يجب اعتبار كل هذا وكأنه لم يحدث !! .



بعض المطرودين وصلوا بالقطار وفي انتظار الحصول على خيام

شلل اقتصادي في بلغاريا

انترناشيونال هيرالد تربيون :

قالت : إنَّ هذا السفر الجماعي ترك بلغاريا فريسة لشلل شبه كامل في اقتصادها . . فالزراعة تضرّرت ضرراً بالغاً ، لأنهم كانوا يعتمدون على الأتراك في زراعة التبغ بالذّات الذي يشكل أهم عناصر التصدير ، وقد أُجبِر الشباب الأتراك بعد رحيل أُسَرهم على العمل في مزارع التبغ حيث كان موسم الحصاد .

وأرادت الحكومة زيادة ساعات العمل وإرسال قوات من الجيش للعمل في المزارع . . وتجنيد القوى العاملة المدنية يوم (٤ تموز

١٩٨٩) ، وأدرج جميع الرجال بين سن ١٨ و٦٠سنة ، وجميع النساء بين سن ١٧ و٥٥سنة في فرق (تطوّع) إجبارية ، فُرِضت عقوبات صارمة على الذين يرفضون (التطوّع) .

فقد ضُرِب الإنتاج الزراعي البلغاري ضربة قاصمة لأن الأتراك في بلغاريا كانوا مسؤولين عن إنتاج ثلث المحصول العام البلغاري ـ حسب التقديرات الرسمية ـ أما زراعة التبغ فقد كانت كلها في أيدي الأقلية التركية .

.. وقال « ايفغيني ستانشيف » المحرِّر في وكالة أنباء صوفيا الرسمية : (لايوجد في الحكومة مسؤول واحد كان يتصوّر إمكانية حدوث ماحدث ، وهم الآن ببساطة لا يعرفون ماذا يفعلون) .



أسرة مطرودة تجر بعض ما سُمح لها به.

وكان مثل ماحدث في الزراعة حدث أيضاً في الصناعة من تَعطُّلٍ في المصانع وتشغيل عمالها ساعات إضافية إجبارية وأصبحت ساعات العمل ١٢ ساعة بدلاً من ٨ ساعات. . واعترف وزير الشؤون الاقتصادية البلغارية (بأَنَّ رحيل المسلمين أوجد مشكلة ضخمة)[١] .

والشواهد تدين السلطة البلغارية بامتهان كرامة وإنسانية شريحة هامّةً من مواطنيها ضاربة عُرْض الحائط كل القيَم الإنسانية والاجتماعية . وهذه نقطة سوداء كبيرة في تاريخ السياسة البلغارية على مدى العصور) .

* * *

(١) انظر : مأساة المسلمين في بلغاريا (ص١٠٥ ـ ٢٠٥) . وأيضاً : دراسات حول الكيان التركي في بلغاريا (ص٢٨ ـ ٦٥) .

الجهود الدولية والإسلامية
لحلّ مشكلة الاضطهاد

في عام ١٩٨٥م نوقشت قضية اضطهاد الأقليّات في بلغاريا والتعذيب الذي يقع على أفرادها ، في مختلف الاجتماعات الدولية الخاصّة بحقوق الإنسان :

١ـ في اجتماع الخبراء حول وثيقة حقوق الإنسان في مؤتمر (الأمن والتعاون الأوربي) في (أوتاوا) بكندا ، في : أيار وحزيران ١٩٨٥ .

٢ـ في اجتماع (المجلس الأوربي) في تموز ١٩٨٥ .

٣ ـ في المؤتمر العاشر لـ (CSCE) في هلسنكي ، فنلندا ، في : آب ١٩٨٥ .

٤ـ في الاجتماع الثاني والثلاثين للمؤتمر العام لـ (اليونسكو) في بلغاريا (ت ١ـ١٢ت٢ ، ١٩٨٥).

٥ـ في جمعية الأمم المتحدة لحقوق الإنسان في (جنيف) بسويسرا ١٩٨٥و١٩٨٧ .

٦ـ في اجتماع لجنة الأمم المتحدة للشؤون الاقتصادية والاجتماعية في أيار ١٩٨٦ .

٧ـ في اجتماع اللجنة المنبثقة لمنع التفريق العنصري ، وحماية الأقليّات في آب ١٩٨٧ .

٨ـ كما أُدينت بلغاريا من قبل المجلس الأوربي في أيلول ١٩٨٥ ، وحلف شمال الأطلسي ت١ (١٩٨٥) .

٩ـ في٢٢ ت١ ، ١٩٨٥ طلبت الحكومة التركية مناقشة الموضوع في الجمعية العامة للأمم المتحدة فأنكرت بلغاريا تماماً (الادّعاءات التركية ، بل واتَّهْمت الحكومة التركية بالتدخل في شؤونها الداخلية) .

١٠ـ في ١٥ حزيران /١٩٨٩م قام رئيس لجنة الوزراء « ثورفا لدستولتبرغ » ، وزير خارجية (النروج) ورئيس الجمعية البرلمانية « أندروزبيورك » والأمينة العامة للمجلس الأوربي « كاثرين لالوميير » ، بتوجيه الانتباه إلى الالتزامات الناشئة عن المعاهدات الدولية السارية ، والتعهد الذي قطعته على نفسها جميع الدول المشتركة في عملية مؤتمر الأمن والتعاون في أوربا ، فيما يتعلّق بحماية حقوق الإنسان ومعاملة الأقليّات .

.. وهم يناشدون السلطات في بلغاريا أن توقف جميع أعمال القمع ، وانتهاكات كرامة الإنسان ، وأن تسعى إلى إيجاد حلٍّ عاجلٍ ، ومُرْضٍ ، لمشكلة الأقلية التركية في بلغاريا عن طريق المصارحة والحوار البنّاء .

منظمة المؤتمر الإسلامي :

ـ في ٢٨/ أيار ١٩٨٩ ، أصدرت الأمانة العامة بياناً عن الأحداث الدامية في بلغاريا ، وجاء في البيان :

(إن الأمانة العامة تُعرب عن انشغالها العميق لتدهور أوضاع الأقلية التركية المسلمة في بلغاريا .)

وتضمَّن البيان ما نقلته وكالات الأنباء العالمية من وصف مؤلم لهذه

الأحداث الدامية التي وقعت في عدة مناطق من بلغاريا ، وخاصة مدينتي : (توردو) و(إيكونوموفو) . كما احتجت الأمانة العامة على اعتقال داعية حقوق الإنسان المسلم « ظاهر عليبف » ، وعلى سياسة السلطات البلغارية التي ترمي إلى القضاء نهائياً على الأقلية الإسلامية . .

. . في حزيران / ١٩٧٨ ، زارت مجموعة الاتصال المنبثقة عن المؤتمر الإسلامي السادس عشر لوزراء خارجية الدول الإسلامية ـ والذي انعقد في مدينة (فاس) المغربية عام ١٩٨٦ ـ زارت بلغاريا ، وشاهدت على الطبيعة أحوال الأقلية المسلمة هناك ، وكتبت تقريرها المزوّد بالصور وقدّمته إلى المؤتمر السابع عشر الذي انعقد في (عمّان) بالأردن في الفترة بين (٢١ـ٢٥ آذار ١٩٨٨) وأصدرت قراراها تحت رقم (١٧/٤٢) ، ووافق الأعضاء على أن تظلّ هذه المشكلة ، إحدى بنود المناقشات الرئيسة حتى تجد لها حلاً .

وفي (القاهرة) اطّلعت (هيئة رئاسة المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة) على أوضاع المسلمين البلغار في الاجتماع الدوري لها بتاريخ ٢٢/ حزيران / ١٩٨٩ ، ودرست فيه ما قدمته الأمانة العامة عن الوضع المتدهور للطائفة الإسلامية في بلغاريا . خصوصاً بعد تدفّق اللاجئين المسلمين بأعداد كبيرة إلى الأراضي التركية فِراراً بدينهم تحت ضغط الإجراءات القمعية التي تمارسها السلطات البلغارية . .

وقد أصدرت الهيئة قراراتها بعد أن لاحظت بأسفٍ شديد ، أن الحكومة البلغارية قد ضاعفت من تلك الإجراءات الشّاذّة ، رغم الوعود التي قطعتها إلى لجنة الاتصال التابعة لمنظّمة المؤتمر الإسلامي ، رغم القرارات والتوصيات التي اتخذتها الحكومات الإسلامية على مستوى القمّة ، ومؤتمرات وزراء الخارجية المتعاقبة .

وقالت هيئة الرئاسة (إنَّه أمام هذه الحقيقة المؤلمة ترى هيئة الرئاسة أَنَّ الاستمرار في مناشدة الحكومة البلغارية الكفّ عن أعمالها العدوانية ضد المسلمين لم يَعُدْ أسلوباً مجدياً ، لأنه من الواضح ، أَنَّ تلك الحكومة تتصرّف ضمن خطّة موضوعة تهدف إلى إذابة الأقلية الإسلامية ، وإنهاء وجودها ، وأن التعلّق بالآمال الوهمية في إعادتها إلى جادّة الصواب لن يفعل شيئاً بل إعطائها الوقت الكافي لتنفيذ تلك الخطّة المبيَّتة)[1] .

ولذلك : (ترى الهيئة ، أن على الدول الإسلامية أن تعيد دراسة علاقاتها مع بلغاريا على ضوء هذه الحقائق . . وأن تتخذ الإجراءات الضرورية ، بما فيها قطع جميع العلاقات التجارية والاقتصادية .

كما ترى الهيئة ، وضع خطط عاجلة لإغاثة اللاجئين البلغار المسلمين في تركيا من قبل الحكومات الإسلامية والهيئات العاملة في حقل الإغاثة) .

وأعلنت جميع الدول المشاركة في المؤتمر الثامن عشر الذي عُقد في (الرياض) بالسعودية من (١٣ـ١٦/ آذار ١٩٨٩) ، تأييدها الكامل للمسلمين المضطهدين في بلغاريا كما أعلنت (اهتمامها) بالأمر إلى أن يجد الحلّ النهائي .

. . استمرّت أعمال القهر بلا هوادة ، إلى أن اضطر كثيرون من أفراد الأقلية التركية ـ في نهاية الأمر إلى القيام بمظاهرة سلمية وبالإضراب عن الطعام ، احتجاجاً على انتهاك أبسط حقوقهم الإنسانية الأساسية ، ولكن هذه الاحتجاجات السلمية قوبلت بقمع وحشي من قبل السلطات البلغارية مما أدى إلى خسائر مفجعة في الأرواح . ـ هذا ما قاله رئيس وزراء تركيا

---

(١) انظر : مأساة المسلمين في بلغاريا (ص٢١٣ ـ ٢١٩) .

في (١٥/ حزيران/ ١٩٨٩) إن هذه الأحداث وقعت عشية اجتماع (البعد الإنساني لمؤتمر الأمن والتعاون في أوربا) الذي افتُتِحَ في (باريس) في : (٣٠/ أيار/ ١٩٩٨م) .

وقد أعلنت تركيا موقفها رسمياً في البيان الذي أدلى به الناطق بلسان وزارة الخارجية التركية في (٢٣/ حزيران/ ١٩٨٩م) ، حيث ذكّر بلغاريا بواجباتها والتزاماتها تجاه أقليّاتها . . وحلِّ المشاكل الثنائية بين تركيا وبلغاريا بالتفاوض .

ورغم كل هذا فهناك تساؤل عالمي كبير : أين حقوق الإنسان وأين حقوق الأقليات المسلمة ؟[1] .

(بعد كل البيانات ، وجميع الاتصالات ، والدعوات ، والمؤتمرات العالمية والإقليمية ومناشدة السلطات البلغارية ، أن تتقيّد بالقوانين الدولية والإنسانية التي تحمي مواطنيها المسلمين ، ولكن : لا حياة لمن تنادي !!) .

* * *

(١) انظر مأساة المسلمين في بلغاريا (ص ٢١٣ ـ ٢١٩) .

ميزان حضارة أمَّة

.. سمع العالم ورأى بعينه الظلم الذي تتعرّض له أقليّات بلغاريا حيث وصفت صحيفة « وول ستريت جورنال » في شهر آذار ١٩٨٥ ، أعمال الظلم والوحشية ضد المسلمين في بلغاريا كما يلي : « إنَّ المعاملات التي تتعرّض لها جميع الأقليات في العالم ، تُعتَبَرُ ميزاناً لمستوى حضارة تلك الأمة.. وعليه فإن ما يجري في بلغاريا تجاه الأقليات يعتبر دليلاً على مدى وحشية النُّظُم الشيوعية ، ومدى ابتعاد هذه النُّظُم عن المفاهيم الحضارية والإنسانية..

وعقد الحلف الأطلسي دورته الحادية والثلاثين في مدينة (سان فرنسيسكو) في الولايات المتحدة الأمريكية ، واتخذ قراراً بالإجماع حول المعاملات غير الإنسانية التي تنفِّذها بلغاريا ضد الأقليات.. وطلب الحلف الأطلسي من الحكومة البلغارية وضع حدّ لهذه الأعمال التعسّفية ، على غرار القرار الذي اتخذه المجلس الأوربي..

وتوالت الاجتماعات والاحتجاجات والتنديدات بأعمال الحكومة البلغارية ، ولكن لم يكن لديها آذان صاغية ، وتابعت انتهاك حقوق الإنسان لأقلياتها[١].. (كما أَنَّ المنظمات الدولية عجزت عن إيقاف هذه المظالم التي بقيت قراراتها حبراً على ورق!!) .

(١) انظر : دراسات حول الكيان التركي في بلغاريا (ص٢٧ ـ ٢٩) .

الأدب الإسلامي المعاصر
في بلغاريا

عرفت بلغاريا الإسلام عندما رفرفت رايات النصر العثماني على بلاد البلقان ، بالتالي عرفت الأدب الإسلامي ، وتشهد مكتبات العالم بما لدى المسلمين في البلقان من الآداب . والمخطوطات خير دليل . . والأدب الإسلامي المعاصر في بلغاريا هو الذي بدأ على يد مجموعة من المعلّمين المسلمين الذين عاشوا في بلغاريا في القرن (١٩ م) وقاموا بدور الريادة في إرساء هذا الأدب .

التزم الأدب الاسلامي المعاصر في بلغاريا أوائل تكوينه بالأدب الشعبي واتَّضح في أعمال كل من : حسن قارا حسين ونيازي حسن وشاهين مصطفى ، ولطيف علي . . وغيرهم .

الأدباء المسلمون ومجتمعهم :

اتخذت هذه المجموعة الرائدة رؤيتها للقرية المسلمة في بلغاريا والحياة الاجتماعية فيها للسكان وتقاليدهم الإسلامية وفنونهم الشعبية من أناشيد ومسرح متجول وآلة (السّاز) التي تشبه الرَّبابة عند المصريين ، واتخذت هذه المجموعة الرائدة الوزن الحرّ في أشعارهم .

انضم لهذه المجموعة بعد عام (١٩٥٠م) مجموعة أثْرَت الأدب

الإسلامي في مرحلته هذه ، وهم : « خورفان حسن وعثمان عزيز وناجي فرحات ورجب كوبجي » .

كان الجيل الثاني أكثر نُضْجاً فنيّاً وأدبيّاً من جيل الرّواد ، ولذلك كانوا أكثر تطوّراً ، وأنتجوا أعمالاً أدبية ناضجة. . ولمّا كانت الحكومات البلغارية في السبعينيات قد قامت بكل أنواع الضغط الشيوعي على المسلمين ، كتغيير الأسماء والبلغرة وعدم إتاحة العبادة ـ كما عرفنا من مجريات الأمور التي وردت في الفقرات السابقة ـ ساعتها استدعت بلغاريا الشاعر التركي الشيوعي « ناظم حكمت » للتفاهم مع الأقلية التركية المسلمة لإقناعها بأعمال الحكومة البلغارية . وقابلوا « ناظماً » وقالوا له : (كيف ترضى أنت يا ناظم بما يحيق بنا ؟ ، إنهم يحرّمون علينا العبادة ويمنعونا من دخول مساجدنا ويرفضون أن يتعلّم أولادنا ديننا . إنهم يريدون القضاء على لغتنا التركية الجميلة ياناظم .) ولم يستطع الشاعر « ناظم » قول شيء ، فقد أسكته القهر الذي تبذله الحكومات البلغارية ضد الهوية الثقافية والفكرية الإسلامية التي يحملها هؤلاء المسلمون .

ثم جاء الجيل الثالث من الأدباء المسلمين في بلغاريا وفي هذا الجيل اتضحت أكثر فأكثر الهوية الأدبية والأداء الفني ، وفنيّة التعبير ، والعرض ، والتكوين والذي ميّز هذا الجيل ، اهتمام بالتعبير ، ليس عن مشاكل الأقلية المسلمة في بلغاريا فقط ، بل اتجه ـ بحكم الضغط الرسمي البلغاري ـ إلى توظيف أدبه في خدمة قضايا المسلمين في بلغاريا بشكل مباشر ، كما اهتم هذا الجيل الشاب بالقضايا العالمية وربط قضايا بلاده بهذه القضايا العالمية في أدبه .

أبرز أسماء هذا الجيل « مفكورة ملاّ » والتي امتازت بغنائيتها الفنية

الرقيقة ، و« حسن حسين » الذي امتاز برقّة أحاسيسه ، و« شكري طاهر » و« إِسحاق رشيد » و« رضا ملاّ » الذي قدّم دراسة عن أدب المسلمين في بلغاريا ، دارسة هامّة أَلقت أضواء طيِّبة على هذا الأدب بعنوان (من أدب المسلمين الأتراك المحلّي) ـ نشره في ملحق الأدب والفن المعاصرين بجريدة « الضوء الجديد العدد (٢٠٠) ـ كما قدّم « رضا ملاّ » تقريراً علمياً مهمّاً بعنوان : (إرهاصات أدب المسلمين الحديث والمعاصر في بلغاريا) ـ قُدِّم إلى جامعة الدولة في (أذربيجان) عام ١٩٣٧م) .

تحريم الأدب الإسلامي :

دأبت الحكومة البلغارية من عام (١٩٦٧م) بالضغط على الأدباء المسلمين أن يطرحوا التعبير الأدبي والفكري بلغتهم الأصلية جانباً ، وضرورة استخدام اللغة البلغارية بديلاً عن اللغة الإسلامية التركية ، وكانت الحكومة جادّة ، إلى درجة أن المخابرات قد اغتالت الشاعر المسلم « رجب كوبحي » ـ كما سنتعرف على وقائع اغتياله فيما سيأتي ـ .

استمرّ هذا الضغط اللغوي والأدبي من الحكومة ضد المسلمين إلى عام (١٩٨٤م) وأصبح دستوراً وقانوناً . ففي هذا العام تمّ منع نشر الأعمال الأدبية للمسلمين ، والدولة البلغارية مقصدها واضحٌ ويهدف استئصال الأدب الإسلامي في بلغاريا من جذوره ، ولكنّ الأستاذ « نعمت الله حافظ » كانت له كلمة في هذا الموضوع فقال : « الأدب مثل نبع الماء ، مهما حدثت محاولات لتغطيته وإنهاء عمله ، فلن تكون نهايته إلا ، في أمرين : إمّا أن يجد هذا النبع لنفسه شرياناً آخر يتّجه من خلاله ، أو أنّه يتّسع من حيث هو » .

حُرم المسلمون في بلغاريا من حقّ التعبير ومن جميع حقوقهم

بعقيدتهم وإنسانيتهم ، وكانوا يفخرون بعزّتهم وبدينهم وبتاريخهم المجيد ، وعلى ذلك يمكن ملاحظة النقاط التالية في أدبهم :

أولاً : تمسّكهم بالأرض والملْكية الشخصية ، حتى لو هاجر بعضهم إلى تركيا .

ثانياً : تبرز إرادة هؤلاء المسلمين القوية في أدبهم رغم الأذى الذي تعرّضوا له وهو أذىً نُشر عنه في الصحف العربية والإسلامية والغربية كثيراً .

ثالثاً : الأمل ، وهو أَنَّ هذه الأقلية المسلمة في بلغاريا جديرة بالإعجاب حقاً ، فهي لم تيأس من رَوْح الله في النصر ، رغم السواد الحالك الذي عاشوا فيه قهراً ، ومن الذي بلغوا شأواً عالياً في التعبير الفني الجميل أمثال : « حسن قارا حسين » في قصيدة (هذه الأرض) ، وفي أشعار « نيازي حسن » ، (أرضنا الخصبة) ، وقصيدة « شاهين مصطفى » ، (الحمامة) ، وقصائد : « رجب كوبجي » وخاصة قصيدة : (الحرية كما أفكّر فيها) .

ومن الأدب قصة : (عشق المفاتيح التسعة والعشرين) لـ : « ناديا أحمدوف » ، ومسرحية : (أيها الشهداء إنّا قادمون) لـ : « رمزي أوزجليك »[(١)] .

وفيما يلي بعضاً من قصائد مسلمي بلغاريا :

---

(١) انظر : المسلمون في آسيا الوسطى والبلقان / د . محمد حرب/ ط١ مصر ١٩٩٦م (ص٣٤٧ـ٣٥٣) .

هذه الأرض

لم أرثه من العَدَم ، ذلك الحبُّ الخالص
حبّي للأرض ليس جديداً
لأنّ هذا الحبَّ مولود قبل مؤلدي
سرّتي دُفِنَتْ في هذه الأرض
لأنّهم ربطوا سرّتي بالمحراث الخشبي
الذي يمزّق بضعف هذه الحقول
جفّفت دموع عينيَّ في هذه الأرض
أحببت وتحاببنا في هذه الأرض
سرى سُمُّ الآلام في هذه الأرض
وأجمل أغانينا غنّتها لنا أمّهاتنا ونحن في المهد
كانت هذه الأرض .

* * * حسن قارا حسين

أرضنا الخصبة

يتملّكني حبّ من الأزل ، حبّ هذه
الأرض
حتى أحلامي ورؤايَ تتخذ فيها مسرحاً
حبّي يتفرّع ، بل ويصبح كالضفيرة .
بل كالنسيج ليربط إحساساتي .
لا بدّ أنّي محقّ في حبّي . وإنّي به لسعيد
مثلما الأرض سعيدة .
أنا أضحك فتضحك الأرض .

* * * نيازي حسن

الحمامة

يرسم ابني صورة للحمامة . .

طلب منّا السكوت ، من كل الحاضرين

في الغرفة .

كان ابني يخاف أن تطير الحمامة

التي رسمها .

لذا كان يقول لنا : اسكتوا .

* * *

لا تخف يا بنيّ ، ولا تقلق ، ولا تضطرب

فالحمامة لا تستطيع أن تطير !

فما رَسَمْتَهُ أنت بيديك . .

يظلّ مُلْكُكَ طول العمر . .[1]

* * * شاهين مصطفى

استغاثة

قال الشاعر البلغاري المسلم « طريف رجبوف » يوم (٢٣/ ١١/ ١٩٨٤م) قصيدة تحت عنوان « استغاثة » وهي لا تنمُّ عن استغاثة فحسب ، بل عن تأوّهٍ واضطراب وقلق وهلَع . .

وهذه القصيدة تصف حال شعب يخشى البقاء على قيد الحياة . .

---

(١) انظر : المصدر السابق (ص٣٤٩) .

نحن أتراك بلغاريا

حُرمنا من أسمائنا ودِيننا ولغتنا

أينما ترانا

جراح عميقة دامية فينا

هناك قلوبٌ باكية حزينة ودموع جارية ذارفة سخيّة

تعال تعال كي تجد

عَرَقنا كيف يجري ودماءنا كيف تسيل

بين مآسٍ وأحزان وعويل

أليس من سبيل ، ولا معين

على سيطرة هذا الرعين ؟

فنحن والحالة هذه بحاجة لكلمة تنطق ،

تدافع عن حقّنا المسلوب وجمعنا الممزّق[١] .

* * *

---

(١) انظر : دراسات حول الكيان التركي في بلغاريا (ص٢٦ ـ ٢٧) .
وأيضاً مأساة المسلمين في بلغاريا (ص ١٦٢) .

أحلام المسلمين في بلغاريا

وضْعُ المسلمين في « بلغاريا » مأساة . إنهم ليسوا بأقلية صغيرة ، وليسوا بأقلية ثانوية ، فعددهم فيها لا يقلّ أبداً عن (مليون ونصف المليون) نسمة ، أي أنهم الآن في التسعينات حوالي (٢٢٪) من مجموع السكان ، وهذا العدد يتزايد بنسبة أكبر من نسبة تزايد بقية السكان في البلاد ، ولكنهم تحت اضطهاد كبير ومُهْلِكٍ ، للقضاء على شخصيتهم الإسلامية ، والدولة تحاول تنصير أبنائهم ـ على الأقل ـ اسماً ـ بتبديل أسمائهم الإسلامية بأسماء نصرانية ، وهو ما سُمِّي (بلغرة الأسماء) ، وبلغاريا ، رغم أنها دولة شيوعيّة ـ سابقاً ـ إلا أنها تضطّهد المسلمين كلّهم بما في ذلك البلغار المسلمين (البوماق) ، فليست القضية قومية ، أو مسألة نزاع مع « تركيا » ، ولا هي مسألة ضدّ الأديان كلّها ، بل هي : عداء للإسلام ذاته .

.. في معرض حديث للدكتور « محمد حرب » عن دراسة لأدب المقاومة الإسلامية بين الشعوب الناطقة بغير العربية ، يحدثنا عن شخصيات قيادية في الفكر ، وفي الحركة ، وفي الأدب بلغت الذروة ، فِكْرةً ، وفناً ، وحركةً .

.. ويبيّن ، أنه بعد دراسة للأدب الإسلامي في بلغاريا ، وجد نفسه أمام شخصيات أدبية كبيرة أقلقت من يُواجهها ، وذلك لأن الكلمة الأدبية

المسلمة تحوَّلت في « بلغاريا » إلى حركة ، وهذا ما يمثّله أدب الشاعر المسلم الشهيد « رجب كوبجي » ، هو : شاعر لأنه نظم الشعر في ديوانيْن ، بلغته (التركية) ولغة عدوّه (البلغارية) ، وأصبح شهيداً ، لأن قصائده بتأثيرها في المسلمين هناك ، أدّت إلى إعدامه غيلة عام (١٩٧٦م) .

* * *

الشاعر الشهيد « رجب كوبجي »

نبذة عن حياته :

ولد الشهيد « رجب » عام (١٩٣٤م) في قرية (كوكلان) التركية التابعة لمدينة (فيلبه) في بلغاريا ، لأب مسلم فقير يعمل بالفلاحة . درس « رجب » دراسته الابتدائية والمتوسطة في قريته ، ثم سجّل اسمه في المدرسة التركية الخاصة بإعداد معلمي المرحلة الابتدائية بمدينة (قيرجه علي) ببلغاريا .

بدأ « رجب » كتابة الشعر وهو في المرحلة المتوسطة ، وفي مدرسة إعداد المعلمين . وكان في هذه المرحلة المبكرة يقف بإيمان وقوّة أمام دعايات المعلمين البلغار ضد الإسلام والثقافة الإسلامية ، فاتُّهِم بالتعصّب القومي ، ونقلوه إلى مدرسة إعداد المعلمين التركية في (رازغراد)[1] . إلا أَنَّ هذا ساعده على نشر أشعاره بدرجة أفضل ، وتخرّج « رجب كوبجي » من هذه المدرسة ، عام (١٩٥٥م) .

بداية الكفاح :

في العام الدراسي (١٩٥٩ ـ ١٩٦٠م) صدر قرار الحكومة البلغارية ـ

---

(١) رازاغراد RAZAGRAD : تقع بين فارنا وروسي وتبعد عن روسيا (٦٧كم) إلى الجنوب الشرقي .

بناء على توجيهات الحزب الشيوعي البلغاري ـ بإلغاء المدارس التركية وأنظمتها التعليمية جميعها ، ودمجها بالمدارس البلغارية . وتبع ذلك بالضرورة تغييرات كان منها تعيين المدرِّسين المسلمين معلِّمين بالمدارس البلغارية ، وصدرت إليهم الأوامر أن يقوموا بتدريس اللغة البلغارية .

الشاعر « رجب » والشيوعيون :

بدأ الصدام رسمياً بين « رجب كوبجي » والسلطة الشيوعية في بلغاريا لأنه خالف قرار الدمج ، وجاهَرَ بصوت مرتفع ـ وهو في غرفة المعلمين وقد أصبح مدرّساً ـ قائلاً : « أنا مسلم تركي أقوم بتدريس اللغة التركية للمسلمين الأتراك هنا ، فكيف تأمرونني بتدريس اللغة البلغارية ؟» .

وكانت مقولته هذه ذريعة رسمية اتخذتها السلطات البلغارية لمحاكمته ، ثم استجواب الشرطة بما تَبِعَ هذا من تعذيب . وكتبوا في مِلفِّه : (رجب كوبجي ، لا يصلح أن يكون معلّماً) . وعلى هذا أُلغي قيده من سجل المعلمين ، وصدر الحكم بأن يقضي مدة عقوبة قدرها سنتان ونصف ، عاملاً لصبّ الحديد أمام أحد الأفران في مصنع الحديد والصلب . .

كتب « رجب كوبجي » في مدة هذه العقوبة ، الشعر باللغة البلغارية ، ليثبت أَنَّ قضيته قضية مبدأ وليست ضَعْفاً منه في اللغة البلغارية ، وليوصل كلمته المسلمة إلى البلغار .

وبعد أن قضى مدة عقوبته ، عُيّن في قسم اللغة التركية بجامعة « صوفيا » ، إلاّ أنه طُرد منها بعد عام واحد بسبب مناقشاته الحادّة مع زملائه البلغار .

أسباب تمرّد الشاعر :

بدأت أجهزة الأمن البلغارية بمختلف فروعها ، التضييق على الشاعر « رجب كوبجي » لرفضه مشروع (البلغرة) الخاص بإذابة العنصر الإسلامي في الشخصية البلغارية . . أعقب صدور هذا المشروع حركة تمرّد من المسلمين في بلغاريا ، فتدخلت الحكومة تدخلاً سافراً لقمعها ، وكان لا بد أن تبدأ الحكومة برصد حركات كبار رجال المسلمين في بلغاريا ، ومنهم « رجب كوبجي » ، في (٢٦أبريل/ نيسان ١٩٧٦م) ، انضمّ « رجب » إلى رَكْبِ الشهداء المسلمين في ، بلغاريا الذين قتلتهم الحكومة الشيوعية نتيجة معارضتهم بإذابة العنصر المسلم في المجتمع البلغاري الشيوعية ، قبضوا عليه وهو يسير في أحد شوارع مدينة « فارنا » ثمّ سحبوه إلى حديقة البحر حيث الأشجار الكثيفة ، وانهالوا عليه ضرباً ، حتى فارق الحياة ، بعدها ، أذاعت الشرطة بياناً قالت فيه : (إنها عثرت على جثّة « رجب كوبجي » في أحد شوارع « فارنا » ، ثمّ أحضروا جثّته إلى مدينة « بورغاز » حيث سلّموها إلى زوجته .

بعد ذلك قام الحزب الشيوعي البلغاري في « بورغاز » بالتعاون مع شرطة المدينة بتنظيم جنازة كبيرة لتشييع جثمانه إلى مثواه الأخير حيث دُفن . وأصدرت السلطات بياناً مقتضباً حول سبب وفاته ، قالت فيه : (إنّه مات نتيجة تسمّمه من أكلة فاسدة أكلها)!

رجب والشعر :

إنَّ شعر « رجب » يزخر بالإيماءات الخاصة بنقد النظام الشيوعي ، ونقد الفكر الماركسي ، ونقد عملاء النظام وأجهزة الأمن فيه ، ونجد فيه أيضاً تعبيراً غير مباشر ، وذلك بإسدال الستار الحديدي على كل شيء .

كما نجد في أشعاره : الأمل في مستقبل حرّ للمسلمين في بلغاريا ، والشوق إلى الوطن المسلم ، وتبدو في شعره الصرخة الذكيّة لإيقاظ المسلمين حتى ينتبهوا إلى مأساة إخوانهم في « بلغاريا » .

إنَّ إدانة النظام الشيوعي ، بهدم المقدّسات الإسلامية ، وحرمان المسلمين من حقوقهم العقائدية ، وتشوّقه لمواجهة الأعداء مواجهة مباشرة ، وإدانة الشيوعية بالطعن في الظلام ، من الخطوط العريضة في أشعار « رجب كوبجي » .

* * *

مقتطفات من بعض قصائد
رجب كوبجي

الحرية كما أفكّر فيها

نعم ! أيخدش جمال مدينتي

« بورغاز » شيء؟

نعم ! صحيح . . إنَّ فيها

نقصاً ظاهراً .

كان فيها جامع قرب الميناء ،

لكنهم ، هدموه !

* * *

التألم

لم أتمكن من أن أسمع الأناشيد الحلوة كلّها

لم أجد وقتاً لبكائي

لم أتمكَّن من أن أضحك

لم أتمكن من أن أسمع الأناشيد الحلوة كلّها

لم أتمكن حتّى من أن أعزف أناشيدي أنا .

* * *

الخيلاء

وسيأتي اليوم الموعود !

السفينة المحمّلة بالحب والأمل

تبحر إلى ديار الغُرْبة

ديار الغربة تُحوِّل الشوق إلى

نيران

فتجري على الألسنة أنشودة محترقة .

* * *

اليوم الموعود

تتفتّح الأزهار ، فيحنو قلبك أن تعطي

الناس الفاكهة

فتأتي الأيدي نفسها لتقطف كل الأزهار ،

لكن مادامت فاكهتك نقيّة ،

فسيأتي اليوم الموعود

لتقطع تلك الأيدي[١] .

* * *

---

(١) انظر : العثمانيون والحضارة/ د . محمد حرب ، (ص ٢١١ ـ ٢١٨) .
وانظر أيضاً : المسلمون في أوربا الوسطى والبلقان (ص٢٥٦ ـ ٢٦٠) .

التراث الإسلامي والعربي
في مكتبة صوفيا الشعبية

لبث سلطان الدولة العثمانية ممدوداً على بلاد البلقان خمسة قرون ، وانتقلت مع هذا المدّ أعداد وافرة من كتب المكتبة العربية إلى تلك الأصقاع ، تَسدُّ حاجة ثقافة أهل ذلك الزمان ، وتوزّعت في أرجاء بلاد البلقان تحفظها المساجد والمدارس والزوايا والجوامع وخزائن الولاة والنواب والقضاة والقادة .

ولما أجزر هذا المد ، سحب معه ما كان من تلك الكتب ذا بال وقيمة ، وانتقل إلى خزائن دور الكتب في (إسطنبول) . فأصاب تلك البلاد عامّة وبلغاريا خاصّة ، فقرٌ في قيمة ما بقي فيها من هذه الكتب ، خلا مجموعة يسيرة اشتملت على مخطوطات ، فيها النفيس والثمين والنادر والمنسوب والأم ، لم تطلها يد العثمانيين ، إذ كانت في خزانة والٍ يُدعى : « عمر باسبان زاده »[١] وكان قد استقلَّ بولايته : (فيدين) في الشمال الغربي من بلاد بلغاريا ، في أواخر القرن (١٨) وأوائل القرن (١٩) ، وبقيت تلك المقاطعة في استقلالها وانفصالها عن رقعة الإمبراطورية العثمانية إلى أن انحسر السلطان العثماني عن تلك البلاد ، فبقيت خزانة « عمرزاده » مصونة لم تمسّها يد .

(١) جاء الاسم في بعض التراجم « عثمان » هذا : « بازاوند زاده عثمان باشا » .

ولما انتهى البلغار إلى إنشاء دولتهم الحالية ، قاموا بجمع المخطوطات الموزّعة في أرجاء البلاد وحفظها في دار الكتب الشعبية العامة في (صوفيا) ، في قسم خاص بالشرقيات وأطلقوا عليه اسم : (القسم الشرقي) ، وضمّ ما كان في خزانة « عمر باسبان زاده » من كتب قيّمة نفيسة عليها أختامه ، ثم أخذ القائمون على شؤون القسم الشرقي بحفظ المخطوطات وترتيبها وتصنيفها ، ووضع جذاذات للتعريف لها حتى خرجت بالهيئة التي هي عليها .

* * *

المخطوطات المحفوظة في المكتبة

١ـ الكتب السماوية :

١ـ القرآن الكريم :

عددها (٧٧) مصحفاً شريفاً ، وهي الموجودة في المكتبة ، بين قديم نادر ، وثمين ، وعادي ، وبعضه نقصت منه عدة صفحات .

٢ـ الزبور :

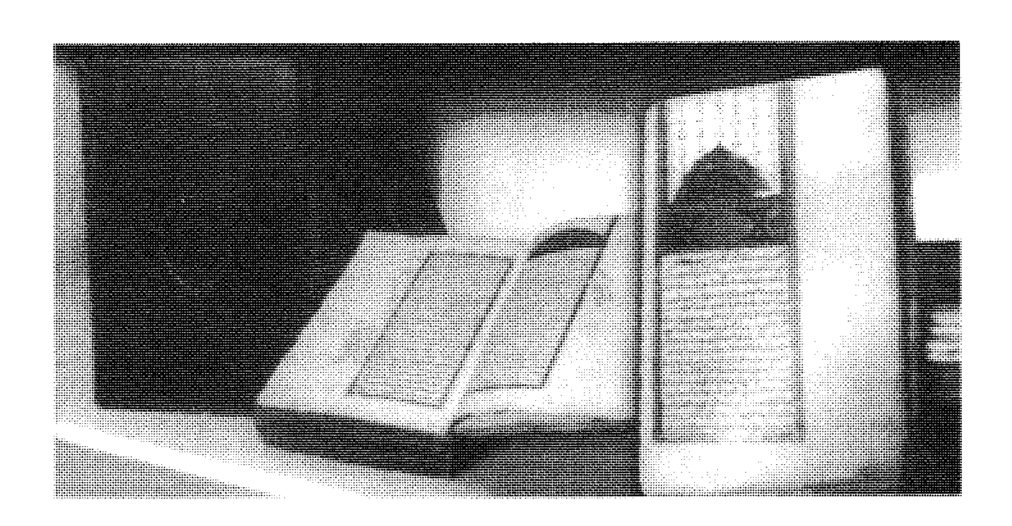
وهو الكتاب الذي أُنزل على النبي « داود » ـ عليه السلام ـ . أوله : طُوبى لرجلٍ لم يسلكْ طريق الخائنين ، ولم يجلس في مجالس المشركين . ، وآخره .. وما هو يا معشر الخلْقِ بغافلٍ عمّا يعمل الظالمون . ـ تمّ والحمد لله رب العالمين ، وصلىّ الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم كثيراً ، . نسخة يعود تاريخ نسخُها إلى سنة (١٠٨٨هـ) ، و(١٦٧٧م) ، كتبها : « محمد بن مصطفى بن همّت » ، بخط نسخ جيد واضح مقيّد بالشكل . (٩١) ورقة (٢١ × ١٤,٥سم) سطورها (١٥) .

الزبور : نسخة أخرى ضُمّت في مجموع يحتوي على عدة رسائل صغيرة ، وهي نسخة عادية حديثة كُتبت بخط فارسي دقيق ، ولم يُذكر اسم الناسخ ، (٥٠ق) قطع متوسط ، (١٧ سطراً) .

التفاسير : (١٩٠ تفسيراً ، التجويد (٢٤) كتاباً ، القراءات : (٢١) كتاباً ، علوم القرآن : (٦٣) كتاباً ، الحديث الشريف وعلومه : (١٥٢) كتاباً .

٣ ـ اللغة العربية :

١ـ علوم اللغة : (٤١) كتاباً ، ٢ـ العلوم الصرفية : (١٦٠) كتاباً ، ٣ـ العلوم النحوية (٣٥٩) كتاباً ، ٤ ـ العلوم البلاغية : (٩٨) كتاباً ، ٥ ـ علوم العروض والقوافي : (١٢) كتاباً ، ٦ ـ الفنون الأدبية/ (٥٤) كتاباً .



أكثر المخطوطات في فن الفقه والفتاوى ، على مذهب « أبي حنيفة » ويأتي بعدها كتب السُّنن والأَثَر وعلومهما ، . . وهناك عدد غير قليل من كتب الأدب ودواوين الشعر والفلسفة الإسلامية وعلم السلوك والتصوّف والزّهْد وما يدخل في بابهاوعدد من كتب التاريخ والجغرافيا والبلدان .

ومن كتب الطب والصيدلة والأدوية والحشائش ، عدد قليل ، ومن كتب الرياضة والهندسة والفَلَك والهيئة عدد قد يتجاوز المئة إلى جانب عدد كبير من الرسائل الصغيرة في فنون مختلفة أخرى وزِّعت في بعض المجاميع ، وثمة عدد من المخطوطات بالفارسية والتركية يبلغ حوالي (٣٠٠) كتاباً[١] .

* * *

(١) انظر : فهرس المخطوطات العربية/ في بلغاريا/ د . عدنان درويش/ وزارة الثقافية بدمشق الجزء الأول ١٩٦٩م ، الجزء الثاني ١٩٧٤م .

الشيوعية انهارت

والمأساة مستمرة

.. بعد أحداث أوربا الشرقية وتحوّلها عن الشيوعية الذي تمّ فجأة ،تحت ضغط إرادة شعوبها وبصورة متتالية ،فكانت قوية كالإعصار الجامح ، بدءاً من ألمانيا الشرقية في (٩تشرين الثاني ١٩٨٩م) ، حين هدم الشعب سور برلين الذي سمّوه « جدار العار » فانهار تحت أقدام العابرين إلى الغرب ، ثم لتشتدّ قوّةً فتجتاح كل أوربا الشرقية ، خلال أيام ، طالت في رومانيا ، وقصُرَت في غيرها ، وآثرالنظام الانسحاب أو أن غيّر جلده ، قبل أن يُسْحَق تحت الأقدام ، حتى وصل إلى بلغاريا .

فقد فاجأت بلغاريا العالم بإيقاف مفاجىء ، ومدهش لكل الإجراءات القمعية الرسمية ضدّ أقلياتها وضمان حقوقها الأساسية والإنسانية بعد انتهاكها .

كما فاجأت بلغاريا العالم أيضاً ، بإحداث اضطرابات قام بها بعض أفراد الشعب البلغاري السلافي ، يطالب فيها بعدم قبول الأقلية التركية والأقليات الإسلامية الأخرى داخل الشعب البلغاري ، وضمن المجتمع البلغاري ، وضد إيقاف إجراءات القمع والاضطهاد ضدها! ونقلت وكالاتَ الأنباء والصحافة العالمية هذه المظاهرات!!

ومع ذلك كله اشتد الأمل في أن يهدأ الصِّراع الذي كان بين النظام الشيوعي والأقليّات الإسلامية في دول البلقان ، ومنها الأقلية الإسلامية في (بلغاريا) ـ موضوع حديثنا ـ . . لكن المظاهرات الشعبية التي أعقبت « مشروع » القرار الذي انتوته الحكومة البلغارية رسمياً في (٢٩ كانون الأول ١٩٨٩م) ، بـإيقـاف عمليـات الاضطهـاد ضـدّ المسلميـن فـي (بلغاريا) ، وبالذّات ضد الأقلية التركية والسماح للمسلمين باستعادة أسمائهم الإسلامية والتركية ، وبممارسة شعائرهم الدينية بحرّية ، وباعتبارهم مواطنين لهم حقوق المواطنة ، وهذا المظاهرات التي حدثت في أعقاب إعلان المشروع ومع بداية عام (١٩٩٠م) ، أعلنت بوضوح ، أَنَّ مبادىء النظام الشيوعي مازالت قائمة في محاربتها للأقلية المسلمة . وهذه المبادىءَ جاءت واضحة ومفصّلة في مقال نشرته صحيفة رسمية : « نيلوسوفسكا ميسول » ـ وهي تصدر في (صوفيا) .

جاء في بعض أجزاء المقال ما يلي[١] :

« لقـد ثبـت للحـزب الشيـوعـي البلغـاري ، بـأنّ مشكلـة البلغـار (المحمديّين) هي مشكلة اجتماعية بالدرجة الأولى ، وذلك ، لأنه بعد انتصار الثورة الاشتراكية في (٩ أيلول ١٩٤٤م) وضعت في اعتبارها ، قبل كل شيء ، وفوق كل شيء ، (أن تقتلع جذور الإسلام الاجتماعية من (رودوب)[٢] ، وما تبع ذلك من عزل البلغار الذين (أُجبروا) على الإسلام ، كي نداوي جروحهم المعنوية والروحية ، وكي نحرّر الوعي البلغاري من الميراث الثقيل الكئيب ومن الأثقال ، التي جثمت عليه طيلة

---

(١) انظر : مأساة المسلمين في بلغاريا/ أسيمة جانو/ مكتبة مدبولي/ القاهرة ١٤١٠ هـ

(٢) رودوب Rhodopa : كتلة جبلية في بلغاريا واليونان ، أعلى قممها في بلغاريا . . مصلّى في سلسلة (ريلا ٢٩٢٥م) ، و(بيرن ٢٩١٤م) ، مناجم رصاص وكروم ،

القرون الماضية ، وكي نعجّل في عملية تواصل هؤلاء البلغار بالأمة البلغارية الاشتراكية ») .

الإسلام في (رودوب) والثورة الثقافية :

إنَّ الإسلام في (رودوب) استعاد موقفه الصلب في الحياة ، وفي السلوك الاجتماعي ، وبينما استُبعد تماماً من مجال العلاقات الاشتراكية والتجمّعات ، فهو يظهر قويّاً وصلباً ومتماسكاً في العلاقات الأسَرية ، وأثناء الأعياد ، والتقاليد والأعراف .

ولهذا السبب بالذّات ، فإنّ هذه المرحلة الجديدة من الثورة الثقافية في (رودوب) تتطلّب تدخّلاً أكثر فعالية في طريقة هؤلاء ، كما تتطلّب نشاطاً أكبر في نفي الإسلام من مجال العلاقات الأسَرية ، خاصّة .

إن الحرب ضد التعصُّب الإسلامي ، وضد تغيير لكل ماهو بلغاري ، لم تعد مطلباً عادياً ، ولكنَّها شكل ذو هدف ، للنضال الإيديولوجي ، والطَّبقي ، وانعكاس لقانون الأمة التاريخي !

إنَّ الحرب في (رودوب) ، تحدّد وتحاصر مشكلة هؤلاء الناس ، وهي كسر كل التعقيدات الاجتماعية والسياسية في عقول وسلوك وطريقة حياة شريحة خاصّة من السكان البلغار ، ودمجها في نسيج الحزب .

إنَّ أهمَّ مايميّز هذه الحرب (الملحدة Atheist) ضد الدين ، لا يكمن في شكل انتشارها لمقاومة الإسلام فقط ، ولكن ، لأنها تتوافق مع الكفاح من أجل خلق إدراك جديد ، وسلوك حياة جديدة ، وعادات وتقاليد جديدة . وهذا يتطلّب التطهير الكامل من التأثير التركي ـ الإسلامي المتراكم على مدى السنين .

إنَّ هذه الحرب التي لا هوادة فيها ضد الإسلام ـ وضد نتائجه

المشؤومة على بعض البلغار ، ـ تُعدّ واجباً مهمّاً في المرحلة الحاضرة ، ومطلباً ضرورياً ـ لتدعيم مركزهم داخل الأمة البلغارية الاشتراكية ، ولمشاركتهم بشكل أكثر حيوية في بناء المجتمع الاشتراكي .

ـ هذا المقال نُشر منذ بضعة أعوام ، مع بداية حملة (البلغرة) ضد الأقليات في بلغاريا ، وبخاصة ضد الأقلية التركية المسلمة ـ .

وقد أمضى رئيس الحزب الشيوعي البلغاري السابق « تيودور جيفكوف » (٣٥ عاماً) في الحكم ، وهو يسعى إلى (نفي) الإسلام من بلغاريا حسب مبادىء الحزب ، ووصل في النهاية إلى سياسة (الإذابة) وإضطهاد المسلمين لقبول (تصفيَتِهم) الحضارية ، والدينية ، والثقافية مع نهاية عام (١٩٨٤م) .

وقبل سقوط « جيفكوف » مع هزّة الزلزال العنيف السياسي في (تشرين الثاني ١٩٨٩م) أعلن أنّه : « لا يوجد مسلمون ، أو أتراك أصلاً ، في بلغاريا »!

ولكن يبدو ، أنه بعد سقوط الحزب الشيوعي القديم ، مازال الأمل ضعيفاً في أن تستردّ الأقلية المسلمة وضعها واعتبارها .

فهناك لافتات ظهرت مع المتظاهرين ضد مشروع الحكومة بإيقاف (البلغرة) وهذه اللافتات تنادي بـ (القومية البلغارية) وبأنه : « لا يمكن أن نصلح الخطأ بخطأ آخر » وبأن « بلغاريا للبلغاريين » .

كما رفعوا لافتات أخرى تقول : « إننا لا نريد أن نصبح عبيداً للأتراك مرّة ثانية » . في إشارة (إلى اجتياح موجة القوة السياسية للمسلمين في المنطقة) وإلى (الخوف من العودة إلى الحكم العثماني !!)[1] .

---

(١) المصدر السابق (ص٤ـ٥) .

وحين قال رئيس الوزراء الجديد « جورجي أتانازوف » أنه : « إذا كنّا كبلغار نريد أن نكون أحراراً ، فيجب أن يكون الشعب كلّه حرّاً » ، هتف المتظاهرون بسقوطه!

وقد قام معهد البحوث الأكاديمي في بلغاريا ، باستفتاء الشعب حول موضوع الأقليات المسلمة ، نادى (١ .١٪) فقط ، بحتمية الإسراع بحل مشكلة القوميات والأقليات ، بينما قال (٤٢,٧٪) منهم : إن هناك أموراً أهم بكثير من هذه المسألة! . .[١] .

وقد بلغت الأزمة أقصاها بين الطوائف في بلغاريا ـ في الفترة الأخيرة ـ ووصفها الأديب البلغاري « بيتار دانايلوف » بقوله : « إنّ هذا يعني الانهيار ، وإذا استمرّ الأمر على هذه الحال ، فإننا سنُشطَب نهائياً من قائمة الشعوب المتحضّرة » .

وكان أن أدّى كل هذا إلى إلغاء مشروع القرار ، وإلى قول رئيس الحزب الجديد : « إن المشكلة غاية في التعقيد ، لأن جذورها تضرب في أعماق التاريخ ، وليس هناك أمل في حلّها الآن » .

ويستمرّ اضطهاد الأقليات المسلمة[٢] . .

في عام (١٩٩١م) ، بعد اندحار الشيوعية ، غيّرت بلغاريا نظامها وعادت غير شيوعية ووعدت بإنصاف شعبها ورفع الضغط عن المسلمين فيها ، وفي الانتخابات النيابية التي جرت يوم الأحد في (١٧/ ١٢/ ١٩٩٤م) ـ بعد الشيوعية ـ فاز الحزبان الكبيران فيها : الديمقراطي (يميني) ، والاشتراكي (يساري) بحِصَصٍ متساوية من

---

(١) مجلة : دير شبيغل الألمانية/ نيسان ١٩٨٩م وأيضاً العربي عدد ٤٤٦ (ص١٦٧) .
(٢) انظر : مأساة المسلمين في بلغاريا (ص٥ ـ٦) .

الأصوات والمقاعد في البرلمان ، واستحال على أي منهما إحراز نصر كاسح ليؤلف حكومة بمفرده ، وفي الوقت نفسه فاز الحزب الذي يمثّل جماعة المسلمين بالمرتبة الثالثة (٥٪) من الأصوات وبعدد من المقاعد تمكّنه من لعب دور حاسم في ترجيح كفة أحد الحزبين الكبيرين! وما يعني في إطار اللعبة الديمقراطية ، أَنَّ الكتلة المسلمة من النواب تتحكّم عملياً في السلطة ، وتوجّهات الحكومة ، وإلا فإنَّها تستطيع سحب الثقة عنها وإسقاطها متى شاءت ، وبقدر ما يبرِزُ هذا التطور ، ثِقَل وزن المسلمين في هذا البلد (٢٢٪ على الأقل من مجموع السكّان) فإنه يحمل على التفكير في مدى ردّ الفعل الذي ينتاب القوى والدوائر الاجتماعية الفاشية والمعادية لاستمرار هذا الوضع - حتى ولو على حساب الحياة الديمقراطية والإصلاحات الجارية للدولة والمجتمع - ولا بدّ أن نتوقّع حدوث محاولات عملية للعودة إلى الوراء ، وإن كانت ستظل عاجزة عن إلغاء وتحجيم قوّة المسلمين في بلغاريا ، لأن هؤلاء اجتازوا عشرات الامتحانات القاسية وأحسنوا التعبير عن هويتهم وشخصيتهم ، ومصالحهم ، فهم يتكاثرون ويزدادون بولادات عالية ، مما يعني أن المسلمين سيستعيدون أكثريتهم السكانية في الدولة خلال نصف قرن فقط ، إلا إذا نجحت التيارات الفاشية على غرار (النموذج الصربي) في وقف عملية التطور الطبيعي ، وأشعلت حملة أو حملات دامية ضدهم ، وحافظت على سيطرتها بالوسائل غير العادلة على مقاليد السلطة في البلاد .

وأيّاً تكن الاحتمالات ، فإن المسلمين في بلغاريا بحاجة إلى أن يعوا ذاتهم كجماعة مسلمة مستقلّة عن أي شعب أو دولة أخرى ، كمواطني أمريكا الذين كان أصلهم من قوميات شتّىٰ ولكنّهم لم يرتبطوا بأي دولة جاؤوا منها ، وأصبحت لهم كيانات مختلفة - ، ويجب أن تكون هذه

الجماعات الإسلامية لها صفاتها الخاصة مختلفة عن الأتراك وعن البلغار ، أي عدم الارتباط بأي جهة أخرى من الناحية السياسية ـ على الأقل ـ[1] . .

* * *

(1) انظر : دراسات حول الكيان التركي في بلغاريا (٣١ـ٣٣) . وأيضاً : انظر : الاسلام والمسلمون في بلاد البلقان (ص٢٦٠ ـ ٢٦١) وإذاعة مونتي كارلو في ١٨/١٢/١٩٩٤م .

جمهورية بلغاريا

Bulgaria

الموقع والمساحة :

بلغاريا دولة في جنوبي شرقي أوربا من شبه جزيرة البلقان ، يحدُّها من الغرب صربيا ، ومن الشرق البحر الأسود ، ومن الشمال رومانيا ، ومن الجنوب اليونان والقسم الأوربي من تركيا .

تبلغ مساحة بلغاريا (١١٠,٩١٢ كم٢) ، أبعد مسافة من الشرق إلى الغرب ٤٩٢كم ، ومن الشمال إلى الجنوب ٢٧٤كم ، امتداد الساحل يبلغ ٢٨٢كم .

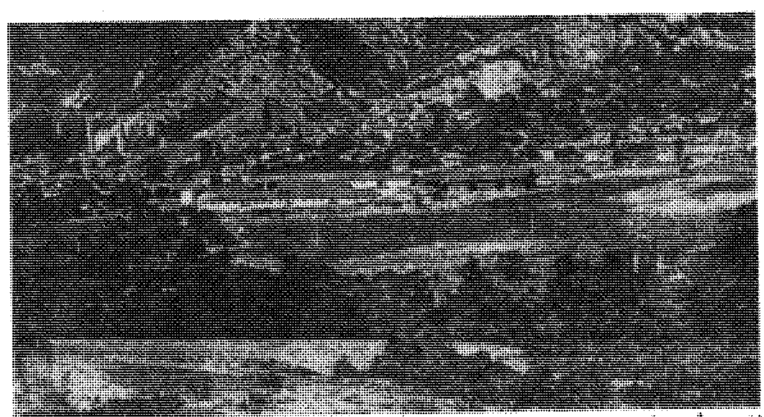
السكان :

يبلغ عدد سكان بلغاريا (٩,٢٥٠,٠٠٠) نسمة (٧٨٪) يدينون بالأرثوذكسية و(٢٢٪) يدينون بالإسلام .

بلغاريا الطبيعية :

الأرض : سهول وهضاب زراعية خصبة تخترقها من الغرب إلى الشرق جبال البلقان الغنية بالمراعي والغابات الواسعة ، لاسيّما شجر

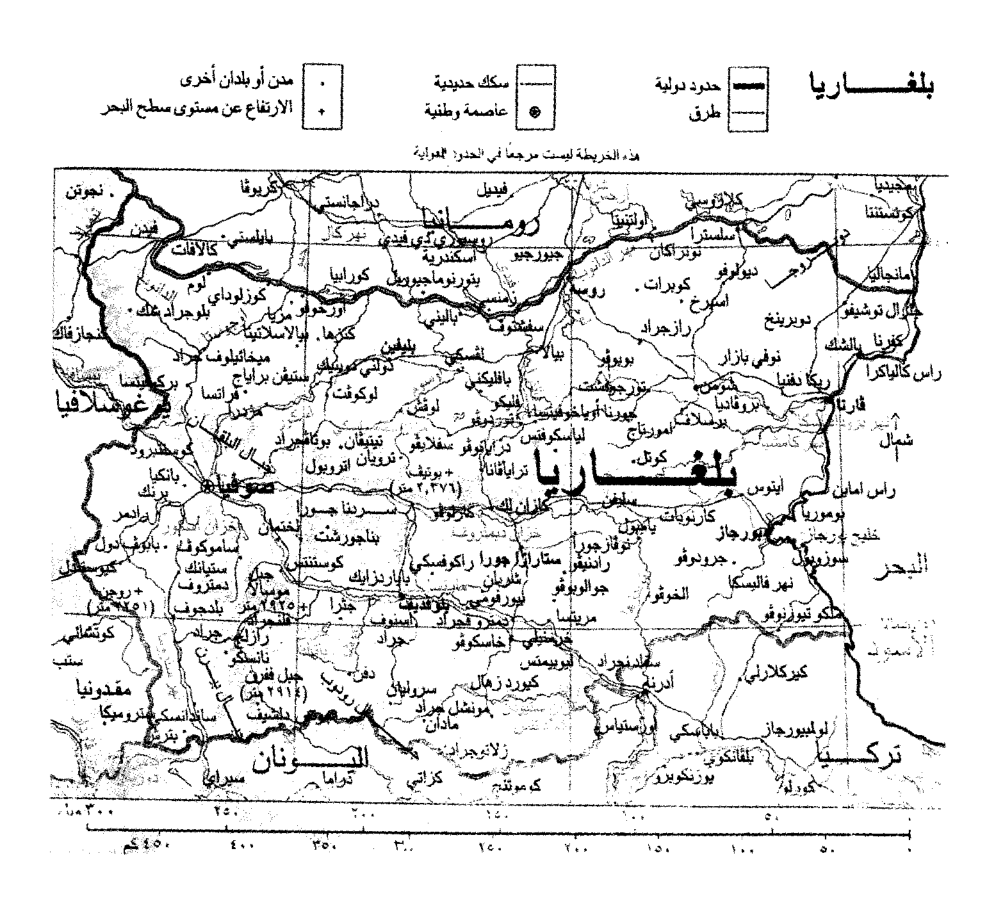
السنديان ، أكبر أنهارها : الدانوب[1] . ـ أهم أنهار أوربا بعد الفولغا ـ وماريتزا ، وستورما ، في شمال بلغاريا وادي الدانوب وروافده ، وفي الجنوب سهل يرويه نهر ماريتسا بين جبال البلقان وسلاسل (رودوبا) و(ريلاّ) ، وتغطّي القمم والسفوح غابات كثيفة من الصنوبريات ، والأشجار الأخرى ، أو الأشجار البحرية .



الريف البلغاري يتألف بشكل رئيسي من جبال تتخللها الوديان والأراضي السهلية المنبسطة. هذه المزرعة الحكومية الواسعة المبينة أعلاه تقع في واد بين جبال البلقان في وسط بلغاريا.

---

(١) الدانوب Danube : نهر في أوربا الوسطى والشرقية ، هو (الطونة) قديماً ينبع من الغابة السوداء ، ويجري في ألمانيا والنمسا والمجر ويوغسلافيا (السابقة) ورومانيا وبلغاريا . . يمتاز ممرّ أبواب الحديد في رومانيا بين جبال الكربات والبلقان ، ويصبّ في البحر الأسود مكوّناً دلتا واسعة مساحتها (٤ . ٣٤٠٠كم٢) وتتقدم باستمرار داخل البحر ، يروي مدناً عديدة منها : أولم فييّنا ، براتيسلافا ، بودابست ، نوفي ساد ، بلغراد ، روز ، بايلا ، ، . . وغيرها ، روافده كثيرة منها : إن ، مورافا ، درافا ، سافا ، وغيرها . . الملاحة فيه ناشطة ، يلعب دوراً مهماً في الاقتصاد الأوربي بعد (الرّاين) . عليه جسور معدنية وسدود ومحطات توليد كهرباء وقنوات اتصال مع أودر والرّاين والبحر الأسود . (انظر : المنجد في الأعلام) ط١٩ ، ١٩٩٢م (ص١٤٠) .



أعلى قممها (مصلّى) في جبال (ريلا) ، (٢,٩٢٥ م) . مُناخٌ قاريّ قاسٍ شتاءً ، حارّ صيفاً . يقوم الاقتصاد على زراعات متطورة ونهضة صناعية نامية . وتغلب عليه زراعة الحبوب والطِّباق والورد وزراعة البطاطا والشمندر السكري والقطن والأرزّ ودوّار الشمس والفواكه ، . . تمتاز بإنتاج - ورود مشهورة تغطّي مزارع واسعة وتعطي زيوتاً عطرية وكانت صناعة مميزة لبلغاريا فيما مضى ، ولكنّها نقصت كثيراً بعد عام (١٩٣٠م) ، بها مناجم معدنية كثيرة أهمّها : مناجم الفحم والحديد وفيها لينيت وزنك ورصاص ويورانيوم . . وفيها صناعات حرفية ، كالآلات والأغذية المعلّبة ، والمنتجات المعدنية والأقمشة .

السياحة البلغارية ناشطة لا سيّما (فارنا) وعلى شواطىء البحر الأسود[1] . .

التجارة : تتم معظم تجارة بلغاريا مع بلدان أوربا الشرقية وكذلك اليونان وإيطاليا والولايات المتحدة والنمسا وألمانيا وبريطانيا وتتلقّى بلغاريا مساعدةً ماليةً من البنك الأوربي الذي تأسس عام ١٩٩٠م لأجل إعادة بناء اقتصاد دول أوربا الشرقية .

النقل والإتصالات : بلغ طول السكك الحديدية في بلغاريا أكثر من ٧,٦٣٠ كم ، والطرق البرية تزيد على ٣٦,٤٧٠ كم ، ولايتجاوز القسم المعبّد منها الربع .

المطارات الرئيسة في : صوفيا ، بورغاز وفارنا ، والمرفآن الرئيسان على البحر الأسود هما فارنا وبورغاز ، وأهم موانئها على نهر الدانوب هو ميناء : روسه .

وكالة البرق الرسمية : هي المسؤولة عن نشر الأخبار الداخلية ، وفي بلغاريا ٢٤ محطّة للإذاعة و٣ قنوات للتلفاز و١٤ صحيفة يومية و١,٢٠٠ مجلّة ويتم نشر معظم الكتب داخل البلاد بإذنٍ من السلطات .

المجلس الوطني :

يتألف من ٢٤٠ عضواً يُعدُّ الهيئة التشريعية الجديدة في بلغاريا ، والحزب الذي يحوز أكثريّة المقاعد النيابية يختار رئيس الوزراء الذي يعيّن بدوره الوزراء .

---

(١) انظر : المصدر السابق (ص١٢٤) ، وأيضاً : الموسوعة العربية الميسرة/ محمد شفيق غربال ١٩٦٥م/ دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر/ القاهرة (٣٩٨/١) .

تقسم بلغاريا إلى ثماني إدارات إقليمية ومدينة واحدة هي صوفيا العاصمة التي تُعدُّ إدارةً إقليمية واحدة .

المحاكم :

المحكمة العليا هي أعلى المحاكم . وهناك محاكم أدنى في الأقاليم ومحاكم في النواحي ، ويوجد للجيش محكمته الخاصّة .

القوات المسلّحة :

البـريّـة : (٥١,٠٠٠) ، البحـريـة (٣,٠٠٠) ، الجـويـة (٢١,٠٠٠) ، وفـي بعـض المصـادر يبلـغ مجمـوعهـا (١١٠,٠٠٠) رجلاً[١] .

* * *

(١) انظر : الموسوعة العربية العالمية / نشر مؤسسة الموسوعة/ الرياض ، المملكة العربية السعودية / ١٩٩٦م (٥/٨٣) .

حكاية صوفيا

حسب التواريخ البلغارية فإنّ عُمُرَ العاصمة البلغارية يعود إلى خمسة آلاف عام ، ولكن لا تبدو فيها شواهد قوية لهذا التاريخ الطويل . إنها حقاً مدينة عتيقة بمقاييس العواصم ولكن من فرط الكآبة لا من فرْط القِدَم ، يعود اسمها لكنيسة « القدّيسة صوفيا » القديمة حيث تقول الحكاية : إنَّ أميرة رومانية اسمها : « صوفيا » كانت تعاني مرضاً ، حارَ فيه الأطباء وعجزت أمامه الأدوية ، وأشاروا عليها بأن تذهب إلى هذه المنطقة التي تمتلىء بعيون المياه المعدنية الدافئة ، جاءت الأميرة وشربت المياه فحدثت المعجزة وشُفِيَت من مرضها فَبَنَت الكنيسة وأعطت المدينة اسمها . هذه الكنيسة ما زالت قائمة . . وفي السادس عشر من سبتمبر/ أيلول كل سنة تحتفل بلغاريا بعيد ميلاد الأميرة صوفيا حول الكنيسة . . كذلك فإن المياه المعدنية ما زالت تتدفق من صنابير كثيرة تتصل بالعين الموجودة تحت الأرض[١] ـ ولا يزال إلى الآن في وسط العاصمة الحمّامات التركية التي تصل إليها هذه المياه المعدنية الحارّة ـ . في بعض المصادر يأتي ذكر « صوفيا » بأنها كانت قرية من القرى وتاريخها كتاريخ البلقان نفسه ، صراعٌ . . في سبيل الحرية ، كانت (صوفيا) ألعوبة في يد الغالب ، يلهو بها حتى يملّها أو حتى يغتصبها منه محتلّ جديد . . وهي

(١) انظر : مجلة العربي الكويتية عدد ٤٤٦ يناير / كانون الثاني ١٩٩٦م (ص١٥٨) .

مع ذلك قديمة عتيقة . أسَّسها الإمبراطور « تروجان » الروماني ، وأصبحت مقرّ « قسطنطين الأكبر » ، وكانت تُعرف في تلك الأيام باسم (سرديكا) . . أحرقها (الهانز) في القرن الخامس الميلادي ، ولم يبق من آثار ذلك العهد إلا تذكارات ضئيلة مما احتفظت به الأرض من صنوف العملة . . ولم يعرف البلغار هذه المدينة إلاّ في القرن (٩ م) فدعوها (سريتس) ، ومعناها السلافي : (الوسط) ، ولم تعرف هذه المدينة باسمها الجديد إلاّ في القرن (١٤ م) ، فدُعيَتْ : (صوفيا) ـ تيمّناً بكنيسة القديسة « صوفيا » الكائنة بجوار المدينة الحالية ـ . ولكن هذه الكنيسة ، كانت نفسها معبداً رومانيّاً ـ فيما سبق ـ . . ثم استحالت إلى مسجد ، وقد خربّتها الزلازل في القرن (١٩ م) .

في القرن (١٤ م) أي في عام (١٣٧٢م) استقبلت (صوفيا) عهداً جديداً ، إذ فتحها العثمانيون واستقرّوا فيها بضع مئات من السنين . . ولم يرحلوا عنها إلاّ حين رحلوا عن أوربا ، فكانت مدينة صوفيا آخر ما يودّعون[1] . .



صوفيا : منظر عام

(١) انظر : مأساة المسلمين في بلغاريا (ص٢٠٤ـ٢٠٥) .

صوفيا في دائرة المعارف :

هي عاصمة إمارة البلغار ، موقعها على الطريق الكبرى بين « إسطنبول وبلغراد » على مسافة (٢١٠) أميال إلى الشمال الغربي من « إسطنبول » . . أهلها مزيج من البلغار واليونان وبعض الأرمن والترك ، والمدينة في مركز جميل محاط بالجبال على الطريق المؤدية إلى « بلغراد » ، وفيها قلعة منيعة حصّنتها الدولة العليّة سنة (١٨٥٤م) . وإلى جنوبها آثار مدينة « سرديكا » ـ صوفيا القديمة ـ بناها « بوستنيانوس » ثم فتحها البلغار سنة (٨٠٩م) ، واستولت عليها الدولة العثمانية عام (١٣٧٢م) دون حرب ، ولما انفصلت إمارة البلغار عن الدولة العثمانية بعد حرب روسيا سنة (١٨٧٦م) صارت « صوفيا » عاصمة لبلغاريا . .



صوفيا شارع لينين



مسرح في صوفيا

صوفيا مدينة إسلامية :

.. بعد أن فتح العثمانيون بلغاريا ، أصبحت (صوفيا) مقرّ الحاكم العثماني الذي يتصرّف في أمور البلقان جميعها .. ففي خلال قرنين من الزمن صارت مدينة إسلامية ، وكان المسلمون فيها أكثر من البلغار ، وكانت تضم (أحد عشر) جامعاً كبيراً ، و(مئة) مسجد ، وعندما نشبت الحرب بين العثمانيين والروس ، كانت (صوفيا) مقرّ القائد العثماني : « مصطفى باشا الإسكوداري » ، وفي يوم (٤ كانون الثاني ١٨٧٨م) - وهو يوم مشهود في حياة هذه المدينة - دخلت الجيوش الروسية صوفيا ، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت مدينة بلغاريّة ، ولم تمض سنون حتى بدأت المعاول تقضي على تذكارات العهد العثماني الطويل ، فاستحالت مساجدها إلى كنائس ولم يُبقوا في صوفيا إلا مسجدين فقط ، تحول أحدهما إلى متحف لفنون العمارة وبقي الآخر كتذكار[1] ..

---

(١) انظر مأساة المسلمين في بلغاريا (ص ٢٠٤ - ٢٠٥) .

صوفيا كما رآها « أوليا جلبي » :

زار الرحالة المسلم « أوليا جلبي » مدينة (صوفيا) مرتين عامي (١٦٥٣م و١٦٦١م) ، وقال عنها في كتابه (سياحت نامة) مايلي : إنَّ في صوفيا أكثر من (١٠٠) جامع ، أكبرها : جامع (خوجا محمود باشا) ـ ٣٠٠٠ ذراع × ٢٠٠ ذارع ـ وللمدينة (٢١) متنزّهاً عاماً[1] . .

أحياء المسلمين في صوفيا :

فلقد ورد في سجل « صوفيا » الموضوع في القرنين (١٦ و١٧ م) أَنَّ هناك في صوفيا وحدها (٣٩حيّاً) تعود للمسلمين إلى جانب زاويتين وجماعتين وأن هناك من بين هذه الأحياء (٢١ حيّاً) لايقطنها سوى المسلمين ومن أسمائها : محلة صاروخان ، محلة المرحوم شاهين بك ، محلة مسجد حاجي حمزة ، محلة الجندي أحمد بك ، محلة مسجد تورغوت خوجا ، محلة جامع ألورد. . وغيرها. . وقد سُجِّل في الأحياء ممن يحق عليهم دفع الضرائب : (٦٨٣) شخصاً متزوجاً ، و(١٧) عازباً ، أما في بقية الأحياء فهناك (٣٣٨) مسلماً و(٩٩) غير مسلمٍ .

المهن التي كانت تزاول في « صوفيا » :

. . في تلك الفترة كانت تزاول في (صوفيا) جماعات تنسب إلى (١٣٢) مهنة منها (١٠٤) في الأحياء الإسلامية ، و(٨٠) مهنة في غير الإسلامية .

---

(١) انظر : العثمانيون في التاريخ والحضارة (ص٣٩٢) .

مهن الأحياء الإسلامية :

بائع الخراف ، دبّاغ ، قصّاب ، سرّاج ، خيّاط ، مؤذّن ، إمام ، خطيب ، كاتب ، خبّاز ، مُزيّن ، بيطري ، بقّال ، دلاّل ، تاجر عباءات ، سائق عربة . . وغيرها .

أما المهن التي كانت تسود الأحياء غير الإسلامية فهي :

بائع مشروبات ، دبّاغ ، بقّال ، نجّار ، بائع الحساء ، بائع أحذية . . وغيرها .

فقد كان الوضع في « صوفيا » على هذا المنوال ، وإن كانت الأكثرية في القرى لصالح البلغاريين . . كما كانت هناك نشاطات سكنية في الأرياف من قبل المسلمين الأتراك . .

والمثال الذي أوردناه على « صوفيا » يمكن أن يمتدّ على بلغاريا بأكملها ، لا ، بل على شبه جزيرة البلقان بأسرها . . من أسماء للأحياء أو القرى ، وكل الأحياء تنسب إلى المساجد التي أنشئت فيها أو إلى الزوايا ، وإن بُنَاة هذه المساجد والأوقاف من عسكريين أو رؤساء دين ، قد حازوا على رضاء السلطان وسمح لهم باستملاك هذه الأماكن لإقامة دور العبادة عليها ، وتزيينها ، كما ورد في سجل الأملاك العقارية من سجلات القيود القديمة الخاصة ببلغاريا[١] . .

صوفيا بعد الشيوعية :

صوفيا Sofia : عاصمة بلغاريا بسفح جبل (فيتوشا) وسط سهل خصيب يبلغ عدد سكانها (١,١٠٠,٠٠٠) نسمة ، ومركز تجاري

---

(١) انظر : دراسات حول الكيان التركي في بلغاريا (ص١٠٦ ـ ١٠٩) .

وصناعي ، عقدة مواصلات مع مدن البلقان الكبرى ، تضم متاحف ، كنائس وأبنية أثرية . .

. . وتبدو صوفيا مدينة معتمة ليلاً إلى حدٍّ كبير ، الاقتصاد في استخدام الطاقة يجعلك تتعثّر في الطرقات ، لاتوجد فيها تلك الإعلانات الضوئية الكبيرة ، ولا تهتم المحلاّت بإنارة واجهات العرض . « إننا نبدأ ببطءٍ » كما قال أحد الكهول ، المحلاّت تحطّم ديكورات الخمسينيات والستينيات وتضع لمسات من الديكورات الأمريكية بكل مافيها من مرايا وأضواء . كل واحد الآن يبحث عن مشروعه الخاص ، البعض فتح شِقَّته القديمة وحوّلها (بجهدٍ بالغٍ) إلى محلٍ يطلُّ على الشارع . والبعض استخدم (قبْوَ البناية) وجعلَ منه مكاناً لبيع المشروبات والأغذية ، . . والبعض الآخر وضع مشروعه على قارعة الطريق . . مأكولات سريعة . آلة للبوظة (الآيس كريم) زهور ، والبعض يقيس ضغط دمك لقاء عدّة (ليفات) . . !

نظرة في الوجوه :

الوجوه التي تقابلها تُفصح عن جيلين متباعدين : جيل العجائز ، الحَرَس الشيوعي القديم ، ملابس الستينيات القديمة الداكنة ، تلك النظرة الحائرة في الوجوه ، أناس اكتشفوا وجودهم فجأة في عالم غريب ، . . من النادر أن يتحدث هذا الجيل بالإنكليزية . برغم ذلك قالت امرأة عجوز بإنكليزية متكسّرة : (على الأقل نحن كنا نعمل . . أمّا هؤلاء الذين يتحدَّثون عن الحرية والديمقراطية فلا يقومون بأكثر من الثرثرة) .

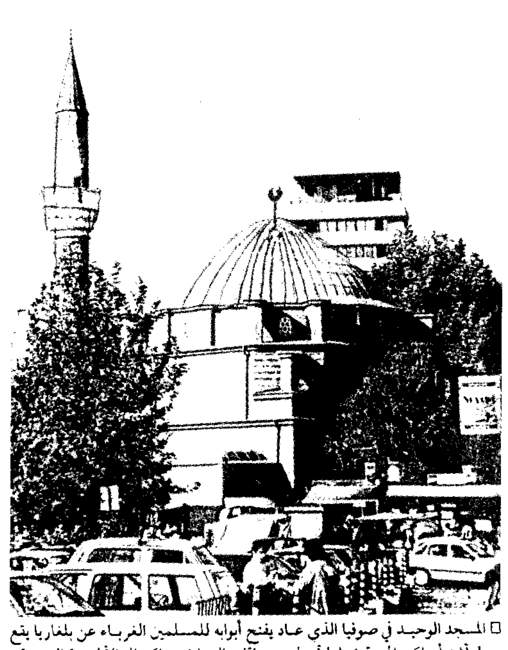
إنها تعني الجيل الجديد ، الأصغر سناً والأكثر جمالاً وفتوةً وانطلاقاً وحبّاً للحياة المفتوحة إنَّهم يجلسون في الحدائق والمقاهي طوال اليوم . لافرق بين أوقات الدراسة أو العمل أو الإجازة . يزحمون الأرصفة

بالثرثرة والقبلات. . ، يرتدون أحدث الموضات ، ثياب الفتيات قصيرة إلى حدٍّ مرعب. . ووجوه تشعّ بالأمل ، وتشي باختلاط الأعراق المختلفة في هذه البقعة الضيّقة من الأرض. . السلاف والأتراك والغجر والأرمن واليونان والألبان والمقدونيون . كل هذه الجذور الأثنية المتنوّعة أعطت الوجوه سِماتٍ نادرة .

وسط كل هذا الضجيج الحيّ تقف النُّصُبُ التذكارية . بقايا فنون الواقعية الاشتراكية. . إنه عصر مضى حقاً بكل ما فيه من أحلام ورموز[١] .

مسجد صوفيا :

يعتبر مسجد صوفيا من عيون الآثار في العاصمة البلغارية ، وقد تجلّت روعته : وجوده في ميدان فسيح يتوسّط المدينة. . تسوّره الحدائق. . وإلى جواره الحمّام التركي ببنائه الشرقي المزخرف ، وليس هذا الجامع أقدم المساجد في (صوفيا) ، فالجامع الكبير أو جامع (بيوق) ، ترجع عمارته إلى عهد السلطان « محمد الفاتح » .



□ المسجد الوحيد في صوفيا الذي عاد يفتح أبوابه للمسلمين الغرباء عن بلغاريا يقع وسط أشد أماكن المدينة زحاما تحيط به مواقف السيارات واكشاك الأطعمة السريعة.

(١) انظر مجلة العربي عدد ٤٤٦ (ص ١٦٠ ـ ١٦٢) .

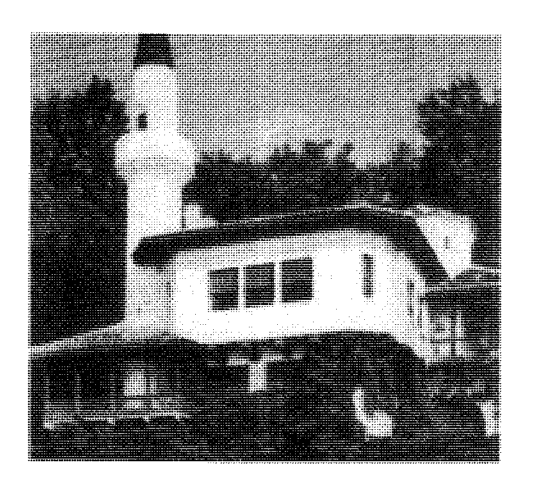
وفي إبّان الحرب : العثمانية ـ الروسية ، خزّن العثمانيون ذخائرهم في هذا المسجد ، ولمّا انسحبوا من (صوفيا) حوّل البلغار الجامع إلى مُتحفٍ للآثار البلغارية ، وما زال هذا الجامع بقبابه التسع المصفّحة يذكّر الزائر بصحيفة من التاريخ . . ، أمّا (جامع صوفيا) ـ المسجد الوحيد الباقي الآن ـ فقد بناه القاضي « سيف الله أفندي » أيّام السلطان « سليمان القانوني » وتمّتْ عمارته في السنة التي توفي فيها هذا السلطان[١] . وظلّ الجامع الوحيد منتصباً غريباً وسط العاصمة تحيط به أكشاك الوجبات السريعة ومواقف الانتظار ، ونصّابو تغيير العملة والسُّكارى العاطلون على العمل والزِّحام الكثيف . كل شيء يكاد يخفي ملامحه ، ولكنّه عاد إلى الحياة بعد الشيوعية ، فتحت أبوابه أمام الغرباء من المسلمين ، وكما قال أحد المسلمين العرب المقيمين في صوفيا : (أصبح لنا مسجد نصلّي فيه . أيام الشيوعيين كانت الصلاة جريمة يُعَاقَبُ عليها) .

مساجد في مدن أخرى :

كذلك فتح المسجد الموجود في مدينة (بلوفديف) الذي يسمى (مسجد الجمعة) ولكن ، لأمور السياحة فقط ، فالمسجد مليء بالرسوم المهملة وغير المرممة ـ بالإضافة إلى (مِزوَلة شمسية) تحدد أوقات الأذان الذي لايُؤذَّن !! . أما مسجد مدينة (بلتشيك) فمازال مهملاً مغلقاً يوشك التراب أن يطمس ملامحه . . فقط مسجد « شريف هلال باشا » في مدينة « شومَن » هو الّذي يضجّ ببعضٍ من الحياة ، شيوخٌ يجلسون وحولهم حلقة من الأطفال يَتلقوْن دروس القرآن الكريم وهم يتحدّثون بالبلغارية والعربية والتركية . قال لنا إمام المسجد : (من

(١) انظر : على الدانوب (ص ٢٢٢ـ٢٢٣) .

الصعب استعادة الماضي ، فقد كان لدينا مكتبة نادرة حافلة بالمخطوطات ولكنّها دُمِّرت تماماً ، كما كانت هناك مدرسة تخرّج الدعاة لكل بلغاريا ، إننا نحاول أن نبقي هذه المؤسسة على قيد الحياة ، ولكن ! هل تحسّنت أوضاع المسلمين؟[1] .



جامع بالتشيك



مدينة بالتشيك

(١) انظر : العربي عدد ٤٤٦ (ص١٦٦ـ١٦٧) .

أشهر المدن في بلغاريا

بعد العاصمة صوفيا هناك مدن تشتهر كل منها بميزة خاصة وسِمَة فريدة وهذه المدن هي :

بلوفديف Plovdiv :

هي القلب التاريخي لبلغاريا وهي أيضاً ثاني مدنها تقع في منتصف الطريق الموصلة بين (أدرنة) التركية والعاصمة البلغارية التي تبعد عنها حوالي (١٢٠) كيلومتراً ويبلغ عدد سكانها (٣٢٥,٠٠٠) نسمة فتحها العثمانيون عام (١٣٦٣م) ، تحتل مكاناً متميّزاً وسط سهول (ثيركيان) في نقطة الالتقاء بين شرق أوربا وغربها . ولعلَّ هذا هو السبب في غِناها التاريخي بُنيَت فوق ست تلال على ضفاف نهر (ماريتسا) . أهم أثر فيها هو ذلك المسرح الروماني المدرّج . . مسرح متكامل وفي حالة جيدة وتُقدّم عليه العروض المسرحية أيضاً . ثم ترتفع تلال المدينة إلى قلبها القديم ، أحياء كاملة من القرنين (١٧ و١٨ م) . شواهد على الازدهار الذي شهدته هذه المدينة التي تُعتبر مركزاً تجارياً مهمّاً ، تشتهر بصناعة التبغ والمعادن والمنسوجات . من الداخل تبدو البيوت تُحفاً فنية كلاسيكية ، تجمع في الأثاث كل لمحات الموضات التي كانت سائدة في ذلك الوقت . . الثياب الشعبية . . السقوف المنقوشة التي تتوسّطها دائماً شمس مشرقة محفورة على الخشب . . التجوال وسط الأزقّة الضيّقة

ووسط البيوت الزاهية الألوان يعطيك الإحساس ببعض من دفء الشرق . بيوت التجار الأتراك واليونانيين وقد تحوّلت إلى متاحف مفتوحة . بعضها عاد إلى أصحابه الأصليين ، والبعض الآخر ، الذي لم يُطالِب به أحد ، تتولاّه الدولة . يُقامُ في المدينة معرض دولي سنوياً .

فارناVARNA :

كان اسمها قديماً (أودّيسّوس Oddessus) أسّسها الإغريق في القرن (٦ ق . م) ، اشتهرت تاريخياً بمعركتها التي جرت بين العثمانيين وحلف دول البلقان وسُميّت (معركة فارنا) وانتصر فيها السلطان « مراد الثاني » انتصاراً كبيراً عام (١٤٤٤م) . .

أما الآن ، ربما تكون فارنا هي المدينة الثالثة في بلغاريا وقلب السياحة فيها ولكنها بلا شك أشهر هذه المدن . حتى أن الكثيرين يعرفونها ككيان منفصل . والكثيرون زاروها واكتفوا بزيارتها كإحدى رحلات العمر دون أن يعرفوا أنّها جزء من هذا البلد ، وأنها الرئة التي ظلّت تصل بلغاريا بالعالم حتّى في أشدّ سنوات الانغلاق .



وفارنا هي التي تحمّلت دائماً عبء إنعاش الاقتصاد وإمداده بالعملات الأجنبية .

المدينة جميلة . قلبها القديم يضجّ بالحياة والجمال ، ومُتحفها أجمل بكثير من متحف العاصمة صوفيا . كانت دائماً هي موطن الاكتشافات الأثرية لأنها كانت نقطة العبور التجارية والحضارية ، ولكن الأجمل منها هو شواطئها التي تمتد على ساحل البحر الأسود ، أجمل شواطىء أوربا وربّما العالم كلّه . والمنتجعات العالمية بها تقوم وسط غابات كثيفة تطلّ على هذه الشواطىء . هذه الغابات هي هدية الأمطار الموسمية التي تبدأ من منتصف شهر سبتمبر/ أيلول حتى آخر أبريل/ نيسان ، وقد شقّت الطرق وسط الغابات وأقيمت مجموعة ساحرة من الفنادق والمطاعم . . إنها تمثّل واحدة من أكبر الاستثمارات السياحية في أوربا . . يبلغ عدد سكان مدينة فارنا : (٢٧٥,٠٠٠) نسمة .

شومَن (شملا) SUMEN

تقع على بعد (٦٠) كيلو متراً إلى الغرب من فارنا ، وهي من الحصون المنيعة التي كانت أيام العثمانيين ، تحمي أبواب البلقان من الشرق يبلغ عدد سكانها (١٠٠,٠٠٠) نسمة ، المسلمون فيها حوالي (٤٠٪) من السكان .

طلاب مسلمون بلغار في دمشق : في مقابلة أجريْتُها مع بعض الطلاب المسلمين البلغار وأحدهم من مدينة (شومَن) واسمه « أرهان ذو الكريم » يدرس الشريعة الاسلامية في دمشق ، أبوه « ذو الكريم » مهندس هاجر إلى تركيا في موجة التهجير التي جرت في الثمانينيات ويقطن في (إسطنبول) وأمه : « راضية » ، قال أرهان : كان في شومن (٢٨)

مسجداً لم يبق منها إلاّ اثنان فقط أحدهما : مسجد (تومبول) ويعتبر من أكبر مساجد البلقان .

يقول الطالب « أرهان » : بعد زوال الشيوعية تقام دورات لتعليم القرآن الكريم في القرى الإسلامية كما يوجد معهد شرعي مرتبط بالحكومة عن طريق مفتي المدينة وهو مرتبط بالمفتي العام في العاصمة صوفيا ويدعى : « فكري صالح » وفي شومن أيضاً جريدة (المسلمون) باللغتين التركية والبلغارية تحت إشراف المفتي[1] .

بورغاز BURGAS :

مرفأ بلغاري على البحر الأسود ، عدد سكانها (١٦٠,٠٠٠) نسمة ، اشتهرت بورغاز بالزبدة والجبن وبعمل شباك الصيد ، والكافيار والنفط . ويكثر فيها السكان المسلمون .

تَرنوفو TARNOVO :

تقع في وسط الطريق الدولية (E ـ ٢٧) بين فارنا وصوفيا وتسمى : (مدينة الأشواك) كانت عاصمة لمملكة بلغاريا التي أقاماها الأخوان « بيتر وآسين » وعندما دخل العثمانيون بلغاريا استسلمت المدن البلغارية الواحدة تلو الأخرى أمام قوات العثمانيين الزاحفة . لم تقاوم سوى مدينة (ترنوفو) التي حاصرها العثمانيون ودكّوها بمدافعهم قبل أَنْ يدخلوها . . ومع طلقة المدفع الأخيرة تحوّلت بلغاريا إلى ولاية عثمانية لمدة (٥٠٠) عام .

---

(١) جرت المقابلة في دمشق بمدرسة الدعوة في ٢٠/ ٥/ ١٩٩٥م . (المؤلف).

بليفن (بلفنة) PLEVEN :

يرقى تاريخها إلى ماقبل عهد الرومان ، وفي عهد العثمانيين حاصرها الروس (١٤٣) يوماً وقاوم قائدها « عثمان باشا » جيوش روسيا مقاومة خلّدت ذكره في التاريخ ، واستولى عليها الروس عام (١٨٧٨م) ، تقع المدينة الآن في شمال بلغاريا على الطريق الدولية (٢٠ ـ E) وتبعد عن الحدود الرومانية حوالي (٧٠كيلومتراً) ، يبلغ عدد سكانها اليوم (١٢٥,٠٠٠) نسمة .

سيليسترSILISTRA :

وتقع في أقصى الشمال الشرقي من بلغاريا على حدود رومانيا وعلى شاطىء نهر الدانوب عدد سكانها (٣٥,٠٠٠) نسمة ومن آثارها حصن قديم من العهد العثماني .

روسي (روسه) RUSE :

مدينة بلغارية في أقصى الشمال ، ميناء نهري على الدانوب شمال (تَرنوفو) وعلى الطريق الدولية (٢٠ ـ E) وهي من المدن المهمّة ، من مصنوعاتها التي اشتهرت بها : الصوف والحرير وصناعة الجلد الجيِّد .

كوستنديل KJUSTENDIL :

من المدن المهمّة تقع على الطريق الدولية (٢٧ ـ E) جنوبي غربي العاصمة وتبعد عنها حوالي (٩٠كيومتراً) وتبعد عن حدود (صربيا) (٢٢كيلومتراً) ، وبها معادن ذهبية وفضيّة .

سليفن SLIVEN :

وهي مدينة اشتهرت بصنع ماء الورد ونسيج الحرير والأسلحة ، تقع في وسط بلغاريا وتبعد عن مدينة (بورغاز) حوالي (٩٠كيلومتراً) إلى الغرب .

وفي بلغاريا مدن عديدة أخرى لها أهمية كبيرة منها مدينة « ألبينا » الساحلية التي نراها في الصورة على ساحل البحر الأسود وأيضاً مدينة فيدين التاريخية[١] . .



---

(١) انظر : العربي عدد ٤٤٦ (ص ١٥٢ـ ١٦٧) وأيضاً : المنجد للأعلام / ط١٩ . . وخريطة بلغاريا . .

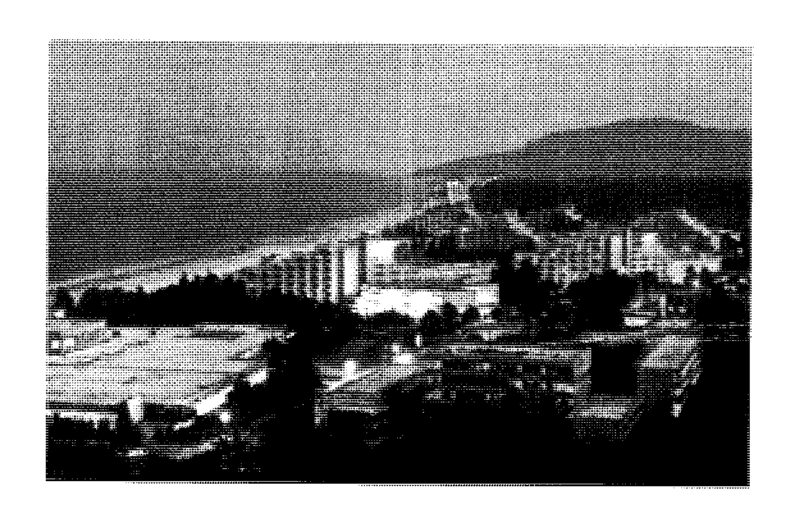
فيدين وقصتها

مدينة « ودين » يرد ذكرها في بعض المراجع العربية « فيدين » استناداً إلى اسمها « Viddin » بالفرنسية ، وهي مدينة حصينة على نهر الدانوب ، ذات موقع مهم استراتيجي وتبعد (٢٢٥كم) عن بلغراد ، وتقع في أقصى الشمال الغربي من بلغاريا وتبعد عن العاصمة « صوفيا » حوالي (٢٥٠كم) إلى الشمال منها ، اكتسبت شهرة خاصّة في تاريخ الدولة العثمانية ، إذ كانت مقرّاً للثائر « عثمان باشا » .

أما اسم « فيدين » فله قصة : استعارت هذه المدينة اسمها من قلعتها بأبراجها الأربعة ، أو قلعة « الجدّة فيدين » ، مَن هذه الأم العجوز ، وما قصّتها؟ . . ، فعلى أنقاض الحصون الرومانية الأربعة القديمة ، شُيِّدت هذه القلعة في القرن (١٠ م) ، وعاصرت المدينة أيام عزِّها وبؤسها ، فكانت « فيدين » يوماً من الأيام أعظم مدينة في بلغاريا ولكن مكانها الفريد على الدانوب قد جنى عليها ، فجعلها قبلة المغيرين والطامعين ، بل إنَّ « فيدين » أصبحت مدينة التاج البلغاري ، حيث نزح إليها الملك « شراسيمو » مع فلول أبناء شعبه محاولاً صدّ السيْل الجارف الذي اكتسح بلغاريا من الجنوب ، ولكن سرعان ماسقط التاج ، وفتحت « فيدين » قلعتها للجيوش العثمانية ، ورفرف عليها الهلال أربعة قرون وأكثر ، وكانت فيها « فيدين » وبلغاريا بأسرها ضَيْعةً عثمانية .

وفي خلال تلك القرون أصبحت « فيدين » من جديد مدينة العرش ، ولكن إلى أمد قصير خلال خمسة عشر عاماً ليس إلا ، حين استبدّ أحد الباشوات بالأمر في ذلك الرّكن من الدانوب فأنشأ « عثمان باشا » عرشاً في « فيدين » ، ويرى الزّائر اليوم للمدينة ضريحاً بسيطاً نُقش عليه : « هذا قبر عثمان » .

(وقد وصف الرحّالة المسلم « أوليا جلبي » مدينة « فيدين » عندما زارها في القرن (١٦)م أنَّه كان فيها : (ستة عشر مسجداً) و(سبع مدارس) و(عشر تكايا) للذِّكْرِ .) .



شاطىء البحر الأسود في الليل

جامع فيدين :

وفي « فيدين » جامع بُني أيام الباشا « عثمان » ، وهذا الجامع بسقفه المنحدر كبيوت أهل الشمال بنوافذه المصفوفة في طابقين ، لا يمتُّ إلى الشرق بِصِلَةٍ ، ولا إلى الفن الإسلامي في هذه البلاد المشهورة بثلوجها وأمطارها ، ولايذكّرك بالفن الإسلامي إلاّ المئذنة الضاربة في الفضاء ، وهي مئذنة بيضاء ناصعة كالسَّيْف المسلول ، وإلى جانبها ارتفعت (قلعة فيدين) .

كان الجامع معموراً مطروقاً ـ في أوائل الثلاثينيات ـ وكان المؤذّن ينادي إلى الصلاة وإلى الفَلاح كل صباح ومساء ، وفي خلال عشر سنين تفرّق المسلمون الذين كانوا يعمرون « فيدين » ، حيث نزحوا إلى تركيا وإلى المدن التي تسودها أكثرية إسلامية في بلغاريا ، ولم يبقَ في « فيدين » إلا بضع عشرات من مسلميها[1] .



(١) انظر : الدولة العثمانية دولة مفترى عليها (١/٥٠٨) ، وأيضاً : على الدانوب(ص ١٧٩ ـ ١٨١) .

تطورات جديدة بعد الشيوعية[1]

حكاية بلغاريا :

تقول أسطورة بلغاريّة قديمة أَنَّه في بدء الخليقة أخذت الملائكة تقسِّم الأرض بين أجناس البشر التي حضرت جميعاً وأخذ كل واحد منها نصيبه ، ماعدا الفلاح البلغاري الذي ظلّ مشغولاً بالبَذْر والرِّي حتى أقبل المساء ولم يبقَ له شيء من الأرض . ولكنّ الله كافَأَه عن ذلك الجدّ وتلك المثابرة بأن منحه قطعة صغيرة من أرض الجنّة ! .

إنَّ بلغاريا التي تكسوها الخضرة المتدرجة الألوان ، من الأخضر الباهت حتى الغامق ، كالزّمرّد تعطيك الإحساس بروْح هذه الأسطورة ، حقول وغابات وأحراش وجبال مكسوّة ونباتات تنبثق من بين الأشجار .

ولكن « ياكوف » الفلاح العجوز من بلدة (زلت كابوك) يقول ساخراً . « إنها أسطورة قديمة . البلغار الآن يهجرون الأرض لأنها كانت دائماً مهنة شاقّة . ولم تعد الآن مربحة . وحتّى عندما حلّت (الكلوخوزات) - أيام الشيوعية - لم يعد الكثير من أصحاب الأرض ليأخذوا أرضهم . . كل الذين يمارسون الزراعة الآن هم فوق سن الخامسة

---

(١) بحث كُتب بعد الشيوعية وبعد زيارة بلغاريا عقب زوال النظام السابق وبدء مرحلة جديدة انظر : مجلة العربي العدد (٤٤٦) يناير/ كانون الثاني ١٩٩٦م ص١٥١ - ١٦٧) .

والأربعين . . لم يعد أحد يريد أرض بلغاريا . . وبرغم ذلك فإن بلغاريا تحاول أن تعيد نفسها إلى أصحابها الأصليين . الكثيرون منهم لم يعد ولكنّ اليهود عادوا الذين كانوا قد تركوا أيام قحط الحكم الشيوعي وهاجروا إلى أمريكا وإسرائيل ، الآن عادوا يحملون الدولارات التي تساوي الكثير عندما تتحول إلى (ليفات) بلغارية . وفي بلد رخيص نسبيّاً مثل بلغاريا فإنّهم بهذه الدولارات التي لا تُقاوَم يمتلكون الأشياء بسرعة كبيرة ويرفعون ثمن العقارات إلى عشرات أضعافها .

يقول « نيقولاي كاركيريف » ـ من مدينة (فارنا) السياحية الشهيرة ـ : (لقد امتلكوا تقريباً شارع « ستالين » في المدينة ورفعوا الإيجارات إلى عشرين ضعفاً وأحياناً إلى مئة ضعف . نحن نأخذ « الليفات » الضعيفة من الحكومة ولكنهم يغرفون الدولارات من خزائن العالم) .

الشيوعيون يعودون . . ولكن ، بصورة مختلفة :

كل شيء يتغيّر الآن . الأساطير القديمة تموت . الشيوعيون تخلّوْا عن الحكم حقّاً ولكنهم عادوا بصورة أخرى . بعضهم قفز إلى مقاعد « الدّوما » ـ البرلمان البلغاري ـ ، وبعضهم تحوّل إلى (مافيا) حقيقية تمتلك سطْوَة المال . لقد استغلّوا الثروات التي جمعوها أثناء فترات حكمهم التي استمرّت (٤٥) عاماً ، وكذلك استغلّوا الأجهزة البيروقراطية التي مازالت متحكّمة في الحصول على التوكيلات التجارية واستولوْا على كثير من الأسهم التي طُرحت مشروعاتها لتصبح من القطّاع الخاص وأصبحوا شركاء لا مفرّ منهم في أي شركة قادمة من الخارج تريد أن تقيم مشروعاً في بلغاريا . بل إنّ حرب البوسنة والهرسك قد أعطتهم فرصة إضافية للثراء فقد احترفوا تهريب الأسلحة إلى (الصِّرب) منتهزين الحصار الدولي ، وهكذا حوّلوا الدّم المُراق إلى دولارات خضراء .

ولكن.. في بلد انفلت فيه عقال الأمن إلى حدّ ما.. يكون كل زائر لبلغاريا معرضاً لنوع من أنواع اللصوصية والنّصْب وخاصة مع لصوص تبديل العملة المنتشرين في الشوارع..

في فندق « فارنا » كانت هناك تحذيرات باللغة العربية كتبتها إحدى شركات السياحة المتخصصة في التعامل مع السيّاح العرب.. أول هذه التحذيرات بالطبع، هو عدم تغيير النقود في الطريق بأي حال من الأحوال، وعدم مصادقة أحد لا تعرفه..، وعدم ترك الغرفة مفتوحة النوافذ أو ترك أي أشياء ثمينة، وعدم حمل مبالغ كبيرة من المال.. إنها كلّها مؤشّرات مهمّة لحال افتقاد الأمن التي تعيشها بلغاريا.

انتشار الجريمة والمافيا:

انتشار الجريمة ظاهرة لا تختص بها بلغاريا وحدها. إنها إحدى سِمات هذا العصر وإحدى سِمات فترة التحوّل الصعب الذي تعيشه دول أوربا الشرقية السابقة، ومهما قيل عن سطوة المافيا في هذه البلاد فهي أقل بكثير من الموجودة في الدول الغربية، وعلى حدّ تعبير أحد الخبراء إنَّ المافيا تقتل من بعضها البعض أكثر مما تقتل من المواطنين.

ربّما كان ارتفاع نسبة الجريمة من سطوٍ مسلّح، وسرقة سيارات (يُقال إنّه لا يوجد أي سيارة آمنة في بلغاريا) يعود بالدرجة الأولى إلى فرض الأَتاوات وإلى ظهور طبقة جديدة تريد الثراء بأي طريقة في مواجهة دولة لم تقبض بعدُ على زمام الأمور، والمؤكّد أنه مع ارتفاع نسبة البطالة وارتفاع التضخّم وانهيار العملة فإنَّ الجرائم ليست في ازدياد فقط بل إنَّ هناك حنيناً يتولّد داخل النفوس للعودة إلى أيام الشيوعية (الطيّبة القديمة)!.

لا نريد للشيوعية أن تعود :

هكذا يجيب أيُّ بلغاريّ عندما تسأله يهتف بحماس (بالطبع لا نريد للشيوعية أن تعود . . رغم كل شيء نحن سعداء بالحرية التي نحن فيها) ، ولكن صناديق الانتخاب التي أجريت في شهر (ديسمبر / كانون الأول ١٩٩٤م) تقول شيئاً مختلفاً . لقد عاد الحزب الشيوعي - الذي أصبح اسمه الآن الحزب الاشتراكي - إلى (الدّوما) - البرلمان - بنسبة (٤٣,٥٪) وأخذ (١٢٥ مقعداً) من مقاعد المجلس البالغة (٢٤٠مقعداً) . بينما لم يَفُز تجمّع القِوى الديمقراطية الذي حكم البلاد منذ (الثورة المخملية) في (ديسمبر / كانون الأول ١٩٩٠م) بأكثر من (٢٤٪) من مجموع الأصوات . . ماذا تعني هذه النتيجة . ؟

لقد استطاعات الأحزاب الشيوعية التي أعادت تكوين نفسها تحت أسماء أخرى أن تستعيد بعضاً من قوّتها في : (المجر وبولندا ، وليتوانيا) وهو الشيء نفسه الذي حدث للحزب البلغاري الذي تميّز دوماً بالاتجاه الستاليني القوي وظلّ يقوده إلى أواخر أيامه « تيودور جيفكوف » حتى أصبح خارج السلطة عام (١٩٩٠م) . الحزب نفسه عاد إلى السلطة بعد أربعة أعوام فقط دون أن يعتذر عن أخطاء النظام السابق ، فهو مازال مصرّاً على تتبّع خطى روسيا في السياسة الخارجية ومازال الحزب يتمتع بجاذبية شديدة بين أوساط الفلاحين والمناطق الفقيرة .

حبّ متبادل بين روسيا وبلغاريا :

التعاطف بين روسيا وبلغاريا ليس غريباً ، فالبَلَدَان معاً ينتميان إلى الأصول السلافية والديانة الأرثوذكسية ، ويستعملان نفس الأبجدية السيريلية ، واللغتان متشابهتان إلى حدّ التطابق . كما أن العلاقات

التجارية بين بلغاريا والاتحاد السوفييتي سابقاً كانت تصل إلى (٧٠٪) من مجمل الصادرات والواردات البلغارية . وأكثر من ذلك أَنَّ الكثير من البلغار يحملون في أعماقهم مشاعر الامتنان للإمبراطورية الروسية التي حرَّرتهم من سيطرة العثمانيين عام (١٨٧٨م) وما زال تمثال قيصر الحرية « الكسندر الثاني » يحتلُّ أهم ساحات صوفيا أمام البرلمان وكاتدرائية « الكسندر نيفسكي » . وطوال فترة الحكم الشيوعي وشعار الحرب الباردة لم تعترض بلغاريا أو تحتّج لأي تَدَخّل مسلّح ، ولم تظهر فيها حركات الانشقاق ، كانت دائماً تابعاً مطيعاً ومعجباً . وحتى عندما ثارت الجماهير في (الثورة المخملية) في (ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٠م) كان ذلك بتخطيط من رجال مخابرات « غورباتشوف » الذين كانوا يوجّهون الجماهير من خلال أقنية السفارة السوفييتية . ولكن كيف استعاد هذا الحزب العتيق قوّته الجديدة ؟

الحنين إلى الماضي والجريمة تشمل كل شيء :

بلغاريا تتحدّث عن « زان فيدنوف » السياسي السهل الممتنع البالغ من العمر (٣٨ عاماً) فقط ، الذي قاد الحزب الاشتراكي إلى الفوز في الانتخابات الماضية ، إنّه سياسي محكوم بالحنين إلى الماضي والأيام الطيبة القديمة ، ولكنه يعلم جيداً عدم قابلية رجل الشارع لصورة الحزب القديمة وحكمه الشمولي . لذلك فهو يلعب بذكاء مستفيداً من فشل الاتحاد الديمقراطي في حكم البلاد فقد قاد البلاد من حالة سيئة إلى حالة بائسة . انخفضت فيها حالة الصناعة وتخلّفت ، وأصيب الإنتاج الزراعي الذي كان مزدهراً دوماً بهزّة عنيفة . وأصبح معدّل البطالة (٣٠٪) وارتفع التضخم إلى (١٢١٪) وأصبح المتقاعدون وأرباب المعاشات الثابتة يعانون وضعاً بائساً بعد أن تدهور وضع (الليفا) البلغارية .

معدّلات الجريمة التي ارتفعت ، شملت كل شيء : الاتجار في السوق السوداء ، تهريب المخدِّرات إلى باقي أوربا ، بَيْعُ الأطفال في ألمانيا ، ارتفاع نسبة الدَّعارة إلى حدٍّ ملحوظ . وقد استغلّ الشيوعيون القدامى كل هذه الظواهر ، واستطاع « فيدنوف » خلال فترة قصيرة أن يُدعم جهاز الخدمة المدنية الذي كان منهاراً ، وأن يُعيد تقوية أواصر التجارة الخارجية مع روسيا ويصدر كتاباً أبيض يصف فيه كل من يهاجم الشيوعيّين بأنّهم (طفيليون) وضد القومية البلغارية .

الغرب يقول : بلغاريا تعود من جديد إلى النفوذ الروسي :

الدبلوماسيون في صوفيا يرسلون تقارير تحذيرية من أَنَّ بلغاريا تعود مجدّداً إلى دائرة النفوذ الروسي ، ولكن هناك حدود لنفوذ الشيوعيين الجُدد ، فإنّ الرئاسة مازالت في يد الرئيس الليبرالي « زليوزيليف » الذي يتمتّع بشعبية كبيرة .

إِنَّ وعود الرخاء مسألة صعبة التحقق في أوربا الشرقية ، وهي أكثر صعوبة في بلغاريا فلم تتم خصخصة سوى (٣٤ مؤسّسة) من مؤسسات الدولة الضخمة والمتوسطة الحجم . وحتى هذه المؤسسات التي جرت خصخصتها لم تُدَرْ بوساطة أجيال جديدة ذات فكر جديد . ولكن بوساطة نفس الطبقة الشيوعية التي كانت تحكم كلّ شيء .

أَوضحُ نموذجٍ لهذه الطبقة هو « اليابافلوف » رئيس مجموعة من أكبر المؤسسات البلغارية الخاصّة ، إنّه مصارع سابق ، تزوّج من ابنة رئيس الاستخبارات العسكرية سابقاً ، وقبل ذلك كان يعمل على تزويد الغواصات السوفييتية العاملة في البحر المتوسط باحتياجاتها من خلال إقامته في (مالطا) . إن المؤسسات التي يديرها ، فيها حوالي (٣٥٠٠)

موظف وعامل ، وتمارس أنشطتها في كل شيء تقريباً ، في الزراعة وقطع الغيار للسيارات والسياحة والالكترونيات ، بل وتمتلك (كازينو) ضخماً للقمار في دولة (باراغواي) ـ أمريكا الجنوبية ـ . إنَّ شركاته تلعب اللعبة المزدوجة التي تمارسها كل الشركات الجديدة التي تكوّنت في أوربا الشرقية ، فهم يشترون المواد الخام من شركات الدولة بأسعار بخْسَةٍ بمساعدة أصدقائهم من البيروقراطيين الذين مازالوا يحكمون ، ثم يبيعون المواد المنتجة بأسعار عالية وهم بذلك يكسبون مرّتيْن .

شَغَفٌ بالقراءة :

إنَّ كثرة الكتب وتنوعها تؤكّد ذلك الشغف العالي بالقراءة . وهم يعانون نهماً شديداً لمعرفة كل صنوف المعرفة التي حُرموا منها طويلاً ، وأبلغ دليل على ذلك هو الشغف بكتب (الكمبيوتر) وبرغم أن هذا الأمر قد أصبح نوعاً من الهوَس العالمي إلاّ أنّه في بلغاريا يحتلّ جانباً أكبر فعلى حدّ تعبير « ماجي بتروف » التي تعمل في هذا المجال : (إنّه بالنسبة لنا أشبه بحائط برلين . فقد كنّا طوال السنوات الماضية نتعلّم وفق النظام الشرقي . . إننا نحاول الآن اختراق النظام الغربي بكلّ مافيه من برامج . .) .

ذكريات مرّة ووضع مأساوي :

. . في زيارة قام بها أحد الصحفيين إلى بلغاريا بعد الشيوعية وأحب أن يُقارِن بين زيارته الأولى التي كانت في عام (١٩٨٥م) وبين الوضع الحالي بعد الشيوعية فقال : (في الزيارة الأولى كان الواقع يوضّح بجلاء المحنة التي يعيشها المسلمون في بلغاريا . . كانت هذه هي ذروة سنوات طويلة من الاضطهاد الديني والعرقي ضد المسلمين الذين كانوا يمثّلون

أكثر من ١٧٪ من مجموع السكّان البالغ عددهم حوالي (تسعة ملايين) نسمة هو المجتمع البلغاري . يقول الزائر : أحسست بهذه المحنة حين وقفت أمام المسجد الصغير المغلق بالأغلال الصدئة في مدينة (بالتشيك) . كان منزوياً بمنارته المستدقّة ، والنقوش الباروكية التي تحيط بواجهته ، والنباتات المتسلقة والبرّية تحيط به وتجعله أسير زمنٍ قاسٍ لا يرحم .

أجراس الكنائس كانت تدوّي ، تُقام فيها الطقوس وتُعقد فيها الزيجات ، ويُعمَّد الأطفال وترتفع منها الترانيم مختلطة بأعواد البخور ، والمسجد ، تحيط به ألواح من الرخام مثل شواهد المقابر ، صامتة ومتربة وكئيبة . مكتوب عليها بالحروف العربية أدعية وأسماء وآيات ، وقالت لنا المترجمة ـ في تحدٍّ وتعصّبٍ ـ : (من الطبيعي أن تُفتح الكنائس لأنها هي التي حافظت على شخصيتنا وثقافتنا القومية . أما المساجد فهي لاتذكّرنا إلاّ بأيام الذّل تحت نير الاحتلال التركي) . كان الأتراك العثمانيون قد رحلوا عن بلغاريا منذ قرن ونصف قرن من الزمان ، ومع ذلك فالثّارات مازالت متأجّجة .

في الطريق إلى مدينة (تولنجن) التجارية الشهيرة في الجنوب ، جلسَتْ بجانبي فتاة جميلة . سوداء الشعر ذات ملامح شرقية . قالت بالعربية (والله العظيم) ـ إنها الشيفرة السرّية للمسلمين ـ . اسمها « فاطمة » ولكن عليها أن تخفي هذا الاسم وتتسمّى باسم مسيحي وأن تُعمَّد وتعلن ارتدادها حتى تستطيع أن تعيش آمنة وأن تجد وظيفة ، كان حالها هو حال (٨٠,٠٠٠) مسلم بعضهم من أصل تركي وبعضهم سلافي . في هذه الأيام وقبل حديثي مع « فاطمة » كان أهالي قرية (بابلامونو) المسلمة والواقعة وسط جبال (سانارابالاثينا) في وسط بلغاريا ، قد أعلنوا تمرّدهم في وجه الحكومة المركزية التي كانت

تضطهدهم وتحاصرهم . وعندما فشلت قوات الشرطة المحلية استعانت بالجيش الذي حاصر القرية بالدبابات وقُتل في ليلة واحدة أكثر من (٤٠٠ شخص) ، مذبحة (بابلامونو) أثارت العالم كله وكشفت عن الحقيقة المأساوية التي يعيشها مسلمو بلغاريا ، لقد قتل منهم أكثر من (١٥٠ ألف) شخص وتمّ دفعهم قسراً إلى الحدود التركية بغية التخلّص منهم ، (« فاطمة » كانت يائسة . تحاول أن تجد حلاً في الهروب أو الهجرة أو الاختفاء) .

هل تغيّرت الصورة ؟

.. بعد عشر سنوات من الزيارة الأولى لبلغاريا أي في العام (١٩٩٥م) ، هل تغيّرت الصورة في الزيارة الثانية ؟ هل انطوت صفحات تاريخ الأحقاد الطويلة على كل ما هو مسلم وربطه بكل ما هو تركي بعد انهيار نظام الحكم الشيوعي ؟

التاريخ يعيش بشكل مرعب في وجدان البلغار . تاريخ يغذّيه الإحساس الدائم بأنهم كانوا يستحقّون من الأقدار مصيراً أفضل ، ولكن كل شيء قد تحالف ضدهم حتى تجعلهم دولة أوربية من الدرجة الثانية ، لقد حُرموا من الاستقلال في كل عصورهم ، ولم يستطيعوا أبداً استعادة ـ مايعتبرونه ـ حدودهم التاريخية التي تضم (مقدونيا) ، وكلما أقاموا منارة مضيئة هبّت الريح العاتية وأطفأتها .

مراجعة تاريخية :

في المُتحف الوطني للتاريخ بصوفيا يبدو هذا الإحساس واضحاً . وتزيد الكلمات المترجمة من تأكيده . وان كل الشعوب معجبة بتاريخها ، ولكن في بلغاريا يبدو التاريخ في آثار ضئيلة متناثرة في مُتحف واسع

(نصفه متحف ونصفه الآخر محكمة للأحوال الشخصية) تغلب عليه الظلمة ، آثار قليلة من الصعب استنطاقها بكل هذا التاريخ الطويل . (ولكنّ الأتراك دمّروا كل شيء) . عليك أن تسمع هذا القول دائماً وراء كل سؤال .

.. منذ تاريخ بلغاريا الطويل قد بدأت هواجس بلغاريا الكبرى . بدأ (الخانات) يبحثون عن المزيد من النفوذ والأرض ،.. وكانت الدولة البلغارية الأولى التي قامت بفضل أحد حكامها (خان كروم) عام (٦٨١م) ، وقد ظلت هذه الدولة وثنيّة لمدة عقدين من الزمن ، ثم بفضل « خان بوريس » دخلت إلى المسيحية الأرثوذكسية.. ظلّت الأمور بين أخذ وردّ حتى تأسست الدولة البلغارية الثانية على أنقاض الأولى..وعاشت بلغاريا أياماً سعيدة وأخرى بائسة.. وعاشت في فترات استقلالها القصيرة عهوداً زاهرة أشبه بالأحلام . ازدهرت فيها الآداب والفنون وزيّنت جدران الكنائس بلوحات الفنانين وكانوا أسبق من في أوربا للكتابة باللغة المحليّة . وقد اخترع راهبان هما : « سيرسل وميثوديس » أبجدية خاصة للكتابة هي (السيريلية) التي يكتب بها الآن البلغار والروس والصرب.. وفي المتحف الوطني توجد قاعة خاصّة لكتابة هذه الأبجدية ويوجد بها أيضاً أقدم كتاب بلغاري كُتب بهذه اللغة.. هذا ما بقي من كل هذه الفترات البعيدة..

.. عندما نالت بلغاريا استقلالها وفق معاهدة الصلح الروسية ـ التركية في مارس/ آذار ١٨٧٨م كان عدد المسلمين في بلغاريا أكثر من عدد المسيحيين ، ولكن عمليات الثأر ومصادرة الأراضي والمطاردات لم تهدأ ، بدأت هجرات المسلمين المتوالية هرباً من المذابح ، أغلقت

المساجد ، والمدارس والتكايا ، وساهمت في الاضطهاد أيضاً الاختيارات الخاطئة التي دأبت بلغاريا على اختيارها .

وأخيراً . . .

(. . وبعد زوال نظام الحكم الشيوعي الذي كان محارِباً لكل الأديان ، ومُصادِراً لكل الحريات ، وسجّاناً لكل الأفكار ، هذا النظام الذي كان سبباً في حملات الإبادة والتهجير وإذابة الشخصية لكل معارض ، زال ، وفرح بزواله كل شعب عانى من تطبيقات مبادئه الظالمة القاسية وتحركت مشاعر المظلومين وطافت الأحلام الوردية تُحيي أمل المهجَّر من أرضه بالعودة والذي فارق أهله بجمع شمل أسرته . . الخ من الأحلام والآمال ولكن ماذا تحقق من كل ذلك؟ هل عاد المهاجرون؟ وهل أُزيح التّعصّب أو قلّ في نفوس الحاقدين على المسلمين والإسلام؟ وهل تحسّنت أوضاع المسلمين ؟ .

. . لقد استعاد المسلمون في بلغاريا جزءاً من طقوسهم ، وبعضاً من ثقافتهم وأسمائهم القديمة إلاّ أن الكثيرين منهم قد أصبحوا بلا مأوى ولا بيوت . لقد عاد (١٤٠ ألف) مواطن من أصل (٣٠٠ ألف) مهاجر من الخارج ليجدوا أن بيوتهم وأراضيهم قد ذهبت إلى غير رجعة ، كما أنّه اشتُرِطَ عليهم أَنَّ يقيموا في غير موطنهم الأصلي ، وأن يبدؤوا من جديد!! ، وحتى الذين بقوا نُزعت منهم الأرض كي تُردّ إلى أصحابها القدامى ـ كما يدّعون ـ . ليس هذا كافياً فقط ، إنهم يعرفون أنَّ معظم الفلاحين المسلمين يعتمدون على زراعة التبغ وهم يلعبون بأسعار هذه الزراعة حتّى تنخفض إلى حدٍّ كبير إنَّ هناك قنبلة مازالت متفجّرة ، أساسها سياسة التمييز الدّيني . فالوضع الذي وصلت إليه (البوسنة والهرسك) يثير رعب الجميع ولكنّهم يؤكّدون أنّهم لن يصلوا إلى درجة الانفجار . .

(لدينا تقاليد للتعايش السلمي معاً . .) هذا ما أكّده أحد أعضاء البرلمان من الأصول التركية فدرس البلقان القريب بالغ القسوة . ولكن بلغاريا مازالت على حافّة الأسئلة الصعبة وهي تحاول أن تُعيد ترتيب كل شيء وسوف يكون من الصعب أن نُصدر حكماً قاطعاً وكل النهايات مفتوحة بهذه المشاكل[1] .

تفاهم متبادل :

بعد انحسار النظام الشيوعي عن بلغاريا واتخاذ الحكومات إجراءات تعيد للأقلية المسلمة فيها بعضاً من حقوقها ، هذه الإجراءات أزالت الغيوم المتراكمة على علاقات بلغاريا وتركيا وقرّبت التفاهم على حل أمورٍ معلّقة اختلف البَلَدان عليها منذُ أربعين عاماً فاجتمع سفيرا البلدين في الأمم المتحدة وأصدرا بياناً مشتركاً في (٢٠/ كانون الثاني / يناير/١٩٩٨م) بتوقيع الممثليْن الدّائميْن لبلغاريا وتركيّا لدى الأمم المتّحدة السفير « فيليب ديمتروف » والسفير « حسن . إ . سليم » .

البيان المشترك :

ظلّت مسألة تعيين الحدود في مصب (نهر ريزوفسكا/ مطلودير) وغيرها بين بلغاريا وتركيا عالقة لفترة تجاوزت أربعين عاماً ، وقد نوقشت هذه المسألة في عدد كبير من الاجتماعات الثنائية المعقودة منذ عام ١٩٦٤م .

وفي ٤ كانون الأول / ديسمبر ١٩٩٧م) وقع (مسعود يلماظ وإيفان كوستوف) رئيسا وزراء البلدين الاتفاق المبرم بين الدولتيْن ، وبتوقيع

---

(١) انظر العربي المصدر السابق نفسه .

الاتفاق تكون هذه المسألة التي ظلّت عالقة بين البلدين لفترة طويلة قد سُوّيت ، . . وقد جرى التأكد في الواقع على استعداد تركيا وبلغاريا للتوصّل إلى حلول عادلة ومقبولة للطرفين في المسائل الثنائية العالقة بين البلدين .

اتفاق لحل مشكلات الأقلية التركية :

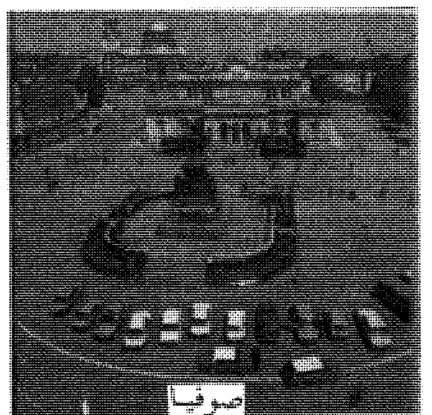
لم تنجح كل دول البلقان بحلّ خلافاتها القديمة . . ولكن المفاجىء هو نجاح بلغاريا في تحقيق هذا الإنجاز . فقد شهدت علاقات بلغاريا بتركيا تحسّناً رائعاً بعد بدء « إيفان كوستوف » رئيس وزراء بلغاريا « ـ ذو العقليّة المنفتحة ـ علاقة صداقةٍ وطيدةٍ في العام (١٩٩٨م) مع نظيره التركي آنذاك « مسعود يلماظ » ، واستمرّ الدفء في العلاقة أيضاً مع خليفة « يلماظ » « بولند أجاويد » في العام ١٩٩٩م .

في العهد الشيوعي كانت بلغاريا تتعامل بشدّة مع الأقليّة التركية ـ ومع غيرها من الأقليّات الإسلامية ، وتحمّلت هذه الأقليّات أشدّ أنواع الاضطهاد ـ وهو ما عرفناه سابقاً ـ . .

وقد عمّت عمليّة إذابة الجليد بين البلدين ، عندما زار رئيس جمهورية بلغاريا تركيا في العام (١٩٩٧م) وقدّم اعتذاراً علنياً عن معاملة بلغاريا لأقليّتها التركية أثناء الحكم الشيوعي وتبع ذلك في عام (١٩٩٨م) تدعيم الصداقة بين « يلماظ وكوستوف » فقد التقيا ثماني مرات خلال أقل من سنة لإبرام اتفاقيات حول كلِّ شيء بدءاً من إلغاء الرسوم الجمركية إلى تعزيز العلاقات بين الفئة العليا من ضبّاط القوات المسلّحة في البلدين . هل يستمرّ هذا الدفء ؟ .

لقد شهدت أقليّة بلغاريا التركية عدة تحوّلات ، فالحكومة البلغارية

حريصة الآن على بناء مساجد جديدة ، وتدريب مدرّسين جدد للغة التركية . وحتى « أحمد دوغان » زعيم حركة الحقوق والحريّات يتشاور هذه الأيام مع الحزب الاشتراكي البلغاري ـ الشيوعي سابقاً ـ حول اتفاق للتقدّم بلوائح انتخابية مشتركة في الحزبين لخوض الانتخابات المحلّية في الخريف المقبل ، وأمر كهذا سيفي حقيقةً دفن خلافات الماضي إلى غير رجعةٍ[١] .





إحدى الساحات المزدحمة في صوفيا عاصمة بلغاريا وكبرى مدنها التي تمثل النمو السريع للمدن البلغارية منذ الأربعينيات من القرن العشرين .

* * *

(١) انظر : المجلة العدد (٩٩٦) ٣/ ١٩٩٩م (ص ٣٨) .

خاتمة

أبحاث الكتاب الثلاثة عرَّفتنا بأحوال شريحة كبيرة من مسلمي البلقان حيث عاشوا أكثر من خمسة قرون في طمأنينة وسلام مع مواطنيهم إلى أن جرت الرياح بغير ما تشتهي سفن الدولة العثمانية التي تحالفت دول أوروبا ضدها وأخرجتها من منطقة البلقان . بدأت معاناة المسلمين في كوسوفا ومقدونيا ثم بلغاريا بعد رحيل العثمانيين . فتعرّضوا لأبشع أنواع القهر والظلم كما تعرّضوا للتنصير والإذابة ومُنِعَ عنهم كل ما يتّصل بالإسلام .

دوَلٌ قامت وأخرى اندثرت ، أحداثٌ ووقائع غريبة عجيبة حدثت في أرض البلقان « سعير أوروبا » ، حروبٌ كثيرة ومفاوضات أكثر ، أمم تشرذمت ، وشعوبٌ تشردت ، والدول الكبرى تضع الحلول لكنها لا تداوي الجروح النازفة ، فتعود الآلام والمعاناة أكثر قساوةً وشدّة .

وبعد لأيٍ . . دارت عقارب الساعة وأزف شروق يومٍ جديد ، لأن الليل مهما طال لابدّ أن ينجلي ظلامه .

بين يومٍ وليلةٍ ، وعشيَّةٍ وضحاها ، جرت أمورٌ أذهلت الناس ! لقد زال الكابوس الشيوعي الرهيب الذي جثم على صدر شعوب البلقان المتعطشة لاستعادة حرياتها المسلوبة ـ ولكن المسلمين كانت واقعتهم أشد وأقسى تحت سيطرة الشيوعية ـ غير أَنَّ بعض الذين تعوّدوا على حبِّ السيطرةِ والزعامة ـ ولو بالقتل وامتهان كرامة الإنسان ـ . لقد تمسّكوا

بجاهلية الشيوعية وهو ما نشاهده ونتعرّف عليها في أحداث هذه الأيام التي تجري على أرضٍ كوسوفا الذبيحة .

كفى المسلمين سباتاً فعليهم أن يستيقظوا ويعوْا دوْرَهم ويعتبرون من كل ما جرى ويجري ليعملوا متكاتفين لإعمار الأرض التي يعيشون عليها ، فالبلد الذي يحتضنهم هو ما ينبغي الارتباط به وبجميع فئات المواطنين ، ولتكن صَحْوَتهم إسلاميّةٌ صادقة لتبرز عظمةَ إيمانهم بدينهم وتسامحهم وتعاونهم على رفع بلدهم إلى مراتب الرقي والفلاح .

ختاماً آمل أنْ ينال كتابي القبول عند قرّائه وأن أكون قد أحسنت فيما قصدت دون تزلّفٍ أو رياء ، وأتوجّه بالشكر لله تعالى المنعم الوهّاب :
﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل : ١٩] آمين .

محمد محمد قاروط

* * *

المصادر والمراجع

١ـ الإسلام والمسلمون في بلاد البلقان، محمد خليفة ط١ مالطا / ١٩٩٤ م

٢ـ أوروبا وتدمير الآخرين، توماس ماستناك (باحث سلوفيني) ت : بشير السباعي ـ مصر العربية للنشر والتوزيع القاهرة / ١٩٩٥ م

٣ـ أوروبا والعصور الوسطى، د . سعيد عبد الفتاح عاشور ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ط١٠ / ١٩٩١م .

٤ـ تاريخ الحرب البلقانية المصور، ٣ أجزاء/ سليم العقاد / ١٩١٣م.

٥ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية ، محمد فريد ـ المطبعة المصرية / ١٨٩٣م.

٦ـ تاريخ الدولة المقدونية، نجيب إبراهيم طراد ـ بيروت ـ المطبعة اللبنانية / ١٨٨٦م.

٧ـ تاريخ سورية الحضاري، د . أحمد داود ـ دمشق / ١٩٩٤م .

٨ـ تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بركلمان ـ ت : نبيه فارس ومنير بعلبكي ـ دار العلم للملايين ط٣ ـ بيروت / ١٩٦١ .

٩ـ التفسير المنير، د . وهبة الزحيلي ـ دار الفكر المعاصر ـ بيروت ـ ودار الفكر ـ دمشق ط١ / ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

١٠ـ تفسير التحرير والتنوير، الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ـ الدار التونسية للنشر تونس / ١٩٨٤م.

١١ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ـ دار الفكر ـ دمشق (دون تاريخ).

١٢ـ التقويم، أكرم العلبي ـ دار المصادر ـ بيروت ـ ط١ / ١٩٩١م .

١٣ـ الحركات القومية في أوروبا، نور الدين حاطوم ـ دار الفكر ـ دمشق / ١٩٨٢م .

١٤ـ دراسات حول الكيان التركي ببلغاريا، جمعية التاريخ التركي ـ أنقرة / ١٩٨٧م .

١٥ـ الدولة البيزنطية، د . السيد الباز العريني ـ دار النهضة العربية ـ بيروت / ١٩٦٨م .

١٦ـ الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، د . عبد العزيز الشناوي ـ مكتبة الأنجلو المصرية / ١٩٨٣ و/ ١٩٩٢م .

١٧ـ رسالة ابن فضلان، تحقيق د . سامي الدهان ط٢ ـ مديرية إحياء التراث العربي بدمشق/ ١٩٧٧م .

١٨ـ على الدانوب، أحمد عطية الله ـ مطبعة الاعتماد بمصر ـ ط١ / ١٩٣٩م .

١٩ـ العثمانيون في التاريخ والحضارة، د . محمد حرب ـ دار القلم ـ دمشق / ١٩٨٩م .

٢٠ـ فتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ بيروت / ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .

٢١ـ فن الحرب الإسلامي (العهد العثماني)، بسام العسلي ـ دار الفكر ـ دمشق / ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

٢٢ـ فهرس المخطوطات العربية في بلغاريا، د . عدنان درويش ـ جـ ١ و٢ ـ وزارة الثقافة ـ دمشق / ١٩٦٩م و/ ١٩٧٤م

٢٣ـ قصة الحضارة، وِل ديورنت ـ ت : محمد بدران ـ دار الجيل بيروت / ١٩٨٨م .

٢٤ـ لمحات من تاريخ بلغاريا، حسن سعيد اللمع ـ مطبوعات دار الثقافة دمشق ـ ط١ / ١٩٨١م .

٢٥ـ مختارات من الشعر الألباني المعاصر، د . محمد موفاكو ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق / ١٩٨١م .

٢٦ـ مأساة المسلمين في بلغاريا، أسيمة جانو ـ مكتبة مدبولي ـ القاهرة / ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

٢٧ـ المسلمون تحت السيطرة الشيوعية، محمود شاكر ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ دمشق ـ ط٢ / ١٩٧٩م .

٢٨ـ مسلمون لاتغرب عنهم الشمس، حامد سليمان ـ القاهرة ـ المكتب العربي للمعارف / ١٩٩٠م .

٢٩ـ المسلمون في آسيا الوسطى والبلقان، د . محمد حرب ـ ط١ ـ مصر / ١٩٩٦م .
٣٠ـ المسلمون في العالم، حامد عثمان ـ ط١ ـ جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ـ ليبيا ـ طرابلس / ١٩٩٠م .
٣١ـ المسلمون في المعسكر الشيوعي، د . علي المنتصر الكتاني ـ رابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرّمة / ١٩٧٣م .
٣٢ـ المسلمون في يوغوسلافيا، محمد محمد قاروط ـ الشركة المتحدة ـ دمشق ـ ومؤسسة الرسالة ـ بيروت ط١ / ١٩٩٤م .
٣٣ـ موجز تاريخ بلغاريا، ت : أحمد سليمان أحمد ـ وزارة الثقافة ـ دمشق / ١٩٨١م .
٣٤ـ نزاعات البلقان والتطهير العرقي، محمد محمد قاروط ـ دار الفتح ـ دمشق ـ ط١ / ١٩٩٧م .
٣٥ـ النزاعات القومية والمحتملة في البلقان، ميشيل منير ـ الأمانة العامة للقيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي ـ دمشق / ١٩٩٢م .
٣٦ـ النزاع اليوغوسلافي، جون زامتكا ـ ت : العميد : نافع أيوب لبس ـ مركز الدراسات العسكرية ـ دمشق / ١٩٩٣م .

الموسوعات :

١ـ دائرة المعارف الإسلامية، خورشيد وآخرون ـ دار المعرفة ـ بيروت (١٥ مجلداً) / ١٩٧٠م .
٢ـ دائرة المعارف، بطرس البستاني ـ دار المعرفة ـ لبنان / ١٩٨١م .
٣ـ دائرة المعارف، فؤاد أفرام البستان ـ (بدون تاريخ).
٤ـ دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي (١٠ مجلدات) دار المعرفة ـ بيروت ط٣ / ١٩٧٣م .
٥ـ المنجد في الأعلام، دار المشرق ـ بيروت ط١٦ / ١٩٨٨م . وط١٩ / ١٩٩٢م .
٦ـ موسوعة السياسة، عبد الوهاب الكيالي وآخرون ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

٧ـ الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة الموسوعة ـ الرياض ـ السعودية / ١٩٩٦م .
٨ـ الموسوعة العربية الميسرة، محمد شفيق غربال ـ ط١ ـ دار الشعب ومؤسسة فرانكلين ـ القاهرة / ١٩٦٥م .
٩ـ قاموس الفكر السياسي، ت : د . أنطون حمصي ـ وزارة الثقافة دمشق / ١٩٩٤م .

المجلات :

١ـ آخر ساعة، العدد ٣٣٤٥/ ك١/ ١٩٩٨م ـ القاهرة .
٢ـ الآداب الأجنبية، العددان ٣٢ـ٣٣ ـ السنة السادسة وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٧٩م .
٣ـ الإسراء، العدد ١٩٠/ صفر / ١٤١٥هـ ـ / آب / ١٩٩٤م .
٤ـ البلاد، العدد ١٧٨ ـ لبنانية/ ١٣ ذو القعدة/ ١٤١٤هـ / ٣نيسان / ١٩٩٤م .
٥ـ البناء، العدد ٩٦٥ ـ بيروت ـ / ٢٧/ ٣/ ١٩٩٩ .
٦ـ التضامن الإسلامي (الحج سابقاً)، مكة المكرمة ـ / ٤/ شوال / ١٤١١هـ / ١٩٩١م .
٧ـ التاريخ العربي، العدد ٧ / صيف / ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م ـ المغرب ـ الرباط .
٨ـ تاريخ العرب والعالم، العدد ١٤٠/ تشرين الثاني/ وكانون الأول / ١٩٩٢م ـ مجلة الجامعة اللبنانية ـ بيروت .
٩ـ الجيل، العدد ٩ / أيلول / ١٩٩١ ـ قبرص .
١٠ـ الرسالة، العددان ٩٦٩ و٩٧٠ القاهرة ـ / ١٩٥٣م .
١١ـ رسالة اليونيسكو، ك١ / ١٩٩٤م منشورات الأمم المتحدة .
١٢ـ زهرة الخليج، العدد ٧٧٨ / رمضان / ١٤١٤هـ / شباط / ١٩٩٤م ـ الإمارات العربية المتحدة .
١٣ـ الشاهد، العدد ١١٣/ شهرية/ شركة الشاهد للنشر/ نيقوسيا ـ قبرص /ك٢ / ١٩٩٥م .
١٤ـ عالم المعرفة، العدد ٦٨ـ الكويت ـ / آب / ١٩٨٣م.

١٥ـ العربي، العددان ٢٧٧ـ٢٨٥ عام / ١٩٨١ م والعدد ٤٤٦ /ك٢ /١٩٩٦م - الكويت .
١٦ـ فلسطين المسلمة، العددان ٤ و٨ / نيسان وآب / ١٩٩٨م ـ عمان ـ الأردن .
١٧ـ لوبوان الفرنسي، الأعداد ١٣٣٢ ـ ١٣٦١ ـ ١٣٦٣ / ١٩٩٨م باريس ـ فرنسا .
١٨ـ المجلة، العدد ٩٩٦ / ٣ / ١٩٩٩م ـ الشركة السعودية البريطانية المحدودة ـ لندن.
١٩ـ المشاهد السياسي، العدد ١٥ آذار / ١٩٩٧م ـ تصدرها إذاعة BBC لندن .
٢٠ـ نور الإسلام، العددان ١٧ ت ١٨ ـ بيروت / ١٩٩١م .
٢١ـ نوافذ، النادي الثقافي بجدة ـ السعودية ـ العدد ٤ / صفر / ١٤١٩هـ وحزيران /١٩٩٨م .
٢٢ـ المعرفة، العدد ٢١٧ ـ آذار / ١٩٨٠م ـ اتحاد الكتاب العرب بدمشق .
٢٣ـ المصور، الأعداد ٣٨٣٤ـ٣٨٤٤ـ٣٨٦٨ ـ تاريخ / نيسان وتموز وت١ /١٩٩٨م مصر ـ القاهرة .
٢٤ـ المسلمون، عدد ٤٧٤ /٨/ ٥/ ١٩٩٢ جدة ـ السعودية .
٢٥ـ معلومات الأسبوع، عدد ٢٢٠ / ٢٤/ ٣/ ١٩٩٨م ـ دمشق .
٢٦ـ ملف الأهرام الاستراتيجي، العدد ٥١/ آذار / ١٩٩٨م القاهرة .
٢٧ـ الوسط، العدد ٣٦٥ في ٢٥/ ١ / ١٩٩٩م ـ المكتب الرئيسي لندن .

الصحف العربية :

١ـ الأخبار، مصر ـ القاهرة / ٢/ ٨/ ٨٩
٢ـ إذاعة مونتي كارلو، ١٨/ ١٢/ ١٩٩٤م .
٣ـ الأهرام، مصر ـ القاهرة / ٤ / ٦ و/ ١٤/ ٦/ ١٩٨٧م .
٤ـ حول العالم، برنامج من تلفاز دمشق ـ صيف ١٩٩٥م .
٥ـ الحياة اللبنانية، العدد١٠٧٧٩ ـ ١٤/ آب/ ١٩٩٢ و١٣١٦٨ ـ ٢٧ / آذار / ١٩٩٨ .
٦ـ تشرين الدمشقية، العدد ٥٩٠٣ في / ٥/ ٤/ ١٩٩٤م .
٧ـ القبس الكويتية، ٣٠/ ٦/ ١٩٨٩م .
٨ـ اللواء الأردنية، ٢ /٨/ ١٩٨٩م .

صحف أجنبية :

- انتر ناشيونال هرالد تربيون - الأندبنددت في ١٠/ ٧/ ٨٩ - التايمس اللندنية ٢٧/ ٦/ ٨٩ - دير شبيغل الألمانية ٤/ ٩/ ٨٩ - شتوتغارت ٢٧/ ٦/ ٨٩
- ميدل است جورنال / ١٩٨٩م - نيويورك ستي تربيون / ٦/ ٧/ ٨٩ - واشنطن بوست وول ستريت جورنال ١١ / ٧ / ٨٩ .

نشرات أجنبية :

١ـ نشرة إعلامية لجمهورية كوسوفا، عمّان ـ الإردن.
٢ـ نشرة الاتحاد الإسلامي في مقدونيا، ١٩٩٦ .
٣ـ نشرة الاتحاد الإسلامي في كوسوفا، مدرسة علاء الدين / ١٩٩٨ م .
٤ـ نشرة الاتحاد الإسلامي لمدوجا، وبويانوفس وبريشيفا ١٩٩٨ .
٥ـ نشرة الأمم المتحدة، للدورة ٥٢ في / ١٩٩٧م.
٦ـ نشرة الجماعة الأوروبية (إيكهو)، نشرة المساعدات الإنسانية / لكسمبورغ/ ١٩٩٤م .
٧ـ الهلال المقدونية، في آيار ١٩٩٣ .

* * *

المحتوى

البحث الأول
كوسوفا بين الألم والأمل

البحث الثاني

مقدونيا بلاد الإسكندر الكبير

البحث الثالث

البلغار ودولة بلغاريا

* * *